

تفسير ابن بَرَّجَان

المستقى

تنسيب الأفراسام

إلى نَدْبِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ
وَتَعْرِفُ الْآيَاتِ وَالنَّبَأَ الْعَظِيمِ

تصنيف

إمام السارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن بَرَّجَان الأندلسي

للتوفى ٥٣٦ هـ

محققه ومطبعة مصر

الشيخ أحمد فريد الزيد

المجلد الثاني

أول سورة النساء - آخر سورة يونس

مستقورات

مجمع عالي بضمير

دار الكتب العلمية

DKi

بيروت - لبنان

تفسير ابن برجان

تنبيه الأفسام
إلى نذر الكتاب الحكيم
وتعرف الآيات والنبا العظيم

تصنيف

الإمام العارف بالله تعالى عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد

ابن بزمان النخعي الأسدي

المتوفى ٥٣٦ هـ

تحقيقه وتعليقه وتخرجه

الشيخ أحمد فريد المنزدي

المجلد الثاني

أول سورة النساء - آخر سورة يونس



دار الكتب العلمية

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah

DKI

أسستها من مخطوطات بيروت سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban



boydoun@al-ilmiyah.com

sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

http://www.al-ilmiyah.com

Title : TAFSIR IBN BARRAJAN

AL-MUSANNAFA
TAFSIR AL-IFRAN ILA TANAHIN
AL-BAYT AL-QADIM WA TANAHIN
AL-BAYT AL-QADIM

THE EXEGESIS OF IBN BARRAJAN
OF THE HOLY QUR'AN

الكتاب : تفسير ابن برّجان
المسمى: تنبيه الألفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم
وتدبر الآيات والتبأ العظيم

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of The Holy Qur'an

المؤلف : الإمام عبد السلام بن عبد الرحمن ابن برّجان (ت 536 هـ)

Author : Al-Imam Abd As-Salam ben Abd
Ar-Rahman ibn Barrajan (D. 536 H.)

المحقق : الشيخ أحمد فريد المزيدي

Editor : Ash-sheikh Ahmad Farid Al-Mazidi

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages (5 Volumes) 2880 **عدد الصفحات** (5 مجلدات)

Size 17*24 cm **قياس الصفحات**

Year 2013 A.D. -1434 H. **سنة الطباعة**

Printed in : Lebanon **بلد الطباعة :** لبنان

Edition : 1st (2 colors) **الطبعة :** الأولى (لونان)

Exclusive rights by © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beirut-Lebanon No part of this publication may be
translated, reproduced, distributed in any form or by any
means, or stored in a data base or retrieval system, without
the prior written permission of the publisher.

Tous droits exclusivement réservés à © **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**
Beyrouth-Liban Toute représentation, édition, traduction ou reproduction
même partielle, par tous procédés, en tous pays, faite sans autorisation
préalable signée par l'éditeur est illicite et exposerait le contrevenant à
des poursuites judiciaires.

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار الكتب العلمية
بيروت-لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تضيق الكتاب
كاملاً أو مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً.

**Dar Al-Kotob
Al-ilmiyah**

Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.O.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عروم، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: +٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٥﴾ وَأَتُوا النِّسَاءَ صِدْقَتِهِنَّ فَخَلَّةٌ فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ
 قَسَا فَاكْلُوهُ هِنْكَامٍ يَتَا ﴿٦﴾ وَلَا تُوْثَرُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالُكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ
 وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْفُوعًا ﴿٧﴾ وَأَبْلُوا إِلَيْكُمْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ
 أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
 بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٨﴾ [النساء: ١ - ٦].

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ
 وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾^(١) إلى قوله جل قوله:
 ﴿رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] أمر الله تبارك وتعالى عباده أن يتقوه في اجتناب مناهيه، والعمل
 بما يرضيه، وتعرف ﷺ إليهم بأنه خلقهم.

وفي ضمن ذكره أنه خلقهم هو الذي رزقهم ويقوم عليهم، ثم يميّتهم ثم
 يحييهم، ثم يجازيهم بأعمالهم خيرا وشرها وصف نفسه ﷺ بمحض الوجدانية،
 فهو الواحد خلق واحداً، صوره أحسن تصوير خلق من ذلك المخلوق زوجه واحداً
 أشبهه كافله وعائله، أولهما هو المخلوق منه، وهذا مقوم عليه معول مفصول مكفول
 وأنثى.

فاعلم بهذا الخطاب أن الكثرة عن الوحدة انفصلت وإليها ترجع، وأن الأول
 هو الفاضل والمؤخر هو المفضول، فيجمع ذرية آدم ﷺ وزوجه عن آدم، وأن
 الأنواع وإن تكثرت فإنها ترجع إلى الجنس، وأن الأجناس فوق ذلك تكون أنواعاً
 لجنس واحد يجمعها؛ لذلك قال الله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

فأول ما أوجد الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من شيء، فهو النور أوجده ﷻ عن
 نوره العلي النزيه الرفيع، ثم أوجد له ضدًا وهو الظلام أوجده جل ذكره عن معنى
 متوهم، أوجده ﷻ إرصادًا للمحنة التي قدرها، والبلوى السابقة في علمه بها حكمة

(١) روي عن النبي ﷺ أنه قال عند نزولها عليه: «خُلِقَتِ الْمَرْأَةُ مِنَ الرَّجُلِ فَهَمَّهَا فِي الرَّجُلِ،
 وخلق الرجل من التراب فهَمُّهُ فِي التُّرَابِ». [النكت والعيون (١/٢٧٢)].

بالغة له في إتمام كلمته ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وهذا المعنى المتوهم لا وجود له في الحقيقة، وإن كان الله جلّ ذكره قد أثاره في أثناء الخليفة، وهو ما عبّر عنه حرف النفي من قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك» وهو أيضًا ما عبّر عنه ما سبّح عنه نفسه وتعالى عنه، وهو مستحيل الوجود معبر عن عدمه معرب عن استحالة وجوده في أكثر أنواع الأذكار، كقوله جلّ قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ [الإسراء: ٤٢].

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأُصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ [الأنبياء: ١٧].

هذا وشبه هذا مما قد شهدت به الشواهد، وأصفق جميع الوجود على الإجماع باستحالة وجوده ووجوب عدمه، فخلق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من خالص النور ما شاء، وأوجد عن ذلك الظلام ما شاء، ثم من ممتزجها ما قد سبق به كتابه ووسعه علمه، فهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد، خلق واحدًا، أوجد عن ذلك الواحد واحدًا أوجد عنهما الكثرة العليم الحكيم.

فصل

في هذا الخطاب إيماء وتعرّض بالحض، بل بالإيجاب باعتبار خلقه جملة المخلوقات، فمن حيث هو فاعلها وصانعها وخالقها دلّ على وجوب وجوده العلي ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، كما دلت الكتابة على الكاتب والبناء على بانٍ والفعل على فاعل، ثم دلّ بذلك على أن المفعول الجزئي لا يشبه فاعله، كما لا يشبه البناء بانيه، ولا الكتابة كاتبها؛ إذ هي أنواع لا تمام فيها سوى أنها مفعولات فقط، فقد أعطت من الدلالة دلالة على وجود الفاعل، لكن الباطن الناظر يحتاج أن يضيف إليها نظيرًا آخر، أو لما صعدت الموجودات إلى أجناس دلت بحياتها، على أن فاعلها حي ليس كمثله شيء، وبعلمها على أن فاعلها عالم وإيرادته قدرها، ونحو هذا كله صفة ومعنى على ما كانت عنه، ومن هو موجود له، ومنه وهو الحق أوجده

على الحق.

قال الله ﷻ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»^(١) مسلماً مؤمناً كالعالم الكلي سواء، فكل مكفول ومفعول، فناقص غير تام، وكل ما في العالم كذلك، فهو فقير إلى خالقه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، مفصول آخر عن أول هو خالقه وجاعله ومصوره، وهو القائم عليه الكافل له، سبحانه وله الحمد.

فصل

إذا كان النظر في أبعاد الموجود الكلي، فإن أول وجود العقل من العلم وجود صانع الصنعة كما تقدم، ولا تشبه الصنعة صانعها، بل غاية كمال المفعول أن يكون بعضاً للكلي، وأن يشبه فاعله الأدنى في أنه جزئي من أفعال الفاعل الجزئي، شيء يشبه إلا ما كان منه على سبيل البنوة والنسل، وهو فعل سُخر له واضطر إليه، وهو مفعوله الكلي بالإضافة إليه، فإذا المفعول لا يشبه فاعله إلا إذا كمل، ثم هو لا يشبهه من كل الجهات، وفاعله الحق هو الفاعل الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأمر نازل من عنده، وحلم جزم؛ ليتم بذلك كلمته، ويظهر أمره وخلقه ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩].

وهو آية على مفعوله الفاعل الأعلى ﷻ مفعوله الكلي ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] خلقه بالحق وأوجده بالحق، وكل ما يفعل إليه المفعول الكلي فأبعاد وأجزاء يكمل بها الكلي. وكمال الجزئيات أن تكون معدة؛ ليكمل بها المفعول الكلي باجتماعها، أو على صورة ما هو مفعول كامل.

قال رسول الله ﷺ: «تربت يمينك ومن أين يكون الشبه؟»^(٢).

(١) أخرجه البخاري (٢٤٢٠) ومسلم (٢٦١٢) وعبد بن حميد (٩٠٠) والدارقطني في الصفات (٤٨) وعبد الله بن أحمد في السنة (٤٩٨) واللالكائي (٧١٦) والدليمي (٧٣٠٩).

(٢) أخرجه مالك (١١٥) والدارمي (٧٦٣) وأبو داود (٢٣٧)، والنسائي في الكبرى (٢٠٣) وابن

جعل الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه ما تقدم ذكره دلالة كلية على التوحيد الأعلى والإسلام الأرفع واليقين الأتم، ثم ما جعله الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه من أجزاء هذا الكلي وأبعاضه، وأجزاء أجزائه مما لم يؤم بعضها بعضاً منها إليها من منتهاه إلى أسفل إلى منتهاه الأعلى، جعل ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه أيضاً ذلك دلالة على النبوة والرسالة والاختصاص والاصطفاء، فإذا كمال المفعول الكلي أن يكون على صورة فاعله، كالجزئي كماله أن يكون بعضاً للكلي كالعضو الجزئي من الجزء.

فصل

الموجود الجزئي مسخر له أبعاض الكلي عاطفة عليه أعضاؤه ومعاطفه، وما بين ذلك غذاء له ينشئه منشئه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ويأوله إليه صورة وذاتاً، ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨] وليظهره في صورة الحق المفعول عياناً ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * قَوْرَبِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢١ - ٢٣].

وكما أننا نطق حقاً لا مرية في ذلك، فكذلك ما نحن بسبيل تبيانه لا مرية فيه، فافهم.

فقد تبين بما تقدم ذكره أن الدنيا نبذة من الآخرة صورت على صورتها سرائها وضرائها، لكن على المزج والتقليل، وإن الذي يكون عن الماء ينزل من السماء إلى الأرض من جنات وعيون وزروع، ومقام كريم شبيه بما نُزل عنه، وكذلك في القسم الآخر ما يكون من سموم حر وزمهرير بتوابع ذلك كله.

قال رسول الله ﷺ: «اللجنة أقرب إلى أحدكم من شسع نعله والنار كذلك»^(١).
والله ورسوله أعلم إلى فيح جهنم بنفسها المأذون لها فيهما، وقد تقدم ذكر

حيان (١١٦٦).

(١) تقدم تخريجه.

هذا فتبارك الله أحسن الخالقين، ما أحسن ما أوجد وأتقن ما خلق وأحكم، اللهم يا ذا الجلال والإكرام فهمنا عنك، ثم استعملنا بالذي يرضيك عنا.

فصل

المفهوم مما تقدم ذكره أنه ﷺ الطاهر الطيب القدوس السلام المؤمن المهيم ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لم يزل على ذلك، ولا يزال أوجد ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه مخلوقاته جمعاً مما أوجد من أجله فوجوده حق محض، له المحامد كلها أوصاف وخلق.

كما قال عز من قائل: ﴿وَاضْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

﴿وَلِئَلْضَعَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩].

﴿وَإِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] وما أوجده ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه لا لأجله، فهو خلق له ومقدور ليس لأجله ولا بتوليه إياه، فكذلك لزمه البعد وانضاف إليه المذام على قدر ما لزمه من هذا الوصف.

قال رسول الله ﷺ: «من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه»^(١) فافهم وألقن، فإنه من لم يستدل على المعرفة بربه بصنعه لنفسه، فلم يعرف الله إلا بالاسم لا بحقيقة المعنى الذي دعا إليه، وهو معنى قول رسول الله ﷺ: «أعرفكم بالله أعرفكم بنفسه»^(٢).

قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] و﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] وتسميتهم بالناس، وسمى واحدكم إنساناً، والجنس منهم ناس، ما معنى ذلك الذي إليه أن يكون مسلماً مؤمناً عالماً حكيماً براً رحيماً عفواً غفوراً كريماً سخياً شكوراً، هكذا ثم على نحو التعبد بها في الأسماء.

وأما المعرفة التي تحصلت قبل هذا، ففي قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٢٠٨/١٠).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٢١٩/٣)، وهو قول عن بعض السلف.

[الانفطار: ٦ - ٨].

وفي قوله جلّ قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤] أي: على علم الفطرة وصورة الحق، فإن كان مؤمناً مسلماً صادقاً براً ووصولاً سخياً كريماً إلى غير ذلك، فهو وإن كان كاذباً كفوراً بما يتبع ذلك من أسماء وصفات، فذلك الذي رده إلى أسفل سافلين، وإن كان على المحمود هو ما دعاه إلى ولاه ونسبه إليه، وكان معه كما تقدم.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أن الناظر في كتاب الله ﷻ ربما اضطر عند تفهم المراد من سرّ أثناء الخطاب إلى ألا يعتمد على ترتيب أبيته، ولا يركن إلى إعراب اسم ضرورة يجدها عند مطالعة التحقيق، ومبادئ أسماء ورؤوس معاني تتلقف الفهم عن إشارات مبادئ الخطاب.

وقد تقدمت إلى هذا المعنى إشارة فيما مضى؛ وذلك عن أمانة حال عبّر عنها قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٦] - [١٧] فيما بين هذه الحال من متلقف الوحي، وبين الحال التي عبّر عنها بقوله جلّ قوله: ﴿فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَبَعَ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] حال قراءته امتزج ما ظهر منه للفهم بما لم يظهر بعد، وربما بدت لذلك جملة وخفيت أوائله، وقد تقدمت إلى نحو هذا إشارة، وإن كان التوجه فيما هذا سبيله غير المتوجه إليه بما عرضت إليه فلتقتصر. انتهى.

اختلف السلف - رحمهم الله - في المعنى الذي أوقع هذا الاسم على هذا الجنس من أجله؛ فقال منهم قائلون: إنه من النسيان، وتمثلوا في ذلك بقول بعضهم:

وَسُمِّيتْ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِي

وعولوا في إثباته على قوله جلّ قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتْسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] واستمرت لهم الشواهد من معهود النسيان، ووجوده في الإنسان نسيان ترك ونيسان ذهول، وزوال ذكر المنسي بعينه.

وقال آخرون: هو مأخوذ من الحركة يقال من ذلك: ناس ينوس نوساً إذا تحرك، والفاعل منه: نائس ونواس على التكثير، واستمرت لهم أيضاً بذلك الشواهد

بالوجود، والخبر بأن الإنسان لا بد متحرك إما ظاهراً وإما باطناً، أو بكليهما ما دام حياً بوجه.

حجته في ذلك إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فأخبر أن الإنسان بما هو في حركة ما قولاً أو فعلاً أو لهما معاً، وبما هو إنسان مكلف هو في خسر ما لم يكن ذلك منه عن إيمان بالله ورسوله واقتداء، وهذا هو المستثنى بقوله ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣].

ومن ذلك: ما ذكر أن الخضر أوصى موسى - عليهما السلام - وقد سأله عن ذلك، فكان مما قال له: «يا موسى اعمل خيراً، فإنك لا بد عامل شراً» وهذان الوجهان معاً وإن كانا موجودين في الإنسان، فإنه لا يتم وصفه إلا بالوجه الثالث، وهو بأن يكون مأخوذ من الإنس، وبذلك سمي الجنس.

وعلى ما تقدم من اعتقاد المقاربة قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وشواهد هذا في معهود الخطاب كثيرة جداً، فتارة يبدو ممتزجاً بمعنى التويخ، وتارة باستدعاء وتلفظ ونصيحة ممتزجة بمعاني ما تقدم ذكره من النسيان والغفلة، وغير ذلك كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ...﴾ [فاطر: ٥] حيث كان كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

فهو - أعني: الإنسان - إن لم يأنس بربه أنس بسواه لا محالة، الأنس على ما تقدم [.....]^(١) تذكر بأولية منبهة على خصوصية الاتصال إلى قرب محل، كيف خلقه من تراب ممتزج بالماء، والتراب من الأرض الموصوفة بالتمهيد والاطمئنان، والماء من السماء وحده طهوراً وبركة ورحمة، وكان عرشه على الماء، والماء على الهواء، والهواء على الروح، والروح على الروح ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾

(١) في الأصل، تقرأ: [عهدها كبيرة].

[الأنبياء: ٣٠].

وخلقه يوم خلقه ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه بيده، ونفخ فيه من روحه وأسكنه في جواره، واستخلفه في أرضه، ونوّه به في الملائ الأعلى وباهى بعلمه فيما هنالك، ووالى فيه وعادى فيه، ولما أخطأ عفا عنه، وأعد له كرامة ذكر بها قبل إيجاده إياه، وهذه معاريف منه جلّ ذكره بإيصال حبله بحبل خالقه ورازقه ومصوره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم عن هذه الثلاثة الأوجه تنبثق علوم عليّة بشواهد عليها سوية، منها خافية ومنها جلّية على معاملات القلوب وحب المحبوب، وجهاد العدو ومكابדתه بالجوانح والجوارح، ومعرفة اللمتين واتصاله بتعليم ومحادثته، وإلهام وتكليم، وإلطف وإكرام، أو بُعد وحجب، نسأل الغفور الرحيم معافاته ورحمته.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال جلّ قوله في موضع آخر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الزمر: ٦] نصّ تعالى على أن كل زوج من كل جنس هو سكنه وبه أنسه؛ لأنه منه خلقه وعنه أوجده وفصله، والمخلوق الموجود عن أوله هو موجود مخلوق لخالقه فصله عن أوله الذي هو زوجه، هذا على العموم في كل الخليقة، وقد مضى من ذكر هذا ما يغني عن ترداده.

فالأول الذي هو الروح الثانية المنتزع منه تحب ما انتزع عنه وفصل منه؛ لأنه بعضه، ومحبته ليعقبه على التحقيق محبة لنفسه، هذا مثال لمحبة الوالدين ولدهما، وأماً محبة الزوج المنتزع المفصول عن أوله محبة لما هو عنه موجود هو أول له، فمحبته من قبل محبة الغريب وطنه.

مثال هذا: محبة الولد لوالديه، والله المثل الأعلى، محبة الخالق المخلوق، وثمّ محبة المولى العلي الأعلى عبده الولي.

شاهده: قول رسول الله ﷺ: «الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل ضلت ناقته

في أرض فلاة عليها طعامه وشرابه...» إلى قوله: «أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»^(١).

وقوله ﷺ: «الله أرحم بعبد من والدته حلت بولدها في أرض مظلمة، فأرادت أن تضجعه بيدها إلى الأرض؛ لتتظر إن كان بها عقرب أو حية أصابتها دونه، فאלله أرحم بعبد من هذه المرأة بولدها»^(٢).

ومصدق قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤] ومن هنا تتعرف الفردانية، فهو المفرد الحق أولاً وآخراً، لا يزدوج إلى شيء ولا كمثل شيء.

ثم عبرة الثاني: محبة العبد ربه محبة العبد الولي لربه العلي الأعلى، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] بنصب الميم وخفضها، أما النصب فبحذف فعل تقديره: «واتقوا الأرحام أن تقطعوها» وإنما يكون قطعها بالفساد في الأرض والكفر بالله ولزوم المعاصي جهاراً، فلا يجوز لمؤمن الموالاة على ذلك.

وأما بالخفض فتقديره: «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» والوعيد هنا على قطع الأرحام، والتحذير من ذلك تعريض بالناس من شفاعة المؤمنين يوم القيامة عند جواز الصراط للعاصين إخوانهم المؤمنين، يوم يحملون أوزارهم على ظهورهم.

والصراط أحد من موسى وأرق من الشعرة، وقبله وبعده على ضفتي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - ضحضاح النيران، ما يبلغ الركبتين والفخذين والحقوين والحسك بين الأرجل، وشوك كشوك السعدان، ولا واقى من عذاب الله ﷻ سواه.

وأهل الجنة قد ضُفوا على ممرهم قد نجاهم الله بمفازتهم، فيعرف أحدهم المؤمن فيقول: أتعرفني ألسنت الذي وهبتك يوم كذا وكذا وضوءاً؟ ويقول الآخر:

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٢٧٥٤) بنحوه.

ألست تعرفني يوم كذا وكذا إذ نفعتك في كذا؟ ويقول الآخر: أتذكر يوم كذا إذ نصرتك؟ ويتعرفون للمتقين فيعرفونهم، فيقول أحدهم لمخاطبه: سألتك بالله وبالأرحام؛ ألا ما شفعت في اليوم فيشفع فيه، فيستشفع.

فذكرهم رب العزة بسؤالهم بعضهم بعضاً وبالله وبالأرحام، وتوقير أهل التقوى ورؤية الحق لهم، واتخاذ اليد عندهم، وتقديم المعروف إليهم عدة لذلك اليوم، والخفض إعلام منه ﷺ أنهم يتساءلون بالله وبالأرحام يومئذ، فيكون ما تقدم ذكره تعريضاً.

أعقب ذلك قوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] هو الرقيب في الدنيا، وشهيد الحكم في الآخرة إن الله كان عليكم في الدنيا رقيباً، من أحسن منكم إلى أوليائه أو أساء.

فصل

التقوى من الوقاية، وهو ما تقي به نفسك، وما هو منك ولك، وهي على ضربين:

تقوى يُتقى بصلاح الأعمال فسادها.

وتقوى يُتقى بها الله ﷻ، وأصله الحذر والخوف.

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣١ - ١٣٢].

وقال جلّ قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وأمر ﷺ بالتقوى وأبدى فيها وأعاد، وهي وصيته في الأولين وعهد إلى الآخرين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] وهي قاعدة صفات المؤمنين وأعلى نعوت المؤمنين والأولياء الموقنين، وبها تصح المقامات، وترفع الدرجات وتحقق الصفات.

وقد جعلها الله مبدأ نعوتهم فبدأ بها - جلّ وتعالى - في مفتتح التنزيل، فقال جلّ قوله: ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ - ٢] الذين

من وصفهم مجانية المحرمات، ومفارقة الشهوات والمشتبهات، ومباعدة الإصرار على السيئات، وهو رقيباً لله ﷻ في قلوب أوليائه، يحبهم ﷻ بذلك على الارتقاء في الدرجات في أول مقام وفي أعلى مقام، وفي أول كل نفس وفي آخر كل نفس، حتى إنهم إذا هم أحدهم بسوء أو هم قاربهم لاحظ في الشاهد المشهود أو شهد في البينات في الوجود المطلوب، فاجأته التقوى ببيان التقدير قائلة له: إياك ثم إياك، أو تلك عظة الله في قلب كل مؤمن، هم درجات عند الله كما قال قائلهم:

ما إن ذكرتك إلا خالطت فكري هم الحشى وهو سري عند ذكراكا
حتى كأن رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكاري إياكا

وأول التقوى: تقوى الشرك والكفر بالله ﷻ ظاهراً وباطناً، وذلك أول الهداية، فإذا اتقى جملة المناهي صار بذلك من أهل الولاية، ثم إذا اتقى هواه صار أمره غاية ونهاية.

وأفة التقوى: الغفلة.

وسببها: الميل إلى الدنيا والركون إليها، وذلك بسوء الغفلة عن التقوى في التقوى.

عبرة:

قد تقدم توهم الجملة وتشبهها بالسفينة بوجه، وبرجل قائم يصلي بوجه، عابد لربه قانت مراقب لرفيقه بوجه، فأنت إن أردت العبادة العظمى الرفيعة ورفيع التقوى والقنوت العلا، فاترك نفسك مفرداً مع ربك حتى كأنه لا ينظر إلا إليك ولا يراقب سواك، وإنه لكذلك؛ إذ قد تحقق العلم بأنه لا يشغله شيء عن شيء، وأنت الجزئي المشبه بذلك الكلي قد أحاط بك علمه وقدرته، وقدره وتديره، وحفظه وإمساكه في ظاهرك وباطنك وأولك وآخرك، به حولك وقوتك وحركتك وسكونك، وله جميع أمرك، فأنزل نفسك مع ربك منزلة المتوهم الذي لا يخاف غيره، ولا تُرائي بعمله؛ إذ الغير فيما هنالك معدوم إنما هو نفسه وربّه.

فكذلك أنت مع ربك مفرداً لشأنك لا تملك بذلك سواه نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاتكل عليه واعبد وحده كما خلقت وحده، وأفرده

بعبادتك كما أفردك بشأنك وراقبه وحده وخفّه وحده وعظّمه وحده، فهو أقرب إليك منك إليك، كما تقدم في إيمانك بالكلّي مع خالقه العلي العظيم، فمتى صليت فاستشعر هذا.

ومتى نويت نية، أو توجهت وجهة أو ذكرته، فتوهم المذكور وقد أحاط بك إحاطته بالكلّي، حتى كأنه ليس بحضرته مخلوق سواك، بل توهم أنك لا بمكان يحيط بك ولا زمان ولا كيف، ولا تابع من توابع المخلوقات سواء أمر ربك كالكلّي، واستشعر من الأذكار أظهرها عظمة، ومن القرآن العزيز أعظمه كآية الكرسي وسورة الإخلاص، وما كان في معنى ذلك، واستغن بالله يُغنك عن سواه، واستعن بالله يعنك، والله أسرع إليكم منك إليك، فأيقن بذلك واستشعره واسأله إياه، وتضرع إليه فيه، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷺ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ....﴾^(١) إلى قوله:

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قال الله ﷻ: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ فيه خمس مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ وأراد باليتامى الذين كانوا أيتامًا، كقوله: ﴿وَأَلْفَيْ السَّحْرَةِ سَاجِدِينَ﴾ ولا سحر مع السجود، فكذلك لا يتم مع البلوغ، وكان يقال لليتيم ﷺ: «يتيم أبي طالب» استصحابًا لما كان، ﴿وَأَتُوا﴾ أي: أعطوا، والإيتاء الإعطاء، ولفلان أتوا، أي: عطاء، أبو زيد: أتوت الرجل أتوه إناوة، وهي الرشوة، واليتيم من لم يبلغ الحلم، وقد تقدم في البقرة مستوفى، وهذه الآية خطاب للأولياء والأوصياء، نزلت في قول مقاتل والكلبي في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم، فلما بلغ اليتيم طلب المال فمنعه عمه، فنزلت، فقال العم: نعوذ بالله من الحوب الكبير! ورد المال، فقال النبي ﷺ: «من يوق شح نفسه ورجع به هكذا فإنه يحل داره» يعني جنته، فلما قبض الفتى المال أنفقه في سبيل الله، فقال ﷺ: «ثبت الأجر وبقي الوزر» ف قيل: كيف يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «ثبت الأجر للغلام وبقي الوزر على والده» لأنه كان مشركًا. الثانية: وإيتاء اليتامى أموالهم يكون بوجهين: أحدهما: إجراء الطعام والكسوة ما دامت الولاية، إذ لا يمكن إلا ذلك لمن لا يستحق الأخذ الكلّي والاستبداد كالصغير والسفيه الكبير، الثاني: الإيتاء بالتمكّن وإسلام المال إليه، وذلك عند الابتلاء والإرشاد، وتكون تسميته مجازًا، المعنى: الذي كان يتيمًا، وهو استصحاب الاسم، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْفَيْ السَّحْرَةِ سَاجِدِينَ﴾ أي: الذين كانوا سحرة، وكان يقال لليتيم ﷺ: «يتيم أبي طالب» فإذا تحقق الولي رشده حرم عليه إمساك ماله عنه وكان عاصيًا، وقال أبو حنيفة: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة أعطي ماله كله على كل حال؛ لأنه يصير جدًا، قلت: لما لم يذكر الله تعالى في هذه الآية إيناس الرشد وذكره في قوله تعالى: ﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَىٰ

حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ قال أبو بكر الرازي الحنفي في أحكام القرآن: لما لم يقيد الرشد في موضع وقيد في موضع وجب استعمالهما، فأقول: إذا بلغ خمسًا وعشرين سنة وهو سفیه لم يؤنس منه الرشد، وجب دفع المال إليه، وإن كان دون ذلك لم يجب، عملاً بالآيتين، وقال أبو حنيفة: لما بلغ رشده صار يصلح أن يكون جدًّا فإذا صار يصلح أن يكون جدًّا فكيف يصح إعطاؤه المال بعلقة اليتيم وباسم اليتيم؟! وهل ذلك إلا في غاية البعد؟! قال ابن العربي: وهذا باطل لا وجه له، لا سيما على أصله الذي يرى المقدرات لا تثبت قياسًا، وإنما تؤخذ من جهة النص، وليس في هذه المسألة، وسيأتي ما للعلماء في الحجر إن شاء الله تعالى. الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْثَ بِالطَّيِّبِ﴾ أي: لا تبدلوا الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة، ولا الدرهم الطيب بالزيف، وكانوا في الجاهلية لعدم الدين لا يتخرجون عن أموال اليتامى، فكانوا يأخذون الطيب والجيد من أموال اليتامى ويبدلونه بالرديء من أموالهم، ويقولون: اسم باسم ورأس برأس، فنهاهم الله عن ذلك، هذا قول سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك وهو ظاهر الآية، وقيل: المعنى لا تأكلوا أموال اليتامى وهي محرمة خبيثة وتدعوا الطيب وهو مالكم، وقال مجاهد وأبو صالح وبازان: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، وقال ابن زيد: كان أهل الجاهلية لا يورثون النساء والصبيان ويأخذ الأكبر الميراث، عطاء: لا تبيع يتيملك الذي عندك وهو غر صغير، وهذان القولان خارجان عن ظاهر الآية، فإنه يقال: تبدل الشيء بالشيء أي أخذه مكانه، ومنه البدل. الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ قال مجاهد: وهذه الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ بقوله: ﴿وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ فَإِنْ خَوَّانَكُمْ﴾ وقال ابن فورك عن الحسن: تأول الناس في هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: إن «إلى» بمعنى مع، كقوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وقال الحذاق: «إلى» على بابها وهي تتضمن الإضافة؛ أي: لا تضيفوا أموالهم وتضموها إلى أموالكم في الأكل، فنهوا أن يعتقدوا أموال اليتامى كأموالهم فيتسلطوا عليها بالأكل والانتفاع. الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: الأكل ﴿كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثمًا كبيرًا، عن ابن عباس والحسن وغيرهما، يقال: حاب الرجل يحوب حوبًا إذا أثم، وأصله الزجر للإبل، فسمي الإثم حوبًا؛ لأنه يزجر عنه وبه، ويقال في الدعاء: «اللهم اغفر حوبتي» أي: إثمى، والحوبة أيضًا الحاجة، ومنه في الدعاء: إلبك أرفع حوبتي، أي: حاجتي، والحوب الوحشة، ومنه قوله ﷺ لأبي أيوب: «إن طلاق أم أيوب لحوب» وفيه ثلاث لغات «حوبا» بضم الحاء وهي قراءة العامة ولغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن «حوبا» بفتح الحاء، وقال الأخفش: وهي لغة تميم، مقاتل: لغة الحبش، والحوب المصدر، وكذلك الحياة، والحوب الاسم، وقرأ أبي بن كعب «حوبا» على المصدر مثل القال، ويجوز أن يكون اسمًا مثل الزاد، والحوأب بهمزة بعد الواو: المكان الواسع، والحوأب ماء أيضًا، ويقال: ألحق الله به الحوبة أي المسكنة والحاجة، ومنه قولهم:

﴿إِنَّهٗ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢] قد كتب الله جلّ ذكره أن أرزاق عباده كما فرغ من آجالهم وأعمالهم ومآلهم، فمن أخذ حرامًا ورضي به حرم من الحلال بقدر ذلك. واعلم أن الكسب ليس هو الرزق، إنما الرزق ما أكل العبد أو لبسه من ماله أو قدمه لآخرته، وعلى التحقيق والقول بالخصوص فهو الغذاء، فإذا أكل الأكلة من الحرام امتنع أكل الحلال يوجد هذا بالمشاهدة، ومن تجاوز القوت إلى السرف، فقد جاء النهي في ذلك في الآية، في قوله جلّ قوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢].

ومعنى «إلى» ها هنا تنقسم إلى وجهين:
أحدهما: أن تكون بمعنى «مع» فهذا هو السرف المنهي عنه.
والمعنى الآخر: هو ما تقدم ذكره؛ أي: لا تأكلوا أموال اليتامى ظلماً؛ لتقوا بها أموالكم ترجون ذلك أن يكون زيادة إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً.
ثم جمع ذلك بقوله الحق ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: ٦].

فصل

نهى الله جلّ ذكره الأوصياء عن أكل أموال اليتامى ظلماً، والظلم هو الإسراف، ومعنى ذلك أن تأكلوها مع أموالهم، وأن يقوا بها أموالهم، وندب ﷻ الغني منهم أن يستعفف ويحتسب نظره له ويحسمه، وأباح الفقير أن يأكل من مال يتيمة بالمعروف، ومعروفه مقدار العناء والمشقة فيه، وإن أغناه ما دون ذلك منه، فليقتصر عليه فإنه منهي عن الإسراف.

ونهاهم أيضاً ﷻ أن ينكحوا يتامى النساء إلا أن يقسطوا لهن، كما يرغبوا في نكاحهن لمالهن أو لجمالهن أو حسنهن، فيجزلوا لهن في المهر، وإلا فليعدلوا

بات بحية سوء، وأصل الباء الواو، وتحوب فلان أي تعبد وألقى الحوب عن نفسه، والتحوب أيضاً التحزن، وهو أيضاً الصياح الشديد، كالزجر، وفلان يتحوب من كذا أي يتوجع.

عنهن بالنكاح إلى غيرهن، وكذلك أن أنكحوهم بناتهم فعلى ما تقدم.
قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ...﴾ [النساء: ١٢٧].

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٧) وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨) وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ آلِيَتَمَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (١٠) يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمَتُ لَكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا بُوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِلَّذَّكَرِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلَّذَّكَرِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١)﴾ [النساء: ٧ - ١١].

قوله جلّ قوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمَتُ لَكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (١٠) [النساء: ١١] أمر الله تعالى المؤمنين وصية من لدنه أن يعدلوا بين أبنائهم، وأن يعطوا ذكرانهم ضعف إناثهم للذكر مثل حظ الأنثيين.

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمْنُ مِمَّا

(١) روى السدي قال: كان أهل الجاهلية لا يورثون الجوازي ولا الضعفاء من الغلمان، لا يورثون الرجل من ولده إلا من أطاق القتال، فمات عبد الرحمن أخو حسان الشاعر وترك امرأة يقال لها: أم كجّة، وترك خمس أخوات فجاءت الورثة فأخذوا ماله، فشكت أم كجّة ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى هذه الآية. [النكت والعيون (١/٢٧٩)].

تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَلَةً أَوْ
 امْرَأَةً وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ
 شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصَّى بِهَا أَوْ دِينَ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
 تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾

[النساء: ١٢ - ١٣].

ثم سرد ﷺ على هذا مقاسم المواريث، ثم ختمها بقوله جلّ قوله: ﴿وَصِيَّتُهُ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٢ - ١٣] ثم أوعد على تعديها أشد الوعيد، ووعد على طاعته في هذه خاصة، وفي غيرها عامة أجزل ثواب.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ ﴿١٤﴾ وَالَّتِي يَأْتِيكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْتَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّاءُ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

[النساء: ١٤ - ١٨].

قوله ﷺ: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِيَنِ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ﴾ [النساء: ١٥] توجيهه إيجاب الأربعة الشهود في الزنا أنه حق متوجه على اثنين، والمعهود في الشرع قبول شاهدي عدل في كل حق وجب، فكان إيجاب أربعة شهود اثنان لكل واحد منهما عدل في الحكم، مع ما في ذلك من رحمة الله ﷻ لعباده وستره عليه.

والمراد بالبيئة هنا - والله أعلم - البكر والثيب من النساء، كالمراد بقوله جلّ قوله: ﴿وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ [النساء: ١٦] أيضًا البكر والثيب من الرجال؛ لاختلاف الحكم فيهما، وقد يستدل بهذا على أن اللفظ المطلق إذا ورد بلفظ الجمع، ولم يدخل فيه النساء إلا بدليل آخر.

تنبيه:

الفائدة في إمساك الزناة في البيوت السجن، والتغيب وهو النفي، والتغريب المذكور في قصتهم؛ لقول رسول الله ﷺ: «جلد مائة وتغريب عام»^(١) ولا يتوجه التغريب بصحة معنى إلا بمعنى السجن، وإلا فالتغريب على ظاهره إطلاق على الزناة، وإظهار للفاحشة وعون على إشاعتها وإفشائها، وفي طول السجن نأي، وطول النأي اتصال البعاد والغربة عن مكان الفتن انتظارًا لحدوث السلو عما تورطوا فيه حكمة، فإن ذلك موجود على الأغلب في هذا الأمر؛ لذلك قال بعضهم: وكل محب أحدث النأي عنده سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

وقال غيره:

سألت المحبين الذين تحملوا	تباريح هذا الحب في سالف الدهر
فقلت لهم ما يذهب الحب بعدما	تبوأ ما بين الجوانح والصدر
فقالوا شفاء الحب حب يزيله	من آخر أو نأي طويل على هجر
أو اليأس حتى تذهب النفس بعدما	رجت طمعًا واليأس عون على الصبر

كذلك كل هم غلب على النفس من حب دنيا أو غيرها استولى على القلب، والشفاء من ذلك العكوف على طلب العلم النافع، واستنباط غامض من الحكمة والتعوض، أو مما كان الشغل به المصير لزومه بوظائف العبادات من العلم والعمل. قال الله ﷻ: ﴿فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ﴾ يعني: المسجون ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] يريد بشرع فيهن، أو بأمر يأمر به في

(١) أخرجه البخاري (٢٥٧٥)، ومسلم (١٦٩٧)، والطيالسي (١٣٣٣)، وأحمد (١٧٠٧٩)، والنسائي (٥٤١١)، والترمذي (١٤٣٣)، وابن ماجه (٢٥٤٩).

شأنهن، أو يتبين لإحداهن توبة، فيسّر الله لها زوجاً فيكون أجلب للسلو.

وقال الله جلّ قوله: ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ [النساء: ١٦] سبّاً وتوبيخاً، ومع هذا فالإمساك في البيوت دليل على تسوية رسول الله ﷺ بين الرجال والنساء في ذلك بقوله جلّ قوله: ﴿الرَّائِيَةُ وَالرَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...﴾ [النور: ٢].

وقال بعض المتقدمين: إنها منسوخة بما جاء في صدر سورة النور من ذكر الحدود، وليس ذلك بنسخ، وإنما هو بيان لمجمل قوله: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥].

والسبيل مجمل لا يعلم ما هو حتى نزلت سورة النور، فكان ذلك إنجازاً منه جلّ ذكره لموعود وعد به في المستقبل من ذلك الحكم يومئذٍ من قوله: «حتى» وتفصيلاً لمجمل قوله: «السبيل».

وليست هذه سبيل النسخ قد يعبر عن السب والتوبيخ بالرجم، ومنه القذف قذف المحصنات وغيرهن، يقال: قذفه بالحجر وحذفه بالعصا، ويقال: أذلق بالقول فيه، كما يقال: أذلق بالحجارة، والله - عزّ من قائل - يقول: ﴿وَيَقُولُونَ خُمُسَةٌ سَادِسُهُمْ كُلُّهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ [الكهف: ٢٢] فسمى القول عاريّاً من العلم: «رجماً» وكثير ما جاء هذا من عباراتهم.

فلما نزلت سورة النور قال رسول الله ﷺ: «خذوا عني خذوا عني، قد جعل الله لهن سبيلاً البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب الرجم»^(١) فجاء أيضاً لفظ «الرجم» على لسان رسول الله ﷺ مجملاً، يحتمل أن يراد به الأذية، ويحتمل القتل بالحجارة، كما جاءت لفظة «العذاب» مجملة في قول الله ﷻ: ﴿وَيَذَرُهَا الْعَذَابُ﴾ [النور: ٨] فبين رسول الله ﷺ سنته فرجم ماعزاً بالحجارة، ورجم اليهوديين والعامرية، وأمر أنيساً أن يغدو على امرأة الرجل الذي خاصم عبده عسيفه، فإن اعترفت فارجمها.

فكان هذا تبييناً بالسنة لمجمل ما جاء به القرآن إعلاماً بانقضاء مدة الإرجاء من الله تعالى لهذا الحكم وليس بنسخ، بل هو النسيء، وإنما هو تبين لمشكل

(١) تقدم تخريجه.

وتفسير لمجمل، وهو اسم الرجم والعذاب ما هما، والمدة والسبيل ما هو.

فصل

من حكمة الله جلّ ذكره أن علّق العقوبة في هذا الشأن برؤية ما لا يتهاى في الأغلب، وعدة شهود يعسر إحضارهم على ضيق الوقت وتعذره، أو بمحمل لا يوجد إلى المخرج من طنه سبيل شبهة فيدراً بها الحد، وأكثر العلماء لا يرجم به - أعني: المجمل - أو بإقرار وندب المتورط وتبيين التوبة إلى الله ﷻ.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠] ولكرم المؤمنين لديه سبّح نفسه تعالى ذكره عند قذف المؤمنين بسوء أو فاحشة، وجعل من لم يأت بأربعة شهداء على تصديق ما زعم من ذلك الرؤية العسر حصولها كاذباً، وحكم عليه بعقوبة القذف، وألا تُقبل منهم شهادة أبداً إلا أن تتبين توبتهم من ذلك.

ووصى في ذلك أكثر الوصية جداً بترك العود، وقال لهم في ذلك جلّ قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] تعظيماً لاسمه المؤمن، وتشديداً لمن جاءت بغير البيّنة البالغة المبلغ المحدود فيه.

ثم قال جلّ من قائل: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣] وكان من حكمة الله جلّ ثناؤه، ومن فضل الله ورحمته ونزاهة كلامه العلي إعظامه هذا الشأن، فأكثر في إحكام هذا النهي، والإبلاغ في التوبيخ والتوصية أن أنزل هذه الآيات، وشرع هذه الأحكام في هذه القضية في إفك مفترى وقول زور محض، فوسع ذلك كله قوله الحق: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾.

ثم جعل ذلك ﷻ حكماً لازماً لما بعدها، وهو العلي الحكيم ما أكرم خطابه وأصدق وأجل شأنه، وأرحمه وأرأفه بعباده سبحانه وله الحمد.

فصل

الزنى مأخوذ من زنا السهم يزنو ويزني؛ وذلك بأن يضرب وتر القوس في

أعلى فوق السهم، فيضطرب السهم ويخرج بذلك عن مقصده الذي سدد إليه، وفُوق نحوه فيقال: سهم زانٍ، وقد مضى تفسيره.

وهادف: وهو الذي يقع في الهدف المجمعول عليه الغرض.

وصادف: وهو الذي يمر على يمين الغرض أو شماله.

وغابر: وهو الذي يمر على رأس الغرض، وهو أيضًا الذي يرمي به على غير

غرض.

وغالٍ: وهو الصاعد غلواً في الهواء، الغلوة: رمية السهم في الهواء ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٧٧].

وصائب: وهو الذي يصيب الغرض، وهو المقرطس أيضًا، فالزاني خارج عن مقصده الذي وجه إليه وجهته من خالص السلم، كالمشرك الخارج عن سبيل الهداية التي فطر الله عليها الخليقة، فالزنى إذاً منه صغير هو هذا المحدث في حال الإسلام، وكبير وهو الشرك بالله ﷻ والكفر به، وكذلك جعل ﷻ كُفءَ الزاني زانية أو مشركة، وكُفءَ الزانية زانٍ أو مشرك ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣] يريد: الزنى ونكاح المشركين.

ولما تقدم ذكر من قول رسول الله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(١) ولما كان الزنى خروج عن الغرض المقصود به، كان المقصود به خروج باطن الزاني إلى باطن الزانية - أعني: قلوبهما - لأن ذلك منهما محل لإيمان الصغير منه التمني والنظر، والكبير فعل الفرج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَتَّبِعُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكُونُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٨﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ أَحَدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَيْبَتِنَا

(١) أخرجه البخاري (٦٤٢٥)، ومسلم (٥٧)، وأبو داود (٤٦٨٩)، والترمذي (٢٦٢٥) وعبد الرزاق (١٣٦٨٦)، وأحمد (١٠٢٢٠)، وعبد بن حميد (٩١٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٩٧).

وَأَمَّا مُيَسَّرَا ۖ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ، وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ۖ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ [النساء: ١٩ - ٢٢].

وحقيقة ما عبّر عنه قول الله ﷻ في المباح، وقد ذكر معاشررة الزوجين التوصية بالمناصفة والأخذ بالفضل: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ...﴾ [النساء: ٢٠] إلى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^(١) [النساء: ٢١] فالميثاق هو ما اجتماعا عليه بكلمة الله وأمانته وسنة رسوله

(١) الآية فيها مسائل: الأولى: إنه تعالى في الآية الأولى لما أذن في مضارة الزوجات إذا أتين بفاحشة بين في هذه الآية تحريم المضارة في غير حال الفاحشة، فقال: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ﴾ روي أن الرجل منهم إذا مال إلى التزوج بامرأة أخرى رمى زوجته نفسه بالفاحشة حتى يلجئها إلى الافتداء منه بما أعطاها ليصرفه إلى تزوج المرأة التي يريد، قال تعالى: ﴿وَأِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ...﴾ والقنطار المال العظيم، وقد مر تفسيره في قوله تعالى: ﴿وَالْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤] المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على جواز المغالاة في المهر، روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر: ألا لا تغالوا في مهور نسائكم، فقامت امرأة فقالت: يا ابن الخطاب الله يعطينا وأنت تمنع وتلت هذه الآية، فقال عمر: كل النام أفقه من عمر، ورجع عن كراهة المغالاة. وعندني أن الآية لا دلالة فيها على جواز المغالاة؛ لأن قوله: ﴿وَأَتَيْتُمْ إِخْدَاهُنَّ قَنَاطِرًا﴾ لا يدل على جواز إيتاء القنطار كما أن قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] لا يدل على حصول الآلهة، والحاصل أنه لا يلزم من جعل الشيء شرطاً لشيء آخر كون ذلك الشرط في نفسه جائز الوقوع، وقال ﷺ: «من قتل له قتيل فأهله بين خيرتين» ولم يلزم منه جواز القتل، وقد يقول الرجل: لو كان الإله جسماً لكان محدثاً، وهذا حق، ولا يلزم منه أن قولنا: الإله جسم حق. المسألة الثالثة: هذه الآية يدخل فيها ما إذا آتاها مهرها وما إذا لم يؤتها؛ وذلك لأنه أوقع العقد على ذلك الصداق في حكم الله، فلا فرق فيه بين ما إذا آتاها الصداق حساً، وبين ما إذا لم يؤتها المسألة الرابعة: احتج أبو بكر الرازي بهذه الآية على أن الخلوة الصحيحة تقرر المهر، قال: وذلك لأن الله تعالى منع الزوج من أن يأخذ منها شيئاً من المهر، وهذا المنع مطلق ترك العمل به قبل الخلوة، فوجب أن يبقى معمولاً به بعد الخلوة، قال: ولا يجوز أن يقال: إنه مخصوص بقوله تعالى: ﴿وَأِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وذلك لأن الصحابة اختلفوا في تفسير المسيس، فقال علي وعمر: المراد من المسيس الخلوة، وقال عبدالله: هو الجماع، وإذا صار مختلفاً فيه امتنع جعله مخصصاً لعموم هذه الآية. والجواب: إن هذه الآية المذكورة ههنا =

ﷺ، والإفضاء خروج الباطن حين انتهاء الوقاع.

وعبر عن هذا بعض القائلين في قوله:

كَأَن فَوَّادِي لَيْس يَشْفِي غَلِيلَهُ سَوَى أَن يَرَى الزَّوْجِينَ يَمْتَرِجَانِ
وقال آخر:

كَأَنَّمَا حَوَى بِلَدْنَانَا رُوحَ جَسْمٍ مَّرْكَبِ

ولولا أن الله ﷻ برأ الذوات وأخذ عليها الميثاق وأقرها فأقرت، ثم أوجدها على هداية الإسلام التي هي الفطرة، ثم سددها إلى الإيمان به وبما عنده، فعندت هذه عن سبيل ما سددت إليه؛ أعني: البواطن الزواني.

قال رسول الله ﷺ معبراً عن حقيقة هذه الحال بأمة محمد: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، يا أمة محمد لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته»^(١) يعظهم ﷺ في إيمانهم ويعلمهم أن المنجي بهم من عذاب الله جلّ ذكره مع إيمانهم العمل بطاعة الله ﷻ واجتناب مناهيه.

وكما أحب الله جلّ ذكره الذاكرين له على المشاهدة والحضور حال الذكر وأثنى عليهم، وجعل الدعاء هو العبادة؛ لقربه من المناجاة وتكليم المكافحة، وأعلم

=

مختصة بما بعد الجماع بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ وإفضاء بعضهم إلى البعض هو الجماع على قول أكثر المفسرين، وسنقيم الدلائل على صحة ذلك. المسألة الخامسة: اعلم أن سوء العشرة إما أن يكون من قبل الزوج، وإما أن يكون من قبل الزوجة، فإن كان من قبل الزوج كره له أنه يأخذ شيئاً من مهرها؛ لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مِّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْذَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ صريح في أن النشوز إذا كان من قبله، فإنه يكون منهياً عن أن يأخذ من مهرها شيئاً، ثم إن وقعت المخالعة ملك الزوج بدل الخلع، كما أن البيع وقت النداء منهي عنه، ثم إنه يفيد الملك وإذا كان النشوز من قبل المرأة، فهنا يحل أخذ بدل الخلع؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْضَلُوهُنَّ لِتُدْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩]. [تفسير الرازي (١٢٠/٥ - ١٢١)].

(١) أخرجه مالك (٤٤٤)، وأحمد (٢٥٣٥١)، والبخاري (٩٩٧)، ومسلم (٩٠١)، وأبو داود (١١٨٠)، وليس فيه موضع الشاهد. والسنائي (١٤٧٤) وابن ماجه (١٢٦٣)، وابن الجارود في المتقى (٢٤٩)، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٨٧).

بإجابة المضطر وإعانة اللهفان بخلوص البواطن عندما تعرض من تلك الأحوال من الشوائب، وتوجيهها بحقيقة التوجه إلى الله جلّ ذكره فبحسب ذلك يكون الذم على خروجه عن المقصد الذي خُلق له وسُدّد نحوه إلى سواه بمحذور لم يتجه له، ولم يأذن له فيه بل نهاه عنه وأوعده عليه.

ولأنه خلق ﷺ عباده؛ لثبت بعضهم من بعض وقدر ذلك، ورضيه منهم أباح ذلك لهم، لكن بكلمة الله وسنة رسوله، وبميثاق يأخذه بعضهم على بعض في تعيين الصداق، أو بملك يمين أقام ﷺ ذلك فيما بينهم في هذه مقام الزكاة للمزكيات، وتسميته عند المأكولات والتطهير للصلوات، وتقديم النيات بالإخلاص حين توجه المعاملات ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

ولما هو - أعني: الزنى - عليه من القبح والظلم والبعد عن رضاه، وعن الصفات الحسنى أغلظ عليه ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه في العقوبة التي لا يشبهها عقوبة المشرك الذي هو الزاني الأكبر، كما يفعل الرجل الحليم يؤدب ابنه على ما لا يؤدب عليه عبده، من الأخذ بمحاسن الأخلاق والأخذ به إلى نوافل البر وأنواع الصالحات، ويشد عليه الأدب، ويبالغ في تحذيره، وتهديده في ذلك تشديداً لعباده، وإعلام منه بكبير من إثم وفاحشة.

أوسعنا في هذا القول تبييناً للموعظة؛ لعظمها من خطبها، وقربها من خطرة النفوس ومجالس الأنس، فإنه قد ينافس النفوس مع يسير الغفلة بما فيها، أباح الله لها من يسببها، وللزوم الفتنة وعموم البلوى بها، وتزيين العدو إياها وأنها أشهى مصائده، والنفوس أسرع شيء إلى إجابته وإلى هذا، فإن الله هو الصبور الحليم ﷺ على تصديق ذلك، وإيجاب الحد فيه بتعيين يعسر، أو بإقرار من المتورط وهو غريب الوجود، وأوعد مع ذلك بإشارات من الشرع، وإيماء بما تعطيه المشاهدة منه بالستر والأمر بمعالجة التوبة، وإن ذلك أولاً من إبدال الوجه بالإقرار والاستهداف بالنفس، وأن الفرار إلى الله جلّ ذكره ومقابلة ذلك السوء بصالح العمل أولاً بذلك، وهو أعلم.

قال الله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

[النور: ١٠] حذف ها هنا - والله أعلم - العاجل الكاذب بالعقوبة، لكنه أبقى منتظرًا به.

وقال أيضًا: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] حذف هنا - وهو أعلم - معنى هذا، فجعل الحد بعلامات، وهي أقرب وأظهر، ويعاجلكم بالعقوبات حين الواقعة، أو ما يكون في معنى هذا لقوله جلّ قوله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ....﴾ [النحل: ٤٥].

قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] التوبة هي الرجعة من العبد إلى ما كان عليه من أصل إيمانه، وتوابع إسلامه بلواحقه وشروطه كلها، وكل من عمل سوءًا فبجهالة عمله؛ إذ لم يراقب الرقيب الأعلى ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ولم يخف مقامه ولم يوقر مشاهدته، وكل من تاب قبل الموت وأتاب إلى الله ﷻ قبل الفوت، فمن قريب تائب، إنما البعيد من التوبة الذي فاته أو أنها بما قطع به عن قبولها منه بالموت وحضور أعلام الآخرة.

وقد حصل الإجماع بما أوجبه الشواهد الواردة بالشرع أن ظهور أعلام الآخرة علامة لرد التوبة من موحد ملي أو كافر شقي.

قال الله عز من قائل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٤ - ٨٥].

وقال جلّ قوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: ممنوع قبول التوبة، والرجعة إلى الدنيا بالإقالة من الموت والاستدراك لما فات.

سرد على ذلك التوصية بالنساء يمسكن بالمعروف؛ ليورثن أو يعضلن على النكاح، فيكلفن ويؤذين حتى يفتدين، وحرّم ذلك منهن على الرجال إلا لمن يأتين بفاحشة مبينة، وسيأتي ذكر هذا فيما بعد - إن شاء الله تعالى - عند ذكر الحكمين.

وعلى القول بالتحقيق فليس من نكح امرأة وطلقها، أو ماتت فنكح أختها بجامع بينهما، والفرق بينهما أن يكونا معًا في عصمته كما نهى عن الخليطين وفسره؛ فقال: ولا ينبذ التمر والبسر جميعًا ولا الزبيب والتمر جميعًا، ولا تجمعوا بينهما، فمن أحب فلينبذ هذا ناحية وهذا ناحية، فلم يجعل الجمع إلا ما كان موجودين معًا، فجاء على هذا قوله: «إلا ما قد سلف» لا موضع له من المعنى يحسن توجيهه إليه كالأول.

وقال في هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ والمعهود من هذا أن ذكر المغفرة لا يأتي إلا بعد إتيان ذنب، ولم يجعل في النكاح ذنبًا فيما علمناه، والله أعلم.

تنبيه:

انتظام معنى قوله - جلّ قوله - على مفهوم سر الخطاب والله أعلم: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ بقوله الحق: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧] إلا ما قد سلف، من قوله جلّ قوله في سورة آل عمران.

ثم ينتظم قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] كذلك بنظام قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الثاني بقوله وهو أعلم: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨] إلا ما قد سلف.

ثم ينتظم ذلك بقوله جلّ قوله: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا﴾ [النساء: ١٨] قطعًا على قوله جلّ قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ والمشار إليه بقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الذي في سورة آل عمران.

قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ...﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٧].

إلى قوله جلّ قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٨٩ - ٩٠] فمعناه إلا ما قد سلف من حكمي ومشيتي، فمن كان هذا شأنه فإني لا أتوب عليه، وإن تاب لا أقبل توبته.

كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] فهم لا يرشدون إلى التوبة، وما عرض بها لهم لم يتب الله عليهم من تاب من حيث هو، ولم يتب الله عليه لم يتم له توبة؛ إذ الله ﷻ هو الأول في كل شيء والآخر والظاهر فيه والباطن، فيضلون على التوبة؛ فلذلك قال جل قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ لأن الله لم يتب عليهم، فلم يحصل لهم توبة ولا تحققت.

ألا ترى أن نواصي العباد هو الآخذ بها؛ فمن العباد: من يموت على بعد من التوبة لا يراها ولا يسمع بها ولا يهتم بها.

ومنهم: من تمر به على قرب منها فيبصرها عن جنب، فربما اشتهاها ويحال بينه وبينها.

ومنهم: من يمر عليها فربما أحبها وأخذ منها، فمرَّ به وأسلي عنها فضلت التوبة عنه، فهذا وجه توبة من يتوب فلا تتقبل توبته.

وقد جاء الوعد الصادق عنه ﷻ أن التوبة مقبولة لكن عمن شاء، ألا تسمعه يقول جل قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الثَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤] فأخبر نصًّا صريحًا أنه يقبل توبة عباده الخصوص، أضافهم إلى نفسه لحبهم وإثرتهم عنده، وبقي الآخرون على حكم الوقف، فبين الحكم فيهم وفي هذه الآيات من آل عمران.

فصل

ومرجوع قوله جل قوله: «إلا ما قد سلف» من مشيئي بهم، وتقديم من حكمي فيهم كقوله جلّ قوله: «هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»^(١).

(١) تقدم تخريجه.

وقوله جلّ قوله: «هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»^(١).

مثال ذلك: رجل عاش مؤمناً، ورجل عاش كافراً ومات مؤمناً، فهذان قد شملهما قوله جلّ قوله: «هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون» كما شملهما قوله جلّ قوله: «هؤلاء للجنة ولا أبالي» أي ذنوب تكون منهم.

ورجل عاش كافراً ومات كافراً، ورجل عاش مؤمناً ومات كافراً، فهذان شملهما قوله: «هؤلاء للنار ولا أبالي» بإيمان من آمن ولم يمت على إيمانه، ولا بعمل كافر وإن بلغ به ما بلغ مما عسى أن يبلغه حبطت أعمالهم، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً.

وقال الله ﷻ في شأن الفريقين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ...﴾ [المؤمنون: ٥٧ - ٥٩] إلى قوله جلّ قوله: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣] يريد: الفريق الخاسر.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣] فهذا معنى ما توجه إليه معنى قوله الحق جلّ قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مني؛ يعني: من ردّ هؤلاء وقبول هؤلاء، فتقدير الأول منها على ما انتظم عليه بمعناه: «ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً».

وتقديره في موضعه على معناه: ﴿إِنَّمَا الثَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشُّوْءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إلا ما قد سلف ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧] عليماً بما يكون من مآل أمرهم إليه، حكيم في حكمه وإنفاذ مشيئته على علمه السابق الأزلي.

وتقدير الثاني: ﴿حُزِمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ...﴾ إلى قوله ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾^(٢) [النساء: ٢٣ - ٢٤].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) قال القاضي أبو بكر بن العربي: فيها مسائل: المسألة الأولى: اعلم أن التحريم أو التحليل لا

يتعلق بالأعيان، وإنما يتعلق بأفعال المكلفين من حركة وسكون غير أن الأعيان لما كانت محلاً للأفعال، تعلق ذلك بهما على سبيل المجاز. قال ابن عباس: حرم الله تعالى في هذه الآية سبعاً من النسب، وسبعاً من الصهر، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من الولادة». وثبت أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحرم المصّة ولا المصتان، ولا الإملاجة ولا الإملاجتان». وقالت عائشة كان فيما قيل من القرآن: عشر رضعات محرمت، نسخ ذلك خمس رضعات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأن من القرآن، فقال به الشافعي، وأخذ مالك وأبو حنيفة بمطلق القرآن وقالوا: إن المصّة تحرم، ولأنه أحوط للفروج، وأخذ بعموم الرضاع. المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ يقتضي تحريم الرضاع في أي وقت وقع، فيتناول رضاع الكبير، وبه تمسكت عائشة، واستدلّت بأن سهلة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، كنا نرى سالمًا ولدًا، وكان يأوي معي ومع أبي حذيفة في بيت واحد، وقد أنزل الله ما علمت؛ فقال لها ﷺ: «أرضعيه خمس رضعات تحرمي عليه». فأرضعته فكان لها ولدًا. وجوابه: إن ذلك رخصة منه ﷺ لسهولة، وأيضاً فإن الله تعالى قد بين وقت الرضاع فقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَسِّمَ الرِّضَاعَةَ﴾ فبين زمانه الكامل، فتعين أن ما زاد على ذلك لا يعتبر. وأيضاً ففي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء». وأما لبن الفحل، فإن يحرم لقوله ﷺ لعائشة في عمها من الرضاعة أفلح «إنه عمك فليسلم عليك». وبذلك قال الجمهور؛ وقال ابن المسيب والنخعي: لبن الفحل لا يحرم، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ والفحل ليس بأم. المسألة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ روي عن علي وجابر أن العقد على البنت لا يحرم الأم حتى يدخل بها، كما العكس. وقال الجمهور: العقد على البنت يحرم الأم، ولا تحرم البنت حتى يدخل بالأم.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَزَوَّائِكُمْ﴾ واحدة ربيبة فعيلة بمعنى مفعولة. مأخوذة من ربها يربها، إذا تولى أمرها؛ وذكر الحبر ليس شرطاً، فإنه خرج مخرج الغالب. وقوله: ﴿اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾ الدخول هنا الجماع، قاله الطبري والشافعي، وقال مالك وأبو حنيفة: المراد به مبادئ الوطء: من لمس وتقبيل، وقال عطاء وعبد الملك بن مروان: هو النظر بلذة، وقد اتفقت الأمة على أن الفروج إذا تعارض فيها تحليل وتحريم، فإنه يغلب التحريم؛ واختلف في الأموال أيهما يغلب فيها؟ والتحلية فعيلة بمعنى محلة. قالوا: والأبناء ثلاثة: ابن صلب، وابن رضاع، وابن تبين؛ وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب» المسألة الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ تعلق أبو حنيفة بهذا، فقال: لا يجوز نكاح الأخت في عدة أختها، ولا نكاح خامسة في عدة رابعة، فإن ذلك جمع في أسباب الزوجية؛ ألا ترى أن العدة من أسبابها، فكأنها في حكم الزوجة، فيكون جامعاً بينهما في السبب، وإن لم يقع الجماع في الحل. وجوابه: إن العدة براءة الرحم لسبب من أسباب الزوجية، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ عند الجاهلية في نكاح أزواج الآباء، أما نكاح

وتقديره في موضعه على سابق معناه: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ [النساء: ١٨] أي: الساعة إلا ما قد سلف؛ أي: من حكمي فيهم ومشيتي منهم إن الله كان غفورًا رحيماً.

﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] عطفًا على قوله جل قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ حضور الموت على معنيين بمعنى المقاربة كالمرض والخوف منه، كما قال عز من قائل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وقد يكون الحضور بمعنى مشاهدة أعلام الآخرة، وهذه حالة تشغل عن الوصية وما سواها.

وقد يكون القرب المراد هنا ما جاء من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ [آل عمران: ١٣٥] فهم إذا فعلوا فاحشة، وتكلموا بسيئة تداركوا ذلك بالتوبة والاستغفار.

وقد جاء في هؤلاء: «إن ملك اليمين يقول لملك الشمال صلى الله عليهما وعلى جميع الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين متى كان من صاحبهما مكروهاً: أنظره ساعة إلى ثلاث» وقد جاء: «تسع ساعات»^(١) وذلك وقت رفع الصحف، فمثل هؤلاء هم الذين يتوبون من قريب قد عهدا ملكاه ذلك منه، وكانت توبة الله عليه معهوده، فيقع على ذلك قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧] إلا ما قد سلف؛ أي: من فعلهم بالإهمال لأنفسهم والتفريط في ترك توبتهم، ثم حكم الله من وراء ذلك معهود.

قوله ﷻ: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] نصب على الإغراء هذا الخطاب كما جاء، وعلى الوجه الذي نظمته ﷻ هو الحق، فتربص بفهمك عليه ففيه حكم لله خفي على الأكثر فتطلبه، فقد أمرك بذلك أيها التالي كتابه الطالب في كتابه.

الآخين، فقد كان شرعاً لمن قبلنا ثم نسخ عندنا.

(١) لم أقف عليه.

ألا تسمعه يصرح بالتنبيه في قوله جلّ قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كان ظاهر الخطاب هو المراد لم يكن هكذا بل قدم وأخر وأمر ونهي ونصح، وأعلم بالحق الذي إليه المصير إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

فدونك وإياه وهو أمر عزم بالتزام أحكام القرآن، وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، وتطلب معانيه وتعلم أنواع خطابه، وقد تقدم ذوق من جمع متفرقه في أثناء الخطاب من توصيل وتفصيل، ولذلك وهو أعلم كتاب الله عليكم إغراء بالتفهم عنه.

﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْنَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفَّحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْ تَبْتَغُوا فَعَلَيْتُمْ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيسَةَ وَيُهَدِّيكُمْ سُبُلَ الدِّينِ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [النساء: ٢٥ - ٢٦].

أتبع ذلك ﴿وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ فنص على المحرمات، وأطلق التحليل على من سواهن ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاثَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا...﴾^(١) [النساء: ٢٤] إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ

(١) قال ابن عباس ومجاهد والحسن وابن زيد، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة ووقع الوطء ولو مرة، فقد وجب إعطاء الأجر وهو المهر، ولقظة «ما» تدل على أن يسير الوطء يوجب إتياء الأجر. وقال الزمخشري: فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو خلوة صحيحة أو عقد عليهن، فآتوهن أجورهن عليه انتهى. وأدرج في الاستمتاع الخلوة الصحيحة على مذهب أبي حنيفة؛ إذ هو مذهبه، وقد فسر ابن عباس وغيره الاستمتاع هنا بالوطء؛ لأن إتياء الأجر كاملاً لا يترتب إلا عليه، وذلك على مذهبه ومذهب من يرى ذلك. [تفسير البحر المحیط (٤/٩١)].

أَخَذَانِ^(١) [النساء: ٢٥] فذكر جلّ ذكره كيف يُتَغَيُّ النكاح فيمن أحل من الحرائر والإماء، وشرط العفاف والتعفف في المنكحات والناكحين.

ثم ذكر جلّ ذكره حد الأمة إذا حُصِنَتْ، وأنه نصف حد المحصنة الحرة، وقد كان تقدم أن حد الحرة جلد مائة أو الرجم للمحصنة، ولما لم يتبعض الرجم كان حدها نصف المائة جلدة.

فصل

هذا نصّ على تحليل نكاح المتعة في القرآن العزيز أباحه رسول الله ﷺ حال الضرورة مرتين في غزة خبير، وفي غزة عام الفتح، ثم نهى عنه حال السعة، وأبقى خطه في القرآن إرساداً لمثلها، فليس إذاً بنسخ إنما هو بمثابة الأمر بالصبر على إذاء المشركين، والكف عنهم في حال الضعف، ثم الأمر بالقتال والانتصار منهم إلى مثل ذلك، فافهم.

قوله ﷺ: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عن نكاح المتعة حال السعة ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النساء: ٢٥] لمن فعل ذلك، وربما قصر ذلك من ذكر المغفرة على حال الضرورة.

يقول الله جلّ ذكره: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فأمر ﷺ أن ينكح المؤمن المؤمنة من الإماء نكاحاً تاماً أو نكاح متعة بقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾.

وأخبر ﷺ أن الإحصان يقع بنكاح المتعة كما يقع بنكاح المعهود، ثم قال جلّ قوله: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] أي: من نكاح المتعة لمن خشي العنت منكم، وأن تصبروا عن ذلك خير لكم؛ أي: لم

(١) ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: ولا مستترات بالزنا مع أخدانهن، وهذا تقسيم الواقع؛ لأن الزانية إما أن تكون لا ترد يد لأمس، وإما أن تقتصر على واحد، وهكذا كان زنا الجاهلية. قال ابن عباس: كان قوم يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي منه، والخدن: هو الصديق للمرأة يزني بها سراً، فنهى الله تعالى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن. [البحر المحيط (٩٨/٤)].

تخافوا الخوف كله من مواجهة محذور الزنى.

كان نكاح الجاهلية على أربعة أضرب؛ منها هذا النكاح الذي أقره الإسلام، ثم أحكمه على كلمة الله وسنة رسوله، فعلى هذا يقع قوله: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢] [.....]^(١) في قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ [النساء: ٢٣].

ثم استثنى من ذلك قوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: من نكاحهم الفاسد كنكاح المتحابين وهم المتعاشقين ذوي الأخذان، وكنكاحهم الذي هو الزنى كيفما يمكن، وعلى أي وجه وجدوه.

ومن ذلك الرايات على أبوابهن من جاء دخل، فقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من نكاح المتقدم الذي هو الزنى كذوات الأخذان والمساحقين والمساحقات، وهو إراقة الماء فحسب لا طلباً لعقب، ولا إحصان مرتبط بكلمة الله وسنة رسوله بقوله - والله أعلم - بما نزل: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ من ذلك فلا حرمة له ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢] يعني: النكاح، وهو أيضاً ممقوت نكاح الرجل امرأة أبيه.

وكذلك قوله: النهي عن الجمع بين الأختين إلا ما قد سلف؛ يعني: من نكاحهم ذلك، فإنه لا حرمة له، وأن الإسلام قد هدمه إن الله كان غفوراً لذنوبكم تلك بالإسلام والتوبة، رحيم بكم في هدايته إياكم وإدخالكم في رحمته ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ من النكاح الصحيح إلا ما قد سلف لكم في جاهليتكم من سائر النكاح الذي لغير الرشدة، فذلك ليس بنكاح شرعي، فيتناوله عرف نكاح الشرع بل كان الفاحشة والمقت، وساء ذلك سبيلاً كما قال: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن المتعة، فقال: والله لقد فعلت في عهد إمام المتقين، فقيل له: أسفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح ولا نكاح هي المتعة كما قال الله جل ذكره، فقيل له: هل لها من عدة؟ فقال: تفي عدتها حيضة، فقيل له: هل يتوارثان؟

(١) ما بين [] كشط في (ق)، وطمس في (ف).

قال: لا.

وروى الحسن أن رسول الله ﷺ لما قدم من عمرته تزين نساء أهل مكة، فشكى ذلك إليه أصحابه، فقال ﷺ: «تمتعوا منهن واجعلوا الأجل بينكم وبينهن ثلاثاً، فما أحسب رجل يستمكن بمرأة ثلاثاً إلا ولاها الدبر»^(١) إنما أمرهم أن يجعلوا الأجل بينهم وبينهن إلى ثلاث؛ لأن الأجل الذي جعلت له قريش في المكث في مكة ثلاثة أيام، وإلا فقد قال الله جل ذكره: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

وذكر ابن جريج عن عطاء أنه قال: سمعت ابن عباس يقول: «يرحم الله عمر ما كانت المتعة إلا رحمة من الله يرحم بها أمة محمد ﷺ، ولولا نهيها عنها ما احتاجوا إلى الزنى إلا قليلاً».

قال عطاء: وهي التي في سورة النساء ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤] إلا كذا من الأجل على كذا وكذا من صداق. هنا انتهى قول عطاء.

﴿فَاتَّوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ أي: شيئاً مفروضاً ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ [النساء: ٢٤] أي: من أراد أكثر من المتفق عليه من أجل وصداق مما تراضيا به الزوجان مباح لهم.

وأتى ابن عباس رضي الله عنهما أن يتبدل عن فتياه بتحليلها، ولقد قال بعض الشعراء:

أقول وقد طال الشواء بنا يا صاح هل لك في فتيا ابن عباس

في طفلة بتلة خود منعمة تكون مثواك حتى يرجع الناس

إنما كان رسول الله ﷺ حد لهم أن يكون نكاحهم لهن ثلاثة أيام؛ لما كان أجل البقاء له ولأصحابه في مكة ثلاثة أيام، وكذلك انعقد بينهم الكتاب في يوم الحديبية، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيزَةِ﴾ [النساء: ٢٤].

ثم أكثر العلماء في تحريمها واجتنابها والتشريد عنها، والقول بأنها منسوخة

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (٨٤٤).

غير صحيح يدل على ذلك إثبات خطها في المصحف، وإنما هو حكم مرصد لحال ما على ما تقدم.

أتبع ذلك قوله عز من قائل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾^(١) أخبر الله جلّ ذكره أنه مما بينه لنا، وهدانا إليه من سنن من كان قبلنا، وأن من سنتهم نكاح المتعة، وأنها توبة تاب الله بها على هذه الأمة، ورحمة رحمها بها كما ذكر ابن عباس ؓ ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

(١) قال تعالى: ﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إن هذا دليل على أن كل ما بين تحريره لنا وتحليله لنا من النساء في الآيات المتقدمة، فقد كان الحكم أيضا كذلك في جميع الشرائع والمثل، والثاني: إنه ليس المراد ذلك بل المراد أنه تعالى يهديكم سُنَنَ الذين من قبلكم في بيان ما لكم فيه من المصلحة كما بينه لهم، فإن الشرائع والتكاليف وإن كانت مختلفة في نفسها إلا أنها متفقة في باب المصالح، وفيه قول ثالث: وهو أن المعنى: إنه يهديكم سنن الذين من قبلكم من أهل الحق لتجتنبوا الباطل وتبوعوا الحق. ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ قال القاضي: معناه: إنه تعالى كما أراد منا نفس الطاعة، فلا جرم بينها وأزال الشبهة عنها، كذلك وقع التقصير والتفريط منا، فيريد أن يتوب علينا؛ لأن المكلف قد يطيع فيستحق الثواب، وقد يعصي فيحتاج إلى التلافي بالتوبة. واعلم أن في الآية إشكالا: وهو أن الحق إما أن يكون ما يقول أهل السنة من أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وإما أن يكون الحق ما نقوله المعتزلة من أن فعل العبد ليس مخلوقا لله تعالى، والآية مشكلة على كلا القولين؛ أما على القول الأول: فلأن على هذا القول كل ما يريده الله تعالى فإنه يحصل، فإذا أراد أن يتوب علينا وجب أن يحصل التوبة لكلنا، ومعلوم أنه ليس كذلك، وأما على القول الثاني فهو تعالى يريد منا أن نتوب باختيارنا وفعلنا، وقوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ظاهره مشعر بأنه تعالى هو الذي يخلق التوبة فينا ويحصل لنا هذه التوبة، فهذه الآية مشكلة على كلا القولين. والجواب أن نقول: إن قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ صريح في أنه تعالى هو الذي يفعل التوبة فينا، والعقل أيضا مؤكد له؛ لأن التوبة عبارة عن الندم في الماضي، والعزم على عدم العود في المستقبل، والندم والعزم من باب الإرادات والإرادة لا يمكن إرادتها وإلا لزم التسلسل، فإذا الإرادة يتمتع أن تكون فعل الانسان، فعلنا أن هذا الندم وهذا العزم لا يحصلان إلا بتخليق الله تعالى، فصار هذا البرهان العقلي دالاً على صحة ما أشعر به ظاهر القرآن، وهو أنه تعالى هو الذي يتوب علينا، فأما قوله: لو تاب علينا لحصلت هذه التوبة، فنقول: قوله: ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب مع الأمة، وقد تاب عليهم في نكاح الأمهات والبنات وسائر المنهيات المذكورة في هذه الآيات، وحصلت هذه التوبة لهم فزال الإشكال، والله أعلم. [تفسير الرازي (١٧١/٥)].

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُضْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَاءَكُمْ مَا تُثْنُونَ عَنْهُ تَكْفُرَ عَنْكُمْ سِغَاتِكُمْ وَتُدْخِلَكُم مَدْخَلَ كَرِيمًا ﴿٣١﴾ [النساء: ٢٧ - ٣١].

ثم قال - جلّ قوله - وقوله الحق: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] والميل العظيم: هو الزنى. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ في الرخصة في ذلك ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ألا ترى إلى رسول الله ﷺ لما شكاه إليه أصحابه تزيين نساء مكة، كيف أمرهم بالتمتع منهن؛ لعلمه ﷺ بضعف الإنسان، وعظم خطر الزنى، وغلبة النفس وترغيم الشيطان، ومكابدة الشهوة وهو العنت؛ لذلك قال - جلّ قوله - وهو أعلم: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] هذا هو الحق لكن الله غالب على أمره، وما أراد كونه فهو كائن لا محالة.

ثم بما بعد هذا أيضًا تفسير لقوله جلّ قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ...﴾ [النساء: ٢٦] ثم ما بعدها إلى آخر السورة يعد العادة ما يوافي المائة شريعة، أو يزيد على ذلك من فريضة وفضيلة، من مأمور به ومنهي عنه ومكروه ومندوب إليه.

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] ذكر في هذه الآية إنها منسوخة، وما نعلم أن الله - جلّ ثناؤه - أباح لنا قبل هذه الآية، ولا بعدها أكل أموالنا بالباطل، ولا حرم علينا التجارة على تراضٍ منا، وترك سنة الرسول ﷺ فيها، ولا أباح لنا أن نقتل أنفسنا، ولم يذكر الذي نسبها إلى أنها منسوخة ما الذي نسخها.

ولا أراه حملة على ذلك إلا دخول الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾ فالله أعلم بأن بعض المنتسبين إلى العلم قد عدد في الناسخ والمنسوخ المستثنى والمستثنى منه، وهو قول مرغوب عنه يدل على إغفال قائله، وقلة خبرته بأنواع الخطاب.

حرم الله - جلّ ثناؤه - على عباده أكل أموالهم بالباطل، بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»^(١).

وحرم أيضاً أن يقتل أحد نفسه، ويقتل بعضهم بعضاً أوعد على ذلك أشد الوعيد، وأعلم أن هذا من كبائر الذنوب بما سرد عليه من قوله جلّ قوله: ﴿إِنْ تَجَتَّيَبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

ومن كبائر ما نهى عنه: الزنى، ويتعرف كبائر الذنوب من صغائرها من طريقين: أحدها: مقايضة بعضها من بعض كالشرك مثلاً وهو أكبر من القتل، والزنى أكبر من النظر والغمرة، من هذا التقسم قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين والسحر والفرار من الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(٢).

وذكر في غير هذه الرواية: «الربا وأكل مال اليتيم ظلماً»^(٣) وغير ذلك.

قال ابن عباس ؓ: هي أقرب إلى السبعين من السبع.

والقسم الثاني: هو العمل بالمعصية مع الإصرار في النفس، وترك الندم عليها والاغتراب بها، وانتظار مثلها وتمني ذلك، وهذا هو الإصرار، فهذا النوع من الإصرار هو أكبر من العمل؛ لأنه عمل القلب وذلك من عمل الجوارح، وهي فعل المعصية من غير إصرار عليها قبل أو بعد، هذا أحد وجهي اللزم، وهو مغفور إن

(١) أخرجه أحمد (١٥٥٢٧)، والبيهقي (١١٣٠٥) وفي الشعب (٥٤٩٢)، والرويانى (١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦١٥)، ومسلم (٨٩)، وأبو داود (٢٨٧٤)، والنسائي (٣٦٧١)، وابن حبان (٥٥٦١) الموبقات: الذنوب المهلكات. التولى يوم الرّخف: الفرار يوم الحرب مع الكفار.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٨٧٥)، والبيهقي (٦٥١٤)، والحاكم (١٩٧)، والطبراني (١٠١)، والنسائي (٤٨٥٣)، وابن عساکر (٤٨١/٤٥).

شاء الله ﷻ.

وقد يكون السلام مقاربة المعصية دون إكمالها، وهذا الطريق الأولى الذي هو مقايضة بعض المعاصي ببعض، فالنظرة لا محالة أصغر من الزنى، وإن كان اسم المعصية والزنى يشملهما لكن النظر مع الإصرار أكبر من واقعة الذنب؛ لأن الذنب يعقبه الندم والاستغفار.

ومن ذلك قول ابن عباس رضي الله عنهما: صغيرة بصغيرة مع إصرار، ولا كبيرة بكبيرة مع استغفار.

فمن أصبح تائبًا من كبائره متبرئًا من صغائره، متبرئًا من بدايات ذنوب لم يصبها من بقايا عوائده وسوء ضراوته، مستغفرًا من جميع ذلك، مستعيذًا بالله من شر نفسه، فهو التائب إن شاء الله تعالى.

ومن اجتنب الكبائر مع إقامة الفرائض غفرت له من صغائره إذا عزبت نفسه عن الإصرار، ولكل مؤمن ذنب يعتاده الفينة بعد الفينة؛ لأن المؤمن مفتن تواب، والله بفضله وكرمه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وهم الذين يصبحون ويمسون تائبين من صغار ذنوبهم وكبائرها، والذين يقيمون الفرائض ويسارعون في الخيرات، وإن كانت لهم ذنوب يأتونها من غير تعمدٍ لها ولا عمل عليها.

فصل

انتظم قوله هذا: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١] من حيث المعنى بما تقدم من صدر السورة إلى قوله جل قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] فإن كل ما ذكره من أول السورة إلى هنا في الكبائر أولها ترك التقوى، والتوصية بالنساء واليتامى وأموالهم، والوصايا والوعيد عليها، وذكر الزنى، وتحريم ذوي المحارم إلى قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾.

ثم ذكر المتعة وعاد إلى التوصية بالأموال أن يؤكل بالباطل، أو غير وجه من الوجوه التي يحل بها وقتل النفس، ثم الوعيد على ذلك.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٣٣﴾
 وَلِكُلِّي جَعَلْنَا مَوْلَىٰ وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ
 فَتَأْتُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٤﴾ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ
 بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالَّذِينَ لَمْ يَنْفِقُوا
 فَكَفَىٰ لَهُمْ مَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي
 الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ ۚ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
 كَبِيرًا ۝٣٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا
 إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٦﴾ [النساء: ٣٢ - ٣٥].

قوله جلّ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ...﴾ [النساء: ٣٢].

سألت أم سلمة - رضي الله عنها - النبي ﷺ قالت: يا رسول الله، يغزو الرجال ولا نغزوا وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢].
 وأنزل الله جلّ ذكره: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي أخرى: سأل النساء رسول الله ﷺ، قلن: يا رسول الله، ذهب الرجال بفضل الجهاد، فقال: «جهاد إحدان مهتها في بيتها». أو: «مهنة إحدان في بيتها تبلغ فضل الجهاد»^(١).

وفي أخرى: «جهاد إحدان حُسن التبعّل»^(٢).

(١) أخرجه بنحوه الطبراني في الأوسط (٢٩١٤) والبيهقي في الشعب (٨٤٨٣) وأبو يعلى (٣٤١٥) وابن عدي (١٤٣/٣).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١١٩٧)، وابن حبان في الضعفاء (٧٧).

قوله جلّ قوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾^(١) [النساء: ٣٤] انتظم هذا الخطاب بما تقدم من أمر النساء بين أزواجهن، ومجانبة الخروج عليهن، وعده بعض من عنى بتعداد فضائل الرجال على النساء التي يظن بها أنها هي التي عناها بقوله جلّ قوله: ﴿مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فزادت على العشرين.

فهذا وإن كان على ما ذكرناه وما شاء الله من ذلك، فالفضل بعد بيد الله يؤتیه من يشاء، وبالضرورة تعلم أن للقائم حقًا على المقام عليه، وللعائل حقًا على المعول، وإن الرازق أفضل من المرزوق.

وقوله جلّ قوله: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] يريد: عابدات لربهن حافظات لغيب أزواجهن بما أمر الله به من الستر

(١) في الآية مسائل: الأولى: القوام؛ اسم لمن يكون مبالغا في القيام بالأمر، يقال: هذا قيم المرأة وقوامها للذي يقوم بأمرها ويهتم بحفظها. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في بنت محمد بن سلمة وزوجها سعد بن الربيع أحد نقباء الأنصار، فإنه لطمها لطمه فنشزت عن فراشه وذهبت إلى الرسول ﷺ وذكرت هذه الشكاية وأنه لطمها وأن أثر اللطمه باقي في وجهها، فقال ﷺ: «اقصي منه» ثم قال لها: «اصبري حتى أنظر» فنزلت هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ أي: مسلطون على أدبهن والأخذ فوق أيديهن، فكأنه تعالى جعله أميرا عليها ونافذ الحكم في حقها، فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «أردنا أمرا وأراد الله أمرا والذي أراد الله خير» ورفع القصاص، ثم إنه تعالى لما أثبت للرجال سلطنة على النساء. ونفذ أمر عليهن بين أن ذلك مغلل بأمرين؛ أحدهما قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ واعلم أن فضل الرجل على النساء حاصل من وجوه كثيرة، بعضها صفات حقيقية، وبعضها أحكام شرعية، أما الصفات الحقيقية فاعلم أن الفضائل الحقيقية يرجع حاصلها إلى أمرين: إلى العلم والقدرة، ولا شك أن عقول الرجال وعلومهم أكثر، ولا شك أن قدرتهم على الأعمال الشاقة أكمل، فلهذين السببين حصلت الفضيلة للرجال على النساء في العقل والحزم والقوة، وأن منهم الأنبياء والعلماء وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهد والأذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحدود والقصاص بالاتفاق، والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج، واليهم الانتساب وغير ذلك، فكل ذلك يدل على فضل الرجال على النساء. والسبب الثاني لحصول هذه الفضيلة: قوله تعالى: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ يعني: الرجل أفضل من المرأة؛ لأنه يعطيها المهر وينفق عليها، ثم إنه تعالى قسم النساء قسمين، فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله. [تفسير الرازي (١٩٢/٥)].

والعفاف، وحسن الصحبة في حضوره وجميل العشرة في مرافقته، والشكر لعوله إياها، ومجانبة جحود النعمة وكفر ما سبق منه إليها.

قال الله ﷻ يخاطب أزواج النبي رضي الله عنهن: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ مِنْكُمْ خَلْقًا مُنْكَرًا وَرَسُولِهِ يَفْعَلُ الصَّالِحَاتِ نُفُوسًا أُجْرًا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١].

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤] النشوز: الارتفاع فوق القدر، وارتفاعهن ها هنا ما يردونه من الفضل على الأزواج، والحلول منه في حال العصمة حيث لم يحللهن الله ﷻ، وتلك فاحشة منهن، وخوف النشوز هنا مباشرة أسباب ذلك ومقارنة الحال.

وحيث ذكر الله جلّ ذكره الفاحشة معرفة بالألف واللام، فهو الزنى كقوله جلّ قوله: ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤] يريد جلّ ذكره عمل قوم لوط. ومتى ذكرها جلّ ذكره بغير ألف ولام وظاهر ذلك غير الزنى، وإن قرن إليها ﷻ صفة النبيين كقوله جلّ قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب: ٣٠] وهي ها هنا: ما خالف أمر الله ﷻ لهن من ترك الاستقرار في البيوت والأخذ بالتبرج.

كقوله جلّ قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩] وهي هنا أن يغلب الخوف عليهن، ويدخل في إيجاب إخراجهن خوف الاقتحام عليهن.

وكقوله جلّ قوله: ﴿وَلَا تَغْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَغْضٍ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩] يريد - وهو أعلم - نشوز وعصيان لأزواجهن ومشاققة منهن لهن في غير المعروف أمر الله جلّ ذكره الأزواج بهجر الزوجات، والإعراض عنهن في مقابلة مشاققتهم لهن، والارتفاع إلى غير منازلهن، كما أمرهم بوعظهن وتذكيرهن بالله سبحانه مما أخذه الله عليهن من العهد الأزواج في مقابلة ترك القنوت لربهن والتعبد له، فهم القوامون عليهم دنيا ودينا.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: ٣٥] بقوله - جلّ قوله - وهو أعلم: متى خيف من فراق الزوجين مشقة عليهما أنفسهما بعضهما بعضاً أو أحدهما

الأخرى، ومفارقة ليس يخشى الضياع عليهم أو بعضها، أو ما يكون من نحو هذا ﴿فَانْبِئُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا﴾ أي: أحد الزوجين ﴿إِضْلَاحًا﴾^(١) [النساء: ٣٥] فقد وعدهما الله أن يوفق بينهما، وليس ذلك بمضمون عن إرادة الحكمين - أعني: الوفاق وحسن العشرة - كما زعم بعض من تكلم في هذا الشأن، فلينظر الحكمان في أمر الزوجين توسطاً بينهما.

وربما آل أمرهما إلى حكم الآية الأخرى قوله جلّ قوله: ﴿وَإِن امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا يُشْوَرًا أَوْ إِغْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُضْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] يريد ﷺ: الزوجين، وعلى قراءة من قرأ «يصلحا»^(٢) يريد: الحكمين.

(١) قوله تعالى: ﴿إِن يُرِيدَا إِضْلَاحًا﴾ قال ابن عباس: أي الحكمان إذا أرادا الإصلاح، ووفق الله بين الزوجين؛ والأولى أن يكون الحكمان من الأهل كما قال تعالى، فإن فقد ذلك، اختار الإمام حكمين مولين من المسلمين، ويستحب أن يكونا رجلين؛ فإن حكماً بالفراق، فهو بائن، لأن كل طلاق ينفذه حاكم فهو بائن، ولأن علته الشقاق؛ فلو كان رجعيًا، لما زال الشقاق ببقاء العصمة فإن أوقعا أكثر من واحدة، نفذ عند ابن القاسم، لأن الحكم يجب إنفاذه. وقال مطرف: تقع واحدة، لأن الحاكم لا يقصد إلا واحدة؛ فيكون الحكمان كذلك، وقياساً على خيار الأمة تعتق تحت عبد؛ فلو حكم أحدهما بواحدة والآخر بثلاث، لنفذت واحدة وسقط الزائد قاله عبد الملك. وقال ابن حبيب: لا ينفذ شيء، لأنهما اختلعا؛ ولو أوقع أحدهما طليقة، والآخر اثنتين، للزمت طليقتان عند ابن القاسم كما سبق وسقط ذلك الزائد على الواحدة عند عبد الملك؛ لأن ذلك كالشاهدين يختلفان في العدد، فإنه ينفذ الأقل؛ فلو شهد أحدهما ببيع والآخر بهبة، فإنه لا ينفذ اتفاقاً للتعارض؛ فلو علم الإمام شقاق الزوجين، لبعث إليهما الحكمين وإن لم يطلب ذلك منه، لأن ذلك من حقوق الله تعالى؛ قالوا: ويجزئ إرسال الحكم الواحد، لأن الله تعالى حكم في الزنا بأربعة شهداء، ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى المرأة الزانية أنيساً وقال له: «إن اعترفت فارجمها». فلو أرسل الزوجان حكمين لنفذ حكمهما، إذ التحكيم عندنا جائز؛ هذا إذا كانا عدلين، فإن لم يكونا عدلين، لنقض الحكم قال عبد الملك. قال القاضي أبو بكر: والصحيح نفوذه، لأنه إن كان توكيلاً، ففعل الوكيل نافذ؛ وإن كان تحكيماً، فقد قدماه على أنفسهما. [الأحكام الصغرى ص ١٥٦] بتحقيقنا.

(٢) قرأ الكوفيون (يصلحا) من أصلح يصلح وقرأ الباقر بهذا اللفظ المنظوم وأصله يتصلحا فأدغمت التاء في الصاد وثابتاً حال من اللام أو من الهاء في لاه أو من فاعل اكسر أي في حال ثباتك فيما تفعل فإنك على ثقة من أمرك وبصيرة من قراءتك أو يكون نعت مصدر محذوف أي كسرًا ثابتاً تلا ما قبله من الحركات المذكورة أو هو مفعول تلا أي تبع هذا المذكور أمراً ثابتاً وهو كل ما تقدم ذكره من الحروف وقال الشيخ التلاء بالمد الذمة وهو

والفائدة في بعث الحكمين: الإصلاح بين الزوجين، والتقريب والتوسط، والوعظ والتذكر بالله تعالى وبما أخذه الله عليهما من ميثاق وعهد، وليتعرفا الظالم منهما من المظلوم إلا أن يفرقا بينهما على كراهة بينهما، أو من الزوج كما قال بعض القائلين، وإن ظهر لهما أن الزوج هو المتعدي فليفرقا بينهما، وإن أبى الزوج فقد سماهما الله جلّ ذكره الحكمين، والظالم أحق من حمل عليه، وكذلك إن أبت المرأة الإمضاء في نشوزها وعصيانها، فليحكمها عليها بالعداء.

قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ هذا خطاب لجملة الحكام ألا يقيموا حدود الله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

فصل

قال الله - جلّ قوله وتعالى جدّه - للحكام: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال جلّ قوله: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُضْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

كما قال جلّ قوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] ولم يسمع لله - جلّ قوله - قولاً في امرأة ناشز يأمر به الزوج أن يصالحها.

وقد ورد الخبر المثبت بما صالحته سودة - رضي الله عنها - على أن يحبسها فتكون من أزواجه فتبهه ليلتها، فلما قبل ذلك منها وهبتها عائشة - رضي الله عنها.

ولم يأت مثل هذا في نشوز المرأة أن تصالح على ما يسقط الميثاق، وينقص الدرجة التي جعلها الله في أصل المناكحة، ولا على أن تكون هي المترفعة على الزوج القائمة عليه، وقد سماها الله ﷻ ذلك من النساء: فاحشة، بل أمر الأزواج والحكام بوعظهن وضربهن وهجرهن؛ إذ ذلك منهن تعدي حدود الله والله لا يأمر بالفحشاء.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيشَةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾ [النساء: ٣٦ - ٣٩].

وقوله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾^(١) إلى قوله

(١) إنما أردف عبادة الله بالإحسان إلى الوالدين لوجوه: أحدها: إن نعمة الله تعالى على العبد أعظم، فلا بد من تقديم شكره على شكر غيره ثم بعد نعمة الله فنعمة الوالدين أعم النعم؛ وذلك لأن الوالدين هما الأصل والسبب في كون الولد ووجوده كما أنهما منعمان عليه بالتربية، وأما غير الوالدين فلا يصدر عنه الإنعام بأصل الوجود بل بالتربية فقط، ثبت أن إنعامهما أعظم وجوه الإنعام بعد إنعام الله تعالى. وثانيها: إن الله سبحانه هو المؤثر في وجود الإنسان في الحقيقة والوالدان هما المؤثران في وجوده بحسب العرف الظاهر، فلما ذكر المؤثر الحقيقي أردفه بالمؤثر بحسب العرف الظاهر. وثالثها: إن الله تعالى لا يطلب بإنعامه على العبد عوضاً أثبتة، بل المقصود إنما هو محض الإنعام والوالدان كذلك، فإنيهما لا يطلبان على الإنعام على الولد عوضاً مالياً ولا ثواباً، فإن من ينكر الميعاد يحسن إلى ولده ويربيه، فمن هذا الوجه أشبه إنعامهما إنعام الله تعالى. الرابع: إن الله تعالى لا يحمل من الإنعام على العبد ولو أتى العبد بأعظم الجرائم، فإنه لا يقطع عنه مواد نعمه وروادف كرمه، وكذا الوالدان لا يملان الولد ولا يقطعان عنه مواد منحهما وكرمهما، وإن كان الولد مسيئاً إلى الوالدين. الخامس: كما أن الوالد المشفق يتصرف في مال ولده بالاستبراح وطلب الزيادة ويصونه عن البخس والتقصان، فكذا الحق ﷻ متصرف في طاعة العبد فيصونها عن الضياع، ثم إنه سبحانه يجعل أعماله التي لا تبقى كالشيء الباقي أبد الآباد، كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَبْتَلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾ [البقرة: ٢٦١]. السادس: إن نعمة الله وإن كانت أعظم من نعمة الوالدين، ولكن نعمة الله معلومة بالاستدلال ونعمة الوالدين معلومة بالضرورة، إلا أنها قليلة بالنسبة إلى نعم الله فاعتدلا من هذه الجهة والرجحان لنعم الله، فلا جرم جعلنا نعم الوالدين كالتالية لنعم الله تعالى. [تفسير الرازي (١٩٩/٢)].

جل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] سرد ﷺ هذه الآية على ما تقدم من حكمه في شقاق الزوجين ونشوزهما، فأوجب الإحسان لكل ذي إحسان، وأمر بإيتاء كل ذي حق حقه، هذا ﷺ بالأمر لعباده، ثم بالإحسان بالوالدين، ثم بذي القربى، ثم باليتامى والمساكين، ثم بالجار ذي القربى فإن له حق القرابة وحق الجوار، وللجار الجنب حق غير مجهول ولا مضيع، وللصاحب بالجنب الزوج وابن السبيل، ثم بملك اليمين يعتمد كل بما يكون في جانبه إحساناً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

هذه موعظة وعظ الله بها المؤمنين عامة، ثم الزوجين خاصة يعلمهم فيها أن الله لا يحب المعتدي المتعدي قدره المزكي نفسه.

ولما ذكر ﷺ الفخور والاختيال، وتعدي الحدود ذكر أهل الكتابين والمنافقين الذين اعتدوا وشاقوا الله ورسوله، فقال جلّ قوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ [النساء: ٣٧] فتعدى بخلهم على الناس إلى أن يبخلوا على أنفسهم، كما تعدى بخل أنفسهم إلى أن يأمرؤا الناس بالبخل، ظهر ذلك في كتمانهم ما أنزل الله عليهم من النور والهدى، وقولهم لإخوانهم: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١].

وقولهم: ﴿آمَنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تَزِمُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٣].

وقول المنافقين: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ [المنافقون: ٧] ونحو هذا من أقاويلهم ومذاهبهم.

وقد آخى الله ﷻ بينهم؛ لتشابه قلوبهم في قوله جلّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.....﴾ [الحشر: ١١].

قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] القرين هو ما قرن من صالح أو فاسد جزاء لعمله الصالح، وإيمانه أو لفسقه وكفرانه.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَفْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.....﴾ [الزخرف: ٣٦].

وقال - جلّ قوله - في الحزب الصالح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

تَنْزَلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا....» [فصلت: ٣٠] إلى قوله جلّ قوله: ﴿نَحْنُ أَوْلَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١] وكل امرئ له قرين؛ إما صالح يسدده، وإما قرين فاسد يغويه ويضله.

آية ذلك: أمثالهم في القرناء في الظاهر، فإذا مات قرن به في دار البرزخ وبعد البعث.

قال الله ﷻ: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ [النحل: ٦٣].

وقال جلّ قوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ [فصلت: ٢٥] فقرين كل على قدره ومنزلته من دينه ومذهبه، الكافر قرينه شيطان كافر، والفاسق الملي قرينه مثله، وقرين النبي ملك وجني مؤمن؛ لذلك سهلت على النبي سبل الخيرات. وعلى أي حال كان فقرينه من الجن وإن كان مؤمناً، فهو إلى الاستشاعة والعجلة ونوازل الغضب ما هو، والقرين من الملائكة هو إلى الحلم والتثبت والرفق وحسن السيرة والرحمة ما هو، فالقوي هو من ملك نفسه عند الغضب والشهوة، والقرناء ما بعد الموت في الدار الآخرة [يعادي] ^(١) بعضهم بعضاً.

قال الله ﷻ: ﴿الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِغَضِّهِمْ لِيَبْغِضَ عَدُوَّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ...﴾ [الزخرف: ٦٧] إلى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا....﴾ [الأعراف: ٣٨] وهو كثير، ثم لهذه الجملة ما انفهم منها.

قوله عزّ قوله: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨] لأنه يدعو إلى الكفر والشرك والتكذيب وارتكاب الجرائم وفعل الكبائر جملة وشرعاً، ثم يقرن به بعد الموت وفي دار القرار، وعذاب الشيطان عذاب السعير، وعذاب الإنس عذاب جهنم وبئس المصير لهذا وهذا، يضاعف لهما العذاب يعذب هذا بعذاب السعير، وهذا بعذاب جهنم زائد إلى عذابه المعد له، من العلم بالقرناء إنهم حين

(١) في الأصل: [وأما يجهد].

يتوجه حكم الخلقة إلى النطفة يقبض الله لها حفظة يحفظونها بأمر الله من أمر الله، حتى إذا وضعت تخلت عنها حفظة الأرحام.

وقبض الله له معقبات من بين يدي المولود ومن خلفه يحفظونه من أمر الله، يتعاقبون عليه بالليل والنهار، إذا بلغ السعي وجرى عليه قلم التحصيل في الأعمال، فإن كان ظالمًا ضجت منه ملائكته، وعلى قدر إسرافه في ظلمه يكون ذلك منهم، فإذا أراد الله به سوءًا أдал الحفظ بغيرهم، فلا مرد لقضاء الله فيه، وما لهم من دونه من دال.

وأما التقي فتتنافس الملائكة - عليهم السلام - فيه، فيتعاونون له ملائكة بالليل وملائكة بالنهار عن يمينه وشماله يكتبون الفرائض، فإن كان من أهل نوافل الخير وكثرة الذكر تولته أيضًا ملائكة فضل على الكتبة الأولى، يكتبون له نوافله وأذكاره، ﴿لَا يَغَيِّرُ﴾ الله ﴿مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كما تكونون عندي تكونون في أهليكم لصافحتكم الملائكة في الطرق وعلى فرشكم»^(١).

قال الله تعالى: «أنا مع من ذكرني، وحيشا طلبني عبدي وجدني»^(٢).

وقال الله ﷻ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ...﴾ [المائدة: ١٢].

قوله ﷻ: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٩] انتظمت هذه الآية بما قبلها من ذكر البخل والكتمان، والكفر والفسوق، والنفاق والإنفاق.

قوله جل قوله: ﴿مَاذَا﴾ كلمة معهودها أن تقال عند النصيحة، والحض على امتثال الأمر الذي لا كلفة فيه، ولا كبير تعجشم على فاعله، يحد بذلك الفعل خطأً وغنمًا، وهو من الأعلى تأنيب ووعظ وتقرير وثبات للأمر، يشوب ذلك رحمة، ومن الأسفل استعطاف واسترحام.

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٠٤)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٤).

(٢) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٨٦٥) وعزاه لابن شاهين في «الترغيب في الذكر» عن جابر.

وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: بما يكون منهم، كما جاء عنه ﷻ: «اعبدني ولا تشرك بي شيئاً أغفر لك على ما كان منك»^(١) وجملة هذا الخطاب رجاء فوز بغفران تشرق أنوار الجناح على أسارير وجهه، ويراح منه ريح الإيمان رائحة الظفر بالمنى.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾
 ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَبْذُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُولَ لَوْ سَوَّى بِهِمُ الْأَرْضَ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَىٰ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ قَتَلُوا النَّبِيَّ

النَّبِيَّ ﷺ ﴿[النساء: ٤٠ - ٤٤].

ألا تسمعه - جلّ وتعالى - سرد عليه خطابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠] أي: من إيمانهم ونياتهم، وإنفاقهم وأعمالهم أن يكن الميثاق ذرة الذي يفضل وزن السيئات حسنة، يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً، وهو الجنة ورضوانه الأكبر.

الوزن موطنان، والله أعلم بما وراء ذلك:

الأول منهما: وزن الإيمان بالكفر، فالمؤمنون تثقل موازينهم في هذا الوزن، فأولئك هم المفلحون والكافرون تخف موازينهم، فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدين خسروا أنفسهم وأهليهم ومنازلهم من الجنة، وربما كان معنى قوله - جلّ قوله - في الذين كفروا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥].

ثم الثاني: وزن الأعمال حسناتها بسيئها فمن رجح ميزانه بحسناته فقد فاز، ومن

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٠).

قام ميزانه عدلاً، فذلك يجوز الصراط على ما هو به؛ إذ ليس له عمل يحمله، ويوقف في أصحاب الأعراف إن لم يعف الله عنه ويزده من فضله؛ إذ ليس له عمل يدخل به الجنة، وآخره إلى خير بفضل من الله جلّ ذكره.

ومن رجحت سيئاته جعل على ظهره ثقل ما زاد من أوزاره على حسناته، فالكافر يحمل أوزاره كلها؛ إذ لم تكن له حسنة تجزئ، والموحدون من ذلك على درجات إلى موضع العدل من الوزن.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَضْعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمَ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ثم من هنا ينتظم معنى ما تقدم قوله الكريم: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١) [النساء: ٤١] والشاهد هناك شافع، والشفيع والشاهد الذي أمام شافع شهيد.

قال رسول الله ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض - قالها ثلاثاً - من شهدتم له

(١) «كيف» في موضع رفع إن كان المحذوف مبتدأ التقدير: فكيف حال هؤلاء السابق ذكرهم، أو كيف صنعهم، وهذا المبتدأ هو العامل في «إذا» أو في موضع نصب إن كان المحذوف فعلاً أي: فكيف يصنعون، أو كيف يكونون، والفعل أيضاً هو العامل في إذا، ونقل ابن عطية عن مكي: أن العامل في «كيف» جئنا، قال: وهو خطأ، والاستفهام هنا للتوبيخ، والتقرير، والإشارة بهؤلاء إلى أمة الرسول، وقال مقاتل: إلى الكفار، وقيل: إلى اليهود والنصارى، وقيل: إلى كفار قريش، وقيل: إلى المكذبين وشهادته بالتبليغ لأمتة قاله: ابن مسعود، وابن جريج، والسدي، ومقاتل، أو بإيمانهم قاله أبو العالية، أو بأعمالهم قاله: مجاهد وقتادة، والظاهر أن الشهادة تكون على المشهود عليهم.

وقيل: «على» بمعنى اللام؛ أي: وجئنا بك لهؤلاء، وهذا فيه بعد، وقال الزجاجي: يشهد لهم وعليهم، وحذف المشهود عليهم في قوله: ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ لجريان ذكره في الجار والمجرور فاختصر، والتقدير: من كل أمة بشهيد على أمتة، وظاهر المقابلة يقتضي أن تكون الشهادة عليهم لا لهم، ولا يكون عليهم إلا والمشهود عليهم كانوا منكرين مكذبين بما شهد عليهم به، وروي أن رسول الله ﷺ: كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه، وكذلك حين قرأ عليه ابن مسعود ذرفت عيناه وبكاؤه والله أعلم هو إشفاق على أمتة ورحمة لهم من هول ذلك اليوم، وظاهر قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ أنه معطوف على قوله: ﴿جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وقيل: حال على تقدير قد؛ أي: وقد جئنا.

بخيرٍ وجبت له الجنة، ومن شهدتم له بشرٍ وجبت له النار»^(١).

ويقول الله جلّ ثناؤه: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحم الراحمين»^(٢).

قال رسول الله ﷺ: «توضع الأمانة والرحم على جنبتي الصراط»^(٣).

يصف المؤمنون على طريق أهل النار، فيلقي الرجل فيقول: ألسنت الذي نصرتك يوم كذا وكذا؟ ويقول الآخر: ألسنت الذي وهبتك كذا وكذا؟ وضوءاً أو غيره، يتعرفون إلى المتقين فيعرفوهم، فيقول أحدهم للمؤمن: سألتك بالله والرحم ألا شفعت في عند ربك، فيشفعون.

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] وهذا منتظم المعنى بقوله: ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وهو تعريض بأهل الكتاب والمنافقين الذين تقدم ذكرهم.

يقول جلّ قوله: فكيف إذا كانوا يومئذٍ، وكان الأمر على ما أعلمناك به من يرجون ليشفع لهم من يشهد لهم من إمامهم يومئذٍ، ولم يتبعوا لموسى ولا عيسى، وكذبوا ما جئت به كيف بهم، كقوله - جلّ قوله - فيهم في موضع غير هذا: ﴿فَكَيفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥] معناه: مما هو كسبهم الذي يجدونه يومئذٍ تحريف كتابهم، وكتمان الحق الذي جاء فيه، والصد عن سبيل الله وقتل الأنبياء.

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٢٢٤٣)، والترمذي (١٠٧٨)، وأحمد (٢٧٦٨٦)، وابن ماجة (٤٢٢١)، والنسائي (١٩٤٤)، وابن أبي شيبه (٣٦٩٦٠) والطبراني (٣٨٢)، والحاكم (٤١٣) والبيهقي (٢٠١٧٧) وعبد بن حميد (٤٤٢) وابن أبي عاصم في الأحاد والمثنائي (١٦٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجة (١٧٩)، وأبو عوانة (٤٤٩).

(٣) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبخاري (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

فصل

الذي تقرر عليه الشرع، والمفهوم من تعريف الوحي أن لجهم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - مجازًا هو الصراط، وكذلك الهادون طرفي الصراط من كلا العدوتين منه سواحل؛ آية ذلك سواحل البحور بَردها ونداها، [ثم] ^(١) ثم حَصْحاصٍ، هكذا من كل غمر في البحر، بحسب ذلك الوجود فيما هنا لك فيضها وغيضها وفورانها ورميها بشررها وشهيقها وزفيرها، فليعبر بها من أجل سواحل تقتضي موجود مقتضياتها.

قال رسول الله ﷺ في عمه أبي طالب: «وجدته في غمرات من النار، فأخرجته إلى ضحضاح يبلغ كعبه» ^(٢).

وقال ﷺ في الموحددين منهم: «من قد أخذته النار إلى كعبه، وإلى أنصاف ساقيه، وإلى ركبتيه، ومنهم إلى فخذه وإلى حقويه» ^(٣).

وإنما يصيبهم هذا في سواحلها هذه، وعلى قدر خفة ظهورهم من أوزارهم تكون خفتهم عليها، ثم يستولي ذلك بهم إلى الطيران في الهواء على مراكب هي النجب، وغيرها وكالبرق وكرجع الطرق.

ومنهم: من لم يرها ولم يسمع حسيها ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ...﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢] جعلنا الله الرحيم برحمته منهم.

فصل

قال الله ﷻ في الأشقياء: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ

(١) في الأصل [ثم باله وزهق وطيش] وهي عبارة غير واضحة.

(٢) أخرجه مسلم (٥٣٢)، والحاكم (٨٨٨٦)، والحميدي (٤٨٨). غمرات جهنم: المواضع التي تكثر فيها النار. الضحضاح: ما رُق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار.

(٣) أخرجه أحمد (١١٩١٧)، وابن ماجة (٦٠)، والحاكم (٨٨٨٨)، والبيهقي في الشعب (٣٢٢)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٦). الحَقْو: الحَضْر.

جَهَنَّمَ جِثْيَا... ﴿[مریم: ٦٨] إلى قوله: ﴿عَتِيًّا﴾ [مریم: ٦٩] وهم الذين قيل لهم: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيكون ذلك، فيخرج منها عنق ثم عنق ثم عنق، أصناف ثلاثة هم الذين كانوا في الدنيا أشد عتياً.

قال رسول الله ﷺ: «وتكون الأرض كلها جَمرة واحدة»^(١) يعني - والله أعلم - تلك السواحل؛ لأنهم يومئذ عليها.

سئل ﷺ: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض؟ فقال ﷺ: «هم في ظلمة دون الجسر»^(٢).

وفي أخرى: «على الصراط يا عائشة»^(٣).

فربما سمي ذلك منها صراطاً؛ إذ هو مما ينجي الله - جلّ ثناؤه - من هوله المتقين بمفازتهم، كما ينجيهم على المجاز، والله أعلم ما مقدار ذلك وما مسافته، وهذا كله عليه غير عسير، فالله القادر على أن يجعل أضيق الأمكنة تسع كل شيء، ويجعل أوسعها أضيق من خرت الإبرة، وإنما الفائدة من إخباره وحديثه فهو كما أخبر به وحدث.

قال ﷺ: «فيطأ أحدكم الجمرة فيقول: حس، فيقول ربك: أو إنه...»^(٤) وذلك في مبتدأ هذه الأرض إنك ستري ما ينسئك هذا، فتخوض الخلائق ذينك الساحلين خوفاً، وهم الذين عجزت أعمالهم عن أنها فيهم طيراناً وخطفاً كالبرق ورجع الطرف، وحضر الفرس الجواد على تفاوتهم في سرعة نجاتهم منها.

والذين يخوضون تلك الأرض أيضاً على درجاتهم من قلة الأوزار، وكثرتها بالأنقال على ظهورهم، والحسك والشائكات كشوك السعدان وغيرها، والعثار والعوارض بين أرجلهم، والكلاليب والخطاطيف على جنباتهم، وهذه التي أبانت

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه مسلم (٧٤٢)، والبيهقي في سننه (٨٣٠) وفي الشعب (٣٧٧)، وابن حبان (٤٤١)، والطبراني (١٣٩٨)، وأبو عوانة في مستخرجه (٦٥٤)، وابن حبان (٧٥٤٥)، وأبو نعيم في المعرفة (١٣١٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٠) وقال: حسن صحيح.

(٤) أخرجه الحاكم (٨٨٣٥)، والطبراني (١٥٨١٠).

عنها في الحياة الدنيا عوارض المعاصي والذنوب، مثال الشهوات المؤذية والضراوات^(١) السوء، فحبسهم على نجاتهم بطاعة الله.

﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] ثم كذلك حتى يصلون إلى الصراط على متن جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - وهو دخص مزلة أحد من السيف وأرق من الشعر، آخره من شفيرها إلى شفيرها؛ أي: على مقدار حظوظهم من النجاة ودرجاتهم فيها.

والمثقون يومئذ ناجون ﴿بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزمر: ٦١] وقوفًا على جنبتي الصراط، دعوى الرسل - عليهم السلام - والمتقين يومئذ: «اللهم سلم سلم»^(٢) وهنالك يتساءلون بالله وبالأرحام، فينجو من الصراط من شاء الله نجاته برحمته، ثم بعمله ثم بالشفاعة، وكل ذلك من رحمته.

ويقع في النار من شاء الله كما قال رسول الله ﷺ: «فناج مخردل»^(٣) أي: مما يأخذ منه الكلايب والخطاطيف والحسك والشائكات، ويكردرس في جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - فإذا خلص المؤمنون من النار، ألهم الرؤوف الرحيم الغفور الشكور ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المؤمنين إلى الشفاعة، فأعطفهم على إخوانهم الذين في النار بالرحم التي كانت بينهم، ولا رحم يومئذ إلا الإيمان بالله والرسل - عليهم السلام - والعمل بطاعة الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ: «فوالذي نفسي بيده ما أنتم بأشد منا شدة لي في استيفاء الحق من المؤمنين لله - جل ثناؤه - يومئذ في إخوانهم المؤمنين، الذين هم في النار يقولون: ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون ويحجون معنا» وتلك شهادة منهم لهم، وشفاعة إلى ربهم فيهم، فيقول لهم جل ذكره: «اذهبوا فمن عرفتم فيها فأخرجوه منها، وحرم الله ﷻ على النار أن تأكل مواضع السجود، فيعرفونهم بذلك

(١) هكذا في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وأحمد (١١١٤٣)، وابن ماجه (١٧٩)، وأبو يعلى (١٢٥٣)، وابن حبان (٧٣٧٩)، والحاكم (٨٧٣٧) والنسائي في الكبرى (١١٣٢٧)، وابن منده في الإيمان (٨٢٨).

(٣) تقدم تخريجه.

فيخرجونهم منها»^(١).

ثم يحد لهم حداً تعرفه الملائكة - على جميعهم السلام - في قلوبهم فيخرجونهم، ثم كذلك حداً بعد حد، حتى إن المؤمنين ليسائلون أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ [المدثر: ٤٢].

قال الله جلّ ثناؤه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِيْنِ * فِي جَنّٰتٍ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤٠] هذا وصفهم في محالهم، في إخراجهم إخوانهم من النار بقوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾.

وقرأها ابن الزبير وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما: «أيها المرء ما سلكك في سقر».

هذا سؤالهم قومًا منهم لم يكن تقدمت منهم بهم معرفة، فيجيبونهم بما كانوا عليه، ولا يكتمون الله - جلّ ثناؤه - إنما يكون الكذب منهم، والكتمان ممن يوجد منه ذلك قبل وقوع العذاب بهم، فيقول أحدهم: لم أك من المصلين حتى أتاني اليقين، ويقول الآخر: لم أك أطعم المسكين حتى أتاني اليقين، ويقول المكذب: كنت أكذب بيوم الدين، فيخرجون إخوانهم المؤمنين ويتركون المكذبين.

يقول الله جلّ ثناؤه: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشّٰفِعِيْنَ﴾ [المدثر: ٤٨].

قال الله - جلّ ثناؤه - في مقامهم هذا ونحوه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ أي: بشفيع ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] يعني: حال إخراج الموحدين وترك المكذبين.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾^(٢) [النساء: ٤٢] أي: لو كانوا في الأرض أرضاً، وفي التراب تراباً، ولا يبعثون ولا

(١) تقدم تخريجه فيما سبق.

(٢) قرأ نافع وابن عامر: «تسوى» بفتح التاء وتشديد السين، وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وتخفيف السين، وقرأ الباقون بضم التاء وتخفيف السين، والمعنى على القراءة الأولى والثانية: إن الأرض هي التي تسوى بهم؛ أي: إنهم تمنوا لو انفتحت لهم الأرض فساخوا فيها، وقيل الباء في قوله: ﴿بِهِمْ﴾ بمعنى على؛ أي: تسوى عليهم الأرض، وعلى القراءة الثالثة الفعل مبني للمفعول؛ أي: لو سوى الله بهم الأرض فيجعلهم والأرض سواء حتى لا يبعثوا. [فتح القدير (١٤٥/٢)].

يخلقون من قبل ذلك.

وفي هذا من قوله وما جاء من مثل هذا في سورة النبأ: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبأ: ٤٠] إشارة إلى سر مفروج به لمن عمل لله - جل ثناؤه - بطاعته لكريم لقائه وحسن مأبه، نسأل الله الرحيم الذي لا إله إلا هو أن يسعدنا بلقائه، ويبارك لنا في حفظنا منه إنه ذو الجلال والإكرام.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ [النساء: ٤٣].

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما، فدعانا وسقانا الخمر فأخذت منا، وحضرت الصلاة فقدموني، فقرأت: «قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

قال ابن عباس ؓ: فحرمت الخمر في أوقات الصلوات، فكان أحدهم يمسك عنها حتى إذا قضيت العشاء الآخرة شربها، فلا يصبح إلا وقد صحى سكرها، وأعلموا ما يقولوا في صلاة الفجر.

ثم أنزل الله تحريمها قطعاً في سورة المائدة.

حدث عثمان بن مالك - رحمه الله - أن رسول الله ﷺ قصده في نفر من أصحابه، ولما جاء منزله ناداه فخرج إليه يجر ردائه وإزاره، فقال: «أعجلت الرجل» فقال عثمان: يا رسول الله، الرجل يجمع أهله ثم يكسل، ماذا عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا [....]»^(١) فاغسل ما أصاب المرأة منك ثم صلي»^(٢).

مصدق هذا من القرآن قوله ﷺ: ﴿أَوْ لَا مَسْئَمَ الْنِسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ [النساء: ٤٣] وعدم وجدان الماء يتردد بين معنيين: أحدهما: عدم الماء الذي يتطهر به.

(١) ما بين [] تقرأ (مخضت) ولفظ مسلم: «عَنْ أُمِّ كَلْثُومٍ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُجَامِعُ أَهْلَهُ ثُمَّ يُكْسِلُ هَلْ عَلَيْهِمَا الْغُسْلُ وَعَائِشَةُ جَالِسَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَفْعَلُ ذَلِكَ أَنَا وَهَذِهِ ثُمَّ نَغْتَسِلُ».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٥)، والبيهقي في الكبرى (٤٣٠١).

والآخر: عدم ماء المني وظهوره.

كما قيل [لرسول الله] ^(١) ﷺ: المرأة ترى مثلما يرى الرجل في المنام، فقال: «لتغتسل إذا رأت الماء» ^(٢).

ولما اتصل به من الأمر بالتيمم، فكان سياقه في حكم السفر، وهو من مظان عدم الماء المتطهر به، وقف الأمر على الاغتسال مع وجود الماء والتيمم، مع عدم وجود ما يتطهر به.

وقد روى معنى حديث عثمان جماعة من الصحابة رضي الله عنهم وروى عائشة وأبو هريرة في إيجاب الغسل؛ لالتقاء الختانين، والله عليم حكيم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء: ٤٣] تقدير الكلام: ولا تقربوا الصلاة جنباً حتى تغتسلوا، ودخل الاستثناء تنبيهاً على حكم المسافر؛ إذ السفر مظنة الأعذار.

ثم بين بقوله جل قوله: ﴿وَأَن كُنتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ ^(٣) [النساء: ٤٣].

وفي ذكر الملامسة على معنى المفاعلة البيان للبين للشهوة؛ إذ بناء المفاعلة لا تكون إلا منهما، فكان المفهوم من الخطاب ابتغاء الشهوة، واجتزأ بذكر المفاعلة عن سبيل الملامسة، وكان ذلك أحسن اختصاراً وأقرب للفقهاء.

(١) زيادة لانتظام السياق.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٢)، ومسلم (٧٣٨)، وأحمد (٢٦٦٥٥)، والطبراني (٦٥٩)، وابن أبي شيبه (٨٧٨) والترمذي (١٢٢) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٦٠٠)، وأبو يعلى (٧٠٠٤)، وابن خزيمة (٢٣٥).

(٣) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: «لامستم» وقرأ حمزة والكسائي: «لمستم» قيل: المراد بها في القراءتين الجماع، وقيل: المراد بها مطلق المباشرة، وقيل: إنه يجمع الأمرين جميعاً. وقال محمد بن يزيد المبرد: الأولى في اللغة أن يكون «لامستم» بمعنى قبلتم ونحوه، و«لمستم» بمعنى غشيتهم. واختلف العلماء في معنى ذلك على أقوال؛ فقالت فرقة: الملامسة هنا مختصة باليد دون الجماع، قالوا: والجنب لا سبيل له إلى التيمم بل يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. وقد روي هذا عن عمرو بن الخطاب وابن مسعود. قال ابن عبد البر: لم يقل بقولهما في هذه المسألة أحد من فقهاء الأمصار من أهل الرأي وحمله الآثار. [فتح القدير (١٤٩/٢)].

وكان قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ دليلاً على أن المسحة الواحدة مجزية.

كما جاء عن رسول الله ﷺ: «أما كان يكفيك أن تضرب ضربة لوجهك، وأخرى ليديك؟»^(١).

وفي أخرى: «ضربة للوجه وأخرى للذراعين»^(٢).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ أي: عن كل حقه قبلكم ﴿عَفْوَاً﴾ [النساء: ٤٣] لخطاياكم، يطهركم بالماء والصعيد، ويذهب عنكم بذلك الرجس. كما قال - جلّ قوله - في سورة المائدة: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

كما قال ﷺ: «إذا توضأ العبد المؤمن كفرت عنه جميع خطاياه ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته له نافلة»^(٣) فإتمام نعمته عليه هو أن يكون شاكراً، وأن يكون طهوره بالماء غاسلاً لذنوبه كلها.

وكان رسول الله ﷺ يسأل ربه ذلك يقول: «رب طهرني بالماء والبرد والماء البارد، ونقني من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»^(٤) أي: الماء والبرد والماء البارد، ثم يكون بعد ذلك من الشاكرين، يعمل في إعلاء الدرجات رزقنا الله ذلك برحمته.

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٨٤٦)، وأبو داود (٣٢٦)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٧٣)، والدارقطني (٧١٦).

(٢) أخرجه الطبراني (٧٩٥٩)، وأحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في الأوسط (٥٤٢).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجه (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح، والبيهقي في الشعب (٢٧٣٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨).

(٤) أخرجه بنحوه البخاري (٧١١)، ومسلم (٥٩٨)، وابن أبي شيبة (٢٩٢٠٨)، وأحمد (٧١٦٤)، وأبو داود (٧٨١)، والنسائي (٦٠)، وابن ماجه (٨٠٥)، والدارمي (١٢٤٤)، وابن الجارود (٣٢٠)، وابن خزيمة (٤٦٥)، وابن حبان (١٧٧٥)، والدارقطني (٣٣٦/١)، والبيهقي (٢٨٩٥).

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ
الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَارْعِنَا لَيْئًا بِالْأَلْسِنَةِ وَطَعْنَا
فِي الَّذِينَ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ
فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا
يُظْلَمُونَ قَلِيلًا ﴿٤٩﴾ اَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبَاطُ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ [النساء: ٤٥ - ٥٠].

قوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾
[النساء: ٤٧] طمس الوجوه هو أن يذهب بأسماعها وأبصارها ونطقها، كما قال ﷺ: ﴿صُمُّ بَكْمُ غُمِّي﴾ [البقرة: ١٨] فإذا كانت الوجوه عديمة الحواس أشبهت الأدبار،
فهذا مسخ باطن.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ الذين قال فيهم: ﴿فَلَمَّا
عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦] فهذا هو
المسخ التام الذي عمَّ الظاهر منهم والباطن، وقد أصابهم المسخ الأول الذي هو
عدم حواس الوجه.

ألا تسمع إلى قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] فهم الصم البكم
العمي أشبهت الوجوه منهم الأدبار ومسخوا المسخ، وهو حقيقة اللعن، وهؤلاء هم
الذين يرد الله أن يُعمر قلوبهم، والذين حقت عليهم اللعنة كلمة العذاب ولعنوا
اللعن الباطن، ولم يبقَ إلا المسخ الظاهر، وأراه - والله أعلم - كائناً لهم في دار
البرزخ؛ لقوله الحق: ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾
نعوذ بالله من لعنه وبعده، ومن جميع ما يوجب ذلك، واللعن إبعاد بعذاب وأصل.

معناه: إن الإنسان كما تقدم مؤهل للتقريب والإنس إن هو أطاع واثتمر بما أمر به، وإن هو لم يفقه ما أريد به من ذلك، ولم يرفع به رأساً ولي ما تولى، وشغل بشغل لا ينفك وأمل لا يدرك وبحرص لا ينال، ولأنه لم يكذب ولا يصد عن السبيل بقي من أصله، وإنه متى ذكر تذكر، ومتى بُتّه تنبه، وإن أعقب ذلك النسيان وخلفت الغفلة انتباهه، فإذا توفي وُزنت الغفلة بانتباهه وذكره بنسيانه، فقرب على قدر ذلك ولا يظلمون قليلاً، ثم هو إن أمر ولم يأتهم وزجر، فلم يزدجر مُنِع السمع الباطن والبصر والبيان، وكان من طمس الوجوه على خطر.

قال الله ﷻ بعد قوله: ﴿صُمُّ بِكُمْ غُمِّي فَهُمْ لَا يَزْجَعُونَ﴾ [البقرة: ١٨] وهذا وصف لهم حال عقوبة إعراضهم بعد البيان، والمعرض بعد البيان قلما يرجع لقول الله جلّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ...﴾ [الكهف: ٥٧]. ثم قال جلّ قوله: ﴿وَرَبُّكَ الْعَفْوُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] هذا وصف منه؛ لإبقائه عليهم الصفات الظاهرة، وإلى بعد الموت.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٠] يعني: الظاهرة، وهو المسخ التام والفقد المجحف، كما طمس ﷻ أنوار الوجوه فردّها على أدبارها.

عبرة:

نبه الله - جلّ ثناؤه - الذين آمنوا، وذكرهم بأهل الكتاب توقيراً لهم وإكراماً لهم، يؤدّبهم بغيرهم ويريههم عقوباته في سواهم، فليعتبر أهل الأبصار، وليزدجر أولو البصائر.

ألا تسمعه ﷻ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا...﴾ [النساء: ٤٧] نحن أهل الكتاب، وقد قال رسول الله ﷺ: «لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة وحذو النعل بالنعل»^(١) وإنه من يعرض عن ذكر ربه نسلكه عذاباً صعباً، ومن نسي آيات ربه أورده المعيشة الضنك، وأعمى قلبه وأصم سمعه وأبكم لسانه عن فهم

(١) تقدم تخريجه.

كتابه عقوبة لإعراضه عن تفهم كتابه، ولقد خشينا أن قد لحقنا ما يواعدهم به من طمس الوجوه، وردّها على أدبارها آيات ذلك في الوجود جمّة، ودلائله كثيرة.

ألا تسمع إلى قول الله ﷻ فيهم عقوبة لإعراضهم عن كتاب ربهم: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم قال - جلّ قوله - معرضاً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ أي: أنذر أمتك بأسى ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧] فبشرهم عني.

كما قال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ....﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨] أترأه جلّ ذكره إنما يقص علينا أنباءهم، ويجتلب ذكر خطاياهم ويعلمنا معايهم تفكّها بذلك كله وجلاله، والحق الذي فطر به أرضه وسماه، وأنزل به كتابه إن هو إلا إكرام من كريم لمن أطاع الله واهتدى، وإنذار من حلیم حكيم لمن تأبى وأثر على الجد الهوينا وضع الحزم، وركن إلى الدنيا إيثاراً لها، وأخذ عزيز قدير لمن أبى واعتدى على الآخرة، واتبع النفس الهوى.

صدق رسول الله ﷺ لما ركبنا سننهم وقفونا أثرهم عميت منا القلوب، وصمت وبكمت، فأصغينا إلى الدنيا إيثاراً لها على الآخرة أظهرنا الإيمان على ألسنتنا، والكفر على جميع أعمالنا، وما أظهرناه من عمل صالح، وأبدينا من مكارم أخلاق وحسن فعال وجميل سيرة وطلب علم، فإنما ذلك منا على قدر حصول العاجلة به وما نكابه، ففي سبيل ذلك لا على سبيل خشية الله ﷻ، ولا مقصود بوجهه إليه.

عادات استمررنا عليها وضراوات ألفناها، فذهب لذلك الفهم وعمى الناظر وعشيت البصائر، وقست القلوب وتراكت الذنوب، وتحقق فينا قوله - جلّ قوله - فيهم: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] فهذا طمس موجود فينا لا ننكره، طمس الوجوه برّدّها على أدبارها جهلاً وعمى.

يقول عزّ من قائل: ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] نعوذ بالله من أخذه وأليم بطشه، ونسأله لنا معشر الأمة توبة صادقة، وإنابة خالصة ورجعة قريبة إنه على ذلك قدير.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧] خاصة هذا الخطاب هنا من

هذا المعنى أنه من لعنه، فمسخه المسخ الباطن ولم يسدد إلى التوبة، فإنه بعد الموت يحول ظاهره إلى ما مسخ إليه باطنه، فيعذب فيه إلى يوم القيامة، أو يتداركه عفوهِ ورحمته.

كذلك الكافر في الآخرة، قال الله جلّ من قائل: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ﴾ [القلم: ١٦] والخرطوم ليس من صفات الإنسان إنما يوصف به الخنزير والفيل والفأر ونحو هذه، سبحانه الله وله الحمد خلقه أولاً على صورة الحق، وصوّره باطناً فأحسن تصويره في أحسن تقويم، تمدح الله ﷻ بذلك بقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨] ثم رده بعد إلى أسفل السافلين صورة ومحلاً ومآلاً.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾^(١) [النساء: ٤٨] انتظم هذا بما تقدم من كفر المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، فوضح من ظاهر هذا الخطاب البيان البين أنه ﷻ حجز المغفرة على الكافر، وحرم رحمته على من أشرك به، والشرك غير مغفور بنصّ هذا الخطاب، وقد وعد بوعده الحق إنه يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ممن لا يشرك به شيئاً.

وقال بعض من تقدم رحمة الله على جميعهم: إن الله لا يغفر ما دون الشرك إلا بالتوبة، وهذا ما لا يعطيه ظاهر الخطاب الذي تلاه علينا ربنا ﷻ من كتابه العزيز،

(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ قال الكلبي: نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه؛ وذلك أنه لما قتل حمزة كان قد جعل له على قتله أن يعتق فلم يؤف له بذلك، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: أنا قد ندمنا على الذي صنعنا وأنه ليس يمنعا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ...﴾ [الفرقان: ٦٨] وقد دعونا مع الله إلهاً آخر وقتلنا النفس التي حرم الله وزيننا، فلو لا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا...﴾ [الفرقان: ٧٠] فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلما قرأوا كتبوا إليه: إن هذا شرط شديد نخاف ألا نعمل عملاً صالحاً، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنا نخاف ألا نكون من أهل المشيئة فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] فبعث بها إليهم فدخلوا في الإسلام ورجعوا إلى النبي ﷺ فقبل منهم، ثم قال لوحشي: أخبرني كيف قتل حمزة؟ فلما أخبره قال: ويحك غيب وجهك عني، فلحق وحشي بالشام فكان بها إلى أن مات. [تفسير البغوي (٢/٢٣٢)].

فإن الشرك أيضًا يغفره الله بالتوبة، فلو كان ما دون الشرك من الذنوب لا يغفر إلا بالتوبة لكان إخباره ﷺ بأنه يغفر متساوي المعنيين.

وفي إجماع العرب ومن تعرب من العجم على امتناع تساويهما أدل دليل على إغفال من قال ذلك، غير أن من المصريين عليها وهم يجهلون أنها ذنوب، لكن عموم الخطاب شمل الطائفتين معًا، فالتفرقة بينهما تعريض جراءة، والإصرار عليها من غير نزوع إلى التوبة منزلة بين منزلتين ما دونهما كفر، ولا رجاء معه في عفو ولا مغفرة، وما فوقها توبة وتقوى لا خوف معها من خلف وعد ونقض عهد، ففي منزلة المصريين إشكال؛ لكونها في موضع الشبهة، وفارقت منزلة الكافر والمشرک في إلحاق الرحمة بهم دون مرية منزلة المؤمن المصر، والحمد لله رب العالمين.

قال ﷺ في الكافرين: ﴿أُولَئِكَ يَسْأَلُونَ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣] وإن كان الإصرار إثماً، فإنه لم يلحق بالإثم العظيم والضلال البعيد.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

و﴿قَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال جلّ قوله: ﴿وَكَاثِبُونَ عَلَى الْحَنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٦] لا عهد

لمصر بمغفرة، ولا يأس على تائب من الرحمة، ولا رجاء لكافر ولا مشرك.

قوله جلّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩] يعجب نبيه

ﷺ، ومن تبعه من العلماء من ضعف عقول هؤلاء وضلالة عقولهم؛ لتزكيتهم أنفسهم، وذلك أن تزكية النفس وجودها أبداً عن العجيب والعجب عن الكبير، والكبير يوجب المقت من الله ﷻ، ومن الذين آمنوا بل الله يزكي من يشاء.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩] يريد الذين يزكيهم الله،

وهو لا يزكي ﷻ إلا من صلحت حالته عنده، فلا يظلمهم ما هو مقدار فتيل، بل لولا فضل الله عليهم ورحمته ما زكى منهم من أحد أبداً.

وقد يتوجه قوله هذا: ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ يريد؛ أي: هؤلاء المكذبين

والكافرين من عمل منهم خيراً أطعم به وعوفي ﴿وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ من ذلك، فإذا

كان الزكاء من الله ﷻ وهو يخبر البواطن ويعلم الظواهر، وما تؤول إليه عواقب

الأمور، فهو الواهب ذلك والمثيب عليه، فكيف تصح لمخلوق تزكية نفسه لعدم ذلك.

قال عز من قائل: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠] الزكاء: النماء، وهو الرفعة، فلان ينمي الحديث ﴿يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: رفعه، فمفهوم خطاب القرآن على هذا أن الزكاء ليس إلا ما كان من معنى القرب من الله ﷻ والتقرب منه؛ لذلك قال ﷻ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ....﴾ فإذا لا ينبغي لأحد أن يزكي نفسه، ولا أن يزكي أحداً.

قال رسول الله ﷺ: «بحسب المؤمن أن يقول في أخيه: حسبه كذا، وكذا أحسبه، ولا أزكي على الله أحداً»^(١) أحسبه أن يفترى على الله الكذب، وكفى بافترائه علينا إثماً مبيناً.

﴿تَرَى إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۖ ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۖ ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ۖ ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ۖ ﴿٥٤﴾ فَوَيْلٌ لِّمَن ءَامَنَ بِهِ وَمِنهُمْ مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ۖ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۖ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۖ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُوَدُّوا إِلَىٰ أَلْمَنَتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥١ - ٥٨].

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٢٥١٩)، ومسلم (٣٠٠٠)، وأبو داود (٤٨٠٥)، وأحمد (٢٠٤٨٠)، وابن ماجه (٣٧٤٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ يريد جلّ ذكره يهود ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] صنمان يعنيهما. وقالوا: الجبت: السحر.

وقالوا: هو السحر بلسان الحبشة، وربما كان مشتقاً من جاب يجوب جوباً، وهو القطع أن يقطع الحق بالباطل إلى أهوائهم، كما قال ﷺ: ﴿وَتُؤْمَدُ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] قطعوا الصخر وأجروا فيها الأودية إلى مقاصدهم، فكلما تعدى الحق فقطعه، فهو جبت.

والطاغوت مأخوذ من الطغيان، والطغوان لغة فيه، قالوا: والتاء زائدة للمبالغة كملكوت ورحموت وجبروت ورهوت ورغبوت، وكل ما خالف الحق فقد طغى وأوقع الطغيان، ولا خلاف للحق أعظم من اتخاذ إله من دون الله ذلك هو الضلال البعيد، وكل ما عُبد من دون الله، وكل فعل فُعل مخالفاً لأمر الله ﷻ، فهو طاغوت. انتظم معنى قوله فيما حكى عنهم: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] بمعنى قوله - جلّ قوله - لنبيه ﷺ: ﴿انْظُرْ كَيْفَ يَقْضُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٥٠].

أخرجهم عن التوحيد بقوله جلّ قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ﴾ يعني: ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: الكافرون ﴿أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١] وذلك أن قريشاً استفتوهم في شأن رسول الله ﷺ، فقالوا: أنتم أهل دين ونبوة، فما تقولون في دين محمد وديننا أيهما خير؟ فقالوا لهم: دينكم أفضل من دين محمد، وأنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، فجعلهم بذلك مؤمنين بالجبت والطاغوت أولئك الذين لعنهم الله، كما كتموا ما عندهم من صحيح نبوة محمد ﷺ.

ولهذا أنزل الله ﷻ لعنهم في التوراة؛ أي: بعدهم عن فهم كتابه وتصديق رسوله، فلم تنفعهم أبصارهم ولا أسماعهم ولا أفئدتهم لما لعنهم الله، كما فعل بغيرهم الذين قال فيهم جلّ قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ....﴾ [النساء: ٥٣] «أم» حرف ظاهره الاستفهام، قالوا: وقد يكون بمعنى ألف الاستفهام بعينها، تقول من ذلك: أعندك طعام؟ أعندك ماء؟ أفي الدار زيد؟ كما تقول: أم عندك؟

وحكى بعض أهل العلم باللسان إنها لغة يمانية، فيجعلونها في مبتدأ الكلام، فيقولون: أم نحن خيار الناس؟ أم نحن نطعم الطعام؟ أم نحن نضرب الهام؟ فلهذا أقرب معانيها إليّ ليس كالمعهود منهم في قولهم: ألسنا خيار الناس؟ ألسنا كذا؟ وعلى هذا يكون تقدير الكلام: أم لهم نصيب من الملك؟

ومن قال: إنه خطاب تقدمه محذوف مقدر، فما هو بمقصر عن الحقيقة، ولا بمتأخر عن السياق إلى الغاية، تقديره: لما كان اللوح المحفوظ جمع كل شيء كتباً، فأنزل على بني إسرائيل التوراة والزبور والإنجيل والفرقان، قال فيهم: إنهم أوتوا نصيباً من الكتاب، فإذا الكتاب المعني هاهنا هو اللوح المحفوظ، ومن أوتي نصيبه كذلك في عمله وأجله وأثره وشقاوته وسعادته، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب فأيدهم ﴿فَضَّلُ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤] أو ما يكون في معنى هذا من الكلام.

ثم عطف على المحذوف قوله جلّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ [النساء: ٥٣] لو كان ذلك ما أوتوا الناس من فضلهم، ولا مما بأيديهم نقيراً.

ثم أظهر ﷺ معنى ما حذف بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾^(١) [النساء: ٥٤] وبنو إسرائيل من آل إبراهيم وكذلك العرب، وفحوى هذا الخطاب أنا سنتم الفضل على العرب في ذلك، فنؤتيهم الكتاب والحكمة والملك.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ الضمير الذي في ﴿بِهِ﴾ مردود على الكتاب، وفحوى هذا أيضاً إنه كما كان في بني إسرائيل من آمن به، ومنهم من

(١) «أم» منقطعة مفيدة للانتقال عن توبيخهم بأمر إلى توبيخهم بآخر؛ أي: بل يحسدون الناس؛ يعني: اليهود يحسدون النبي ﷺ فقط، أو يحسدونه هو وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والنصر وقهر الأعداء. [فتح القدير (١٦١/٢)].

صدَّ عنه كذلك يكون في العرب جميع ذلك.

قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فأعلم بهذا أن من ذريته محسن وظالم لنفسه مبين.

وقال رسول الله ﷺ: «لتركن سنن من كان قبلكم....»^(١).

قوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ٥٥] اسم جهنم - أعادنا الله منها برحمته - بينى على رؤوس معانيها، فجيمنها وميمها تنبئان على ما استحق فيها من معنى المزيد، المعبر عنه قوله جلَّ قوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نُّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠].

وقوله جلَّ قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

ثم هاؤها وميمها ينبئان عن زمهريرها، ونونها تنبئ عن نارها وحميمها وهوائها، وميمها بمجموع ذلك عن الجهامة التي أوجدت، فهو اسمها الأكبر.

قال رسول الله ﷺ يحدث عن مسراه، قال: «ورأيت مالكا خازن النار» وذكر من جهامة وجهه في لقيه لم يتبسم إليه، ولا هشَّ له بغير السلام عليه، قال: «فقلت لجبريل: من هذا؟ قال: مالك خازن النار، لو ضحك إلى أحد لضحك إليك»^(٢).

قال الله ﷻ: ﴿غُلَظٌ شِدَادٌ﴾ [التحریم: ٦].

وكلمة ﴿وَكَفَىٰ﴾ يعبر بها عن نهاية الإبلاغ في معنى ما أخبر بها عنه، كقوله جلَّ قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] و﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].

والسعر نوع من العذاب يعتمد على تعذيب النفس، وحقيقته شدة تحريك الصفات الباطنة بالأمر العذاب المستعر، وقصدها بوجود العذاب، نعوذ بالله من ذلك.

سعر النار: شدة اضطرامها وسرعة اشتعال لهبها، فلها لأجل ذلك قصيف وشهيق؛ لسرعة إلهابها ما جعل لها وعظيم التهابها، وتداخل وجودها في مأخذها لذلك يكون وصف المستعر الصفات خورًا في عزيمته، وثباته وتبلدًا في خلده، كثير الحركة قليل السكون، عديم الصبر فقيد الرضا، شديد القلق حرج الصدر، كثير

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ذكره بنحوه ابن كثير في تفسيره (١٤/٥).

الغضب يغضب بغير مغضب، ويألم بغير مؤلم، لم تسكن نفسه فرقاً وقلقاً وسعراً، فإذا اقترن بذلك عذاب السعير، فما ظنك وموجود الآخرة ينشأ عن هذه إلا ما لا يبلغه وهم متوهم.

والسعر يلهي بما هو عن كل شيء سواه، وهو عذاب الشياطين فيما أعد الله لهم فيما هنالك، ولاقتران كل إنسي بشيطان كان له قريناً في دار الدنيا، سرى عذاب السعير إلى الإنس، كما أصاب الشياطين غيره من عذاب جهنم؛ لا اقترانهم بالإنس، وعذاب جهنم - أعادنا الله الرحيم برحمته منها - يعمهم.

قال الله ﷻ في الشياطين: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ * وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ [الملك: ٥ - ٦].

وقال أيضاً: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبَقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١١ - ١٣] أي: جن بإنس وإنس بجن.

وقال جل قوله: ﴿وَمَنْ يَعْلَمْ غَيْبَ الْغُيُوبِ * يُصْغِرُ كِبَىٰ أَشْيَاءَ وَيُكَبِّرُ سَلَاسًا * وَمَنْ يَعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكما كان له قريناً في الدنيا، فكذلك هو قرينه في الآخرة.

ألا تسمعه جل من قائل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

يقول الله - جلّ قوله - لكل قرين منهم: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُمُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٩].

ولذلك قال: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] وقد تقدم من ذكر اقترانهم قبل هذا ما يغني عن التطويل.

فصل

يضاعف العذاب على أئمة الضلال بما أضلوا غيرهم، وضلوا هم في أنفسهم، كما قال الله جلّ قوله: ﴿لِيُحْمَلُوا أَوْزَارُهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

وقال جلّ قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

العَذَابِ ﴿[النحل: ٨٨] على الاتباع الذي عبّر عنه قوله الحق: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] فهو - والله أعلم - لأجل اقترانهم بأقرانهم الذين أضلّوهم من الشياطين، فيصيب هذا عذاب هذا.

يقول بعضهم لبعض: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فتقول لهم الخزنة: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩].

ويكون تضعيف العذاب أيضًا بحكم الميراث يرث الكافر منزل المؤمن في جهنم، كما يرث المؤمن منزل الكافر في الجنة وملكه وأهله ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] الصلى قد يكون العرض، وهو عذاب الدار الوسطى.

قال الله ﷻ: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةً جَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٩٣ - ٩٤].
تقول العرب: «صلى فلان عصاه» إذا أدارها على النار.
ومنه: الصلى والاصطلاء بمعنى المباشرة، تأمر من ذلك: صل النار يا هذا؛ أي: باشر حرها، فإذا ألقى فيها تقول: أصل النار وأصليته وصليته أنا تصلية.
قال الله ﷻ: ﴿اضْلَوْهَا فَاضْبِرُوا أَوْ لَا تَضْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦].
﴿اضْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [يس: ٦٤].

النضج هو الطبخ - أعادنا الله الرحيم برحمته من عذابه - وهو نوع من العذاب، وحال من أحوالهم، وهذا كله من عذاب الدار الوسطى دار البرزخ، وهي دار يجتمع فيها لأهل الإيمان والعمل بطاعة الله ما يفضل على نعيم الدنيا، ولم يلحق بنعيم الآخرة كذلك يجتمع لأهل الكفر والتكذيب ما يفوق عذاب الدنيا، ويقصر عن موجود عذاب الدار الآخرة، وهناك هو أشد العذاب ذلك العشاء، والغيبش فيهما من ضياء النهار وظلام الليل.

والشي والاحتراق حالان من أحوالهم، نعوذ بالله من أحوال النار في الدنيا والآخرة.

والصهر للجلود ولما في البطون أحوال تحول عليهم بمصبوب الحميم، ليس

كالمعهود في الدنيا إنما هو صب يصب عليهم، فتقع الجلود كسطاً لها عنهم، ويصل ذلك إلى أجوافهم، فيصهر حشوه فتقع من دبره، ثم يسجرون في النار على حالهم تلك؛ أي: يوقدون فيها، فإذا انتهوا إلى ذلك عادوا إلى ما كانوا عليه، ثم يذوقوا عذاباً غيره هكذا أبداً.

ولا عبرة باعتراض من اعترض بمعنى الغيرية في قوله جلّ قوله: ﴿بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ فإن الجلود مخلوقة من أجسامهم، وذلك مشاهد بالوجود، فإننا نرى من أصاب الجسد منه خدش أو سجع موضع منه، أخلف الله ﷻ من نفس الجسد جلداً متصلاً به، وهو غير ذلك الجلد المسلوخ، وعلى ذلك فإنه جلد لذلك العضو، فهو الذاهب غير، وهو خالف له من نفس الجسد الذي كان الذاهب جلداً له وهو منسوب إليه، ولم نرَ جلداً آخر أحرقتة النار خلف جلد مكانه شبيه الأول في بشرة ولون، وتلك آية على تبديلهم جلوداً هي أقبح مرأى وهيبة من التي كانت قبل.

وهو الله الذي لا إله إلا هو المصور، لا يعجزه صورة يصورها في الحسن والقبح، فهذا تأويل آخر من تأويل قوله ﷻ: ﴿جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ ومن أصدق من الله حديثاً، وهذا من مقدره الغائب كإيجاده عن ذات الميت ذاتاً ينقل إليها الحياة، تستق هذه الحقيقة من تلك الذات ليست الذات المشتقة منها، ولا هي غيرها، ولا يصح الاعتقاد ولا القول بأنها غيرها، بل هي موجودة منها وعنهما بل هي هي، فإنها الذات التي أخذ عليها الميثاق في البدء الأول.

قال الله - عزّ من قائل - يخاطب ذواتنا هذه ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ [الحديد: ٨] أي: فيما هنالك إن كنتم مؤمنين؛ أي: بما أنبأناكم به من قضاء القضية وأخذ الميثاق عليكم، وتطلب ذلك في سائر الموجودات تُصب إن شاء الله.

أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦] العزيز في انتقامه، الحكيم الذي أحكم صورة جزائهم على صورة أفعالهم، فلم يعذب غير المسيء ولا أثاب غير المحسن، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤] وهذا من مقدوره الغائب كإيجاده مثلاً للميت يكون ذاتاً له، ويكون ذلك المثال هو الحي يشتق هذه الحقيقة من حق تلك الذات التي بطنت بالموت،

ليست هذه المشتقة هي المشتقة منها، ولا يصح الاعتقاد، ولا القول بأنها غيرها بل هي موجودة منها وعنهما.

قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

قد تقدم القول في غير هذا الكتاب أن الجنة اسمها مأخوذ من المعنى الذي أجته فيها هو لها، بمنزلة الروح الحاملة عبّر عنه بقوله الحق: ﴿فَلَا تَغْلُمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»^(١) بله ما أطلعتكم عليه.

وأما الظل الظليل فهو ظل الله ﷻ، وأحد وجوهه أنه موجود الكفاية والوقاية والرفع والإكرام.

تنبيه:

ذكر ﷻ الجنة وأنها كناية عن ملكها وخلودها وأزواجها، ثم عطف ﷻ بالواو على ذلك في قوله: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ وقد وصفها قبل فيما وصف بأنه فيما هنالك في ﴿ظِلٍّ مُّمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ [الواقعة: ٣٠ - ٣١] إلى غير ذلك من وصفه الحق.

وقال أيضًا جلّ قوله: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَذَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ [الإنسان: ١٣ - ١٤] وإذا كانت كما قال - جلّ قوله - وقوله الحق ووعد الصدق: لا شمس فيها تؤذي بحرّها، ولا ما يضادها من البرد والزمهرير كالمعهود في الدنيا، وأن معهود نفع الظلال في هذه دفع أذية حر الشمس، وحجب عن هبوب سموم الرياح بضرورها وحرورها وعصوفها وقصوفها، وإذا كان فيما هنالك لا أذية موجودة لشمس ولا برد لرياح، إنما هو الرضوان والرحمة يحولان معهم وبهم كل متحول، ويتقلبون كل منقلب، فما وجه الحكمة

(١) أخرجه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، والترمذي (٣١٩٧) وأحمد (٨١٢٨)، والطبراني (٥٧٠٦)، وابن أبي شيبة (٣٣٩٧٣).

في إيجاد الظلال هنالك؟ وما الذي يدافع بها؟ وما الذي يصيب أحدهم متى برز عما هو ظل له إلى ما ليس هنالك بظل؟!

توجيه:

والله أعلم معهود «ما» هاهنا الاستجارة بالحرّ من البرد وبالبرد من الحر، وبالاختماء من الأذية والرياح بالجبال والبيوت، وبظلال ما خلقه الله ﷻ لها دفاعاً للأذية من النفسين، وما يتبعهما، وما يكون عنهما وقاية وطلباً للدفاع والكفاية، ونحو ذلك.

وأما في الجنة التي هي دار الحيوان ومحل النعيم المقيم، فإنما هو الإكرام والتنعيم ليس فيما هنالك موجود يتوقى، ولا يدافع بما يقابله ويضاده، كما ليس في جهنم - أعاذنا الرحيم برحمته منها - موجود توقى به عظيم ما سلط عليهم، ولا شيء يدافع به ما هم بصده، وقد يتفهم حال أهل الجنة فيما نحن بسبيل تبينه بأن تفهم تعذيب أهل جهنم، وما جاء في وصف أحوالهم.

قال الله ﷻ: ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ * انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣٠] أي: تفرع إلى ثلاث أحوال، الله أعلم بما يتفرع إليه كل حال، أحد الشعب: إنه ظل ﴿لَا ظِلِيلٍ﴾ أي: لا يدفع مكروهاً ولا يوقى محذوراً.

والثاني: ﴿لَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٣١] أي: ليس بكنين، فيستكن به من اللهب أو حريق أو غير ذلك.

والثالث: إن ذلك الظل من دخان النيران، فأشبه الظل بوجه ما في عدم نوره، وأشبه موجودات جهنم في ظلمته وأخذ بالأنفاس إهانة وتعذيباً، كما قال جلّ قوله: ﴿وْظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣ - ٤٤].

ثم أخذ ﷻ في وصفها - أعني: النار - بقوله جلّ قوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَظْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢] وجاء في وصفه لها: إنها فيما ليس بكن ولا واق شيئاً ترمي بذلك الشرر وهي صواعق، فتصيبهم دون حائل ولا دافع.

فظلال أهل الجنة إذاً على مفهوم هذا الإكرام والتنعيم يوجد لهم ﷻ في الظل إكراماً ما ينعمهم به، ويوجد لهم في البروز على الظل إكراماً ما ينعمهم به يعرفون به

ذلك من هذا، كما يعرف أهل الدنيا فرق ما بين الشمس في البروز إليها، وبين الظلال باختلاف منافعهم في ذلك ومضارهم، وإنما هو فيها هنالك الرضوان والرحمة ثم الإكرام والتنعيم.

فصل

أما في الدنيا فمنافع الظلال والتبرر عنها مفهومة معلومة، وقد جعل الله ﷻ ظلال ما هاهنا آيات على ظلال ما هنالك، فقال جلّ قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [النحل: ٨١].

ثم ذكر جلّ ذكره الوقايات بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾ ثم عبّر بالذكر جلّ ذكره إلى حال الدار الآخرة؛ ليرفع همم العباد صعداً، فقال جلّ قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما في هذه فعلنا ﴿يَتِمُّ﴾ الله ﴿نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ بدخول الجنة ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١] هذا من الإسلام بخفض اللام ورفع التاء، وفيه محذوف تقديره: يبين لكم آياته لعلكم تسلمون.

وقرئ: «لعلكم تسلمون» من السلامة؛ أي: لعلكم تسلمون فتسلمون مما هو أدهى وأمر، ومباشرة ما هو أكرم دفاعاً ووقاية، وظله - تبارك وتعالى - في البرزخ دفاع عذاب ما هنالك وفتنته وظلال جناتها، كما قال جلّ قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٩].

وظله في عرصة القيامة: دفاعه وحفظه وتأمينه وتأنيسه، وظل العرش يومئذٍ، وظله في الجنة ما تقدم ذكره والرضوان والتنعيم والرحمة.

توجيه آخر:

إن الله ﷻ فما سخر لنا في هذه الدنيا السماء والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار والأنهار، وكل ما دخل تحت قوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الباقية: ١٣] جميعاً منه، فهو كله مسخر لابن آدم في الدنيا وبخاصة المؤمن، فإن ذلك كله قد زاد في التسخير له بالهداية والإرشاد

وتعليم العلم، والإخبار له بما جعل له وبمن جعله، وما المراد منه وبه شهادته وغيبه.

وجميع ذلك بالضد للكافر في الدنيا من حيث الإضلال والفتنة، والتعمية والتليس ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣] ثم هو في عرصه القيامة، كل ما ذكرناه يشهد للمؤمن بقبوله منه وهدايته به ويشفع له، ويشكر له ما فرط منه فيه، وهو للكافر شاهد عليه متبرئ منه معذب له - نعوذ بالله من ذلك - تعود سخرية له في الدنيا عدواناً في حقه، ويلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، ثم هو في دار القرار على ما تقدم ذكره على سنن النشء، فافهم.

وبوجه آخر:

قال رسول الله ﷺ: «تروون ربكم عياناً كما تروون الشمس صحوّاً ليس دونها سحب، وكما تروون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيتهما ولا تضارون»^(١) وهذه رؤية على الدوام، كما أن الشمس يخلفها القمر ليلة البدر، والقمر تخلفه الشمس من غد ليلة البدر، لكن ذلك واحد لا يأتي معه.

وأما ذكر الشمس والقمر لما علمه من أقول الشمس وأقول القمر، فجمع بينهما؛ إذ الرؤية على الدوام لا تتحصل إلا بمجموعهما، وما هنالك لا أقول ولا تنقل ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ﴾ كناية عن الآخرة ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧] كناية عن الدنيا هذه زيادة على ما له من المثل الأعلى اليوم في السماوات والأرض، فافهم ذلك.

وقال سبحانه وله الحمد: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلِئَلْجَزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] إشارة إلى ما تقدم ذكره، فراجع النظر من مبتدأ الكلام في هذا المعنى تفهم المراد إن شاء الله تعالى، وهو المستعان.

وقال وقوله الحق: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقِهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقِّ﴾ [النور: ٢٥].

(١) أخرجه بنحوه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٢٩٦٨)، والترمذي (٢٧٥٢)، وأحمد (١١٤٢٦)، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٢)، والطبراني (٢١٨٤).

وقوله جلّ قوله: ﴿وَلِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢].

قال وقوله الحق: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] فَأَنْبَأَكَ ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه، إن عقلت معنى الخطاب، ووقفت على سر المراد أنه هو الحق المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، فعلى هذا إن هذا الحق المذكور ينشأ به التحقيق والتبيين في الدار الآخرة، إن الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يكون المرئي يومئذ على الدوام دون أفول، كما نرى الشمس والقمر.

ولما كانت الشمس والقمر قد جعل ﷻ بأمره لهما من المنافع ما تقدم الكلام على بعضه في موجودات هذه الدار، وليس فيما هنالك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا كواكب، بل هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يومئذ المرئي، والحق الذي نشأ إليه حق ما هنا، فموجودات ما هنالك، وأمر ما هنالك موجود كله عن الحق المبين لا بوسائطه ما هاهنا، بل على القرب والكشف كما نوع الاستظلال بظلال ما خلفه، وميز ما بينه وبين البروز عنه برحمة منه، هي دفاع ضر هذا بنفع هذا، وكفاية ما جعل في هذا، أو نفعه لما يقابله من هذا من نفع أو ضر بلطف لهم ببره، ويعلمهم بحسن تدبيره ليربهم من آياته ما يذيقهم من بأسه بهذا، وبما يدفع عنهم برحمته، فهذه على موجودات دار القرار.

وكل ذلك من رحمته وكريم بره، كذلك فاعلم ينوع ﷻ بنعيمه إياهم رضوانه وإكرامه، كيف لا وهو القائل جلّ قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] أما مثلهم في دار البرزخ حال موتهم، فهو أن السماوات والأرض، وما بين ذلك موجود كله وهم - أعني: الأشقياء والسعداء - هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، كما عبّر عنه قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا...﴾ [النساء: ٥٦].

وقال في السعداء: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧] فنفسا جهنم موجودان اليوم حال الموت صير الله الكفار إلى حقيقتهم، وبخاصة إلى النار كما تقدم، وأما السعداء فهم كما قال الله وقوله الصدق: في جنات وفي ظل ظليل، لا يصيبهم من نفسي جهنم الموجودين في دار الدنيا في حال البرزخ حال موتهم الظاهر، بل هم في ظل ظليل اليوم، كما تقدم القول في هذا المعنى، فكانوا في الدنيا يكنهم بالأبنية

والمباني البيوت والأكنان وغيرها، فلما ماتوا أدخل أوليائهم المؤمنين الجنة، فهم في الظل الظليل، وأدخل أعداءهم سموم الحرور، وما تقدم في توجيهات من كلام تنويع لحقائقهم واجدوها هؤلاء وهؤلاء.

وعلى القول بالإجمال، فالظل على ضربين الكفاية والوقاية، كقولهم: أنا في ظلك؛ أي: في كفايتك، وهو الأصل في هذا الشأن، ظل الظواهر كظل البيوت والأشجار وغيرها؛ لما فيها من الوقاية، فالمؤمنون مأواهم بعد الموت الآن الجنة في دار البرزخ، ولا ينالهم حرور ولا زمهيري، كما قال - عز من قائل - في شأنهم: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

والكفار مأواهم جهنم اليوم، وبخاصة النار منها، ثم يوم القيامة يعيدهم المبدئ المعيد ﷻ ليوم الجمع بما فيه، ثم يصيرهم فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير، وهو أشد العذاب وهو دار القرار، فأخرجهم إلى البعث هو المستثنى من الخلود بين العذاب الأوسط والأخير، لما مات أحدهم كافرًا كان جزاؤه الخلود في جهنم، ثم يتصل حكم الخلود أيضًا، ولما كان من فضائل الحق أن يجمع الأولين مع الآخرين في صعيد واحد، استثنى تلك المدة من حكم الخلود وهو الخلود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١) [النساء: ٥٨] الأمانة: كل ما ائتمنت عليه بنية توجب عليك

(١) نزلت هذه الآية في عثمان بن طلحة الحنظلي من بني عبد الدار، وكان سادس الكعبة، فلما دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح أغلق عثمان باب البيت وضعد السطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلبه منه رسول الله ﷺ فأبى، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلو علي ﷺ يده فأخذ منه المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله ﷺ البيت وصلى فيه ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح وأن يجمع له بين البقاية والسدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله ﷺ أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه، ففعل ذلك علي ﷺ، فقال له عثمان: أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق، فقال علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، وكان المفتاح معه، فلما مات دفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. [تفسير البغوي (٢/٢٣٨)].

أداءها بحكم أحكام الدنيا.

والأمانة الكبرى ما قرررك من الإقرار له بالربوبية، وعلى نفسك بالعبودية، والتزام التوحيد والإيمان بالله وبرسله وكتبه، وأشهدك بذلك على نفسك، ثم أوجدك بها ونبهك بشواهد وآياته، وأكد ذلك بإرساله وإنزاله الكتب، فهذا أمانته عندك؛ لتؤديها إليه يوم رجوعك إليه، كما أشهدك إياها وشهد بها عليك، ثم ما ائتمنتك عليه من مقتضى أوامره ونواهيه على جميع تفصيل ذلك أن تؤديها إليه في جملة أعمالك مما استودعته، وائتمنته إياه أن يؤدي ذلك إلى من استودعته، وأنت من طلاقة الوجه يوم الأداء وطيب النفس كالיום الذي استودعك.

وأما معنى قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧] فالأمانات كلها في هذا الذكر، وهو أعلم ما جعله في قلوب العباد من زواجر على إتيان معاصيه، وترغيب ونزاع إلى العمل بطاعته، وذلك عظمه في قلب كل مؤمن.

وقد بين القرآن العزيز هذه الأمانات ما هن، وبينها رسول الله ﷺ، وأن جملتها قوله جلّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العنكبوت: ٧] وأن ظلهم الذي يدخلهم فيه على الإجمال ما عبّر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

وقوله الحق: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

و﴿اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

وأن ظله الظليل في الدنيا: الهداية والولاية، والإرشاد إلى ما يرضيه، والعون منه والاستعمال له، وفي عرصة يوم القيامة ظل الغمام من حرّ هجير جهنم إذا قربت من وهج الشمس يومئذ، إذا هي أدنيت من الخلائق.

وأن ظله في دار القرار: ما عبّر عنه اسم الرضوان، حديث رسول الله ﷺ الذي ذكر فيه: «سبعة يظلهم الله بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله»^(١) يعني: انقطاع الدنيا

(١) أخرجه مالك (١٧٠٩)، والبخاري (٦٢٩)، ومسلم (١٠٣١)، والنسائي في الكبرى (٥٩٢١)، وأحمد (٩٦٦٣)، والترمذي (٢٣٩١) وابن حبان (٤٤٨٦)، وابن خزيمة (٣٥٨)، والبيهقي في

وأهلها، وظلال ما خلق الله ﷻ فيها، وأن ذلك هو في دار البرزخ وعرصة القيامة، ودار القرار وفي الجنة.

وبعبارة أخرى:

ظل الله هناك دفاعه المكروه على الكمال، وكانوا في الدنيا قد صدقوا وآمنوا بالجنة والنار، فوقاهم الله عذاب النار وأنالهم الجنة بنعيمها، وبما آمنوا بموجودات تينك الدارين، وأخذوا علم ذلك مما هنا في هذه الدار أعطاهم الله موجودات ما هنالك، وزادهم على علومهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبالضد في الكافرين، وكانوا في الدنيا يستريحون من حرّ الشمس إلى الظل لبرده، ويستريحون من برد الزمهرير بحرّ الشمس، فلما أدخلهم الجنة لم يكن فيها شمس، ولا زمهرير إنما هو ظل الله وكنفه ووقايته وتنعيمه وإكرامه، كما كانوا في الدنيا في ظل إيمانهم به وعملهم له، وكان معهم بذكرهم كما قال الله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وأبعد أولئك ﷻ لبعدهم عنه بعدم الإيمان، والعمل بما كذبوا بالجنة والنار، ولم يروهما بآياتهم التي كانت تغدو عليهم، وتروح تغدو بهم، وتعلو بهم في ذواتهم منعوا هذه، وتوعرت عنهم حبيبة المحبوب، من حيث إن الله هو المحبوب الأكبر لا أكبر معه، وهو في جواره وظل الجوار معلوم ومعهودة الإكرام وحسن الدفاع.

أعقب ذلك قوله الحق: ﴿وَإِذَا حَكُمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾^(١) [النساء: ٥٨] ثم القول الذي تقدم، وهو ما عبّر عنه قوله الحق:

شعب الإيمان (٧٩٤).

(١) أي: إن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، والعدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد، فإن ذلك ليس من الحق في شيء إلا إذا لم يوجد دليل تلك الحكومة في كتاب الله ولا في سنة رسوله، فلا بأس باجتهاد الرأي من الحاكم الذي يعلم بحكم الله سبحانه، وبما هو أقرب إلى الحق عند

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
[النساء: ١٢٢] فهو مصداق لقول رسول الله ﷺ: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل»^(١).

وهو قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا حُكِمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ السبعة الأصناف من الإيمان والعمل الصالح، لكنه أكد على الحكام في العدل لما في ذلك من الأثرة لهم يومئذ.

عبر عن ذلك قول رسول الله ﷺ: «المقسطون على منابر من نور في ظل العرش، أو تحت ظل العرش يفزع الناس ولا يفزعون»^(٢).

أجمل ذلك قول الله جل ذكره: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ لما أمن الناس ظلمهم ﴿وَهُمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] أي: اليوم بإيمانهم وعملهم الصالح.

أعقب ذلك قول الحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أبلغ في الموعظة ذكر جهنم فأبلغ في الوصف، وذكر الجنات فأبلغ، وذكر ظله الظليل وجواره الكريم فأشفى، وبأبلغ في التشويق والترغيب في إيجاز قول وكريم عبارة، وأمر بآداء الأمانات إلى أهاليها تعم المأمور كله، والمنهي كله وجوهه لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا عملاً مقبولاً لمن لا إيمان له، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

والوعظ يكون ترغيباً وترهيباً، وأصله في الترهيب لكنه لما كان الوعظ تحذيراً من فوت المحبوب كان ترغيباً، فوعظهم الله ﷻ أن يفوتهم ما تقدم ذكره من المحبوب والفوز العظيم، ورهبهم جل ذكره بما يضاد الإيمان والعمل الصالح، فتكون المجازاة من قبيل ذلك، ويذكرهم جل ذكره بذكر الظلم إنه ظلّمات يوم

عدم وجود النص، وأما الحاكم الذي لا يدري بحكم الله ورسوله، ولا بما هو أقرب إليهما، فهو لا يدري ما هو العدل؛ لأنه لا يعقل الحجة إذا جاءت، فضلاً عن أن يحكم بها بين عباد الله. [فتح القدير (١٦٥/٢)].

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه بنحوه الطبراني (١٥٤).

القيامة، وفي الدار الوسطى والدار الآخرة في الظلمات السفلى، حيث لا نور ولا منبر.

فصل

حكم العدل في الحكم بين الناس من صلة الرحم.

قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» قيل: هذا ينصر المظلوم، فكيف ينصر الظالم؟ قال ﷺ: «تأخذون على يده فيكفه ذلك عن الظلم فذلك نصر له»^(١) ذكرهم جلّ ذكره بالعدل بين الناس؛ إذ مشي العدل على الصراط وبأداء الأمانة حقوق الأمانة، والرحم جنبتي الصراط بما يكون مع ذلك من كلاليب وخطاطيف وحسك وشائكات وعثار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَوَفِّينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٦٣﴾ [النساء: ٥٩ - ٦٣].

لذلك قال جلّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨] من ذلك في الآية بعدها في قوله جلّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٤) والترمذي (٢٤٢١) وأحمد (١٢٢٧٣) وأبو يعلى في مسنده (٣٧٣٥) والبيهقي (٢٠٦٧٢) وعبد بن حميد (١٤٠٤) وابن حبان (٥٢٥٩) والطبراني في الصغير (٥٧٧).

الأمر منكم...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فكان وجه الخطاب في الآية الأولى إلى الحكام، وفي الآية الثانية إلى الأتباع والمحتكمين ألا يخرجوا عن أحكام المسلمين.

أتبع ما هو في معناه قوله الحق: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾^(١) إلى قوله تعالى: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] إلى قوله: ﴿صُدُّوْا﴾ [النساء: ٦١].

كما قال جلّ قوله: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] كذلك إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ....﴾ [النساء: ٦٩].

هؤلاء هم المنافقون: ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ [النساء: ٦١] صدوا عنك وأبوا.

يقول عزّ من قائل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وهو على حالهم من تبريهم من الله جلّ ذكره ومنك ومن المؤمنين إلى ما يركنون ممن يستغيثون من كشف ما بهم ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ [النساء: ٦٢] حرف «ثم» للعطف على حالهم تلك في بواطنهم، وهي حال النادمين الراجعين على أنفسهم

(١) قال الشعبي: كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ولا يميل في الحكم، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ويميلون في الحكم، فاتفقا على أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت الآية. وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر، كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: نطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي سماه الله الطاغوت، فأبى اليهودي أن يخاصمه إلا إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ففضى رسول الله ﷺ لليهودي، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: انطلق بنا إلى عمر ﷺ، فأتياه، فقال اليهودي: اختصمت أنا وهذا إلى محمد ففضى لي عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه يخاصم إليك، فقال عمر ﷺ للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، قال لهما: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل عمر البيت وأخذ السيف واشتمل عليه، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: هكذا أقضي بين من لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، فنزلت. وقال جبريل: إن عمر ﷺ فزق بين الحق والباطل، فسمي الفاروق. [تفسير البغوي (٢/٢٤٢ - ٢٤٣)].

باللوم لشدة الندم.

يقول الله جلّ من قائل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إشارة إلى ما فيها من الندم مع الإباء عن الإقلاع، واللجاج فيما هم بصدد، يقول عزّ من قائل: ﴿فَاغْرُضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾^(١) [النساء: ٦٣] هذه حالة العصاة ربّه إذا دهشته عواقب سوء أعماله، فلا يجد من يرجع إليه إلا إلى الله جلّ ذكره فيجد في قلبه شبه التقرّيع والتقرير والوعظ والتعريف له، والتوقيف على قبح صنعه، ويستشعر الإعراض عنه وعسر الإجابة، ودفع الاستيعاذ حالته تلك، فإذا قيضه الله للعزم على التوبة فعسى أن يستجاب له.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنِييَةً ٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنُهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ٦٧﴾ وَلَهْدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ٧٠﴾ بِتَأْيِهَا

(١) قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ وفيه وجوه: أحدها: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا. والمعنى: قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتنمون به اعتناءً ويستشعرون منه الخوف. الثاني: وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بليغاً هو أن الله يعلم ما في قلوبكم، فلن يغني عنكم الإخفاء، فطهروا قلوبكم عن دنس النفاق وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك أو شراً من ذلك وأغلظ. الثالث: قل لهم في أنفسهم خالياً بهم مساراً لهم بالنصيحة، فإن النصيحة بين الملاءمات تقرّيع وفي السر أنفع قولاً يؤثر فيهم. وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أن يكون كلاماً حسناً وجيز المباني غزير المعاني يدخل الأذن بلا إذن، مشتملاً على الترغيب والترهيب والإعذار والإنذار. [تفسير النيسابوري (٢٠/٣)].

الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ بَنَاتٍ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَدِّلَنَ فَإِنْ
أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَاهِدًا ﴿٧٢﴾ [النساء: ٦٤ - ٧٢].

ثم بيّن ﷺ كيف المأتم لهذا الشأن بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] هذا باتصال الولاية والحذر والوقوع في محذور؛ إذ ذاك يجد الله توابًا، إنما الهرب كله إلى الله ورسوله والكتاب والأولياء، والله العوض من كل مفقود ﷺ؛ لذلك قال: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] وإلى ربه يفرع اللفهان ذلك أقرب مأخذًا وأسهل مسلكًا من الخروج من الأوطان وقتل النفس، ولو كلفوا ذلك فالهرب إلى الله والرسول والكتاب خير وأشدّ تشيئًا، وأكرم عائدة وأجزل فائدة، وأقرب إلى الهداية بسواء الصراط.

وربما ألحق بالأولياء كما جاء: إنه ليقول في الثالثة: «من الهرب إليه» والرابعة: «عبدى اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(١) على هذا إشارة الله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...﴾ [النساء: ٦٩].

ثم أخذ ﷺ في ذكر الجهاد والحض عليه، والتنفير عن المنافقين وأهل الكتاب وأعمالهم، وعن قبول كلامهم، ويأمر بالإعراض عنهم وإغلاظ القول لهم، ويذم أهل الكتاب، والذين يكلوا عن القتال لما كتب عليهم، ويقلل لهم في ذلك عمر الدنيا، ويזהدهم في البقاء فيها، ولا بقاء هذا كله من ذكر أهل الكتاب والمنافقين تأدييًا لنا بغيرنا بعمله المحيط بما هو كائن فينا ومنا.

﴿وَلَيْنَ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٣﴾ فَلْيَقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقْتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ تُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٧١٦٢)، وأحمد (١٠٦٥١)، وأبو يعلى في مسنده (٦٤٠٢)، وابن حبان (٦٢٧).

أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾
 الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقِيمُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ
 الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ
 وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا
 رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى
 وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ
 يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَؤُلَاءِ
 الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ [النساء: ٧٣ - ٧٨].

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾^(١) [النساء: ٧٨] أشبهت قلوبهم قلوب الكفار قبلهم، فتشابهت أقوالهم لأنبيائهم، فكانوا إذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا: هذه، وإن تصبهم سيئة يطيروا بأنبيائهم كما قال أولئك: ﴿إِنَّا نَطَّيِّرُنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨].

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قال الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَهُمْ: كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] والفقهاء: فهو معرفة مخارج الأمر والنوازل من الحوادث من حيث ظهرت، وأصولها التي عنها انبعثت، ولو فقه هؤلاء لعلموا أن

(١) ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ نزلت على ما روي عن الحسن وابن زيد في اليهود، وذلك أنهم كانوا قد بسط عليهم الرزق، فلما قدم النبي ﷺ المدينة، فدعاهم إلى الإيمان فكفروا أمسك عنهم بعض الإمساك، فقالوا: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل، فالمعنى: إن تصبهم نعمة أو رخاء نسبوها إلى الله تعالى، وإن تصبهم بلية من جدد وغلاء أضافوها إليك متشائمين كما حكى عن أسلافهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١].

الحسنة هي بفضل الله ورحمته، وأن السيئة منبعثها عن سوء أعمالهم جزاء من الله ﷻ لذنوبهم؛ لعلهم يذكرون.

ثم فصل بقوله الحق ﷻ: قيل: يا محمد، ويا أيها العبد ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] أي: بشؤم ذنوبك وجزاء معاصيك لقوله جلّ قوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (٧٩) مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُوا طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِّنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَنِيلٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكُفُّ إِلَّا نَفْسُكَ وَحَرِضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ [النساء: ٧٩ - ٨٤].

ذلك قوله الحق: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

كما قال جلّ قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

بَيَّنَ ذلك قوله: ﴿مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾.

أتبع ذلك قوله جلّ قوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وعلى القول بالتحقيق، فإن الله ﷻ يعلمون منه بدءًا إلا ما هو الخير والإحسان، وإنما يتطرق السوء والمكروه كله من قبل أنفسنا وأعمالنا، ومن قبل الغير، اعتبر ذلك بفعله بآدم عليه السلام كيف صورّه، أحسن خلقه وعلمه، ونوه به في الملاء الأعلى، وأسكنه جنته وبوآه منها ما شاء بعد أن

زوجه، وبلغه ما لم يأمل، ثم انظر بماذا أخرجه عن مسكنه ذلك، وأزعجه عن قراره، وكذلك خلقه المولود في طبقات خلقتها، ثم كيف يخرجها وإلى أي لطف، وأي تيسير وتسبيقه له الإحسان في ذاته ومعاشه ودينه، ثم انظر ما الذي يباعده عنه بعد الإعذار والإنذار بالحق اليقين؛ إذ أنه ما أصابنا من حسنة فمن الله، وما أصابنا من سيئة فمن أنفسنا وشؤم أعمالنا، والحمد لله.

لهذا قال عز من قائل: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨] دل - سبحانه وله الحمد - على سبيل التفقه في كتابه العزيز، وأن بالتدبر يزداد التفكير وبتشوير^(١) بعضه من بعض يكون الفقه فيه والفهم عنه، فانتظم هذا بما قبله أو بما يكون من بابه في القرآن العزيز، يقول: تدبرت القول؛ أي: قايست بعضه إلى بعض، وناظرت بين فصوله ومعانيه.

قال الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]. وقال جلّ قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨] يعني: يتعرفونه بصدقه، وإنباء بعضه على بعض وتناظره، ومطابقة بعضه بعضاً، فهو واحد أحد لو كان من عند غيره لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، فهذا يدلّك - إن شاء الله ﷻ - على أن القرآن كله أنزله منزله ﷻ ليُعلم وليُفهم، لكن ليس ذلك إلا للعالمين.

ألا ترى أن معنى قولهم: «تدبرت الأمور» تطلبت مبادئها ومآلها، وتقديم ما هو الأولى بالتقديم منها، وتأخير ما هو أولى بالتأخير، وكيف ومتى وأين، كذلك تدبر القول على هذا النحو.

فصل

لما كان العالم كله أوله وآخره، علوه وسفله، ظاهره وباطنه محكماً متقناً متفقاً متفق الاختلاف، وربما كان في داخله مختلف الاتفاق، راجعاً بجملته إلى الاتفاق مفصلاً وموصلاً، ومصوراً أحسن صورة، مقدراً أحسن تقدير، قد أعلى منه صانعه الحكيم ما هو أولى بالعلو، وأسفل منه ما هو أولى بالسفل، وأظهر منه ما هو أولى

(١) تشوير القرآن: قراءته ومفاتيحه العلماء به. انظر: تاج العروس (١/٢٥٧٩).

بالظهور، وأبطن منه ما هو أولى بالإبطان؛ ذلك لأن فاعله واحد حكيم، وجاعله أحد صمد ومدبره رحمن حلیم.

وكذلك كتابه الحكيم متفقاً متشابهاً، شاهداً بعضه لبعضه، عاضد بعضه بعضاً قد نزهه منزله ﷺ عن الاختلاف، وباعده عن منزلة التناقض هو الحق وفعله الحق، وحكمه الحق لا إله إلا هو العلي الكبير، وكما تعرف كلام المتكلم قد تقدمت به معرفة، وإن كان يكلمه من وراء حجاب، فكذلك تتعرف كلام ربك في القرآن، وغيره من الكتب إذا كنت قد عرفت من أسمائه وشواهد شهادات عالمه وسفله.

قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] هذا كلام منتظم بما قبله من ذكر المنافقين والمناجين منهم بالإثم والعدوان، وتخويف الذين آمنوا.

وقد يرد بوجه إلى ما تقدم من قوله عزّ قوله: ﴿فَإِنْ تَنَارَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] والأول أوجه.

فصل

ذكر أهل النقل إن هذه الآية نزلت في إيلاء رسول الله ﷺ في أزواجه، وقول القائلين: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وأكثروا في ذلك فاستأذن عمر رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله أطلقت نساءك؟ فقال «لا»^(١).

وهذا وإن كان فيه شرب من معنى الآية، فإذا نظرته يقول الله جلّ قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣] تجده عين محيط بمعنى ما صدر به الخطاب الأول، والله أعلم أن يكون قوله جلّ قوله: ﴿أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ مصروقاً إلى قولهم هذا من شأن الإيلاء.

وقوله ﷻ: ﴿أَوْ الْخَوْفِ﴾ المراد به: تناجيهم بما يرومون به تقلقل قلوب

(١) أخرجه البخاري (٢٤٦٩)، والنسائي (٣٤٦٨)، والطبراني في الكبير (١٢٠٦٢)، وابن حبان (٤٢٦١) /

المؤمنين وتحزينها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ ؛ أي: توكلأ عليه، و﴿الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: الأمراء وقواد الجيوش والعالمين بأخبار عدد المسلمين، وبياطنه رسول الله ﷺ ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] أي: الأمر والخير المتناجى به منهم؛ أي: من أمراء الجيوش وخاصة الرسول، ولم يقل جل ذكره ولا أخبروهم بذلك الأمراء، والخاصة لما عسى أن يكون في ذلك من إفشاء سرٍ معد لنكاية عدو، أو لأمر يريده الله ﷻ ورسوله والمؤمنون.

وقد عديت هذه الآية إلى الفتيا في النوازل، وليس يعطي ظاهر الخطاب ذلك القول: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣] اللهم إلا بأمره، واستعمال تأويل وتحرير قياس، وقد درج على ذلك الجمع الكثير والجم الغفير، وعسى أن لقولهم ذلك على كثرتهم شرب من الصواب والله أعلم، بل إنما يتبين ذلك بغير هذا من دلائل الشرع.

فصل

إن كان هذا هكذا فأهل الأمر ها هنا أهل الفقه والورع في دين الله ﷻ في قسم الأمن، قديمًا كان الولاية من هؤلاء هم خلفاء الله ﷻ في الأرض، وهم خلفاء الرسل - عليهم السلام - في الأمم، وإن كان الولاية من غيرهم، والرجوع إليهم بظاهر الحكم طاعة الله والرسول؛ لقوله ﷺ: «اسمع وأطع ولو لعبد مجدع الأطراف»^(١). وفي أخرى: «ولعبد حبشي كان رأسه زبيبة»^(٢).

وفي أخرى: «اسمع وأطع وأن أخذوا مالك وضربوا ظهرك»^(٣) ولا تنزع يدًا من طاعة، وأما أولوا الأحلام الذين هم أولياء الله وخلفاؤه في أرضه، فالسمع والطاعة لهم ظاهرًا وباطنًا.

(١) أخرجه مسلم (٦٤٨)، والطيالسي (٤٥٢)، وأحمد (٢١٤٦٥)، وابن حبان (١٧١٨). مجدع الأطراف: مقطوع الأعضاء.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٤)، والطيالسي (٢٠٨٧)، وأحمد (١٢١٤٧)، وابن ماجه (٢٨٦٠) والبيهقي (٦٣٨٣)، وأبو يعلى (٤١٧٦).

(٣) أخرجه بنحوه ابن حبان (٤٥٦٦)، وابن عساكر (٣٤/١٥).

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ولأن العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - فطاعتهم في السر والعلانية واجبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم قال جل من قائل: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) [النساء: ٨٣] انتظم هذا بما قبله من ذم النجوى، ونهي المؤمنين عنها؛ لأنها من الشيطان ليحزن الذين آمنوا؛ لذلك يقول الله - جلّ قوله - للمؤمنين: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ في تنبيهه لكم، وتبيينه إياكم ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ المستثنى هنا من وجهين:

أحدهما: لا تبعتم الشيطان أيها المؤمنون إلا القليل منكم ممن لم يجعل الله ﷻ له عليه سلطاناً، كما قال جل من قائل: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

والثاني: أن يكون استثنى من جملة عمل المؤمنين، فلولا فضل الله على المؤمنين ورحمته لاتبعوا الشيطان في خطواته، وأمره لهم بالفحشاء والمنكر حتى لم يبق لهم من الإيمان إلا قليل، وربما كان ذلك القليل النطق بالتوحيد قد وهنته المعاصي وغمرته الخطايا، كما قال جل من قائل: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وقد سمى ﷺ ذكر المنافقين وإيمانهم قليلاً في قوله: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وقليل هؤلاء وكثيرهم قليل غير مقبول.

وقد قيل: إنه استثنى من قوله جلّ قوله: ﴿لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: إنهم لو ردوه إلى أولي الأمر منهم والعلماء ﴿لَعَلِمَةُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ إلا

(١) دلت الآية على أن الذين اتبعوا الشيطان فقد منعهم الله فضله ورحمته، وإلا ما كان يتبع، وهذا يدل على فساد قول المعتزلة في أنه يجب على الله رعاية الأصلح في الدين. أجاب الكعبي عنه بأن فضل الله ورحمته عامان في حق الكل، لكن المؤمنين انتفعوا به، والكافرين لم ينتفعوا به، فصحّ على سبيل المجاز أنه لم يحصل للكافر من الله فضل ورحمة في الدين. والجواب: إن حمل اللفظ على المجاز خلاف الأصل. [تفسير الرازي (٣٠٦/٥)].

القليل من العلم المستنبط؛ إذ لا يحيط المخلوق بالعلم، ولا كل العلماء يعلمون كل العلم، فاستثنى هذا القدر لصدق قيله، وكمال إخباره عن الحق الذي هو أهله، وحقيقة الاستنباط هو استخراج باطن المعنى من ظاهر القول.

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِيًا ٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ٨٦ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكَّهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَلَمْ تَرَوْا أَن تَهْتَدُوا مِنْ أَصْلٍ اللَّهُ وَمَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَلَنْ يُجِدَ لَهُ سَبِيلًا ٨٨ ﴿وَدُّوا أَنْ تَكْفُرُوا كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكُمْ أَوْ يُغْلَبُوا قَوْمُهُمْ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُغْلَبُوا قَوْمُهُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ٩٠﴾ [النساء: ٨٥ - ٩٠].

قوله ﷺ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا...﴾ [النساء: ٨٥] الكفل: المثل هنا.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] أي: مثلين، أو أجريْن: أجر الإيمان بمحمد ﷺ، وأجر الإيمان بما أنزل من قبل.

والكفل: الحظ والنصيب، على المعهود من التضعيف والتقليل؛ لما كان من وعده ﷻ أن أعطى هذه الأمة على الحسنة عشراً إلى سبعين إلى سبعمائة، إلى أن يؤتي جلّ ذكره بغير حساب ﷻ النصيب في جنبه الحسنة؛ إذ النصيب يكون كثيراً ويكون قليلاً، كما قال جلّ قوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ [النساء: ٧] وقد ضمن ﷻ المضاعفة، فهو إذاً هنا في موضع الكثير، ولما كان الكفل المثل

جعلله في جنبه السيئة، كما قال جلّ من قائل: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

فصل

شاهد ما ذكرناه حديث الإجارة، وأنه يعطي الأجراء كلهم قيراطاً، ويعطي الأجيرين منهم قيراطين قيراطين، ولما أعطوا قيراطاً قيراطاً وأعطوا هؤلاء قيراطين قيراطين قالوا: «ما لنا أكثر أعمالاً وأقل عطاء؟!» قال لهم: «ذلك فضلي أوتيته من أشاء»^(١).

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨].

ثم قال جلّ قوله: ﴿لَيْتَلَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] فما أعطاه الله الأولين هو كفل ما عملوه؛ أي: مثل له، والله أعلم بمقداره بالإضافة إلى العلم في القلة والكثرة، وما أعطاه المتأخرين نصيب وضعف، وما أعطاه أولئك.

كما قال جلّ قوله: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢] وذكر هذا على سبيل الوعد، والبشارة بالتضعيف المذكور.

وجاء في الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل ذكر المستأجر والمستأجرين على نحو ما ذكره رسول الله ﷺ، فذكر الساعة الأولى من النهار، والساعة السادسة والساعة التاسعة هي التي عبّر عنها رسول الله ﷺ بالعصر، وأن المستأجرين فيها هم هؤلاء؛ أعني: هذه الأمة.

وزاد فيما هنالك - أعني: الكتاب الذي يذكر أنه الإنجيل - مستأجرين في الساعة الحادية عشر، وهي والله أعلم وقت نزوله ﷺ، وهم العاملون معه يومئذٍ، فلما انقضى النهار قال صاحب الكرم لوكيله: ادعُ الأعوان وأعظمهم أجورهم، وابدأ

(١) أخرجه البخاري (٣٢٧٢) وأحمد (٤٥٠٨) والترمذي (٢٨٧١)، والبيهقي (١١٩٧٨) وابن حبان (٦٧٦٥) والطبراني (٣٠٦).

بِالْآخِرِينَ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَوَّلِينَ.

قال: فبدأ بالذين دخلوا في الساعة الحادية عشرة، وأعطى لكل واحد منهم درهماً، فأقبل الأولون وهم يرحبون الزيادة، فأعطاهم أجورهم.... إلى آخر المعنى.
قال - صلوات الله وسلامه عليه - ما هو متفق عليه مع أخيه محمد ﷺ قال: «إن أمة محمد يعطون قيراطين قيراطين، ومن قبلهم من أهل الكتاب يعطون قيراطاً قيراطاً».

ثم جاء خبر عيسى عليه السلام: «درهما درهماً» وكلامه هذا على الساعة الحادية عشر، وأنه جلّ ذكره سوى بين صدر هذه الأمة الصحابة والتابعين، إلى أن يأتي هو بمن يكون معه، فأعطاهم درهماً فظنّ الأولون بطول مقامهم أنه يزيدهم على الآخرين، فكان ما أجابهم، والله ذو الفضل العظيم.

قوله ﷺ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥] هو من القوت مقيت كل عبد بقدر عمله، وقد قيل: هو من الحظ، ذكر ذلك عن ابن عباس عليه السلام، وقد قيل فيه بمعنى مقتدر ومقدر، والأوجه أنه مأخوذ من القوت أو القوت مأخوذ منه، ويشمله اسم المقدر، وهو الذي قدر الأرزاق والعطايا والمنع في الدارين.
وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «كفى إثماً بمن يضيع من يقيت»^(١).
وفي أخرى: «من يقوت»^(٢).

والمفهوم من معنى هذا الاسم في رأس هذه الآية، أنه يزن ما يشاء لمن يشاء بوزن يجعل في القلوب يومئذ الرضا، وفي العقول تعديله كما جعل ﷺ موازين الدنيا ومكاييلها، وهو معنى اسم المقدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾^(٣) [النساء: ٨٦]

(١) لم أقف على هذا اللفظ.

(٢) أخرجه أحمد (٦٤٩٥) وأبو داود (١٦٩٢) والحاكم (١٥١٥) والبيهقي (١٥٤٧٢) والطبراني (٢٢٨١) وابن حبان (٤٢٤٠) والنسائي في الكبرى (٩١٧٧) والطبراني (١٣٤١٤).

(٣) التحية: هي دعاء الحياة، والمراد بالتحية ها هنا: السلام، يقول: إذا سلم عليكم فسلموا فأجيبوا بأحسن منها أو رُدُّوها كما سلم، فإذا قال: السلام عليكم، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله، وإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فإذا قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ مثله، رُوي أن رجلاً سلم على ابن عباس رضي الله

هي تحية السلام والله أعلم، وانتهى السلام إلى البركة، فقد قيل في بعض الروايات: إنه يريد إلى المغفرة، فيقول الراد: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

وقيل: التحية هنا بمعنى الهدية والله أعلم، فمن قبل هدية مطلوب يهديها الجزاء عليها، فليرد مثلها أو أفضل منها.

وقوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] أي: مكافئاً إذا كان الحسب ساكن السين كان بمعنى القدر، تقول: هذا حسب هذا؛ أي: على قدر.

وإذا حركت السين كان المعنى المراد به: الشرف، وقد يكون على ذلك بمعنى القدر، يقول: ليكن فعلك على حسب إحساني إليك، وبري بك في التحية في مقابلة السلام، والسلام من الله ﷻ على عباده الرحمة، ومن العباد بعضهم إلى بعض التحية.

والتحية من العباد إلى الله: يقول العباد في صلواتهم: «التحيات لله» أي: الملك لله والثناء الحسن، وكل اسم من أسمائه تحية؛ لذلك جمعها رسول الله ﷺ: «التحيات لله» ثم قال: «الصلوات لله والطيبات - أي: الكلمات الطيبات - الزاكيات المباركات لله»^(١).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] أي: كافياً كلما ذكره العبد بأسمائه وصفاته ومدائحه وطيب القول وزكيه ومباركه ذكره الله، بما هو شاكله العبودية كقوله حين يقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...﴾ [الفاتحة: ٢] يقول:

عنهما، قال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ثم زاد شيئاً، فقال ابن عباس: إن السلام ينتهي إلى البركة. وروي عن عمران بن حصين: إن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فردّ عليه، فقال النبي ﷺ: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، فقال: «ثلاثون». وأعلم أن السلام سنة وردّ السلام فريضة، وهو فرض على الكفاية، وكذلك السلام سنة على الكفاية فإذا سلّم واحدٌ من جماعة كان كافياً في السنة، وإذا سلّم واحدٌ على جماعة وردّ واحدٌ منهم سقط الفرض عن جميعهم. [تفسير البغوي (٢/٢٥٧)].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٩٠٥)، وفي الأوسط (٢٩١٧).

«حمدني عبدي، أننى علي عبدي، مجدني عبدي، فوض إلي عبدي...»^(١).

كذلك إذا قال: «لا إله إلا الله والله أكبر» يقول الله جلّ ذكره: «صدق عبدي لا إله إلا أنا وأنا أكبر»^(٢) ثم كذلك إلى آخر الذكر، فهو يكافئ عبده بذلك، كما ذكر في قوله: ﴿أَذْكُرْنِي أَذْكُرْكُمْ﴾ ثم يجازيه على ذكره بثواب جعله ثواباً لذلك العمل والذكر.

فالحساب - والله أعلم - ما يذكره به؛ لأجل ذكر العبد إياه، وإلا كافته هو ما قد قرره، قد ناله من أجل ذلك العمل والقول بهدي قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ من أفضل ما يجزي به ﷺ.

قوله جلّ ثناؤه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] كما ذكر ﷺ الكافرين والمنافقين وأهل الكتابين، وذكر ﷺ المؤمنين، وعلمهم من سنن من كان قبلهم، وقدم من ذلك كله صدرًا ذكر يوم الجمع، وإنه لا ريب فيه، وأنه الصادق في حديثه الحاكم بين عباده بأنه من القرآن العظيم.

قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلٌّ مَا رَدُّوْا إِلَى الْوَقْتِ أَرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَغْتَرِ لَوْكُمْ وَيَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْبِلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۝ وَمَا كَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلُوا مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانِ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ

(١) أخرجه مالك (١٨٨)، ومسلم (٣٩٥)، وعبد الرزاق (٢٧٦٧)، وأحمد (٧٨٢٣)، وأبو داود (٨٢١)، والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٩)، وابن ماجه (٣٧٨٤)، وابن حبان (١٧٨٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٣٠)، وعبد بن حميد (٩٤٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٨٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤) وأبو يعلى (٦١٥٤)، وابن حبان (٨٥١)، والحاكم (٨) والبيهقي في الشعب (٦٦٣).

مُؤْمِنَكُمْ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ شَهْرَتَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩١ - ٩٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً...﴾ [النساء: ٩٢] إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

حرم الله - تبارك وتعالى - قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وهو أن يكفر بالله بعد إيمان، أو يزني بعد إحصان، أو يقتل نفساً بغير نفس، وقتلها على أربعة أوجه:

قتل خطأ: وللخطأ حال لا يقال له أن يفعل أو لا يفعل، وعلى ذلك متى وقع فيه إذا دية مسلم إلى أهله، وتحرير رقبة إلا أن يصدقوا بالدية، هكذا إذا كان مؤمناً من قوم مؤمنين إن كان المقتول مؤمناً، أو من قوم بيننا وبينهم ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهلها أيضاً، وإن كان مؤمناً من قوم كافرين لا عهد لهم ولا ميثاق، فتحرير رقبة مؤمنة لا غير.

والوجه الثاني: قد تقدم ذكره وهو القتل لكفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس.

والوجه الثالث: أن يقتلها القاتل لعرض من عرض الدنيا، وقد جاء هذا في الآية التي بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا...﴾ [النساء: ٩٤] وهي من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

والوجه الرابع: أن يقتلها؛ لأنها مؤمنة متعمداً لذلك، كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] فهذا ظاهر قوله جلّ قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣] وهذا المخلد في النار لا محالة.

وهو المعنى بقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب

بعض^(١) وربما لم يبلغ به القاتل في قتله من المؤمن هذه المنزلة، فيؤول إلى المنزلة التي دونها، وهو أن يقتلها لغرض أو غضب من أغراض الدنيا منافسة على شيء، أو لمعنى ما لغير ما هو مؤمن، يقارنها فيسمى بمقارنتها^(٢)، فربما كان من جزائه ألا يوفق إلى توبة، فيعرض لسوء الخاتمة.

وفي قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٢] يعني بقتاله عن الوصف بالإيمان، ومنع من إطلاق الاسم عليه، كما قال رسول الله ﷺ فيما دون هذا الأمر: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(٣).

ولم يبق الاسم لقاتل الخطأ، فرجع الحكم إلى قوله رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٤) فأشبه قول الله جل ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] نعوذ بالله من درك الشقاء.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَسَّرُوا لِقَا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَاصْطَلُوا بِهِمْ وَلَا تَجِدُوا لَهُمْ سَبِيلًا يَسِيرًا﴾ [البقرة: ٢٥٣] كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَدَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَسَّرُوا لِقَا اللَّهِ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتَيْنِ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي

(١) أخرجه البخاري (١٢١) ومسلم (٦٥) والنسائي (٤١٣١) والترمذي (٢١٩٣) والطبراني (٥٤٤٢) والطيالسي (٦٦٤) وابن أبي شيبة (٣٧١٧٦)، وأحمد (١٩٢٣٧) وأبو داود (٤٦٨٦)، وابن ماجه (٣٩٤٢)، والدارمي (١٩٢١)، وابن حبان (٥٩٤٠).

(٢) هكذا العبارة في الأصل.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا قَالُوا لَيْتَكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٧﴾
إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٧٨﴾
قَالُوا لَيْتَكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴿٧٩﴾ * وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي
الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ
عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٨٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا أَعْدَاؤُكُمْ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴿٨١﴾ [النساء: ٩٤ - ١٠١].

قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١) [النساء: ١٠١] انتظم هذا بقوله جلّ قوله: ﴿يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] والعطف عليه.
وروت عائشة - رضي الله عنها - إنها قالت: «فرض الله ﷻ الصلاة ركعتين
ركعتين فزيد في الحضر وأقرت صلاة السفر».

وروي أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وضع الله عن المسافرين الصيام وشطر
الصلاة»^(٢) وهذا رواه عمرو بن أمية الضمري، وهو حديث آحاد، وقد امتثلته الأمة
بدلائل غير هذا، وهو القصر في السفر والإتمام في الحضر، وما عدا ذلك فهو خبر
وسيله العلم، ولا يثبت إلا بما نُقِلَ نُقْلًا تواتر.

وقال عزّ من قائل: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].
وقال رسول الله ﷺ: «فرض عليّ خمسين صلاة» لكل صلاة ركعتان، فتمت

(١) أخرج ابن جرير عن علي قال: سألت قوم من التجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا
نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي ﷺ
فصلّى الظهر فقال المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم هلا شددتم عليهم؟
فقال قائل منهم: إن لهم أخرى مثلها في إثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ
يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ فنزلت صلاة
الخوف. [الألوسي (٢٠٩/٤)].

(٢) أخرجه الترمذي (٧١٩)، والنسائي (٢٣١٤)، والبيهقي (٥٦٩٥)، والطبراني (٧٦٢) وفي
الأوسط (٦٩١٣)، وأبو نعيم في المعرفة (٦٥٥٨). الشطر: النصف.

بذلك مائة ركعة عدد أسماء الله سبحانه، فقد جاء الحديث أنه قال سبحانه: «هي خمس وخمسون لا يبدل القول لدي»^(١) فخمسون صلاة بوترها على عدد ما تقدم ذكره، ثم نزل جبريل ﷺ يصلي، فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ إلى آخر الصلوات، فأكمل الصلاة الحضرية، وأقر صلاة السفر على ما كانت عليه، فصلاة السفر معلومة من فعل رسول الله ﷺ، وكذلك صلاة الحضر.

وأجمع العلماء ﷺ أن السفر هو: الحج والغزو والهجرة، وكل ما هو قرينة إلى الله ﷻ يقصر فيه، ولم يدخل في خطاب الحكم القصر في سفر التجارة وجميع المباحات، فأنزل الله جل ذكره: ﴿وَإِذَا ضَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] فرغ ﷻ الجناح عنهم بهذا الخطاب، وهو كلام قائم بنفسه غير محتاج إلى غيره، ثم حذف ﷻ كل ما عطفه على هذا الظاهر، تقديره: ولا أن تقصروا - من القصر - إن خفتن أن يفتنكم الذين كفروا، أو ما كان من الكلام ما ينبئ عن مراده جل ذكره ثم علمه كيف يقيم بهم الصلاة حال الخوف إذا كان فيهم، فروي أنه صلاها بهم ركعتين.

ثم روي أنه صلى بهم ركعة بطائفة، وركعة بطائفة، ويتم هؤلاء وهؤلاء لأنفسهم صلواتهم، وروي غير هذا.

وجاء: إن صلاة الخوف على قدر الخوف والأمن، فإن أمنوا بعض الأمن صلوا ركعتين، وإن خافوا فعلى قدر الخوف حتى قالوا: سجدتين قائماً، فإن لم يقدر على سجدتين فسجدة يومئ بها، فإن لم يقدر فتكبيرة يكبرها حيث كان وجهه؛ لأن الصلاة هي لذكر الله ﷻ، فينوبها ويفعل في ذلك على قدر استطاعته.

وقال رسول الله ﷺ: «من دعي إلى طعام فليجب، فإن كان مفطراً أكل وإلا فليصل»^(٢) وإن كانت هذه الصلاة لغوية، فالضرورة ترك الصلاة الشرعية إلى

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في الإيمان (٧١٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٣١)، وأبو داود (٢٤٦٠)، وأحمد (١٠٥٩٣)، والترمذي (٧٨٠)، وابن حبان (٥٣٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦٦١١)، وأبو يعلى (٦٠٣٦)، وأبو عوانة (٤١٨٧)، والبيهقي (١٤٣٠٩). فليُصَلِّ: فليدع لأهل الطعام بالبركة.

حكمها، والله أعلم.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء: ١٠٢ - ١٠٥].

ثم قال ﷺ: ﴿إِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْفُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

قوله ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] الحق، هذا عبارة عن الروح من أمر الله، والملك النازل به، وعما هو منزل منه وبه إليه إلى قلب رسول الله ﷺ.

قال الله ﷻ: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢].

وقال جلّ قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].
وقوله جلّ قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ اختلف العلماء المتقدمون والفقهاء في معنى قوله: ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ وتجاذبوا في معناها؛ فقال القائلون: إنها معبرة عن إباحة القياس.

وقال خصماؤهم من القائلين بالظاهر: بل محظرة.

وقال: معناها بما أنزل الله إليك وأراك من كتابه.

وفصل الخطاب في ذلك والله أعلم بما أَراده: إن الوحي الذي بلغه إلينا ﷺ ثلاثة والله أعلم بما وراء ذلك؛ منها: القرآن وهو كلام ينزل به الملك على قلب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ليس للرسول تغييره عما هو عليه، ولا تبديل عبارة بعبارة ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

الوجه الثاني: حديثه ﷺ يوصله إلينا من وجهين:

أحدهما: أن تنزل به النازلة بما نزل الملك ﷻ بالحكم فيها، والشقي منها، أو يحكم هو فيها بأمر من حكمة قد جعلها الله ﷻ في صدره، وامتلأ بها قلبه في أول أمره كما قال ﷺ: «فتزل جبريل ﷻ فشرح صدري من مكان كذا إلى كذا، ثم شق قلبي فغسله ثم جاء بطست مملوء حكمًا وإيمانًا فأفرغه في قلبي، ثم بارك لي في ذلك وأنشأ منه إنشاء حتى بلغ منه متناه»^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَثِيمًا ١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ هَٰؤُلَاءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ١١٠﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١١١﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ لَئِيمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِينًا فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ١١٢﴾ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ١١٣﴾ [النساء: ١٠٦ - ١١٣].

(١) تقدم تخريجه.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(١) [النساء: ١١٣] وهذا النوع من الوحي مباح للرسول ﷺ؛ ليعبر عنه بعبارته، أو بما نقله إليه الملك ﷻ من عبارته.

ثم العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام - درسوا القرآن والسنة، وآتاهم الله علماً، يقول الله - عز من قائل - فيما أنشئ عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا...﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال جل من قائل: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وقال جل قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فلو لا أن الله جل ذكره قد جعل في قلوبهم علماً وحكماً لم يكن للتذكار آثار، وهذا المشار إليه في علماء الأمم في مقابلة ما عبّر عنه القرآن العزيز من قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩] وليس كل نازلة يكون نصها، ولا في ظاهر الحديث. كذلك قال الله جل قوله: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقد تقدم ما هو الاستنباط.

(١) قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ قال القفال رحمه الله: هذه الآية تحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون المراد ما يتعلق بالدين كما قال: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وعلى هذا الوجه تقدير الآية: أنزل الله عليك الكتاب والحكمة وأطلعك على أسرارهما، وأوقفك على حقائقهما مع أنك ما كنت قبل ذلك عالماً بشيء منهما، فكذلك يفعل بك في مستأنف أيامك لا يقدر أحد من المنافقين على إضلالك وإزلالك. الوجه الثاني: أن يكون المراد: وعلمك ما لم تكن تعلم من أخبار الأولين، فكذلك يعلمك من حيل المنافقين ووجوه كيدهم ما تقدر به على الاحتراز عن وجوه كيدهم ومكرهم، ثم قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ وهذا من أعظم الدلائل على أن العلم أشرف الفضائل والمناقب؛ وذلك لأن الله تعالى ما أعطى الخلق من العلم إلا القليل كما قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ونصيب الشخص الواحد من علوم جميع الخلق يكون قليلاً، ثم إنه سمي ذلك القليل عظيمًا حيث قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وسمى جميع الدنيا قليلاً حيث قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] وذلك يدل على غاية شرف العلم. [تفسير الرازي (٣٧٨/٥)].

وقد جاء مع هذا في القرآن العزيز والحديث نصوص تزجر ظواهرها عن القول بالقياس، وإنما ذلك تشديد عن الإغراق فيه، وتركيب قياس على قياس، ويتسلسل ذلك ويكون أيضًا زجرًا من ترك النصوص الظواهر، والعدول عن ذلك إلى القياس، والقول بالرأي دون ضرورة تلجئ إلى ذلك لا سيما من قلّ علمه وضعفت رؤيته، ولم يكن له ثقافة في هذا الشأن، كما قد جاءت نصوص وظواهر خطاب مجملة، وعمومات تخص على القول بالرأي والقياس الصحيح المنصور بالبرهان.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] نزلت في طعيمة بن أبيرق، وكان قد سرق درعًا وجعله في دار يهودي، وقال: سرتكم في دار اليهودي، وكان رسول الله ﷺ قد عذر عن طعيمة، ثم عذر عنه لوجدان الدرع في دار اليهودي.

قوله جلّ قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] هذا الخطاب منتظم على فهمي - والله أعلم - بقوله جلّ قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ...﴾ [النساء: ٥٣] إلى قوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

منتظم هذا بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

ثم عطف ﷺ على موضع قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ﴾ وقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ﴾ [النساء: ١١٣] ﷺ موضع البشارة بالملك، فإنه والعرب من آل إبراهيم كالمعهود من خطاب القرآن في ذلك في هذا الخطاب أن الوحي ثلاثة أنواع:

* الكتاب: هو القرآن.

* والحكمة: هي السنة وحديثه المأثور.

* والثالث: من سبق إليه من عهد النبوة التي أقامها في النبي مقام فطرة الإسلام للمسلم.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] يعني: وهو أعلم ﷺ ما مُليء به قلبك، وشرح له صدرك من الإيمان والحكمة في بدء شأنه، وما أوحى إليه بعد فالروح من أمره، كما قال جلّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

والله أعلم تأويل قوله جلّ قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] في بدء الأمر، قيل له: يا رسول الله، متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»^(١).

وقال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ....﴾ [آل عمران: ٨١] إلى قوله جلّ قوله: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ - ٨٢] المعنى الأولى بهذا: أهل الكتاب، ثم كل من أبى وتولى فهذا أيضًا.

ومعناه حيث جاء تأويل لقوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] والكتاب كلام الله ﷻ أنزله إليه بالحق من لدنه وذرايته - صلوات الله وسلامه عليه - ما فيه هو الحكمة العليا المتصلة بالروح من أمره، ولذلك بيّنها الله ﷻ على لسانه شاهد له بذلك العليم الخبير في قوله جلّ قوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وقال جلّ قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ثم قال جلّ ذكره: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] فأرانا وله الحمد السبيل الواضحة أن في مسالك الفكر الصائبة ضياء الحكمة، وأنوار المعرفة بقوله جلّ قوله: ﴿كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ثم قال جلّ

قوله: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نَوْرًا يَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر ﷺ بصدق قوله أنه جعل من أمره من الروح نوراً في قلوب عباده يهدي به من يشاء منهم لإصابة الصواب ومنهاج الحق المبتغى، تلك هي الوارثة التي أورثها ﷺ عباده المؤمنين، وأوليائه الصديقين من بركة أنبيائه ورسله هذا منبعث الحكمة وحقيقة متهاها إلى علي منيعتها في المؤمنين، ثم في الصديقين ثم في الأنبياء والمرسلين، وقد أخبر الله ﷺ أن منبعث أعلاها هو عن الروح من أمره المنزلة على رسله، فهو أحكم الحاكمين وهو الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ [النساء: ٥٥] يعني: وهو أعلم خصوص ضمير الكتاب بمعقود الإيمان به، أو الصد عنه لتضمينه الحكمة، فإنه من آمن بالكتاب آمن بالحكمة، وكذلك الحكمة مع الكتاب، ومعرفة الآيات في الوجود من الحكمة بالحكمة، والحكمة بالحق والقول من الحكمة، وقد يعبر بالحكم عن الحكمة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وقال جلّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الجاثية: ١٦] فلفظ الحكم يتردد بين معنيين: حكم الحكام الذين هم الخلائف للرسل والأنبياء - عليهم السلام - وبين الحكمة، ومعنى الحكمة تتضمن الوجهين معاً، وخاصة الحكمة معرفة الحق والعمل بمقتضاه على السنن المرتضى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ. وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢] فهذه جملة معبرة عن جملة الحكمة علمها والعمل بها.

ثم جعل ﷺ يخبر عن إصابته بالقول وفصل الحق قولاً وعملاً إلى قوله: ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصُوتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فالحكمة إذا هي معرفة حقائق الموجودات كيف أوجدت، وما المراد بها وإلى ما يؤول، ومعرفة صانعها وجاعلها فيها، ثم العمل بموجب الحكمة، فهو الحق المبتغى والسنن المرتضى، هذه عبارة عن الحكمة في تعرف الموجودات.

ومعرفة حقائق الموجودات ترجع إلى أربعة أركان:

أحدها: معرفة بداياتها ثم الوقوف على ظواهرها، ثم معرفة بواطنها إن كان المنظور فيه من الكيفيات، ومعرفة لما أوجده موجد، وهل هو من قبيل اليمين

فيوالى، أم من ذوات الشمال فيعادي، ويتبرأ منه إن كان من المتكلفين، وباطن العبد المنقاد للحكمة منير مضيء، فهو شمس الباطن بنورها يتميز صور بواطن الموجودات خيرها وشرها نفعها وضرها، وهذا نور منبعث من حقيقة القلب المعمور بنور الإيمان، وهو عين شمسها لا أقول لهذه الشمس إلا في حجاب الغفلة، وإلا فنورها في عين البصيرة منبسط على آفاق القرآن، بل الحكمة بنور الإيمان أشد إضاءة، وأثقب نورًا من نور الشمس في الظاهر، فكما أن الشمس الظاهرة تستنير بها الأبصار تتميز بها المرئيات، فكذلك الحكمة بنور الإيمان في الباطن، وأكد مطلوب الحكمة معرفة العبد ربه هذا بالوجهة والنية.

وأما من حيث تناوش الطلب فأكد مما عليه طلبه معرفة نفسه حتى يعرفها حق معرفتها ظاهرة وباطنة، فمن هنالك يعرف ربه ﷻ، ومن لم يعرف ربه إلا بمخلوقاته وبأسمائه لم يعرفه إلا معرفة أسماء وصفات إنما تتحصل حقيقة المعرفة بما صنعه لنفسه خاصة، وهذا فصل من الحكمة بعيد غوره جدًا، وهو مع ذلك قريب متناوله شريف نهايته، فافهم.

والحكمة فاعلم هي الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو ما اقتضته أسماؤه الحسنی وصفاته الكاملة العليا، فأكحل عينك بكحل السهر، وألزم نفسك تدؤب التذكر وترداد التفكير، واضرع إلى مالك عصم الإصابة ﷻ، وادعه باستكانة وافتقار إليه عساه أن يؤتيك نورًا تمشي به في الظلمات، وفرقانًا تفرق به بين المشتبهات، ولعله بفضل العظم يطوي بك المراحل، ويرفعك إلى شرف المحال، فيجمع لك المراقى لعلی الدرجات، سبحانه وله الحمد لا يقدر على ذلك سواه.

واعلم أن من خاصة الحكمة إذا تحققت بها لا تجهل شيئًا، وإنما نورها مع بواعث خطراتها، وربما سبق نورها وانبسط ضياؤها على خلاء من الذكر، وغيبة من بواعث الخاطر، فكان إلهامًا فافهم.

وليعلم طالب الحكمة أن العبد قد جمع الله فيه العلم كله، وقد تقدم هذا فيه الجواهر المركبة منه الجسم الظاهر الملازم له العرض، فله منه طول وعرض وعمق، ولون وطعم ورائحة، وإشغال مكان، وجوهر باطن هو النفس والروح والعقل، وسمي هذا جوهرًا من حيث هو أصل، ولهذه العلة الذي ركبت منه

الأجسام.

وكذلك العرض عرضان:

عرض باطن: هو مقول على صفات العبد مثل الحكمة والعلم والقدرة والإرادة والفطنة والعجز والكيس، ونحو هذا.

وعرض ظاهر: يعتري الجسم من لون وألم ولذة وثخن ورقّة وسائر الأعراض، والعقل الذي زكاه الإيمان هو العقل على الحقيقة، والعقل المكتسب [باستنكار]^(١) المعقول مجازاً وتتميم، من ذلك قول الخضر عليه السلام: «ما علمي وعلمك في علم الله إلا كنقر هذا العصفور من هذا البحر»^(٢) فالعلم مع المعلومات كذلك يكمل له ويتم.

وقد يجب أن يقال في هذا العقل المكتسب؛ لكثرة المعقولات ليس شيء سوى المعقولات من هذه الجهة.

وأما العقل الأول المذكور الذي زكّاه الإيمان ونوره اليقين، فهو شمس الباطن به يبصر البصير مطلوبها، وهي الحكمة فيه قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليصلي الصلاة، فما يكتب له منها إلا نصفها، وإلا ثلثها حتى بلغ عشرين»^(٣).
وقوله ﷺ: «ما لك من صلاتك إلا ما عقلت منها»^(٤).

وقوله ﷺ في المصلي: «إنه إذا صلى، فإنما يناجي ربه فلينظر بما يناجيه»^(٥).

(١) ما بين [] غير واضح في الأصل.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٢٥)، وأحمد (٢١٧١٦)، والنسائي في الكبرى (١١٣٠٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٣٩٢)، والبيهقي في سننه (٣٦٦٨) وفي الشعب (٢٩٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦١١)، والطبراني (٦٧٨)، والحميدي (١٥٣)، والبرز (٢٣٠٣)، وأبو يعلى في مسنده (١٥٨٠)، وابن حبان (١٩٢١)، وأبو نعيم في المعرفة (٤٦٥٢).

(٤) لم أقف عليه إلا بلفظ: «ما لك من صلاتك إلا ما لغوت» اللغو: الكلام الذي لا أصل له من الباطل. أخرجه أحمد (٢١٨٩٣)، وابن ماجه (١١٦٥)، والبيهقي في سننه (٦٠٤٤) وفي الشعب (٢٨٦٤)، والطبراني (٢٤٧٧)، وابن خزيمة في صحيحه (١٧٠٥).

(٥) أخرجه مالك (١٧٧) وأحمد (٦١٢٧)، وابن أبي شيبة (٨٤٦٢)، وابن خزيمة (٢٢٣٧)، والحاكم (٨٦١)، والطبراني في الأوسط (٤٧٧٦)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٦). المناجاة: حديث العبد لربه سرّاً بالتضرع أو الدعاء أو ما يشاء.

وقوله ﷺ: «إذا صلى أحدكم، فإن الله قبل وجهه إذا صلى»^(١).

وقول الله جل ثناؤه: «أنا مع عبدي ما ذكرني وما تحركت بي شفاته، وإذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير من ملته وأطيب»^(٢). وإنما ذلك كله بقدر ما عقل، فافهم.

فصل

الجاهل من جهل صورة الجهل، ومن عرف صورة الجهل فقد عقل عقلاً تاماً، ومن جهل صورة الحكمة جهل نفسه، ومن جهل نفسه كان لغيرها أجهل، وكذلك أفرط بالأكثرين الجهل لما نظروا إلى الحكمة على زعمهم حال جهلهم، فجهلوا الحكمة، فقالوا: هي العلم بالأشياء الأولية الأبدية الذاتية عندهم، يطلبوها من الموجودات.

وقاربوا من الأشياء بمقاربة المطبوعات، فنوعوا الأنواع التي هي أواخر الكون وتمامه، ثم ردوها إلى الأجناس التي تعلوها، ثم إلى أجناس الأجناس حتى تنتهي بزعمهم إلى أول المخترع من قدرة الباري سبحانه بلا متوسط، وهو الروح المنفوخ في آدم ﷺ وجدوه وجدًا، وجعلوه علمًا، فقالوا: هذا يعطي الأشخاص أسماءها وحدودها، فقالوا فيه: إنه ما هو؛ لأن حد الحق عندهم ما هو، وحد الباطل عندهم ما ليس هو.

وقد يحدونه أيضًا بأن حده وصف الشيء بغير ما هو، وهو السر عندهم، فيتعبد المتعبد منهم إلى ما لم يبلغ علمه إلى ما هنا، ثم من هنا سقط عنهم أصار التكلف؛ لأنه بزعمه قد بلغ إلى أن يعلم أنه ما هو؛ أي: هو الحق، هذا هو الضلال البعيد، نسأل الله الغفور الرحيم معافته ومغفرته.

ولهذا تأله فرعون ومن تقدمه من المتألهين، ولما جاء رسول رب العالمين

(١) أخرجه مالك (٤٥٧) والبخاري (٣٩٨)، ومسلم (٥٤٧)، والنسائي (٧٢٤) والطبراني (١٨٤٣)، وأحمد (٥٤٠٨) وأبو داود (٤٧٩) وابن ماجه (٧٦٣) وابن حبان (٢٢٦٥) والبيهقي (٣٤٢١)، وأبو نعيم في الدلائل (٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٧٠)، ومسلم (٢٦٧٥)، والترمذي (٣٦٠٣) وأحمد (٩٣٤٠)، وابن ماجه (٣٨٢٢)، وابن حبان (٨١١)، وابن أبي شيبة (٢٩٤٧٩).

موسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهما - فقالا له: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فقال لهما: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] أي: رب العالمين حق، وأنا الحق أيضًا، فعرفه موسى ﷺ بأخص تعريفه مما تقدم؛ بأن قال صلوات الله عليه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] وكان موسى عرف بالحق وأتى به، وأخبر بالحكمة وجهلها فرعون لجهله بجهله.

فأجابه فرعون بأن ترك مخاطبته؛ لأنه عبد لا يستاهل المخاطبة، وذلك لجهله به، فقال فرعون ﴿لَمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] يعجب من حضره من بعد موسى عن جهله هو.

فأردف موسى ﷺ تعريفًا أخص بهم مما تقدم ذكره؛ لعله أن يفهم عنه بقوله ﷺ: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] فتحقق جهل فرعون بجهل نفسه، وتقوى عنده ضلالة وفتنة، بأنه هو الحق الذي يقال له: ما هو؟ فقال لمن حوله: لا تخاطبوا موسى، ولا تواجهوه لجهله به ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] إذ لا يعرف هذه الحقيقة الذي عنده من جهله بنفسه، فتدين لهما الدين يقال له: ما هو؟!

ولما كان هذا المعنى الذي هو أول الموجودات في كل شيء موجود، وهو المعنى الذي يخاطب العقول، ويشهد عند أولي الأبواب بما هو عليه من الحدث والعبودية والافتقار إلى بارئه جل ذكره لما هو عليه من العلاء والغنى وحقيقة الربوبية، وسمات الجلال ونعوت التعالي ويسبح الله ويحمده.

وجدوه أيضًا في الموجودات وجدًا لا هداية بل جهلاً وعمى عنه، تعبدوا من أجل ذلك بجميع الموجودات، ودانوا لها بالخضوع والعبادة، فكفروا بالخالق العلي ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه المشهود له فيها وبها ومنها بالحق، ومنهم من أشرك، فكان ضلالهم من حيث هداية المهتدين بتقدير من عزيز عليم، فما من أحد عبد غير الله هداية أو ضلالة خطأ أو إصابة.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال جلّ قوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] سبحانه وله الحمد الم محمود بكل لسان المعبود بكل جهة ما أشبههم بالفراش في ضياء النار، يتهافون فيه هلاكًا كما اهتدى به مستوقدها، والمستضيء بها لقضاء حاجته كذلك أهلك هؤلاء بما اهتدى به المتعبدون والمؤمنون، والحمد لله رب العالمين.

فصل

من الأحكام في طلب الحكمة أن يترقوا بالنظر في الموجودات أعدادها وظواهرها، وصناعة الصانع لها ﷻ إلى مرتقى، وفي هذا الفصل معرفة والصعود في درجات المعرفة به، ثم إلى كيف هي، ثم إلى لِمَ أوجدها موجدًا جلّ ذكره فهجم بك حينئذ العلم إلى شرف تبصر من مستوى الخليفة فيه الحق بكماله إن كنت تحسن أن ترى.

فإن كنت ترى فسترى بما له غاية ما لا غاية له، وبما له ضد ما ليس له ضد في ذاته يراحمه، ولا منفصل عنه يضاده، وهو السلم المؤمن، وترى بما له خارج من ذاته بلى قصر على وجود نفسه أو قارب ذلك ما ليس بخارج من ذاته شيء، بل كل وجود في وجوده العلي ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

كذلك قال جلّ قوله للقلم: «اكتب علمي في خلقي»^(١).

وقال جلّ قوله: «وهو على كل شيء قدير ما شاء كان ولم يشأ لم يكن»^(٢) ولا يكون؛ لأنه من لا غاية له لا يشذ شيء عن وجوده العلي، هو كل الكل، كل ذي وجود ليس هو قائم بذاته تجده خارجًا من ذاته هو مفتقر إلى سواه، والمستغني عن سواه ليس إلا هو، وما سواه مفتقر إليه عبد له.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في الكبرى (٩٨٤٠)، والطبراني في الدعاء (٣٤٣)، وابن عساكر (١١٨/٦٤).

فهكذا فلتسلك في طلب الحكمة، فإنه لمن الواجب أن يوجه الفكر نحو المعلوم، ويوجه الوهم نحو المحسوس والعقل به كعقل ما يعلمه، وبحقيقة الإيمان رؤية المطلوب يهديهم ربهم بإيمانهم، فهو نور الباطن، وبه يراه أولوا الألباب في هذه الحياة الدنيا، وهو المستصبح به فيما هنالك والهادي إليه، والمطلوب العلي وحده لولا الله ما عرف الله.

فصل

قد جعل الله لكل شيء دركاً، فمن أتى البيوت من أبوابها دخلها، ومن أتاها من غير ذلك عسر عليه مطلبه لا ينال شيئاً إلا من حيث جعله الله دركاً له، ولو رامه طالبه من في السماوات ومن في الأرض، بل هو لا يزيد إلا ضلالاً وبعد عن مطلبه، فمن طلب الحكمة من طريق مطلبها أدركها في يسر وعافية.

وإنما أخطأها أكثر من طلبها؛ لأنه طلبها من غير طريقها، وبغير السبب الذي جعله الله ﷻ دركاً لها، فربما لم يدركها بما تقدم ذكره، فلم يطلبها بعد من طريق أخرى بل كذب بصورتها، وبحمل جهله على أن يجهل جهله، ويجهل صورة جهله، كن كمثل من قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف: ١٣] يبدلك المكنون إن شاء الله ﷻ، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فصل

لو أن المتقدمين لطلب الحكمة يطلبونها في مسالك معاني الأسماء والصفات في العالم، مع التسليم والإيمان لتبين لهم المطلوب، لكهنم ضربوا يمناً ويسرة يتعرفون الموجودات على ما هي عليه، وأخذوا في التسيار والتساؤل عما لم يبلغوه حتى صوروا معمور الدنيا مدائنهم وأنهارها وبحارها، وذكروا الممالك والسير والأخلاق والصور.

وقسموا الدنيا أقاليم ونسبوا كل إقليم منها إلى كوكب، وجدوا من ذلك ظاهراً من الأمر، فلو إنهم سلكوا مع ذلك معالم الأسماء والصفات لا يصل لهم الأمر، وظهر لهم الحق بنور النبوة بتجلي حق اليقين، فإن العقل لا يضيء له ما حوله إلا بالإيمان، ولا يعبر من حاضر إلى غائب، فيصيب إلا بأعلام النبوة، ولا يستحق أحد

منهم الإيمان إلا بذلك. انتهى.

فصل

قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فكرم الحكمة على ثلاثة أنحاء:

* كرم من جهة النفس والذات، وهو العمل بما يرضي الله جل ذكره في طاعته، واجتناب مناهيه عقدًا وعملاً وقولاً وطريقة.

* الثاني: كرم من جهة الآباء، فاتصل ذلك بالسلف في يوسف عليه السلام.

* الثالث: كرم من جهة الحكمة خاصة، وهو معرفة الموجودات، وتعرف ما هو الحكمة فيها على ما تقدم ذكره، والنظر إليها بالبصيرة الثاقبة على منهاج مسالك الأسماء ومعاني الصفات العلا، واستشعار الحق الذي به أحكم الله السماوات والأرض وما بينهما، والقصد القصد تبلغون إن شاء الله أرشدنا الله وإياكم.

ثم لتعلم - أيدك الله - أن ذلك مجموع في اسم واحد له في وجود الموجودات أربعة أركان، فإياه فاقصد، وعلى الله في طلبك، فاعتمد فليس سواه نافعا ولا معينا ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

فصل

فاسم الحكمة متناول فهم القرآن، والفقه فيه من حيث إنه تناوش فيه فهم الذكر الحكيم والآيات المحكمات ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ [هود: ١] فهو الحكيم لما هو كلام الله، وهو المحكم من حيث إنه مجعول قرآنًا عربيًا، على ما هو به من أوصافه وتفصيله وتوصيله إلى غير ذلك، ثم حديث رسول الله ﷺ يشمل اسم الحكمة ومعناها.

قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] ولأن بحديث رسول الله ﷺ يتبين الكتاب فهو حكمة، وإذا كان فهمه من آحاد الأمة حكمة، فبأن يكون بيانه على لسان رسول الله ﷺ أولى وأحرى؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

وأسمى أيضًا خادماً ما سموه طبيعة حكيمًا، وعلمه حكمًا وعلمه بذلك هو معرفة الداء والأدوية، ومظانها في موجودات الأرض والأحجار والنبات والمياه والأهوية، ومقابلة بما يصلح به من الدواء.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء، فإذا وافق الداء الدواء برئ الداء بإذن الله»^(١).

ويسمى أيضًا طبيبًا كما يسمى العالم بحكمة الله ﷻ في الشرع فقيهاً، واسم الطب أقرب إلى العلم بحظ ما من العمل، لكن اسم رفيق أولى به، كذلك قال رسول الله ﷺ: «أنت رفيق، وإنما الطبيب الله»^(٢).

وإنما سموا الطبيعة: حكمة الله ﷻ في هذا العلم، من فيح جهنم بتفتيسها - أعادنا الله الرحيم برحمته منها - مع فتحه هو برحمته بالماء ينزله من السماء، يحيي به الأرض بعد موتها، ففيح جهنم: سعيها، وزمهريرها: بردها، فيحكم الله آياته في ذلك بأن يؤلف بين المتباغضات، ويقارب بين المتباعدات ويؤلف بين المتنافرات، وهي الأمشاج ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] أي: نأمره بالهرب من جهنم وطلب الجنة، كذلك أعقب قوله الحق ﷻ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرًا وَإِمَّا كَفُورًا.....﴾ [الإنسان: ٣].

ولفيح جهنم - أعادنا الله الرحيم منها برحمته - ثلاثة شعب: حر وبرد ويبس؛ فالحر للنار، واليبس والبرد للزمهرير، فينزل الماء برحمته وهو رطب أوله البرد، ولكنه يميل إلى الحر مع الحر، وإلى البرد زائداً إلى ما هو عليه منه مع البرد، والماء موجود عن الهواء بقدرة الله ﷻ وإيجاده إياه، فيتسلط الحر بواسطة الشمس على هذه الجملة، ويبرد بالماء من السعير ويلين برطوبته من يسه وبش الزمهرير، ويرفع إلى الهواء متوسطاً ذلك، وهو الحار الرطب، فيخلق الله ﷻ على ذلك خلقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] بأننا نحوي الموتى من موتهم، كما نحوي الأرض بعد موتها، ويخلق الله كل شيء بدءاً

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (١٠٣٥).

وعودًا، فخلق الله جلّ ذكره هذه الأربع أصول من موجود الآخرة، أخرجها إلى هذه الدار بالفتح، والفيح المتقدم ذكرهما بواسطة رحمته في ذلك.

ولما راجع ما بينها جعل ﷺ لكل شعبة منها عملاً بامتزاجها بما مازجها من وصف ومعنى، وأكثر من المخلوقات جدًا، وتنوعت على ذلك واتسعت في صفاتها وأوصافها، وخلق الله ﷻ على ذلك أيضًا، ومالت الأمزجة إلى كل ميل، ثم مازج ما مال مع ما استقام كذلك إلى غير نهاية يبلغها الإنسان بالحصر، ويخلق الله على ذلك خلقه، وعلى التقليل من هذا والتكثير من غيره، ثم يخلق الله ذلك خلقه هذا أبدًا، كما لا يعجزه صورة يصوره عليها، ولا يعجزه تأليف ولا تركيب يؤلفه ويركبه، والله واسع عليم حتى لقد قال قائلهم: العمر قصير، والصناعة طويلة، والوقت ضيق، والتجربة خطر، والقضاء عسر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ اللَّيْلَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال جلّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨].

وقال جلّ قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧] المعنى حيث جاء.

وقال أيضًا جلّ من قائل: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] فملك السماوات والأرض هو ما دلّ عليه بالفيح والفتح المذكورين.

وقوله جلّ من قائل: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ حيث يتبدى ذلك يظهره الله جنة ونارًا، كما دلّ عليهما فيما هنا بآيات ذلك ودلائله.

وأعقب ذلك بقوله الحق جلّ قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ هو وجه آياته على الملك المذكور في الآية، ثم قال جلّ من قائل: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ

بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ ﴿[النور: ٤٣] وهذه آيات على الوعيد.

وقال رسول الله ﷺ: «اشتكت النار إلى ربها.....»^(١).

وقال جلّ ذكره: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُزِيلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

وقال جلّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] ثم عظمه بقوله الحق: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦] وهذان النفسان مقسمان على مواقع النجوم.

قال رسول الله ﷺ في الشمس: «ما ترتفع قصبة إلا فتح لها باب من جهنم»^(٢) وهذا عام في منازل الفلك في النجوم، ارتفاعها كل يوم في الجو إلى كبد السماء. وقال - جلّ قوله - فيها إذا كانت في محلها قبل الزوال: «حينئذ تسجر جهنم»^(٣).

وقسم الله ﷻ ذانك التقسيم على مطالع الشمس ومغاربها حروراً وصروداً، كل ذلك بحكمة منه على دوائر محكمة التدوار، تقدير من عزيز عليم بقوله جلّ قوله: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُذْهِبُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ الذي فتحنا عليكم به ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨١ - ٨٢] فينسبون الفتح إلى الكواكب، وسيأتي بيان ذلك في أولى المواضع به إن شاء الله تعالى.

فصل

حدوا ما سموه طبيعة بحدود قالوا: الطبيعة اسم مشترك يقال على الخلق، وعلى كل شيء مطبوع بطبيعة ومخصوص بها.

قالوا: ويقع على الأخلاط والكيמוسات الأربعة، وهذا قول خاص من قولهم

(١) أخرجه مالك (٢٨)، والشافعي (٢٧/١)، والبخاري (٣٠٨٧)، ومسلم (٦١٧)، وابن ماجه (٤٣١٩)، والترمذي (٢٧٩٦)، وابن حبان (٧٤٦٦)، وأحمد (١٠٥٤٥)، والدارمي (٢٩٠١)، والحميدي (٩٨٩)، وأبو يعلى في مسنده (٤١٩٠). الزمهرير: شدة البرد.

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٩٧٧)، والطبراني (٩٢٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢)، وأبو عوانة (١١٤٧)، وأحمد (١٧٠٥٥)، والبيهقي (٤٥٥٩)، وابن سعد (٢١٦/٤)، وعبد بن حميد (٢٩٩). تسجر: توقد ويحمى عليها.

على الخلق لو خلصوا العبارة عن الحد، فإنهم حدوا الطبيعة بزعمهم، فقالوا: الطبيعة اسم مشترك على الخلق، وهو على كل مطبوع وتدوير القول في الحد، غير سائغ كتدوير البرهان في البرهان، وغير ذلك غير جائز في البرهان.

قالوا: ويقع على العناصر الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وهذا إيماء من الحق على ألسنتهم على ما يكون من النفسين في أصول المخلوق منها، الخلق لو شعروا لمنبعث ذلك.

قالوا: ويقال أيضًا على الفلك، وعلى القوة الفلكية التي زينها الباري ﷻ في الطبيعة، وقدرها على تأثير الكون والفساد والذبول والزيادة والاضمحلال والحركة والسكون، فهذا أشعر منهم بالحق المنبعث عنه، وإن ذلك واصل إلى هذه الدار بدوائر محكمة التدوار، لو يعلمون ما أشعروا له ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] ويظنون كشف عن ذلك بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَغْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٧٦] وسيأتي بيانه إن شاء الله.

قالوا: الطبيعة خاصة حركة عن سكون، وسكون عن حركة، وهذا وصف الفلك.

وقال آخرون منهم: حد الطبيعة قوة فلكية تكون في الأبدان يتوسط الفلك من النفس والأجرام، وفي هذا الحديث شرب من معنى قول الله جلّ قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥] لو شعروا بحقيقة المعنى ليتبين لهم المأثي، وهذا كله إذهاب في الحق، وذهاب عن حقيقة المعنى المطلوب ولسان النبوة أعرب، ولسان الوحي أجمع وأفصح وأجلى وأقرب مأخذًا.

وقالوا أيضًا: الطبيعة جوهر حكيم بصناعة الأشياء المصنوعة، فإن كان مراد هذا بقوله: «جوهر حكيم بصناعة الأشياء» هو الله فهو الحق، ووقع الخطأ منه في تسميته بطبيعة وجوهر، وإلا فهو بعيد عن الصواب؛ إذ ليست الطبيعة التي يرومون إثباتها وحدها مما يوصف بالحياة والعلم والقدرة والإرادة، فيوصف بحكمة وفعل وصنع وصناعة.

وحدها أيضًا بأن قالوا: هي حرارة غريزية مقومة للأبدان، واقع عنها الفساد

والصلاح على نحو قوتها، وتتهياً له مصلحته من الغذاء وغيره، وهذا قول خاص على بعض القول في الحق هو، وشرك محض أكثر من كفر الذين نسبوا ما يفتح الله للناس إلى الأنواء، وهو منبعث من مذهب القائلين بالدهر تخرصاً وتظنيئاً.

وحدها أيضاً بعضهم بأن قال: الطبيعة قوة في الأجسام القابلة للغذاء تحفظ صحتها، وتبرئها إذا مرضت، ويعني بها العناية التي لا أحكم منها، ولا أبرم في الحكمة منها، وهو جوهر خفي مستور عن الحواس.

وهذه الأقوال أكثرها كفر؛ لأن القول بها والاعتقاد لها ضلال، وفيما ثبت بالقرآن وحديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - من تكفير من أضاف فعل الله ﷻ وتدبيره إلى غيره أكثر جدًّا لا سيما والعلم مستقر، فإنها أقوال صادرة عن مذاهب غير صائبة للحق، ولا معتمدة على معتقد مرضي، وقد نهى المسلمين عن التوسع إلى ما دون هذه العبارات مع العلم بحسن معتقدهم ووثيق أصلهم، فكيف بهؤلاء على ما هم عليه ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

تعاطوا القول في تدبير فضل الله جلّ ذكره ولزيعهم عن السبيل المرضي زيع بهم عن حقيقة المعتقد، وهم لا يشعرون نسبوا تدبير الله ﷻ، وتدبير ملائكته وسنن شرعته في تكون خليقته طبيعة، فخادم ما يسموه طبيعة يسمى: حكيماً؛ لأنه يخدم حكمة الله ﷻ، ومتعلمها يسمى: طبيباً من حيث يعلم، ويعمل لغة وعرفاً لا شرعاً.

قال الشاعر:

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي بَصِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وَدْهِنٍ نَصِيبٌ

والأولى أن يسمى بما سماه رسول الله ﷺ: رفيق، وهذا اسم شرعي، وإنما الطبيب الحق هو الله لا إله إلا هو الذي لا يموت له عليل بطبه، وليس من شرط الرفيق إلا المعالجة، والأخذ للعليل بالأولى من الأدوية والأغذية على ما تدعو إليه الضرورة، ويتلطف في ذلك عساه أن يبلغ بحسن علاجه دفع ما أذن الله ﷻ، وإبراء ما قدر الله إبراءه استدفاعاً لإذاية ما أذن الله تعالى لجهم أن تتنفس به من نفسها المذكورين.

لأجل ذلك مالوا في تأليف الأدوية إلى السهولة وطيب الرائحة، وتقربوا في ذلك إلى حال الاعتدال، ويقلون من الأدوية، وينحون بها إلى الأغذية حسب الاستطاعة؛ إذ الدواء من قبيل ما كان إضلاله، ولذلك تكرهته النفوس ونافرته بأول وهلة، وإخراج الدم كل ذلك معالجة لما اكتنزه الأبدان من عقابيل ذنك النفسين، ونهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث.

فصل

هذا المشار إليه بأنه عالم الطبيعة، وهو دار الدنيا أقطعها رب العالمين ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عدوه إبليس الملعون المبعد - لعنه الله - أنظره فيه إلى يوم الدين، فكان الذي من شأنه أن ينسب إلى جهنم في هذه الدار نسب إلى إبليس - لعنه الله - نسبة ما، أما أعمال الحرام والمكروه لله جل ذكره كلها فتزيينه ورضاه بها، وحمل ذلك بالغرور ونحو ذلك، وما كان من موجوداتها الكريهة من أحجار ونبات وحيوان، وظلام وظلم، وخلق قبيح وأنواع المؤذيات، ومصائب تصيب من علل وأسقام من بعد محبوب وفوت مطلوب، فمنسوب إليه أيضًا بوجه ما؛ لأنها أقرب إلى ما هو عنه منبعثها كذلك جعلها الطبيب الحق الأعلى، والحكم الحق العليم أدوية من أدواء الأسقام، ثم كره الأدوية للنفوس على الأغلب: لأن إبليس - لعنه الله - مخلوق من نار السموم وإليها معاده وفيها سعيه، ولها كدحه واجتهاده وجده، ولذلك جنبها لبني آدم وزينها؛ ليكون مآل من أطاعه على ذلك أن يدخل مدخله.

فصل

ليست أدوار الأبدان والمصائب كلها بنافعة إلا للمؤمن، ولا إله إلا الله في مخلوقاته وآياته إلا للمؤمن، والكافر مبعد ملعون عن هذا كله، إلا ما كان فيما سبيله إلى الكون.

قال الله ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ﴾

بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُولَاهُ مَا تَوَلَّىٰ وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ [النساء: ١١٤ - ١١٦].

قوله ﷻ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجُوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ...﴾^(١) [النساء: ١١٤] أرجع ﷻ الكلام إلى ذكر أهل الكتاب والمنافقين، وبآخره يعم المؤمنين، كان أهل الكتاب والمنافقين يرجفون بالمدينة يتناجون بذلك، وينتقصون الرسول والمؤمنين، فأنزل الله جل ذكره في ذلك عدة آيات:

منها: قوله جل قوله: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

وقال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٨] فكان هذا من تناجيهم، فأعلم الله ﷻ باستصحابهم ذلك، ثم من فحوى الخطاب ومفهومه يعلم أن كثيرًا من مناجاة المؤمنين بعضهم بعضًا، لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس؛ لذلك وهو أعلم أعقب الخطاب بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

(١) يعني: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامة في حق جميع الناس، والنجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًا كان أو جهراً، فمعنى الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوى تكون فعلاً، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ [الإسراء: ٤٧] ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ عن أم الدرداء رضي الله عنها، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصَّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ؟» قال: قلنا: بلى، قال: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ». [تفسير البغوي (٢/٢٨٦)].

دَلَّ عَلَى صَرْفِ مَعْنَاهَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْغَدْوَانِ وَمَغْصِيَةِ الرُّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المجادلة: ٩].

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ [العصر: ١ - ٣] وكل شيء فعلاً كان أو قولاً أو ما كان، فمحصل كله مزموم، فإن كان كلامه سيئة فكفى به شراً وإن كان لغواً، فهو خسارة عمر وإبطال عمل، لكن الأكياس توجهوا بقلوبهم وذواتهم ظاهراً وباطناً إلى ربهم ﷻ، وأحضروا إليه بنياتهم وطلبوا رضاه في كل قول يكون منهم، فربحوا على ذلك الأرباح الوافرة في الدنيا والآخرة، وهم المعنيون بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ...﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قوله: ﴿سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢].
﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ۝ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَا يُخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ۝ وَلَا ضَلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَلْبِكُنَّ ءَازَاكَ الْاَنْعَمَ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيُغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ يَعْبُدُهُمْ وَيُؤْمِنُ بِهِمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا عُرْوًا ۝ أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝﴾ [النساء: ١١٧ - ١٢٣].

قوله جل ذكره: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَّا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ﴾^(١) [النساء: ١١٧ - ١١٨] كل معبود دون الله ﷻ فهو أنثى بالمعنى؛ إذ هو

(١) نزلت في أهل مكة؛ أي: ما يعبدون، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ [غافر: ٦٠] أي:

مكفول معول مقوم عليه، وبخاصة ما سموها تسمية الأنثى كمناة واللات والعزى وأمثالها، وذكرناها على اعتقادهم كودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، سموها لمعان أرادوها من أباطيلهم، والموات وما لا روح فيه أعرق في النقص والأنوثة، كذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وقال الله جلّ من قائل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢١].
والمريد: مبالغة من مارد، وهو الذي لا نفع عنده ولا خير فيه، يقال من ذلك: رملة مرداء؛ أي: لا نبت فيها.

والمرداء: القفر الأبلج الذي لا مرعى فيه ولا ظل ولا شجر.

المارد: هو العادي الطاعي.

والمفروض: هو المعلوم المققطع.

فالنصيب الذي اتخذوه من العباد قد أوجبه الله سبحانه وله الحمد فيهم، وأقطعه إياه منهم منبعت ذلك «هؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون»^(١).

وقوله جلّ قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ أي: منك، وممن يكون منك من ذريته ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٨٥] يعني: من ذرية آدم عليه السلام وذرية إبليس كذلك ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء: ١١٨] أي: مقطوعاً من سوء ما به ظن ظنه فيهم، وزعامة زعمها عليهم من نفسه الخبيثة، وقدرة الله تعالى وسابق علمه؛ ليتم كلمة الله وإحكام حكمته في سابق مشيئته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

اعبدوني، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠] قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿إِلَّا إِنَانَا﴾ أراد بالإناث الأوثان؛ لأنهم كانوا يسمونها باسم الإناث، فيقولون: اللات والعزى ومناة، وكانوا يقولون لصنم كل قبيلة: أنثى بني فلان، فكان في كل واحدة منهن شيطان يترأى للسنة والكهنة ويكلمهم، ولذلك قال: ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا﴾ هذا قول أكثر المفسرين. [تفسير البغوي (٢/٢٨٨)].

(١) تقدم تخريجه.

وقال: ﴿وَلَا ضِلَّيْنَهُمْ﴾ أي: عن هدايتهم التي هي الإسلام والإيمان ﴿وَلَا مُمَيِّنَهُمْ﴾ أي: يمينهم الغرور، ويعددهم الحسنى بالفجور وحسنى العقبى بسوء الأعمال.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلَا مَرْئُهُمْ فَلْيَبْتَكَرْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ أي: يشقونها ويقطعون أذان الأنعام؛ يعني: يسمونها لآلهتهم عن سنن أباطيلهم من بحيرة وسائبة ووصيلة وحام، ونحو هذا.

ثم قال لعنه الله: ﴿وَلَا مَرْئُهُمْ فَلْيَغَيِّرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] تغيير الخلقة على وجهين:

منها: القطع والشق، والوسم على وجوهه من الجذع، وغير ذلك. والوجه الآخر: تغيير الهداية كما قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدهاء»^(١).

فصل

ربما سبق إلى نفس التالي من قول الله ﷻ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. ونظر في حديث رسول الله ﷺ قوله: «كل مولود يولد على الفطرة.... كما نتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحس فيها جدهاء»^(٢).

وقوله ﷺ فيما حكاه عن ربه ﷻ: «إني خلقت عبادي كلهم حنفاء فاتتهم الشياطين عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(٣) فظن بالحديث تعارضاً للقرآن، أو ما يكون من سبيل هذا، فاعلم - وفقك الله للرشاد - أن حقيقة الفطرة في العباد غير مبدلة، وكذلك في جميع الخليقة، وإنما الكفر اكتساب للعباد

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٢) ومسلم (٢٦٥٨) وأبو داود (٤٧١٤) وأحمد (٨١٦٤).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٦٥) وأحمد (١٧٥١٩) والطبراني (٩٨٧) والنسائي في الكبرى (٨٠٧٠) والبزار (٣٤٩١).

يكفرون به إسلامهم، ويضلون بذلك عن هدايتهم يغطي الكفر تلك الحقيقة، ويذهلهم عنها دليل ذلك وجود إيمانهم حين وقوع البلاء، وحلول الحالة التي عبّر عنها قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ﴾ [الإسراء: ٦٧] و﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَلِإِلَٰهِ تَجَازَوْنَ﴾ [النحل: ٥٣] فإذا انحسرت عنهم حال الضرورة ووجدوا الفاقة أعرضوا عن ذلك، ورجعوا إلى المقدور فيهم وعليهم.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢] فالشواهد على هذا كثيرة.

قوله ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَضْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢] هو الحق، وقوله الحق ووعدته الحق.

اعلم - وفقنا الله وإياك - أنه من لم يجعل وعد الله سبحانه وله الحمد كله حقًا واجبًا، كوجوب كون النهار بعد الليل والليل بعد النهار، وكوجوب الحركة من المتحرك بواسطة القدرة، وكتسويد الكاغذ عن جري القلم بيد الكاتب، وكتصوير الفعل عن مشيئة المصور، وكوجود النهاية عن الانتهاء، فمن لم يكن غوره هكذا لم يوفِّ إيمانه حقه، وهذا هو اليقين بل كل ما تقدم ذكره، ووجوده على المعهود من جريان العادة.

ومن الجائز الممكن بمجزئها أن يقطع ذلك المعهود فلا يكون، بل هو مما يجب الإيمان به، وليس من الجائز ولا الممكن خلف وعد يعد به، ولا وجود خبر منه على خلاف مخبره ﷺ عن ذلك علواً كبيراً، فاعلم ذلك واعمل عليه فإن الشيطان - لعنه الله - قد يقنع من العباد بالغفلة عن مشاهدة الحقائق، وينسيه القطع والعمل بها، وإن كان معلومها مختزناً في جدر قلبه، وربما استجره من هذا المقام إلى حال الجهل به، والعمل على غفلته عنها والجهل بها كما فعل في أصل الإيمان الذي تقدم الراسخ في الجبل المغرور في سنخ الفطرة حتى اجتالهم عنها وأزاحهم عن حقيقتها، كذلك كان أولئك من قبل، فتبينوا رحمكم الله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ

الْجَنَّةَ وَلَا يَظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ
وَمَا يَتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَبَّعُونَ
أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا
وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ [النساء: ١٢٤ - ١٢٨].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ...﴾^(١)
[النساء: ١٢٣] إلى قوله: ﴿نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] الأمانى جمع: أمانة، والاسم:
المنى؛ وهو حديث النفس بما هو معجب مستحسن عندها، فإن كان ذلك يحدثها
بزنى ومعصية أو ما جرّ إلى ذلك فهو من الشيطان، وما كان من ذلك من تمنى
بطاعة الله وابتغاء رضوان الله وما جرّ إلى ذلك مكتوب في مصالح عمل العبد، فإن
النزول عن هذه العلية سهل على النفس بواسطة تزيين الشيطان، فهو من عماله التي
أقطعها.

والحديث ذو شجون، واللعين تسرع بإلقائه فيما هنالك من أفق النفس،
واعتياده استسرارها لذلك والله أعلم لما ذكر جلّ ذكره ما يعد الشيطان به من
غرورها وأمانيتهم من أباطيله، وأنه يروج عليهم الضلال في معرض الهداية كقوله:
﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١].

(١) قال مسروق وقتادة والضحاك: أراد ليس بأمانيتكم أيها المسلمون ولا أمانى أهل الكتاب؛
يعني: اليهود والنصارى، وذلك أنهم افتخروا، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل
كتابكم فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: نبينا خاتم الأنبياء وكتابنا يقضي على
الكتب، وقد آمنّا بكتابكم ولم تؤمنوا بكتابنا فنحن أولى. [تفسير البغوي (٢/٢٩٠)].

وقوله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة: ١١٨] ونحو هذا من أمانيتهم وغرورهم.

خاطب ﷺ المؤمنين بقوله - جلّ قوله - وهو أعلم: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يقول وهو أعلم: ليس لأنكم أسلمتم لله وآمنتكم سلمتم وآمتكم، إنما تجزون الأمن والسلامة إذا أحسستم في إسلامكم ووافيتم على ذلك، وسوف يكون لكم من الشيطان مطالبات، ومن الله جلّ ذكره تمحيص وبلوى ﴿مَنْ يَعْمَلْ شُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ على إيمان وإخلاص ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلُمُونَ نَفِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] كل شيء مزموم له وعليه، كما كل شيء نصيبه بقضاء وقدر.

انتظمت هذه الآية بالتالي قبلها في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ....﴾ [النساء: ١٢٢].

ثم قال عزّ من قائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فأمانيتهم ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] ونحو هذا، وكأمني أهل الغرة من هذه الأمة الذين فقدوا خشية الله من قلوبهم، وأفردوها بالرجاء فيهم يتمنون علي الدرجات بأعمال الغافلين.

حسم جلّ ذكره هذا المعلم، وكشف عن هذه المنزلة بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ أي: في العفو والمغفرة ومنازل الفضل، حتى لا يكونوا كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿مَنْ يَعْمَلْ شُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وإن كان مؤمنًا مصليًا صائمًا ﴿لَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] غير أن الله - تبارك وتعالى - وعد المؤمنين أن يكفر ذلك بالمرض والحزن والمصائب والأرزاء، حتى الشوكة يشاكها؛ ليرد على الله جلّ ذكره ولا ذنب عليه، وحسناته وافرة مضاعفة إن شاء الله تعالى.

قوله ﷺ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] سرد هذا الخطاب على ما تقدم ذكره من اتباع سبيل المؤمنين، ومخالفة سبيل الشياطين والبراءة من ولايتهم، والإخلاص

الله ﷻ بطاعته مادحاً للموصوفين بهذا الوصف مثنيًا عليهم بذلك؛ إذ ملة إبراهيم عليه السلام هو الدين القيم، وهو الصراط المستقيم، ومنتحلوها هم القيمة.

وهو دين الملائكة والرسل - عليهم السلام - لا يقبل الله دينًا غيره، فإذا أحسن في توجهه إلى الله ﷻ، فهو يعمل في خير معتمِل إن أحسن حمد الله وشكر، وإن أساء تاب إليه واستغفر، يعبد الله خالصًا مخلصًا كأنه يراه، يراقبه على علم منه بمرأى، مقتديًا بالرسول في سنته متبعا للخليل في ملته حنيفًا مسلمًا، فهذا أكرم الناس وجه، وأقربهم مقصد عساه يوافي على ذلك، فيتم نعمته عليه.

ثم عرض جل ذكره بوعده كريم وعطف بالواو، وعلى ذكر المقام الذي تقدم وصفه بقوله عزّ قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] لما كان من معهود فضله العظيم أنه يلحق التابع بالمتبوع، ويدخل المؤتم مدخل إمامه، كما قال عليه السلام: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] وكما قال عليه السلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين»^(١).

وفيما علمناه في الدعاء في الصلاة على الطفل: «اللهم ألحقه بأولاد المؤمنين في كفالة إبراهيم عليه السلام».

ورأى النبي ﷺ الولدان ليلة أسرى به وإبراهيم عليه السلام معهم تحت شجرة.

فصل

قوله عليه السلام في دعائه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: نزل إلى ما دونها، كما يعصي الموحّد ربه فيسمى: عاصيًا، ولا يكفر بذلك، ويرجى له مغفرة الله ورحمته، كذلك قال الله جلّ قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

والخليل: فعيل من الخلّة، والخلّة والخلال: المحبة، ونقيض الخلّة: العداوة، كما نقيض المحبة: البغض.

قال الله ﷻ: ﴿الْأَخْلَاءُ يُؤْمِنُ بِغُضُنِّهِمْ لِيُبْغِضَ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]

(١) أخرجه مالك (١٧٣٧)، والبخاري (٥٦٥٩)، وأبو داود (٥١٥٠)، وأحمد (٢٢٨٧١)، والترمذي (١٩١٨) والطبراني (٨١٢٠) والبيهقي (١٣٠٣٧) في الشعب (١٠٨٥٨).

ولما كان نقيض الخلّة: العداوة، والخلّة إذاً هي نهاية الولاية، وأصل الخلّال تخلّل الشيء وتتبع المقصود، والميل إليه عن سواه، والتخيف أقرب إلى هذا الوصف من ذلك، وإنما حقيقة التخيف القيام على الحق والميل إليه عن سواه. وقيل: الطريق يكون في الجبل خلّال؛ إذ سالكه يتخلّل الحزن إلى السهل في مرتقاه.

وقيل للطريق بين الدور والشجر: «خلّال» من أجل ذلك. والخلّال أيضاً يتخلّل به الإنسان، وخلّل الشيء وخلّاله: هو ما بين بعضه وبعض كخلّل السّتر والشجر والنبات. قال الله ﷻ وذكر الماء ينزل عن السحاب: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣].

والخليل أيضاً والخل والمتخلّل: الجسم. قال الشاعر:
 إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَحَلٌّ^(١)

والخليل: الشديد الفاقة، وحاله الخلّة بفتح الخاء؛ إذ هو الذي قد تخلّل في مرضاة الله ﷻ بين هوى نفسه وبين عوائق عوارض الدنيا يحبها، فيتحمّل لذلك مرارة الصبر ووحشة الغربة، واختلال الجسم وخلّة الحال وشدة الفاقة إن عرضت، فهذا هو المسلم الذي حل في أعلى ذروة الإسلام، فإن من الله عليه بأن يخلّل بحبه له موضع الروح منه، ثم أفاض من ذلك على جوارحه فله يعمل وله يترك، وإياه يذكر وله يصمت، فقد اتخذّه الله خليلاً.

بذلك أثنى الله ﷻ على إبراهيم ﷺ بقوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [التحل: ١٢٠ - ١٢١].

ومن وصف ما ذكره رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «إني لأطلع على قلب عبدي فأجد الغالب عليه ذكري إلا كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي

(١) هذا عجز بيت، وشطره: «فاسقينها يا سواد بن عمرو» والبيت للشنفرى. مفردات ألفاظ القرآن (٣٠٨/١).

يصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولأن سألني لأعطينه، ولأن دعاني لأجيبه...»^(١).

وقد تقدم الكلام في المحبة، وأن السبيل إليها حسن الاتباع للرسول ﷺ، وصحة الاقتداء به على قدر الانقطاع لاتباع ملة إبراهيم عليه السلام، يعطي العبد من الخلّة على قدر الاقتداء بمحمد ﷺ يعطي متعاطي ذلك من المحبة، والمحبة أعلى الخلّة. ألا تسمع إلى قول إبراهيم عليه السلام في اليوم المشهود للمستشفعين به: «لست بصاحبكم، اذهبوا إلى ابني محمد إنما كنت خليلاً من وراء وراء»^(٢).

وإنما صعد إلى أعلى الخلّة والمحبة بالإضافة إلى منازل المتقين أهل العلية، ومن استعمل اعتمل كما قال بعض القائلين، فسبحان من قد خصّهم واجتباهم، واختار منهم من أحب خليلاً، هم درجات عند الله، إنما الذين عروا منها ألبته هم الكافرون.

قال الله جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] ثم قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] ثم حذف هنا ما دلّ عليه المظهر في الآية التي قبلها، قوله جلّ قوله: ﴿يُحِبِّكُمُ اللَّهُ﴾ أو ما يكون في معناه.

ثم قال جلّ قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]. قوله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٢٦] دلّ على سياق هذا الخطاب بعد ما تقدم على تعريض بمعنى الخلّة، وإنه لا يصعد إلى أعلاها، ويحل ذروتها إلا بتصحیح التبعية لإبراهيم عليه السلام، ولا يكون ذلك كذلك إلا بأن يتفرغ للنظر والاعتبار في ملكوت السماوات والأرض كي يتعلم اليقين.

فصل

من شروط الخلّة والمحبة: البحث عن معرفة الخليل الأعلى، وتعلم معاني

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٥)، والبخاري (٢٨٤٠)، والحاكم (٨٧٤٩).

أسماء الحبيب الأقرب، ولهج النفس بمدائح، والاسترواح إلى تصفح أفعاله، وتطلب مجاري حكمته في مصنوعاته، والوجود يدل على ما نحن بسبيل تبيان قلمه ترى محباً صادقاً إلا لهجاً بذكر محبوبه مشغوقاً باسمه، كثير التكرار على معانيه يقف بالأطلال ويستوقف، ويقوم على الديار، ويشجي بمشاهدة الآثار، ويتوكف^(١) الأخبار، ويكي معاهد الوصال كما قال المتنبي:

بليتُ بلى الأطلال إن لم أفق بها وقوف شحيح ضاع في الثوب خاتمه
وقال آخر:

أطوف ببابكم في كل وقت كأن ببابكم فرض الطواف
تراه يبكي النوى ويشكو الصد، ملازمًا الاكتئاب قاطعًا للأسباب، راحته في العكوف بباب محبه وتتبع آثاره وتوكف أخباره، كما قال الآخر:

وإني لأهوى الدار ما يستفزني لها الود إلا أنها من دياركا
ولا يفارقه شجوه ولا يمكنه سلوه هكذا إلى أن يجد عذوبة القرب، ويتروح روح الفصل.

ثم اعلم - رحمننا الله وإياك - أن هذا المقام قلما تثبت عليه الأقدام إلا برحمة من الله لعدوان العدو، ولأن غير الحسود وعين نفسه ونفس حسوده تسرع إليه؛ إذ الفرج به موجود، والعين بمدرك تلك الحال قريرة، وربما نظر إلى نفسه في بعض خطراته ناسياً أو ساهياً، فجوزي أن يتلى بهجر أو يعاقب بصدي.

والعين تسرع أحياناً إلى الحسن

ومن المعهود أنه ما قرب عين بحال إلا حدقت إليه عيون العدى، واعتبر من ذلك إلى شأن أبينا آدم حين أسكنه ربه جل ذكره الجنة، وما آل إليه أمره، ولولا رحمة ربه والحب المعهود في هذه الدار آية على ما هنالك.

قال بعضهم:

(١) توكف فلاناً: تعهده ونظر في أمره، والأثر: تتبعه، والخبر: توقعه وسأل عنه. انظر: المعجم الوسيط (١٠٣٣/٢).

فَلَوْ أَنَّ وَاثِنًا بِالسَّيْمَامَةِ دَارُهُ وَدَارِي بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ اهْتَدَى لَنَا
وَمَاذَا لَهُمْ لَا أَضْلَحَ اللَّهُ بِالْهَمِّ مِنْ الرُّوحِ فِي تَصْرِيمٍ لَيْلَى حِبَالِيَا
ولهذا المقام آيات رأسها وأسسها التزام الذل والتواضع ومعرفة الله،
واستشعار التضائل في حال القوم ينبئك بحقيقة ما نحن بسبيل التوصية،
كقول بعضهم:

تَذَلُّ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى الْقُرْبِ وَالتَّوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ
وقال آخر:

وَأَهْتَنِّي فَأَهَنْتُ نَفْسِي صَاغِرًا

وهذا كثير فيما بينهم شائع، وجملة الحب آية على ذلك الحب المحمود.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل

عمران: ٣١].

وقلما ذكر الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه معقبا إلا أعقبه بوعيد، وقد أعقبها
هنا بقوله جلّ قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٢٦] فوصف الإحاطة
دليل على التهديد، فحظ بالغ هذا المقام وجد قائل هذا المرغوب الدعاء، وكثير
الابتهال والتكاوس^(١) والتمسكن، والمبالغة في التواضع وملازمة الترضي، ولا يرى
أحدًا اعتقد الرفعة له عليه، بل يعتقد أن غيره هو الناجي دونه، وهو الهالك إن لم
يرحمه الله ربه، ويعمل على يقين بصحة تعبد الله ﷻ وتوكل، وليحذر النكوص بعد
الإقدام والنقص بعد التمام، فعلى قدر العلو في الرفعة تكون الوجبة في الوقعة،
وأعر الضلالة الضلالة بعد الهدى.

﴿وَلَنْ قَسْطَ طَيْعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ

فَتَذَرُوهُنَّ كَالْمَعْلُوقَاتِ وَإِنْ تَصْلِحُوا فَاتَّقُوا اللَّهَ كَانَ عَفْوَ رَحِيمًا ﴿١٣﴾ وَإِنْ

يَنْفَرَقَا يُقِنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

(١) التكاوس: التراكم. انظر: جمهرة اللغة (٤٧٩/١).

فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّهُمْ
يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُتَفَقِينَ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوهُمْ فِي الْعِزَّةِ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾
وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ
حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ بِالنَّاسِ اللَّهُ جَامِعُ الْمُتَفَقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ
جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ [النساء: ١٣٦ - ١٤٠].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى
رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ...﴾ إلى قوله: ﴿بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] المطلوب
من جميع المكلفين الإيمان بالله جلّ ذكره وبما هو عليه من نعوت التعالي وصفات
الجلال، ثم بأحكامه وأفعاله وقدره كله وبما جاء من عنده.

ثم بالملائكة - على جميعهم صلوات الله وسلامه - والأنبياء والرسل -
صلّى الله عليهم - دون تفرقة بين ذلك، ولا توقيف إيمان ببعض دون بعض، فالله
جلّ ذكره الواحد لا إله إلا هو الواحد الصمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤].

والملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - كلهم كملك واحد من حيث
الإيمان بهم، وكذلك الأنبياء والرسل - على جميعهم الصلاة والسلام - الإيمان
بجميعهم كالإيمان برجل واحد إلا ما خصّ الله ﷻ به بعضهم من بعض من الفضل،
والتقديم والتأخير على تخصيص إرساله رسولا رسولا إلى أمة أمة، أو عموم في
ذلك، وكذلك الإيمان بما جاءوا به ظاهر ذلك وباطنه، واتباع جميعهم إلا ما استثنى
من حكم النسخ.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا...﴾ إلى
قوله: ﴿سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧] هؤلاء - والله أعلم - يهود آمنوا بموسى ﷺ، ثم
كفروا باتخاذهم العجل إلها من دون الله ﷻ، ويقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَرَى اللَّهَ
جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] ثم آمنوا بأن تاب الله عليهم، ثم كفروا بعتسى ﷺ لما جاءهم

مصدقًا لما معهم، ثم لما جاءهم محمد - صلوات الله وسلامه على جميعهم - تصديقًا لما معهم، ثم ازدادوا كفرًا إلى كفرهم.

قال الله ﷻ: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

فصل

قال الله ﷻ في اليهود: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١].

وقال - جل من قائل - في المنافقين: إنهم ﴿مَلْعُونِينَ﴾ [الأحزاب: ٦١] والملعون مبعّد عن الرحمة، والتوبة من الرحمة، كذلك المغضوب عليهم لا يقبل منه إحسانه، ولا يتقبل قربانه ولا توبته.

وفي مثل هذا تقدم القول في سورة «آل عمران» من لدن قوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ...﴾ [آل عمران: ٨٦ - ٨٨] إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

فهذه الآية مترددة بين جملة اليهود والمنافقين لا يوفقون لتوبة، ولا يقبل منهم إحسانًا إلا آحادًا من هؤلاء وهؤلاء، وبخاصة جملة يهود عليهم حقيقة الغضب والإبعاد، وهو المقول فيهم: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

ولقرب المنافقين من فعل يهود أعقب ذكرهم بقوله جلّ قوله: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨] لتوليهم إياهم وكفرهم بعد إيمانهم، وهاتان الخصلتان يكسبان الغضب واللعن.

قال الله في يهود: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَقُولُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَشَرٍ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠].

﴿الَّذِينَ يَرَبُّونَ يُكْمِ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٦١﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ

خَدِعْتُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَىٰ بُرَاءُونَ النَّاسِ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾
 مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا إِلَهُ عَلَيْهِمْ
 سُلْطَانًا مِثْلًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا
 الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ
 وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
 وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾ [النساء: ١٤١ - ١٤٧].

قوله ﴿١٤٢﴾: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾^(١) [النساء: ١٤١] و«لن» حرف يدل على الاستقبال بالمخبر عنه
 بقوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾
 يعني: يوم القيامة كلمة تامة لا مثنوية فيها تعم، ولا تجعل للمؤمنين ولا للكافرين
 على جملة المؤمنين سبيلًا، يعني: ظهورًا يستأصلون شأفتهم.

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا
 خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ
 وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ
 بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا

(١) ثم قال: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ وفيه قولان: الأول: وهو قول علي
 ؓ وابن عباس رضي الله عنهما: إن المراد به في القيامة بدليل أنه عطف على قوله: ﴿فَاللَّهُ
 يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الثاني: إن المراد به في الدنيا ولكنه مخصوص بالحجة، والمعنى:
 إن حجة المسلمين غالبية على حجة الكفار، وليس لأحد أن يغلبهم بالحجة، والدليل الثالث:
 هو أنه عام في الكل إلا ما خصه الدليل، وللشافعي - رحمه الله - مسائل: منها: إن الكافر إذا
 استولى على مال المسلم وأحرزه بدار الحرب لم يملكه بدلالة هذه الآية، ومنها: إن الكافر
 ليس له أن يشتري عبدًا مسلمًا بدلالة هذه الآية، ومنها: إن المسلم لا يقتل بالذمي بدلالة
 هذه الآية. [تفسير الرازي (٤١٦/٥)].

لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْأَبَابَ بُحْدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ ﴿النساء: ١٤٨ - ١٥٤﴾.

قوله ﴿١٥١﴾: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] تشابهت قلوب الذين كفروا، وأهل الكتاب والمشركين في سؤالهم أنبيائهم.

قال المشركون: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا...﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قولهم: ﴿كِتَابًا نُّقْرُؤُهُ﴾ [الإسراء: ٩٣].

يقول الله جل من قائل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مَيْثَقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْبِعِهِمْ عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهَرُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيعَتِ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلَهُمْ آتَاوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ أُولَئِكَ سَوَّيْتُهُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٦٢].

قوله ﷻ: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ...﴾ [النساء: ١٥٥] الباء هنا هي السبب، جارة للمسبب جالبة له، وهو المعنى المستجن في قوله، و«ما» هو اسم ما نقضوه من ميثاق، وحذف ﷻ العائد على «ما»، وقد أظهره جل ذكره في سورة المائدة، فكان تقدير الكلام: فبالذي نقضوا به ميثاقهم لعناهم؛ أي: بالوجوه أو الذنوب أو بكل فعل نقضوا به الميثاق، وعاقبناهم من العقوبات بما يقابل ما نقضوا به، كما قال: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقوله: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

والواو التي في قوله: ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥] عاطفة على معنى النقص، تقدير الكلام: فبنقضهم المأخوذ عليهم ﴿وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥].

﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦].

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ...﴾ [النساء: ١٥٧] إلى قوله: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١٥٨].

وفيه: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩] يحتمل أن يكون رجوع الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ على عيسى صلوات الله عليه، ويحتمل أن يكون رجوعه على كل واحد من أهل الكتاب.

وفي قراءة أبي: «ليؤمنن به قبل موتهم» بالهاء والميم.

ثم أعاد ﷻ عذاب الآخرة المعد لهم في المعد لهم على عذاب الدنيا، وعقوباتها التي أصابتهم جزاء مقابلاً لما نقضوا به ميثاقهم، وهو وعظ وعظ به هذه الأمة، وتحذير حذرهم أن يسلكوا سبيلهم في نقض الميثاق، نعوذ بالله العظيم من سخطه وعذابه ومما يوجب ذلك.

قوله جلّ قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢] لما ذكر الله ﷻ أهل الكتاب، وشبههم بالمشركين الذين لا يعلمون استدرك أهل الرسوخ في العلم منهم،

والمؤمنين من هذه الأمة، ونصب ﴿المُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ على تقدير إعادة الحافض.
وقيل: إنه نصب على المدح، والأول أوجه.

تقدير الكلام: يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالمقيمين الصلاة، وهؤلاء المذكورون في أول سورة البقرة، وهم ذرية الأنبياء - عليهم السلام - وإخوان الرسل، وهم السابقون المفردون من أمته، وهم الأشياخ والقادة الذين اشتاق ﷺ إلى رؤيتهم، فقال: «وددت أنني رأيت إخواني» قالوا: ولسنا إخوانك يا رسول الله؟ فقال لهم: «أنتم أصحابي وإخواني الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض»^(١).

والإيمان بوجود هذا الصنف في المؤمنين وبجملة أحوالهم، ورفيع مكانتهم عند الله جلّ ذكره يتلو الإيمان بالأنبياء والرسل - عليهم السلام - في الوجوب، فاعلم ذلك واستكثر منه فإنه الحق من ربك.

ثم عطف قوله جلّ قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ على قوله جلّ قوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ١٦٢] أي: من أمتك.

وقرأ ابن غزوان: «والمقيمون الصلاة»^(٢).

(١) أخرجه مالك (٥٨)، ومسلم (٢٤٩)، وأحمد (٧٩٨٠)، والنسائي (١٥٠)، وابن ماجه (٤٣٠٦)، وابن حبان (١٠٤٦)، وأبو يعلى (٦٥٠٢)، وأبو عوانة (٣٦٠)، والبيهقي (٣٩٢).

(٢) وفي نصب المقيمين أربعة أقوال: أحدها أنه خطأ من الكاتب وهذا قول عائشة وروي عن عثمان بن عفان أنه قال: إن في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها، وقد قرأ ابن مسعود وأبي وسعيد بن جبير وعكرمة والمجذري والمقيمون الصلاة بالواو. وقال الزجاج قول من قال: إنه خطأ بعيد جداً لأن الذين جمعوا القرآن هم أهل اللغة والقدوة، فكيف يتركون في كتاب الله شيئاً يصلحه غيرهم فلا ينبغي أن ينسب هذا إليهم. وقال ابن الأنباري: حديث عثمان لا يصح لأنه غير متصل ومحال أن يؤخر عثمان شيئاً فاسداً ليصلحه من بعده. والثاني أنه نسق على ما والمعنى يؤمنون بما أنزل إليك وبالمقيمين الصلاة فقليل هم الملائكة وقيل الأنبياء. والثالث أنه نسق على الهاء والميم من قوله منهم؛ فالمعنى لكن الراسخون في العلم منهم ومن المقيمين الصلاة يؤمنون بما أنزل إليك، قال الزجاج وهذا رديء عند النحويين لا ينسق بالظاهر المجرور على المضمر المجرور إلا في الشعر. والرابع أنه منصوب على المدح فالمعنى اذكر المقيمين الصلاة وهم المؤتون الزكاة. [زاد المسير (٢/٢٥٢)].

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٣٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٣٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٣٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٩].

قوله جل ذكره: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦] لما ذكر الله ﷻ أنه أوحى إلى نبيه محمد ﷺ، كما أوحى إلى جميع المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - استدرك بحرف «لكن» شهادته العليا بذلك من جحد من جحد الحق وعند عنه.

وقوله جل قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يعني وهو أعلم: ما أساء من علم الغيب بما كان، وما هو كائن.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلم مبيّن عن نعوت الإلهية وحقائق الوجدانية، وأسمائه الحسنی وصفاته الكاملة العلا، ويخبر عن آياته وشواهد وبيّناته.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه؛ أي: بأمره ونهيه، وبما هو المبلغ من معرفة حلاله وحرامه، والمؤدي إلى رضوانه ومحبه، وما ينجي من غضبه وعذابه.

ووجه آخر: إنه أنزله بعلمه الذي أصبح به إياه حال إنزاله من روح وأمر وملائكة، وحفظ حقه به حتى أوصله إلى قلب الرسول ﷺ إلى أن جعله قرآنًا عربيًا على لسانه، ثم ما هو حافظه إلى يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال الله: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ

فَإِنَّهُ يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصْدًا ﴿[الجن: ٢٦ - ٢٧]﴾ إلى آخر السورة، هذه سبل موصلة إلى بعض مقتضيات قوله جلّ قوله: ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾.

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾^(١) [النساء: ١٦٨ - ١٦٩] الظلم في الكفر كثير، والمقصود الأول منه بالخطاب هو الصد عن السبيل المرتضى، وكما ذنوب الغير في الإسلام شديدة، وهي التي لا يتركها الله ﷻ، وكذلك الصد عن سبيل الله، والفتنة في الدين للغير على موجب هذه الآية شديد.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧] بعدوا عن المقصد وعسر عليهم الرجوع، فلذلك لهم نوعان من العذاب: عذاب لكفرهم، وعذاب لصدهم عن سبيل الله ﴿رَزَّاقُهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] غير أن الله جلّ ذكره بسعة رحمته وعد التائبين منهم بالمغفرة والقبول مع وجود التوبة منهم أن يعسر مآثها.

قال الله جلّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

وقربت هذه الآية قوله جلّ من قائل: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فِتْنُوا﴾ بفتح الفاء والتاء ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠] سبقت رحمته غضبه هذا حكمه على سنن الفضل إنه ذو الفضل العظيم، وذلك حكمه على سنن الوعيد، وكلّ إلى مشيئته راجع، وما أتى في الكتاب العزيز وحديث الرسول ﷺ فهذه سبيله ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا

(١) في هذا الاشتهاء قولان: أحدهما: إنه اشتيَاء مُتَّصِلٌ؛ لأن المُرَاد بالطَّرِيقِ الأوَّل: الغُوم، فالثاني من جُنْبِهِ. والثاني: إنه مُتَّعِظٌ إن أُريد بالطَّرِيقِ شَيْءٌ مَخْصُوصٌ، وهو العمل الصَّالِح الذي يَتَوَصَّلُونَ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَانْتَصَبَ «خَالِدِينَ» عَلَى الْخَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى: «لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ» لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ: يُعَاقِبُهُمْ خَالِدِينَ، وَانْتَصَبَ «أَبَدًا» عَلَى الظَّرْفِ. [تفسير اللباب لابن عادل (٤٤٥/٥)].

فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ [النساء: ١٧٠ - ١٧٣].

قوله سبحانه وله الحمد: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ...﴾^(١) [النساء: ١٧١] الغلو: الارتفاع والاستعلاء، وغلوهم في دينهم: أن ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ غُرِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] تعالى الله جل ذكره عن قبيح افتراءهم علوا كبيرا.

وقالت الطائفتان معًا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقالت النصارى في المسيح ابن مريم عليه السلام باتحاد اللاهوت بالناسوت، وأكثر في ذلك من أنواع الأباطيل؛ لاختلاف مذاهبها في كفيته، ذلك بقدر مقصود عقولها وبصائرهم العميَّة، وقالت في مريم وابنها عليهما السلام قولاً عظيماً وبهتاناً مبيناً.

وقالتا معًا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١] فقتلت الطائفتان أنبيائهم والأميرين بالقسط من الناس، أشبهت قلوب الطائفتين

(١) قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فيه قولان: أحدهما: إنه خطاب للنصارى خاصة. والثاني: إنه خطاب لليهود والنصارى؛ لأن الفريقين غلوا في المسيح، فقالت النصارى: هو الرب، وقالت اليهود: هو لغير رشفة، وهذا قول الحسن. [النكت والعيون (١) / ٣٤١].

قلوب الكفار قبلهما ﴿يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَلَمْ يُؤْفَكُونَ﴾
[التوبة: ٣٠].

فصل

الخلق والأبوة لا يجتمعان لموصوف بهما أبداً إذ الخالق ليس بأب، ومخلوقه ليس له بابين، وكل من اتصف بأنه أب فليس بخالق، بل الخالق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه يصطفي مما يخلق ما يشاء، ويجتبي ويصطنع ويقرب ويختار، ويتخذ منهم أولياء وأخلاء وأحباء وأصفياء وأنبياء ورسلاً، وكلهم له عبيد أرقاء لا يملكون من دونه ضرراً ولا نفعاً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، لا كفؤ له ولا مثل له، ولا شبه ولا عدل له، لا يموت وليس بموروث، ولا فقير سبحانه وله الحمد كله، الأبوة والبنوة فيما هنالك عدم محض ومحال باطل.

يقول الله جل من قائل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلَ بَنِيِّ إِسْرَآئِيلَ * وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ﴾ [الزخرف: ٥٩ - ٦٠].
وقال جل قوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا (١٧٥) يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُكَ هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا النِّصْفَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦)﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٦].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا...﴾ [النساء: ١٧٤].

البرهان: ما صدق قول المتحدي، وهو هنا ما أظهره الله جل ذكره على يدي

رسول الله ﷺ من الآيات الدالات على صدقه، وما أنزله في كتابه من الإعجاز الشاهد على أنه من عند الله، ووصفه له بأنه نور؛ فذلك لأنه يهدي به إلى الصراط المستقيم، ويكون إمامًا للعامل به نورًا بعد الموت، كذلك قال عز من قائل: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: بالله والكتاب ﴿فَسَيَدْخُلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: في الآخرة ﴿وَبَعْدَ الْمَوْتِ﴾ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا [النساء: ١٧٥] في هذه الحياة الدنيا.

قوله عز من قائل: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧٦] إلى آخر السورة.

الكلالة: هو مكمل عدم النسب، تكلمه من أعلاه: فقد الأبوين، ومن الأسفل منه: عدم الأبناء، وهذه آية كلاله، وورثتها إخوة شقائق أو لأب، والكلالة المذكورة في صدر السورة ورثتها إخوة لأم؛ فلذلك ما أشكلت^(١).

(١) الكلالة: خلو الميت عن الوالد والوالدة قاله: أبو بكر، وعمر، وعلي، وسليم بن عبيد، وقتادة، والحكم، وابن زيد، والسبيعي، وقالت طائفة: هي الخلو من الولد فقط، وروي عن أبي بكر وعمر ثم رجعا عنه إلى القول الأول، وروي أيضًا عن ابن عباس، وذلك مستقر من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحيطون الأم ويأخذون ما يحيطونه، ويلزم على قوله: إذ ورثهم بأن الفريضة كلاله أن يعطيهم الثلث بالنص، وقالت طائفة منهم: الحكم بن عيينة، هي الخلو من الولد، قال ابن عطية: وهذا إن القولان ضعيفان؛ لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بنسب لا بتكامل، وأجمعت الأمة الآن على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا أب، وعلى هذا مضت الأعصار والأمصار، انتهى، واختلف في اشتقاقها، فقيل: من الكلال وهو الإعياء، فكانه يصير الميراث إلى الوارث من بعد إعياء، وقال الزمخشري: والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال، وهو ذهاب القوة من الإعياء، فاستعيرت للقرابة من غير جهة الولد والوالد؛ لأنها بالإضافة إلى قرابتها كالة ضعيفة، انتهى. وقيل: هي مشتقة من تكلمه النسب أحاط به، وإذا لم يترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وهما عمودا نسبه، وبقي موروثه لمن يتكلمه نسبه؛ أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، ومنه روض مكمل بالزهر، قال الأخفش: الكلالة من لا يرثه أب ولا أم، والذي عليه الجمهور أن الكلالة الميت الذي لا ولد له ولا مولود، وهو قول جمهور أهل اللغة صاحب العين، وأبي منصور اللغوي، وابن عرفة، وابن الأنباري، والعنبي، وأبي عبيدة، وغلط أبو عبيدة في ذكر الأخ مع الأب والولد، وقطرب في قوله: الكلالة اسم لمن عدا الأبوين والأخ، وسمى ما عدا الأب والولد كلاله؛

لأنه بذهاب طرفيه تكلله الورثة وطاقوا به من جوانبه، ويرجح هذا القول نزول الآية في جابر ولم يكن له يوم نزولها ابن ولا أب؛ لأن أباه قتل يوم أحد فصارت قصة جابر بياناً لمراد الآية، وأما الكلالة في الآية فقال عطاء: هو المال، وقالت طائفة: الكلالة الورثة، وهو قول الراغب، قال: الكلالة اسم لكل وارث، وقال عمر وابن عباس: الكلالة الميت الموروث، وقالت طائفة: الورثة بجملتها كلهم كلالة.

تفسير سورة المائدة^(١)

مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْتَعِمِ إِلَّا مَا يَتَلَقَّ عَلَيْكُمْ
غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا
الشَّهَرِ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا أَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا
وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ
تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ١ - ٢].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ إلى قوله جلَّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ
يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١] العقود ها هنا هي ما انعقدت عليها النيات، وتوجهت

(١) هذه السورة نزلت لما انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، ومنها ما نزل في حجة الوداع،
ومنها ما نزل عام الفتح، وكل ما نزل بعد الهجرة بالمدينة، أو في سفر، أو بمكة، فهو مدني،
وذكروا فضائل هذه السورة، وأنها تسمى: المائدة، والعقود، والمنقذة، والمبعثرة، ومناسبة
افتتاحها لما قبلها هو أنه تعالى لما ذكر استفتاءهم في الكلاله وأفتاهم فيها، ذكر أنه يبين لهم
كراهة الضلال، فبين في هذه السورة أحكامًا كثيرة هي تفصيل لذلك المجمع، قالوا: وقد
تضمنت هذه السورة ثمانية عشر فريضة لم يبينها في غيرها، وسنيناها أولاً فأول إن شاء الله
تعالى، وذكروا أن الكندي الفيلسوف قال له أصحابه: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا لقرآن،
فقال: نعم، اعمل مثل بعضه، فاحتجب أيامًا كثيرة ثم خرج، فقال: والله ما أقدر، ولا يطيق
هذا أحد، إني فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء،
ونهى عن النكث، وحلل تحليلًا عامًا، ثم استثنى استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في
سطرين، ولا يقدر أحد أن يأتي بهذا إلا في إجلاد، والظاهر أن النداء لأمة الرسول المؤمنين،
وقال ابن جريج: هم أهل الكتاب، وأمر تعالى المؤمنين بإيفاء العقود وهي جمع عقد، وهو
العهد، قاله: الجمهور، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير، وقادة، والضحاك، والسدي.

به الإرادات.

قال الله ﷻ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾^(١) [المائدة: ٨٩] و﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥] أمر الله جلّ ذكره أن تتقيد الجوارح بما عقدت عليه الجوانح من خير، وتوبة لله ﷻ من ذنب هذه جملة جامعة لما حوته السورة.

(١) لأنه تعالى لما نهى عن جعل الله معرضاً للإيمان، كان ذلك حتمًا لترك الإيمان وهم يشق عليهم ذلك؛ لأن العادة جرت لهم بالإيمان، فذكر أن ما كان منها لغواً فهو لا يؤاخذ به؛ لأنه مما لا يقصد به حقيقة اليمين، وإنما هو شيء يجري على اللسان عند المحاورة من غير قصد، وهذا أحسن ما يفسر به اللغو؛ لأنه تعالى جعل مقابلة ما كسبه القلب وهو ماله فيه اعتماد وقصد، واختلفت أقوال المفسرين في تفسير لغو اليمين، فقال أبو هريرة وابن عباس والحسن وعطاء والشعبي وابن جبير ومجاهد وقتادة ومقاتل والسدي عن أشياخه ومالك في أشهر قوليه وأبو حنيفة: هو الحلف على غلبة الظن، فيكشف الغيب خلاف ذلك؛ وقالت عائشة وابن عباس أيضًا وطاووس والشعبي ومجاهد وأبو صالح والشافعي: هو ما يجري على اللسان في درج الكلام والاستعجال: لا والله، وبلى والله، من غير قصد لليمين؛ وهو أحد قولي مالك وقال سعيد بن جبير، وابن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وابن الزبير عبد الله وعروة: هو الحلف على فعل المعصية، إلا أن ابن جبير قال: لا يفعل ويكفر، وباقيهم قالوا: لا يفعل ولا كفارة عليه. وقال ابن عباس أيضًا، وعلي، وطاووس: هو الحلف في حال الغضب، وقال النخعي: هو الحلف على شيء ينساه، وقال ابن عباس أيضًا، والضحاك: هو ما تجب فيه الكفارة إذا كفرت سقطت، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها، والرجوع إلى الذي هو خير؛ وقال مكحول، وابن جبير أيضًا، وجماعة: هو أن يحرم على نفسه ما أحل الله، كقوله: مالي علي حرام إن فعلت كذا، والحلال علي حرام، وقال بهذا القول مالك إلا في الزوجة، فألزم فيها التحريم إلا أن يخرجها الحالف بقلبه، وقال زيد ابن أسلم وابنه: هو دعاء الرجل على نفسه أعمى الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لغية، إن فعل كذا.

وقال مجاهد: هو حلف المتبايعين، يقول أحدهما: والله لا أبيعك بكذا، ويقول الآخر: والله ما أشتريه إلا بكذا، وقال مسروق: هو ما لا يلزمه الوقاية، وروي عنه، وعن الشعبي: أنه الحلف على المعصية؛ وقيل: هو يمين المكره، حكاه ابن عبد البر، وهذه الأقوال يحتملها لفظ اللغو، إلا أن الأظهر هو ما فسرناه أولاً؛ لأنه قابله كسب القلب، وهو تعمد الشيء، فجميع الأقوال غيره ينطبق عليها أنها كسب القلب؛ لأن للقلب قصدًا إليها: ونفي الوحدة يدل على أنه لا إثم ولا كفارة، فيضعف قول من قال: إنها تختص بالإثم، ويفسر اللغو باليمين المكفرة.

ثم قال جلّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١] واختلف العلماء في اسم الأنعام، واسم البهيمة على ما يقع منها اسم البهيمة، وذكر ﴿الأنعام﴾ لأنها أكثر ما تؤكل، وهي المقصودة هنا على الأغلب.

ثم استثنى ﷺ ما حظره علينا؛ إما لذاته، أو لمعنى عارض فيه بقوله جلّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾.

ثم استثنى جلّ ذكره من المباح بمفهوم الخطاب حالاً يكون من الأكل والصيد بقوله جلّ قوله: ﴿غَيْرِ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١] واسم الصيد متناول وحش الأرض وطيور السماء وحياتان الماء، ويجمع ذلك كله اسم البهيمة.

وقد استثنى جلّ ذكره الخنزير من بهيمة الأنعام بقوله جلّ قوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ وكان مما قد وعدنا به يتلوه علينا، فهذه جملة فسرّها جلّ ذكره بمفهوم الخطاب جميع ما في القرآن العزيز، وحديث الرسول ﷺ من حظر وإباحة فيما أبيح من بهيمة الأنعام.

ثم اتصف جلّ ذكره بما هو من صفة العزة والحكمة في قوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

قوله عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا سَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ النَّبِيِّ الْحَرَامِ...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢] من أدل شيء على أنه يعلم الكائنات قبل الكون إنه لم ينه ﷺ قط عن شيء إلا كان مفعولاً؛ ذلك لأن أمره الشرع المقابل له بالنهي منفصل من الأمر الذي هو الكون، وقد قال جلّ قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧] نهى جلّ ذكره أبانا آدم عليه السلام عن أكل الشجرة فواقع ذلك.

وكذلك الجملة من بنيه لكنه يعصم من يشاء بفضله، ويخذل من يشاء بعدله ﴿وَكُلْ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] أي: في صحف الكاتبين ﴿وَكُلْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٍّ﴾ [القمر: ٥٣] أي: في أم الكتاب علم ﷺ، وأجرى في تقديره أنه سيأتي بعد نزول القرآن من يستحل شعائره وينتهك حرّماته، ويستبح حرمه ويعطل مناسكه، ويؤذي قاصديه وحجاج بيته الحرام ويريق دماءهم.

ثم عطف جلّ ذكره آخر الخطاب قوله جلّ قوله: ﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾.

[المائدة: ٢] على أوله قوله: ﴿غَيْرَ مُجْلِي الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١].

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُقَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَسَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ [المائدة: ٣] إعلاما منه جل ذكره لعباده المؤمنين بإتمام كلمته الحسنی عليهم، وذلك لما أعد الله جل ذكره الإسلام بالنصر والفتح، وكثر المسلمون حجج رسول الله ﷺ تلك الحجة فيما لا يحصيهم عدداً، ولا يحويهم كتاب أنزل الله جل ذكره عليه قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣] سميت تلك الحجة: حجة الكمال، وحجة البلاغ، وحجة الإسلام.

فأما الكمال: فلقوله ﷻ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أي: دعائم الإسلام الخمسة بتوابعها.

وأما التمام: فلأنه جل ذكره أتم كلماته الحسنی عليهم منها ما في قوله جل قوله: ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] وكان ذلك استجابة منه جل ذكره لدعاء إبراهيم واسماعيل - عليهما السلام - في قولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقولهما عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] كذلك أنجزهما موعده بالاستجابة والامتنان عليهما بما يكون من ذريتهما محمد وآله - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - في قوله جل قوله لهما، وأمره إياهما أن يطهرا بيته للطائفين والعاكفين والزُّكَّع السُّجُودِ [البقرة: ١٢٥].

وقوله - جل قوله - لإبراهيم ﷺ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى

كُلِّ ضَامِرٌ يَأْتِيَنَّ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّغْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴿[الحج: ٢٧ - ٢٨] فكان إتمام ذلك منه - جلَّ وعلا - في ذلك اليوم وفيما بعده، وكل ذلك كلماته الصادقة السابقة في ذلك عبارات عبَّر بها، وإعلام ووعد وعد به وامتنان بقوله جلَّ قوله: ﴿وَلِيَمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وذلك كله مجموع في قوله - جلَّ قوله - مخاطبًا رسوله موسى ﷺ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ...﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله جلَّ قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وكان ذلك يوم الجمعة وهو يوم عرفة، وهو يوم الحج الأكبر يوم إتمام كلماته على عباده وإكمال نعمته، وهو المزيد إن شاء الله بسعة رحمته وكريم عفوه.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤﴾ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسَفِّحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: ٤ - ٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ...﴾ [المائدة: ٤] الجوارح: الكواسب، وهي هنا عبارة عن الكلاب والشواذق والبزاة، وكل من علم فتعلم، والمعنى هنا بالتعليم لهن هي الطوعية حال الاصطياد كالإرسال والإشلاء، وهو الزجر والإمساك للصيد على مُشليه، فإذا بلغ الجوارح ذلك كان ما قتله من الصيد بعد اليقين له، والتسمية عليه حلالاً أكله مباحاً متناوله إذا فات الزكاة، ومتى قدر المرسل على ذكاة الصيد فتركه عمداً حتى مات عند

الجوارح فلا يؤكل.

قال الله ﷻ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾^(١) أي: على الإرسال أو على الأكل أو كليهما ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [المائدة: ٤] أي: في أحكام الصيد كلها خاصة، فإنها عينت، ثم في سواها عامة.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَلُونَكُمْ اللَّهُ شَيْءٌ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة: ٩٤].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّمَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٦ - ٨].

قوله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: ٦] قرئ بفتح اللام عطفًا على غسل الوجه والأيدي، وبكسرهما عطفًا على مسح الرؤوس، وهذا مصداق ما جاء رسول الله ﷺ من الأمر بالمسح على الخفين.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ أي: فلم تقدرُوا على مِسِّ الماء، وتعذر

(١) قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ....﴾ قال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدي بن حاتم وزيد بن المهلهل الطائفين وهو زيد الخيل الذي سماه رسول الله ﷺ: زيد الخير، قال: يا رسول الله، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت هذه الآية. [تفسير البغوي (١٥/٣)].

عليكم وجود الماء؛ إما لعدمه أو لعدم من يناوله، أو لتعذر الوصول إليه ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ عبارة عن الحدث ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ فظاهرها إنه عطف على ذكر المرض أو السفر والحدث، وقد تقدم في صدر الآية ذكر الجنابة، وأن حكمها الغسل.

ثم قال جل ذكره: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٦] وكذلك نظيرتها في سورة النساء، فاستاق ذكر الملامسة إلا ذكر الإحداث بعد ما صدر جل ذكره بذكر الجنابة والغسل منها.

فصل

اللامسة: مفاعلة اللمس، من ذلك لمس يلمس لمسا واللمس يكون باليد، ويكون بالبشرة، وقد استاقه جل ذكره في سياق الإحداث وهو أعلم بما أراد، والجماع قد انفرد باسمه.

وقد سأل عتيان بن مالك رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يجامع أهله ثم يغسل ماذا عليه؟ قال: «يغسل منه ما أصاب المرأة ثم يتوضأ ويصلي»^(١).

وأفرد الله جل ذكره الجنابة بذكر الغسل، ولو كانت الملامسة بمعنى الجنابة لم يكن لتكرارها معنى، وقد تقدم ذكرها في صدر الآية، ولما قال رسول الله ﷺ للأسلمي لما أقر عنده بالزنى: «لعلك لمستها، لعلك قبلتها»^(٢) كل ذلك يقوله رسول الله، وهو يقول: لا والله يا رسول الله، وهو عري حتى سمى له الجماع باسمه الخاص به، لا يكتفي.

وقوله ﷺ: «الماء من الماء»^(٣) فهو على ظاهر القرآن، ثم بعد وقع الاختلاف بعد الوفاة، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «إذا التقى الختانان فقد وجب الغسل»^(٤) وروته عن رسول الله ﷺ والقول بما حدثت به، وهو نسخ القرآن بالسنة،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٢٤)، والحاكم (٨١٩٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه الشافعي (١/١٥٩)، والترمذي (١٠٩)، وأحمد (٢٦٧٧٨)، وابن ماجه (٦٠٨)، والبيهقي في المعرفة (١٣٧٢)، وإسحاق بن راهويه (١٠٤٤)، وابن حبان (١١٨٣).

وفي إخباره هذا نظر، وإنما السنة مبينة للقرآن لا ناسخة له، وقد درج على العمل بما روته عائشة - رضي الله عنها - أفاضل الأمة.

ورواه أيضًا أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قعد بين شعبها الأربع وأجهدها فقد وجب الغسل أنزل أو لم ينزل»^(١) ولم يعلم الجنبه إلا بنزول الماء. قال رسول الله ﷺ: «تحت كل شعرة جنبه...»^(٢).

وأكثر الصحابة رضي الله عنهم على الأمر الأول ثم حدث هذا، فالله أعلم آمنًا بالله وسلمنا له.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ٩﴾
 وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ١٠ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ
 أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ١١ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
 بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ
 الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
 لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ
 كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ١٢﴾ [المائدة: ٩ - ١٢].

قوله عز قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾
 [المائدة: ١٢] النقابة: إعلام بالخير، وهو تبليغ الوحي، وما جاءت به الرسل -
 عليهم السلام - والتحريض عليه والإرشاد إليه والهداية، ونحو هذا مع البحث عما
 يخالف ذلك والتعاهد له.

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧)، ومسلم (٣٤٨)، وابن أبي شيبة (٩٣١)، وأحمد (٧١٩٧)، والنسائي (١٩١)، وابن ماجه (٦١٠)، والدارمي (٧٦١)، وأبو عوانة (٨٢٤)، وابن حبان (١١٧٨)، والبيهقي (٧٤١). شعبها الأربع: يداها ورجلاها، وقيل: رجلها وفخذها.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨)، والترمذي (١٠٦)، وابن ماجه (٥٩٧)، وعبد الرزاق (١٠٠٢)، وابن أبي شيبة (١٠٦٥)، والطبراني (٣٩٨٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢٧٤٨).

قال الله ﷻ: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيصٍ﴾ [ق: ٣٦] أي: بعثوا في البلاد رسلاً يبحثون عما ينجيهم مما هم، والنقباء يبلغون عن رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - رسالاته إلى حيث لا تبلغه الرسل من الأقطار، وبعث الله جل ذكره من أصحاب موسى وعيسى ومحمد - صلوات الله على جميعهم - النقباء.

وقال الله جل ذكره للنقباء: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَفْسَئْتُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ....﴾ [المائدة: ١٢] فوفى بالميثاق من وفى، ونقض من نقض، وما حذر الله جل ذكره من شيء إلا كان مفعولاً واقعاً بمن أَرَادَهُ الله بذلك.

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٣) وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُّكَ أَخَذْنَا مِنْهُمُ اقْرِئُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَاعْرِضْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ وَالْبَغْضَاءُ إِلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة: ١٣ - ١٦].

قال الله جل ذكره: ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: فبالذي نقضوا ميثاقهم ﴿لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣] أي: من جنس ذنوبهم ووصف أعمالهم كان عذاب

ينالهم^(١).

وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤] يعني: بين اليهود والنصارى.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ هذا خاص لليهود والله أعلم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤] كان ما تقدم ذكره متابعة بني إسرائيل اليهود والنصارى أنبيائهم.

وقال - جلّ قوله - في المسلمين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيْتًا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠] هذا ميثاق الإسلام والمسلمين.

ثم ميثاق الفطرة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

ثم ميثاق العلم، قال الله جلّ ذكره: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال جلّ قوله: ﴿أَلَمْ يُوْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ...﴾ [المائدة: ١٥] إلى قوله: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦] هي سبل الله جلّ ذكره لقوله جلّ قوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣] وهي ما شرعه من شرائع تخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه؛ أي: يرفع إلى الولاية

(١) قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ قرأ حمزة والكسائي: «قسية» بتشديد الياء من غير ألف، وهما لغتان مثل الذاكية والذكية، وقال ابن عباس: قاسية؛ أي: يابسة، وقيل: غليظة لا تلين، وقيل معناه: إن قلوبهم ليست بخالصة للإيمان بل إيمانهم مشوب بالكفر والافتقار، ومنه الدراهم القاسية وهي الردية المغشوشة. [تفسير البغوي (٣/٣)].

العظمى والاختصاص الأكبر.

يعبر بلفظ الظلمات إلى نوعين منها: أولها: ظلمات الكفر يخرجهم منها إلى نور الإيمان، ثم ظلمات العادات وضرورات يخرجهم منها إلى نور الإيمان، والطهارة والإحياء بروح الإيمان.

وقلما عبر ﷺ بإخراج من الظلمات إلى النور إلا عن الدرجة الأولى بعمومها، وشمولها الظلم الأول، والأخرى كقوله جلّ قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] فالكتاب أولى بما هو الكتاب يهدي به إلى سبيل السلام، وبما هو النور، ويهدي إلى الاختصاص الأكبر وعلى الولاية، وإنما هو مبين وهو نور مبين لأهل كل مقام ما يأتون وما يذرون، فافهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝١٨﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ۝٢٠﴾ يَنْقُورِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَى الْأَذْيَارِ فَنَنْقَلِبُوهَا خُشُبِينَ ۝٢١﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ۝٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِذْلِكُمُ غَلِيظُونَ وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ لَئِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ قَالُوا يَمْوَسِي إِنَّهُ لَنَنْدَخُلُهَا أَيْدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هُنَا قَاعِدُونَ ۝٢٤﴾ قَالَ رَبِّ

إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقِفِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ [المائدة: ١٧ - ٢٨].

قوله ﷺ حكاية عن ابني آدم عليه السلام: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) [المائدة: ٢٨].

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾ وجه اتصال هذه الآية بما قبلها التنبيه من الله تعالى على أن ظلم اليهود، ونقضهم المواثيق والعهود كظلم ابن آدم لأخيه، المعنى: إن هم هؤلاء اليهود بالفتك بك يا محمد فقد قتلوا قبلك الأنبياء، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم، أي: ذكرهم هذه القصة فهي قصة صدق، لا كالأحاديث الموضوعية، وفي ذلك تذكير لمن خالف الإسلام، وتسلية للنبي ﷺ واختلاف في ابني آدم، فقال الحسن البصري: ليسا لصلبه، كانا رجلين من بني إسرائيل - ضرب الله بهما المثل في إبانة حسد اليهود - وكان بينهما خصومة، فتقربا بقربائين ولم تكن القربائين إلا في بني إسرائيل، قال ابن عطية: وهذا وهم، وكيف يجهل صورة الدفن أحد من بني إسرائيل حتى يقتدي بالغراب؟ والصحيح أنهما ابنا لصلبه، هذا قول الجمهور من المفسرين وقاله ابن عباس وابن عمر وغيرهما، وهما قابيل وهابيل، وكان قربان قابيل حزمة من سنبل - لأنه كان صاحب زرع - واختارها من أردأ زرعه، ثم إنه وجد فيها سنبل طيبة ففركها وأكلها، وكان قربان هابيل كبشا - لأنه كان صاحب غنم - أخذه من أجود غنمه ﴿فَقُتِلَ﴾ فرفع إلى الجنة، فلم يزل يرفع فيها إلى أن فدى به الذبيح عليه السلام، قاله سعيد بن جبير وغيره، فلما تقبل قربان هابيل لأنه كان مؤمنا - قال له قابيل حسداً: أنه كان كافرا - أتمشي على الأرض يراك الناس أفضل مني! ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وقيل: سبب هذا القربان أن حواء عليها السلام كانت تلد في كل بطن ذكرا وأنثى - إلا شيئا ﷺ فإنها ولدت منفردا عوضا من هابيل على ما يأتي، واسمه هبة الله؛ لأن جبريل عليه السلام قال لحواء لما ولدت: هذا هبة الله لك بدل هابيل، وكان آدم يوم ولد شيث ابن ثلاثين ومائة سنة - وكان يزوج الذكر من هذا البطن الأنثى من البطن الآخر، ولا تحل له أخته توءمته، فولدت مع قابيل أختا جميلة واسمها إقليماء، ومع هابيل أختا ليست كذلك واسمها ليودا، فلما أراد آدم تزويجهما قال قابيل: أنا أحق بأختي، فأمره آدم فلم يأتمر، وزجره فلم ينزجر، فاتفقوا على التقريب، قال جماعة من المفسرين منهم ابن مسعود، وروي أن آدم حضر ذلك والله أعلم. وقد روي في هذا الباب عن جعفر الصادق: إن آدم لم

هذا مصداق قول رسول الله ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»^(١).

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبْوَأَ بِلَاسِي وَلِمَ تَكُونُ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣١)
 فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٢﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي
 الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يُوتَلَقَّ نَعَجَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ
 فَأُورِى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٣﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ
 أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ

يكن يزوج ابنته من ابنه، ولو فعل ذلك آدم لما رغب عنه النبي ﷺ ولا كان دين آدم إلا يكن النبي ﷺ وأن الله تعالى لما أهبط آدم وحواء إلى الأرض وجمع بينهما ولدت حواء بنتاً فسمها عناقاً فبغت، وهي أول من بغى على وجه الأرض، فسلط الله عليها من قتلها، ثم ولدت لآدم قابيل، ثم ولدت له هابيل، فلما أدرك قابيل أظهر الله له جنية من ولد الجن، يقال لها: جمالة في صورة إنسية، وأوحى الله إلى آدم أن زوجها من قابيل فزوجها منه، فلما أدرك هابيل أهبط الله إلى آدم حورية في صفة إنسية وخلق لها رحمًا، وكان اسمها بزلة، فلما نظر إليها هابيل أحبها، فأوحى الله إلى آدم أن زوج بزلة من هابيل ففعل، فقال قابيل: يا أبت أأنت أكبر من أخي؟ قال: نعم، قال: فكنت أحق بما فعلت به منه! فقال له آدم: يا بني إن الله قد أمرني بذلك، وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فقال: لا والله، ولكنك آثرته علي، فقال آدم: فقربا قربانا فأيكما يقبل قربانه فهو أحق بالفضل، قلت: هذه القضية عن جعفر ما أظنها تصح، وأن القول ما ذكرناه من أنه كان يزوج غلام هذا البطن لجارية تلك البطن. والدليل على هذا من الكتاب قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذا كالنص ثم نسخ ذلك، حسبما تقدم بيانه في سورة البقرة، وكان جميع ما ولدته حواء أربعين من ذكر وأنثى في عشرين بطنًا، أولهم قابيل وتوأمته إقليمياء، وآخرهم عبد المغيث، ثم بارك الله في نسل آدم، قال ابن عباس: لم يمض آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفًا، وما روي عن جعفر، من قوله: فولدت بنتًا وأنها بغت، فيقال: مع من بغت؟ أمع جني تسول لها! ومثل هذا يحتاج إلى نقل صحيح يقطع العذر، وذلك معدوم، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨)، وأحمد (٢٠٤٥٦)، وأبو داود (٤٢٦٨)، والنسائي (٤١٢٢)، وابن ماجه (٣٩٦٤)، وابن أبي شيبة (٣٧٢٢٠)، والبخاري (٣٠٧٢).

أَحْيَاهَا فَكَانَمَّا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ [المائدة: ٢٩ - ٣٣].

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(١) يقول: تبوء بإثمي ولو أردت قتلتي، وبإثمي إن قتلتي تكون من أصحاب النار، يجمع عليك فيها عذاب كل من قتل الناس جميعًا ظالمًا لهم، قال الله ﷻ: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩].

وكان هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلًا منها»^(٢).

﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ منتظم معناه معنى قوله جلّ قوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

(١) قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: على حذف همزة الاستفهام تقديره: أأبى أريد؛ وهو استفهام إنكار؛ لأن إرادة المغصبة قبيحة، ومن الاتيين أقيح؛ فهم مغضومون عن ذلك، ويؤيد هذا التأويل قراءة من قرأ «أبى أريد» بفتح النون، وهي «أبى» التي بمعنى «كَيْفَ» أي: كيف أريد ذلك. والثاني: إن «لا» محذوفة تقديره: إني أريد ألا تبوء كقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُنَّ اللَّهَ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] وقوله تعالى: ﴿رَوَّابِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] أي: ألا تضلوا وألا تميد وهو مستفيض وهذا أيضاً فرار من إثبات الإرادة له، وضعف بعضهم هذا التأويل بقوله ﷻ: «لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من ذمها؛ لأنه أول من سن القتل» فثبت بهذا أن الإثم حاصل، وهذا الذي ضعفه به غير لازم؛ لأن قائل هذه المقالة يقول: لا يلزم من عدم إرادته الإثم لأخيه عدم الإثم، بل قد يريد عدمه ويقع. الثالث: إن الإرادة على حالها، وهي: إما إرادة مجازية أو حقيقة على حسب اختلاف المفسرين في ذلك. [تفسير اللباب لابن عادل (٤٤/٦)].

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٧)، ومسلم (١٦٧٧)، وأحمد (٣٦٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٧٧٥٩)، والترمذي (٢٦٧٣) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٣٩٨٥)، وابن ماجه (٢٦١٦)، والبيهقي (١٥٦٠٢)، وابن أبي عاصم في الدييات (٥/١)، وأبو يعلى (٥١٧٩)، وابن حبان (٥٩٨٣).

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ [النساء: ٩٣] وقد تقدم - يعني: وهو أعلم - أنه يجمع عليه عذاب من قتل كل نفس قتلت بعد ظلماً إلى يوم القيامة.
ثم بعد هذا التأويل يكون قاتل المؤمن لعرض من أعراض الدنيا، يجمع عليه عذاب من قتل الناس جميعاً في منزلته ما دون الخلود، أو يكون حرمه الإسلام على غير هذا في هذا القاتل، الله أعلم بما هو الحق عند الله ﷻ.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نفس تقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفلًا منها»^(١) يخص رسول الله ﷺ المقتولين ظلماً.

وجاء القرآن العزيز بلفظ العموم، ثم أتبعه بلفظ التوكيد في قوله جلّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيمكن أن يكون المراد بقوله جلّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ جميع المقتولين ظلماً، ويمكن أن يكون يعدي العقاب إلى عقاب من لو قتل الجنس كله.

ومعنى ذلك أن آدم عليه السلام كان واحد من الجنس، وكان عنه الناس بأجمعهم، فكان هذا القاتل إذا اجتراً على قتل نفس واحدة ظلماً بعد الإعلام والإنذار أخذ بقتل أكبر الأنفس وأعمها، كما قال ﷻ في إثابته المؤمنين: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] فكما يرفع هؤلاء إلى ثواب أحسن أعمالهم، كذلك يجعل ﷻ هؤلاء على أكثر درجاته.

وإن كان قد قال في عاملي السيئات: ﴿فَلَا يُجْزَى﴾ الذين يعملون السيئات إلا ما كانوا يعملون، ولا يُجْزَى ﴿إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠] فإن المعلوم في الشرع أن أحكام الدماء مغلفة جداً، وقد أخذ فيها بالخطأ والسيان، ومما لم يتعمد فعله.

(١) تقدم تخريجه.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ: «لأن تقع السماء على الأرض أهون على الله من قتل نفس مؤمنة ظلمًا»^(١).

وقد سوى جل ذكره بين العاصي والطائع بقوله جلّ قوله: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] هذا إلى اجتلابه ﷺ لفظ العموم، وأتبعه بلفظ التوكيد، ويمكن أن يكون المراعاة في لفظ رسول الله ﷺ دون القتل ظلمًا، وهو المبين عن الله ﷻ، فالله أعلم آمنا بالذي هو الحق، والصواب عند الله، والله عليم حكيم.

جاء هذا الخطاب على ظاهره، وفيه من الإشكال ما فيه؛ فأما ذكر القتل الواقع من ابن آدم لأخيه، فقد نصّ عليه رسول الله ﷺ بقوله: «ما نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها»^(٢).

وجاء خطاب القرآن الكريم على ما هو الله أعلم بما أَرَادَهُ بقوله الحق: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] هذا ظاهره، وفيه من الإشكال ما الله به أعلم.

وأما باطنه فالقتل المخوف هو قتل النفس بالذنوب، وأول قاتلها إبليس - لعنه الله - قتل آدم بحمله إياه على الذنب، فعليه إثم كل من قاتل نفسه أي قتل كان، والذي أحياها هو آدم عليه السلام أحيا نفسه وذريته بالتوبة قد أجر كل من أحيا نفسه بعده.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)
يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٤) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(٥) يُرِيدُونَ أَن

(١) وقفت عليه بلفظ: «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» أخرجه الترمذي (١٣٩٥)، والنسائي (٣٩٨٧)، والبيهقي (١٥٦٤٨)، وابن ماجه (٢٦١٩).

(٢) تقدم تخريجه.

يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ [المائدة: ٣٤ - ٤٠].

قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾^(١) [المائدة: ٣٥] الوسيلة - والله أعلم - جماع معنى القرية والحظوة والتمكين، والجاه والسؤدد مع نفع

(١) في الآية مسائل: الأولى: في النظم وجهان: الأول: اعلم أنا قد بينا أنه تعالى لما أخبر رسوله أن قومًا من اليهود هموا أن يسيطوا أيديهم إلى الرسول، وإلى إخوانه من المؤمنين وأصحابه بالغدر والمكر ومنعهم الله تعالى عن مرادهم، فعند ذلك شرح للرسول شدة عتيتهم على الأنبياء وكمال إصرارهم على إيدائهم، وامتد الكلام إلى هذا الموضع، فعند هذا رجع الكلام إلى المقصود الأول، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ كأنه قيل: قد عرفتم كمال جسارة اليهود على المعاصي والذنوب وبعدهم عن الطاعات التي هي الوسائل للعبد إلى الرب، فكونوا يا أيها المؤمنون بالصد من ذلك، وكونوا متقين عن معاصي الله، متوسلين إلى الله بطاعات الله. الوجه الثاني في النظم: إنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨] أي: نحن أبناء أنبياء الله، فكان افتخارهم بأعمال آبائهم، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا ليكن مفاخرتكم بأعمالكم لا بشرف آبائكم وأسلافكم فاتقوا وابتغوا إليه الوسيلة، والله أعلم.

المسألة الثانية: اعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما: أحدهما: ترك المنهيات وإليه الإشارة بقوله: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وثانيهما: فعل المأمورات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ ولما كان ترك المنهيات مقدمًا على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدمه تعالى عليه في الذكر. وإنما قلنا: إن الترك مقدم على الفعل؛ لأن الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها؛ فكان الترك قبل الفعل لا محالة. فإن قيل: ولم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أننا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله تعالى؟ قلنا: الترك إبقاء الشيء على عدمه الأصلي، وذلك العدم المستمر لا يمكن التوسل به إلى شيء ألبتة فثبت أن الترك لا يمكن أن يكون وسيلة، بل من دعاه داعي الشهوة إلى فعل قبيح، ثم تركه لطلب مرضاة الله تعالى، فها هنا يحصل الوسيل بذلك الامتناع إلى الله تعالى، إلا أن ذلك الامتناع من باب الأفعال، ولهذا قال المحققون: ترك الشيء عبارة عن فعل ضده. [تفسير الرازي (٤٨/٦)].

لسواه من شفاعة وقضاء حاجة.

والعرب تقول: فلان يسئل بين الملك ورعيته، والرسل يسئل بين الله جل ذكره وعباده، فإذا كان يوم القيامة يسئل بين العباد وبين الله ﷻ، ورسول الله ﷺ يسئل يوم القيامة بين العباد أجمعين وبين ربهم؛ ليريحهم من أهوال الموقف، وفي فتح باب الشفاعة، وفتح باب الجنة.

قال النبي ﷺ: «سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا»^(١) هو يريد: الوسيلة العامة، وهي العليا. لذلك قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». قال ﷺ: «أتدرون لم ذاكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد»^(٢) فذكر ﷺ شفاعة العامة لأهل الموقف، وإنه يدخل الجنة تحت لوائه آدم وولده حتى إبراهيم عليه السلام، وإلى غير ذلك ما خصه الله ﷻ من الحظوة والتمكين له به. ثم هذه الآية تدل على أن الله جل ذكره يعطي الوسيلة أيضًا من يشاء من عباده وأوليائه.

قال رسول الله ﷺ: «يشفع الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»^(٣). وقال ﷺ: «يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي مثل ربيعة ومضر»^(٤). يقول الله جل ثناؤه: «شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين»^(٥).

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكَفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا

(١) أخرجه مسلم (٣٨٤)، وأبو داود (٥٢٣)، والترمذي (٣٦١٤) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٦٥٦٨)، والنسائي (٦٧٨)، وابن حبان (١٦٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، والترمذي (٢٤٣٤)، وأحمد (٩٦٢١)، والنسائي في الكبرى (١١٢٨٦)، وابن أبي شيبة (٣١٦٧٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٧٠٧).

(٤) أخرجه الطبراني (٨٠٥٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٤٣)، والحاكم (٥٧٢١)، وابن عساكر (٩/٤٣٨)، والديلمي (٨٩٢٨).

(٥) تقدم تخريجه.

يَأْفُوهُمْ وَلَمْ تُوْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّعُونَ
لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا
فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُوْتُوهُ فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ
أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم
بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى
وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا
أَسْتَخْفُوا مِنَ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا اللَّهَ وَلَا
تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾

[المائدة: ٤١ - ٤٤].

قوله جل من قائل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ
أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ...﴾ [المائدة: ٤٤] كون التوراة هدى ونور
هو بما كان يهدي بها في ظلمات الجهل، ويستبان بها سبيل مرضاة الله ﷻ من
مواقع غضبه وسخطه وجميع ما يكرهه، وكذلك جميع الكتب.
وكونها هدى هو بما يهدي بها الله من اتباع رضوانه سبل السلام، وحكم الهداية
أولاً والنور من وراء ذلك.

ثم قال عز من قائل: ﴿يَخْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ﴾^(١) وجميع الأنبياء مسلمون، والمراد بهم ها هنا من لدن موسى ﷺ إلى

(١) دلّت الآية على أنه يحكم بالتوراة النبيون والربانيون والأحبار، وهذا يقتضي كون الربانيين
أعلى حالاً من الأحبار، ثبت أن يكون الربانيون كالمجتهدين والأحبار كأحاد العلماء، ثم
قال: ﴿بِمَا اسْتَخْفُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ وفيه مسألتان: المسألة الأولى: حفظ كتاب الله على

محمد ﷺ.

والأخبار على الأغلب هم علماء الأحكام والربانيون هم العلماء بالله وأحكامه العالمون بطاعة الرب ﷻ الذين فرغوا أنفسهم للعلم والعمل حتى عرفوا به، ونسبوا إليه؛ لأنهم أهل التقوى والورع.

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] فاستاق ذكرهم في معرض المدح، وعرض بالانتماء بهم.

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٥٥) وَقَفِينَا عَلَىٰ عَثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٥٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٧) وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِنَاكُمْ فَاسْتَجِيبُوا لِّلْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

وجهين: الأول: إن يحفظ فلا ينسى. الثاني: أن يحفظ فلا يضيع وقد أخذ الله على العلماء حفظ كتابه من هذين الوجهين: أحدهما: أن يحفظون في صدورهم ويدرسوه بألستهم، والثاني: ألا يضيعوا أحكامه ولا يهملوا شرائعه. المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾ استحقظوا من كتاب الله ﷻ فيه وجهان: الأول: أن يكون صلة الأخبار على معنى العلماء بما استحقظوا. الثاني: أن يكون المعنى يحكمون بما استحقظوا وهو قول الزجاج. [تفسير الرازي (٦٧/٦)].

فِيهِ تَحْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ [المائدة: ٤٥ - ٤٨].

قوله ﷺ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] الحق المذكور هنا - والله أعلم - ما حَقَّ به حين الإنزال من الحفظ، وأراد به من حكمة وفرقان، واحتوشه به من الرصد، وما جعله ﷺ عليه من الإعجاز، وأراد به من حكمة وفرقان ونور وهداية، وبيان حلال وحرام، ومواعظ من أحكام ووصف الصفات العلا، وإعلام بالأسماء الحسنی إلى غير ذلك من كلاءة، والكتاب هنا هو جميع كتب التوراة والإنجيل والزبور، وجميع الصحف المنزلة من عنده جلَّ ذكره.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] يريد ﷺ: الكتب، وأفرد الضمير في قوله جلَّ قوله: ﴿مُهِيمًا عَلَيْهِ﴾ يريد: الجنس.

والمهمين: الشهيد والرقيب والمخبر، كما قال الشاعر:

يهيمن بالأخبار في كل موطن وأنت بما تأتيه غير خبير

كما قال الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٥].

وقد يكون المهمين بمعنى: القاضي، كما قال بعضهم:

ويمهمين قاض على ما قبله من سنة محدودة وكتاب

وقد يكون بمعنى: الشاهد والعلی، كما قال الشاعر:

وهو الشهيد المهمين فاعل ما شاء قدرة واعتلاء

وقد يكون بمعنى: الأمين والمؤتمن، قال الشاعر:

ولست مهممًا ما دمت حيًا على أموال أيتام الأيما

واسم الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه جامعًا لهذه الوجوه كلها وما هو، وهو العلي الأعلى المتصف بحقيقة ذلك، وكماله الأرفع دون غاية ولا نهاية، وعلى هذا فهو المؤمن العلي المهمين على كل مؤمن، فالكریم العلي المهمين على كل كريم، والرحيم العلي المهمين على كل رحيم، وكذلك في جميع الأسماء.

﴿وَأَن أَحْكُمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِّنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُ مِنكُم ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَوْ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَدِيمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٥﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٤٩ - ٥٤].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(١) [المائدة: ٥٤] أتم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه كلمته هذه فيمن

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُم عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ نزلت خطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، و«من يرتد» جملة شرطية مستقلة وهي إخبار عن الغيب. وتعرض المفسرون هنا لمن ارتد في قصة طويلة نختصرها؛ فنقول: ارتد في زمان الرسول ﷺ مذحج ورئيسهم عبهلة بن كعب ذو الخمار، وهو الأسود العنسي قتله فيروز على فراشه، وأخبر الرسول ﷺ بقتله، وسمى قاتله ليلة قتل. ومات رسول الله ﷺ من الغد، وأتى خبر قتله في آخر ربيع الأول وبنو حنيفة رئيسهم مسيلمة قتله وحشي، وبنو أسد رئيسهم طليحة بن خويلد هزموه خالد بن الوليد وأفلت ثم أسلم وحسن إسلامه. هذه ثلاث فرق ارتدت في حياة الرسول ﷺ وتنبأ رؤساؤهم. وارتد في خلافة أبي بكر ﷺ سبع فرق، فزارة قوم عيينة بن حصن، وغطفان قوم قرة بن سلمة القشيري، وسليم قوم الفجاءة بن عبد يا ليل، ويربوع قوم مالك بن نويرة، وبعض تميم قوم سجاح بنت المنذر وقد تنبأت وتزوجها مسيلمة، وكندة قوم الأشعث، وبكر بن وائل بالبحرين قوم الحظم بن يزيد. وكفى الله أمرهم على يدي أبي بكر ﷺ، وفرقة في عهد عمر: غسان قوم جبلة بن الأيهم نصرته اللطمة وسيرته إلى بلد الروم بعد إسلامه. وفي القوم الذين يأتي الله بهم: أبو بكر وأصحابه، أو أبو بكر وعمر وأصحابهما، أو قوم أبي موسى، أو أهل اليمن ألفان من البحر وخمسة آلاف من كندة =

يرتد من العرب إثر وفاة رسول الله ﷺ، فقيض الله أبا بكر والمهاجرين والأنصار ﷺ، فكانوا على ما وصفهم الله جل ذكره من اللين للمؤمنين، والرحمة لهم والعزة والغلظة للكافرين، فجاهدوا في الله مجاهدة حميدة، ثم إذا فسد أهل الزمان، ونسوا كثيرًا مما ذكروا به خفي لذلك المعروف وفشا المنكر، وكثر ذلك حتى إذا قام مقام الارتداد عن الدين أو قارب ﴿يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

فإذا جاء الله بذلك ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٢ - ٣].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ٥٥﴾
وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقُلُوبُونَ ﴿٥٦﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الَّذِينَ
أَتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَزْلَمُ ٥٧ وَتَقَوُّوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿٥٨﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ
هَلْ يَنْقُصُونَ مِنَّا إِلَّا أَن آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ
بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَلِتَنَازِرَ وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ
أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءَكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ
خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [المائدة: ٥٥ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥] انتظم هذا بما تقدم ذكره من البراءة والولاية، ويبين الله جل ذكره مظاهر الولاء له بقوله جل قوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ

وبجيلة، وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا أيام القادسية أيام عمر أو الأنصار، أو هم المهاجرون، أو أحياء من اليمن من كندة وبجيلة وأشجع لم يكونوا وقت النزول قاتل بهم أبو بكر في الردة، أو القري، أو علي بن أبي طالب قاتل الخوارج أقوال تسعة. [تفسير البحر المحيط (٤/٤٥٨)].

وَرَسُولُهُۥٓ.

ثم وصف - جلّ وصفه - هؤلاء المؤمنين، وهم المؤمنون الحق الذين هم الأولياء، فوقع بهمهم المتأخرين والمتبطين إلى ولايته وولاية رسوله والأولياء؛ إذ لم يدركوهم بالأعمال فبالولاية.

قال رسول الله ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(١).

وقال ﷺ في المنافقين والذين كانوا يتولون الكافرين: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وأعلم أيضاً أنه من يتولى الله ورسوله والذين آمنوا أن يهديهم من أجل ذلك، كما أنه يمنع الهداية من تولى أهل الكفر والعناد، والحمد لله رب العالمين.

وهو أيضاً ممتزج بالمجاورة، والمعنى بولاية هؤلاء المذكورين المنتظر مجيئهم إن شاء الله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ وإخواننا الذين لم يأتوا بعد ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] وهذا خطاب مردود على معنى قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

يقول الله جلّ قوله: ﴿بَشِّرْ مَن ذَلِكْ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ﴾ وهم النصارى ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ هم اليهود، ومن لعنه الله فقد غضب عليه، كما أنه من غضب عليه فقد لعنه، غير أن الفرق بين المغضوب عليهم وبين الملعونين أن اللعن انفصل من صفات فعل، فربما أعقب بمشيتته العالية جلت مشيتته فيهم بإنباء ربهم وتوفيق لهم، وإدخال في رحمته منه وفضل، والغضب عليهم انفصل من صفات ذات، فعسر

(١) أخرجه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٦٨٧٨)، والترمذي (٢٣٨٥) وقال: صحيح، وأحمد (١٣٠٥٢)، وابن حبان (٥٦٤)، والدارمي (٢٨٤٣)، والطبراني (٣٢٠٦)، والبيهقي في الشعب (٥٢٨)، وأبو يعلى في مسنده (٢٩٤٦)، والطيالسي (٢٢٣٣).

لذلك تأتيهم لتوبة، وتعذر ذلك عليهم.

قال الله جلّ قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨٦] إلى قوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ [آل عمران: ٩٠].

وقال جلّ قوله: ﴿وَجَعَلْ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ فقد كان هذا في أهل الكتاب ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] يعني: ممن آمن بالله، وبما أنزل إليه من كتاب، وبمن أرسل من رسول، واعتقد فيمن لم يفعل ذلك منكم إنهم فاسقون.

وجاء قوله جلّ ذكره: ﴿شَرٌّ﴾ وفيه معنى المفاضلة؛ إذ العرب تقول فيمن لا شرف فيه: قطيعاً، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].

وقرئ هذا الحرف على خمسة عشر وجهاً كلها مقروءاً بها: «عبد الطاغوت» على وزن فعل، قرأ بذلك جماعة.

وقرأ الأعمش: «وعَبَدَ الطاغوت» بفتح العين وضم الباء، وخفض التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن وثاب: «وعَبَدَ الطاغوت» برفع العين والباء وفتح الدال، وكسر الطاغوت.

وقرأ الأعمش أيضاً: «وعَبَدَ الطاغوت» بضم العين وفتح الباء وشدها وفتح الدال، وكسر التاء من الطاغوت.

وقرأ ابن عباس: «وعابدوا الطاغوت» على وزن فاعلوا، وكسر التاء من الطاغوت على الإضافة.

و«عَبَدَ الطاغوت» بفتح العين والدال وإسكان الباء، وكسر التاء.

و«عَبَدَ الطاغوت» بضم العين وكسر الباء على وزن فعلت، ورفع التاء من الطاغوت.

و«عَبَدَ الطاغوت» على وزن فعل بضم العين وفتح الباء والدال، وكسر التاء من الطاغوت.

و«عبد الطاغوت» على وزن فعل، وكسر التاء.

و«عبد الطاغوت» بفتح العين والذال وسكون الباء، ونصب التاء^(١).

وفي هذه الآية دليل على أن المعارض لها حقيقة توجب اتباعه حكمها على المعرض، وذلك في قوله جلّ قوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

والذي يصح عليه التأويل في قوله جلّ قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ إن خطاب هذه الآية معلق من هذه الجهة بقوله جلّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥٧].

ولما ذكر ﷺ الكفار ذكر في مقابلتهم عبد الطاغوت، وهم شركاء اليهود فيما ذكره قبل هذا تقدير الكلم: هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه، وجعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت.

وقوله جلّ قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ يريد والله أعلم: الكفار عبدة الطاغوت هم شر من يهود، ويمكن أن يكون مرجوع الخطاب كله إلى موضع المفاضلة من قوله جلّ قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وكل عبادة لغير الله فهي طاغوت؛ فاعول من الطغيان، وقد عبدت النصراني عيسى ابن مريم - صلوات الله وسلامه عليه - وهم المتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وعبدت اليهود العجل، ويعبدون مستقبلًا الدجال - لعنهم الله ولعنه - وقد عبد أكثرهم الأوثان.

﴿وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدُونِ وَأَكَلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكَلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا يَمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَعْضَةَ إِلَى يَوْمِ

(١) انظر: الكشاف (٤٢/٢)، وتفسير الباب لابن عادل (١٤٧/٦).

الْفَيْدَةِ كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ قُلْ يَأْهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ إِنَّ الدِّينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغُونَ وَالصَّدِيقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ رَسُولًا يَمْلِكُ أَنْ يَقُولَ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَحَسِبُوا أَنَّ تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ابْنَ اللَّهِ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٤﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَكَانَ مِنْ إِلَهِ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٦﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظِرْ كَيْفَ بُيِّنَتْ لَهُمُ الْأَيَاتُ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ أَعْبُدُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ قُلْ يَأْهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا

وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَا أَتَوْا مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَتَسِفُونَ ﴿٨١﴾ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى فَتَنَّاكَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى فَتَنَّاكَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى فَتَنَّاكَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى فَتَنَّاكَ أَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * ﴿٨٢﴾

[المائدة: ٦٢ - ٨٢].

قوله ﷻ: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا﴾^(١) [المائدة: ٨٢].

وقرأ سلمان ﷺ: «دع القسيسين في الصوامع والخرابات»^(٢).

ويذكر أنها نزلت في رجال بعث بهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ، فلما سمعوا القرآن بكوا، فإن كان ذلك كذلك فليست مقصورة على أولئك دون سواهم من المهتدين، وهي بشارة من الله جل ذكره بهم، وإنه سيأتي بهم في آخر الزمان إن شاء الله، وهم في جملة من شملهم قوله جل قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

(١) عن سعيد بن جبير في الآية قال: هم رسل النجاشي بإسلامه وإسلام قومه، كانوا سبعين رجلاً يختارهم من قومه، الخير فالخير في الفقه والسنن، وفي لفظ: بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً، فلما أتوا رسول الله ﷺ دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة يس، فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، فأنزل الله فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرُهْبَانًا...﴾. [فتح القدير (٣/٤٨٢)].

(٢) أخرجه أبو عمرو الدوري في «جزء في قراءات النبي ﷺ» (٤٠) وانظر: تفسير القرطبي (٦٢٥٧).

وإن قوله جلّ قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَتَلُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَرُفُهَانًا﴾ فوصفهم - جلّ وصفه - بالإيمان الأرفع والخشية، والرهابية من نعت أتباع عيسى عليه السلام، والصدقية من نعت المهتدين سواهم.

وقال رسول الله ﷺ: «يغزو القسطنطينية سبعون ألفاً من بني إسحاق....»^(١).
وقال فيهم جلّ قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ٨٢] ولم يقل: «ولتجدن أقربهم مودة عند الله النصارى» فدلّ ذلك على دخولهم في دين الإسلام، واتباعهم المسلمين.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَنْتَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦) يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّا أَنصَبَ لَ الْيَحْيَى الْمُتَعَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ يُؤْتِي مَا يَظُنُّ غَيْرَ مَبْنُوعٍ (٨٨) [المائدة: ٨٣ - ٨٨].

قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا....﴾ [المائدة: ٨٧] بلغ رسول الله ﷺ أن أناساً من أصحابه - رضي الله عن جميعهم - قال أحدهم: والله لا أكل اللحم، وقال الآخر: والله لا أنكح النساء، وقال الآخر: والله لا أنام الليل، وقال الآخر: والله لا أكل نهاراً، فنزلت هذه الآية.

وسمى ذلك جلّ ذكره اعتداء، كما سمى الإسراف اعتداء، وخطب رسول الله ﷺ فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم: لا أنكح النساء، ويقول الآخر كذا، ويقول الآخر كذا، أما أنا فأكل اللحم وأنكح النساء، وأصوم وأفطر وأنام وأقوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»^(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٩٢٠)، والحاكم (٨٤٦٩).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٣٦٩)، وأحمد (٢٦٣٥١).

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْهُ
إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
فَصِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَرْتُمْ أَيْمَانَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ
الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي
الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾ [المائدة: ٨٩ - ٩٢].

ثم قال جل ذكره: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: في حدوده
أن تعتدوها؛ لعلكم تبلغون مقام الشكر، وإنما يكون ذلك إذا كانت أعمالكم على
سبيل السنة وقوام الاقتداء.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [النحل: ١١٤] هذا
خطاب راجع إلى قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾
[المائدة: ٤].

قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ
مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(١) [المائدة: ٩٠] الخمر: ما خامر العقل، ومخامرتها

(١) اعلم أن هذه الآية دالة على وجوب تحريم شرب الخمر من وجوه: أحدها: تضديدها الجُمْلَةُ
بـ «إنما» وهي للخصر، فكأنه قال: لا رِجْسَ ولا شيء من أعمال الشيطان إلا هذه الأربعة.
وثانيها: إنه تعالى قرّن الخمر والميسر بعبادة الأوثان، ومنه قوله ﷺ: «شارب خمر كعايد
وثن». وثالثها: قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ جعل الاجتناب من الفلاح، وإذا كان الاجتناب
فلاحاً كان الارتكاب خيبة. ورابعها: ما تقدّم من اشتغال الاستفهام على المنفي. وخامسها:
قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ وظاهر الأمر بالطاعة فيما تقدّم ذكره
من أمرهم بالاجتناب عن الخمر والميسر، وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: احذروا عن مخالفتها
في هذا التكاليف. وسادسها: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ﴾
وهذا تهديد عظيم ووعد شديد في حق من خالف في هذا التكليف، وأعرض عن حكم الله
تعالى، لأن معناه إن تَوَلَّيْتُمْ فالحجة قد قامت عليكم، والرّسول قد خرج عن عهدة التبليغ
والإغذار، فأما ما وراء ذلك من عقاب من خالف هذا التكليف وأعرض، فذلك إلى الله

إياه: تغطيتها له.

يقال من ذلك: «خمر إناءك» بمعنى: غطه، ومنه: خمار المرأة.

وكل ما أسكر فهو حرام، وسكرها أشدها على العقل موضع اتصاله بمنبعه من الحق، وهو نور باطن به يوجد الميز، وبه يكون الإيمان والهداية، وهو شمس الباطن وضياؤه، ولكونها مخامراً للعقل ومسكراً له حرمه الله تعالى، وهي أيضاً رجس، والرجس عمل الشيطان، وهو مستقذر نجس أدنى صفاته أنه حرام؛ لأنه من خطوات الشيطان، ولأنه رجس ونجس استعماله مع سواه.

وإن غلبت عليه صفات سواه فأزالت إسكاره ومخامرته للعقل، فهو متى وقع منه شيء في شيء صيره نجساً، ومتى أصاب الثوب منه شيء وجب غسله، وكل ما شملها من هذه الصفات، وما شغل عن ذكر الله وعن الصلاة، وما أوقع العداوة والبغضاء، وأكل أموال الناس بالباطل فهو حرام فعله وكسبه.

ومن الفقه فيما هو من سننها أنها لما كانت رجساً من عمل الشيطان لم يحل لمسلم أن يعتصرها؛ ليتخمر عنده ثم يخللها، فإنها وإن كانت نجسة برهة من الدهر، فليس ذلك من سنن المتقين، فإن المقطوع به نجاستها حال إسكارها وكونها مرصدة لظنون، فكم من مصل لا صلاة له، وكم من تائب لا توبة له.

يقول الله جل من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِزْدَادُوا كُفْرًا لَّنْ نُّقَبِّلَ ثَوْبَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠] ولم تخمرت من حيث لا يشعر، ثم خلت وتخللت كان أقرب إلى صلاحها.

تنبيه:

استاق ﷺ تحريمها والنهي عنها، والوعيد فيها في سياق النصيحة؛ لرقته

تعالى، وهذا تهديد عظيم، وهذا نص صريح في أن كل مسكر حرام؛ لاشتimalه على ما تستعمل عليه الخمر. قال ﷺ: «كل مسكر حرام وإن حتماً على الله ألا يشربه عبد في الدنيا إلا سقاء الله يوم القيامة من طينة الخبال، هل تذكرون ما طينة الخبال؟» قلنا: لا. قال: «عرق أهل النار» وقال ﷺ: «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يثب منها حرمها في الآخرة». [تفسير الباب لابن عادل (٢٢٣/٦ - ٢٢٤)].

ورحمته لعباده بقوله جلّ قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠].

النصب: ما كانوا يذبحون عليه ذبائحهم، ويهلون في ذلك بها لطواغيتهم.

والميسر: شيء كانوا يجتمعون له، كانوا يجعلون له أميًا يضرب لهم بالقداح في كثير من أمورهم لأسفارهم أحد الأزلام، فيه: «افعل» وعلامته ذلك، الآخر: «لا تفعل»، والثالث: «عقل» فإذا خرج له «افعل» قضى به في مضي سفره وإطعام طعام أو غير ذلك، وإذا خرج فيه الذي علامته «لا تفعل» قضى به في الترك، وإن خرج «العقل» لم يقض شيئاً وأعاد الأزلام.

وأصله: إنه قمار، وكانت الجاهلية تقسمه أقسامًا، فربما قسموه ثمانية وعشرين قسمًا، كل قسم من ذلك جزء من أجزائه، وربما قسموه على عشرة أجزاء، وكانت قداخًا لا ريش لها، وكانت لهم في ذلك أحكام على قدر صلاتهم وبدعهم، ثم استعمل اسم الميسر حتى سمو كل قمار: ميسرًا، والنرد والشطرنج وما أشبه ذلك كله قمار وهو ميسر، وكل ذلك رجس من عمل الشيطان يُشغل عن ذكر الله وعن الصلاة، ويوقع العداوة والبغضاء، وأكل المال بالباطل، وهو فحشاء؛ لأنه من عمل الشيطان.

قال الله ﷻ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨] ثم أكد ﷻ النهي، وبالغ في التحذير من ذلك.

قوله جلّ قوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٩٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ ۚ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُ مِنْكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ ۚ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ

عَدَلَ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهُ. عَفَا اللَّهُ عَنْمَا سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو
 أَنْتِقَامٍ ﴿٩٣﴾ أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ، مَتْنَعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَافَةِ وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا
 دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٤﴾ [المائدة: ٩٣ - ٩٦].

قوله ﷻ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا
 اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾ [المائدة: ٩٣]
 جاء أنه لما نزل تحريم الخمر، قال أصحاب رسول الله ﷺ: ما حال إخواننا الذين
 ماتوا وهي في بطونهم؟ قال: فنزلت هذه الآية بقوله جلَّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ
 آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر قبل التحريم.

يقال: «طعمت» بمعنى: أكلت وذقت، و«طعمت» بمعنى: شربت، إذا ما اتقوا
 العودة بعد التحريم كقوله جلَّ قوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ
 وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ...﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال - جلَّ قوله - في حكم الصيد: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥].

تنبيه: هذا وإن كان كذلك فالأحكام يُنزل على أسبابها، ويصح اعتقاد ذلك
 متى صحت رواية الرواة لها، ويثبت التوقيف من الله جلَّ ذكره أو من الرسول ﷺ
 بأن ذلك مقصود، وهو المراد بذلك، وإلا فللقرآن الحكيم بذلك حسن سرده
 وبدائع تأليفه، فمعناه - والله أعلم ورسوله - أن التنزيل كله في هذه السورة، أو
 أكثره ابتنى على ثلاثة فصول:

أحدها: الوفاء بالعقود، وهو مشتمل على ما انعقدت عليه النيات توجهت به
 الإيرادات، وما اكتسبت به البواطن من تحقيق أمان وعمل ونية على حكم العموم في
 ذلك كله، من محلله ومحرمه ومباحه.

الثاني: إنه ابتنى على تحليل الطيبات من مطعوم ومشروب وملبوس ومنكوح،
 وأحكام ذلك في مجاري اكتسابه في أنواع الموجودات من مائع وجامد، وحيوان
 أهلي وبري أو بحري، أو اختلاف حال مكتسبه؛ لاختلاف التحليل والتحريم من
 أجل ذلك.

الثالث: يبتنى على النهي عن استحلال شعائر الله ﷻ، والشهر الحرام والهدي

والقلائد وآمين البيت الحرام، وعن أن يُجازي المسيء باعتدائه حدود الله جلّ ذكره باعتداء آخر لحدود الله، ويتبع ذلك تكفير السيئات، والزجر عن كتمان ما أنزل الله من كتابه وشرعه كما فعل أهل الكتاب.

وقصص ما جاء فيها من ذكرهم زجر عن اتباعهم في غلوهم في دينهم، وعتوهم على أنبيائهم، وافتراءهم على الله ﷻ ورسله - عليهم السلام - وموالانهم الأبعد من الكفرة والفجرة والفساق، والأخذ من ذلك كله بالأمر العلي، والجري على الطريقة المثلى بقوله جلّ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ قبل التحريم له ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الله في ترك العودة إلى ما نهوا عنه في الوفاء بعقودهم.

﴿وَأَمْنُوا﴾ بما أنزل في ذلك من كتاب وسنة ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في ذلك كله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في تناول الطيبات مما أحل لهم من مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم، وفي حكم ما ملكت أيماهم من أنعام وحيوان على اختلاف ذلك كله، وباختلاف أحكامه على اختلاف أحواله ﴿ثُمَّ اتَّقَوْا﴾ في شرائعه وشعائره ومناسكه وعباده وحرمة ومحارمه، وفيما أنزل إليهم من ربهم، وفيما يدينون به ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ في العمل بطاعة ربهم، وفيما نهاهم عنه ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾^(١) [المائدة: ٩٤] الابتلاء هو الاختبار، يبلى الله جلّ ذكره العباد؛

(١) ليلبونكم؛ أي: ليختبرن طاعتكم من معصيتكم. قال مقاتل بن حيان: ابتلاههم الله بالصيد وهم محرمون عام الحديبية حتى كانت الوحش والطيور تغشاهم في رحالهم، فيقدرون على أخذها بالأيدي وصيدها بالرماح، وما رأوا مثل ذلك قط، فنهاهم الله عنها ابتلاءً. وقال الواحدي: الذي تناله الأيدي من الصيد الفراخ والبيض وصغار الوحش، والذي تناله الرماح الكبار، وقال بعضهم: هذا غير جائز؛ لأن الصيد اسم للمتوحش الممتنع دون ما لم يمتنع. ومعنى التقليل والتصغير في قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ أن يعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام التي يكون التكليف فيها صعباً شاقاً، كالاقتداء ببذل الأرواح والأموال، وإنما هو ابتلاء سهل، فإن الله تعالى امتحن أمة محمد ﷺ بصيد البر كما امتحن بني إسرائيل بصيد البحر، وهو صيد السمك، ومن في قوله: ﴿مِّنَ الصَّيْدِ﴾ للتبعض من وجهين: أحدهما: المراد صيد البر دون البحر. والثاني: صيد الإحرام دون صيد الإحلال. وأراد بالصيد المفعول بدليل قوله تعالى: ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ والصيد إذا كان بمعنى المصدر يكون حدثاً، وإنما يوصف

ليستخرج منهم ما قد سبق به علمه فيهم قبل أن يوجد لهم، فإذا وقع منهم ذلك المعلوم كوناً كان علمه به إنه قد حدث كوناً بعد أن لم يكن، فيجازى العبد بما نواه به، فافهم.

وقرأ هذا الحرف ابن شهاب والزهري: «لِيُعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ»^(١) برفع الياء وكسر اللام؛ أي: يوم الجزاء، كقوله جلّ قوله: «وَيَزِيّ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» [سبأ: ٦].

فصل

نوع الله جلّ ذكره الصيد نوعين؛ فما سال منه بحباله أو بسهم، أو يحصل في ملك مقتنصه حيث فهو مما أخذ باليد، فلا بد من ذكاته.

وما علبه^(٢) متناوله فلم يناله إلا برمح أو بسيف، أو سهم أو حجر، أو معارض أو جارح فمات بذلك، فتلك ذكاته ما حرق المعراض، فخرج بذلك على أن يكون وقيداً، أو تفرد به الجارح المرسل عليه؛ ليتوجه ذكر اسم الله عليه بإحكام ذلك كله وتفصيله، وعلى ما جاء فيه من تحريم وتحليل، ومعهود الصيد في الصحاري والفلوات، كذلك قال جلّ ذكره: «لِيُعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» [المائدة: ٩٤] هذا على القول بأنها نزلت في المؤمنين عامة.

وأما على أنها نزلت في المحرمين منهم، فالابتلاء لهم هو بصيد الحرم، يدل على ذلك قوله جلّ قوله: «بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ» وهو بعض له، وهو مما يكون له في مكان الحرم ولأنسه.

قال جلّ قوله: «تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيُعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» فلا يعلنه شهوته على الاصطياد لأنسه.

ثم نصّ على ذلك في الآية التي بعدها يقول جلّ قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا

بنيل اليد والرمح ما كان عيئاً. [تفسير الرازي (١٥٢/٦)].

(١) انظر: تفسير البحر المحيط (١٣/٥).

(٢) علبه: إذا وسمه وأثر فيه. انظر: النهاية في غريب الأثر (٥٥٠/٣).

تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴿[المائدة: ٩٥] فَخَصَّ ﷺ الأولى لحكم الاصطياد، وهذه لحكم القتل، ومن قتله منكم متعمداً فاجعل ﷻ الجزاء على قاتله نكالاً.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥] كما قال - جلّ قوله - في الأولى: ﴿فَمَنْ اغْتَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] وقد قال قوم: إنه لا يجزي عنه الجزاء الذي هو الهدى في العود؛ لقول الله جلّ قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾ قاله ابن عباس ؓ والحسن بن جبير ومجاهد والنخعي وقتادة، وهو ثابت عن ابن عباس رضي الله عن جميعهم.

وتوصيل هذا الخطاب المعبر عن حكم الاصطياد كله في هذه السورة من حيث التحريم بقوله جلّ قوله: ﴿غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [المائدة: ١] ومن حيث التحليل بقوله جلّ قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] كما مرجوع قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] إلى قوله: ﴿قُلْ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ...﴾ [المائدة: ٤].

واتصال هذا بقوله جلّ قوله: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَغْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَجْلُ لُهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وكله راجع إلى قوله جلّ قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

قوله ﷻ: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾^(١) [المائدة: ٩٦] صيد البحر: ما صيد حيّاً، وطعامه: ما أطعمه فألقاه ميتاً.

قال رسول الله ﷺ لأصحاب أبي عبيدة بن الجراح ؓ حين وجدوا البحر قد لفظ لهم حوتاً عظيماً مثل الضرب، يسمى: «جمل البحر» أكل منه الجيش وأدهن خمسة عشر يوماً، فاستفتوا فيه رسول الله ﷺ فقال: «إنما هي طعمة أطعمكموها الله»^(٢) فصيد البحر حلال للمحرمين، وطعامه متاع وللسيارة؛ يعني:

(١) قال الكلبي: نزلت في بني مدلج وكانوا ينزلون في أسياف البحر سألوا عما نضب عنه الماء من السمك فنزلت، والبحر هنا الماء الكثير الواسع وسواء في ذلك النهر والوادي والبركة والعين لا يختلف الحكم في ذلك. [تفسير البحر المحيط (١٩/٥)].

(٢) أخرجه مالك (٧٨١)، والبخاري (٢٩١٤)، ومسلم (٢٩٠٩)، وأبو داود (١٨٥٤)، والترمذي

غيرهم ممن لم يلزم حكم الإحرام من المسافرين وغيرهم.

وحرم عليهم صيد البر ما داموا حرماً، كما قال جلّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١] فتلا جلّ ذكره عليهم الميتة والدم ولحم الخنزير، وشمل الخنزير اسم البهيمة، وكذلك ما صيد من حيوان بري أو هوائي أو بحري، ثم ما تلا ﷺ علينا من أحكام ذلك في أثناء السورة، فهو مما وعد ﷺ أن يتلوه علينا، ويستثنى حكمه من حكم المحلل من قوله جلّ قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾.

ولما أباح جلّ ذكره الصيد على الإجمال، وحظره على المحرم خاصة، وأحل له صيد البحر تمدح ﷺ بعزته، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَخُكِّمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١].

﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَسْلَمُوا أَنْ اللَّهَ يَعْلَمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾
 أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَذَكَّرُ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدَّ لَكُمْ تَسْأَلُوهَا وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ٩٧ - ١٠٢].

قوله ﷺ: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٩٧] القيام هنا بمعنى: القوام، كقوله جلّ قوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء: ٥].

قال رسول الله ﷺ: «النجوم أمانة السماء فإذا ذهب النجوم أتى السماء ما

تواعد، والجبال أمانة الأرض، فإذا ذهب الجبال أتى الأرض ما توعد، والبيت أمانة للناس، فإذا ذهب البيت أتى الناس ما يوعدون^(١) والشهر الحرام والهدي والقلائد مما يتبع البيت ويخصه.

وقوله جلّ قوله: ﴿ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧] أخبر ﷺ أنه إنما جعل هذه الشعائر والبيت، وما اختصه لذكره، أو أضافه إلى نفسه من بيت وأمكنة وأزمنة؛ ليعلم ﷺ، ويوقف على معرفة أسمائه، ومعاني صفاته بكتبه ورسله وأنبيائه ووحيه، كذلك فعل مما تقدم ذكره.

ثم وصل ذلك بقوله - جلّ قوله - للعباد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن كفر به وكذب رسله وخالف أمره ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨] لمن آمن به وبكتبه ورسله وعمل بمرضاته، وبخاصة في الوفاء والعقود، والطاعة في الوقوف على الحدود.

ثم قال جلّ قوله: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢) [المائدة: ٩٩] وعيد منه وتهديد.

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من القول والعمل، والعقود والنيات، والمآكل والمشارب، والأموال والمكتسبات ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي

(١) أخرجه مسلم (٢٥٣١)، وأحمد (١٩٥٨٤)، والبزار (٣١٠٢)، وابن حبان (٧٢٤٩)، والطبراني في الكبير (٨٤٦) وفي الأوسط (٧٤٦٧).

(٢) لما تقدم الترغيب والترهيب أخبر تعالى أن كلف رسوله بالتبليغ وهو توصيل الأحكام إلى أمته، وهذا فيه تشديد على إيجاب القيام بما أمر به تعالى، وأن الرسول قد فرغ مما وجب عليه من التبليغ وقامت عليه الحجة ولزمتكم الطاعة فلا عذر لكم في التفريط، قال ابن عطية: هي إخبار للمؤمنين ولا يتصور أن يقال: هي أنه موادة منسوخة بآيات القتال بل هذه حال من آمن بهذا وشهد شهادة الحق فإنه عصم من الرسول ماله ودمه، فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، وذكر بعض المفسرين الخلاف فيها أي محكمة أم منسوخة بآية السيف والرسول هنا محمد ﷺ. وقيل: يجوز أن يكون اسم جنس والمعنى ما على كل من أرسل إلا البلاغ والبلاغ والبلوغ مصدران لبلغ وإذا كان مصدر البليغ فبلاغ الشرائع مستلزم لتبليغ من أرسل بها فبغير باللازم عن الملزوم، ويحتمل أن يكون مصدر البليغ المشدد على حذف الزوائد فمعنى البلاغ التبليغ.

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴿١٠٠﴾ [المائدة: ١٠٠] وَعَظَّ وَعَظَّ بِهِ ﷺ أَوْلِيَاءَهُ وَأَوْلِي الْأَلْبَابِ مِنْ عِبَادِهِ، وَلَمَّا وَاجَهُهُمْ بِالخُطَابِ أَكْرَمَهُمْ بِحَسَنِ الْمَقَالِ.
 قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تُبَدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١] نَصِيحَةً مِنْهُ ﷺ وَمَوْعِظَةً لِرَأْفَتِهِ بِالْمُؤْمِنِينَ، كَمَا قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

كَذَلِكَ قَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [المائدة: ١٠١] انتظم هذا - والله أعلم بما ينزل - بقوله في صدر السورة: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾ فَأَكْمَلَ لَهُمُ الْجَوَابَ بِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ [المائدة: ٤] ثُمَّ نَهَاهُمْ عَنِ السُّؤَالِ رَأْفَةً بِهِمْ، فَبِذَلِكَ يَنَالُونَ الْمَعْهُودَ عَنْهُ.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْعَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَثُرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَتْسَانًا دَوًّا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آَرَبْتُمْ لَهُمَا فَمَا تَشْتَرِي بِهِمَا نَسْأَلُكُمْ عَنْ ذَلِكَ قُرْآنًا وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٣ - ١٠٦].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا...﴾ [المائدة: ١٠٥] هذا خطاب كان حكمه في مبدأ الإسلام حين غربته وقلة أهله، وأنشأ ﷺ حكم الانتصار بالقتل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإبقاء حظها مثبتًا في كتابه إلى مثلها.

قال رسول الله ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»^(١) والوجود

(١) أخرجه مسلم (٣٨٩)، وأحمد (١٧١٤٥)، وابن ماجه (٤١٢١)، والطبراني في الأوسط

يعطي هذا مشاهدة، وهذا من رأفته ورحمته بعباده.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ يعني: الحضر والسفر من المؤمنين ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: المشركين والكافرين ﴿إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني: في السفر خاصة ﴿فَأَصَابَتْكُمُ مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا﴾ يعني: الشاهدين، ومن المشركين وأهل الكتاب إن وقعت الريبة في الذي اتهمتموه عليه يحلفان ﴿مَنْ بَعْدَ الصَّلَاةِ﴾ صلاة أهل الكتاب ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ ازْتَبَسْتُمْ لَا نَشْهَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠٦] بمثل شهادتهما.

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَايَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لِّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٠٧) ذلك أدق أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم وأنفقوا الله وأسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ قَالَوا لَا عِلْمَ لَنَا بِكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبِ (١٠٩) إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقِصَ ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمُ الْبَنِينَ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبٰٓئِتُ ﴿١١٠﴾ [المائدة: ١٠٧ - ١١٠].

﴿فَإِنْ عُرِيَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ يعني: شهداء بكذا ﴿فَآخَرَانِ﴾ أي: منكم من المؤمنين ﴿يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ أي: في الحلف على ما وقعت الشهادة فيه ومن أجله، ويقف الأوليان اللذان استحق قبلهما الريبة ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ

شَهَادَتِهِمَا وَمَا اغْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿[المائدة: ١٠٧].

﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْثُوا﴾ يعني: أهل الكتاب ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَغْدِ أَيْمَانِهِمْ﴾ أن يعثر عليهم بخيانة؛ يعني: أهل الكتاب ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨] فهذه السنة والحكم فيما كان في مثل هذا، وهو المسلم يموت بين قوم مشركين، أو قوم من أهل الكتاب ليس بينهم مسلمان يقوم بهما الشهادة، ووصى ببعض ما تركه لبعض ما حضره من أولئك، فقد وقعت الريبة إنهم اختانوا أمانتهم، وقد فقد العدلان من المؤمنين فيما هنالك حبس الشاهدان منهما، وحلفا أن شهادتهما حق، فمتى عثر على أنهما حنثا في يمينهما وقفا رجلا بين المدعين الحق، فخلفا على دعواهما، ثم وقف الآخرا الأوليان المستحق عليهما ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اغْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

يقول الله جل ذكره: ﴿ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يَأْثُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا﴾ في أول الشهادة ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُ بَغْدِ أَيْمَانِهِمْ﴾ [المائدة: ١٠٨].

اختلف المفسرون في هذه الآية، فقالت فرقة: هي منسوخة بقوله جل قوله: ﴿وَأَشْهِدُوا ذُوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] وقوله ﷺ: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والمخاطبون بهاتين الآيتين هم المؤمنون، وهاتان الآيتان نزلتا قبل سورة المائدة، فكيف يكون القبل ناسخا للبعد.

قالت عائشة - رضي الله عنها: سورة المائدة من آخر ما نزل، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه.

والصحيح أنها ليست بمنسوخة بل هي محكمة فيمن جاور، والكفار في الأقطار التي تقاربهم، فتدعو الضرورة إلى مصاحبتهم ومخالطتهم في المتاجرة، وغيرها مما يلزم أحوال المجاورة، وهي أيضا إن وقعت في قبضة المسلمين وحيث جماعتهم، فالواجب أن يحكم فيها بهذا الحكم الذي حذاه الله ﷻ.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْوَارِثِينَ أَنْ آمِنُوا بِرِسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ الْوَارِثُونَ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَحْمِلَ

قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾ [المائدة: ١١١ - ١١٥].

قوله ﷺ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١) [المائدة: ١١٢] أي: يوافقك ربك على هذا، هل يفعل لك ذلك؟ ليس من الاستطاعة المعهودة عندنا فقول: «لا أستطيع كذا» إنما هو من

(١) المائدة كانت سفرة حمراء بين غماتين، غمامة من تحتها وغمامة من فوقها، وعيسى يبكي ويتضرع، ويقول: إلهي اجعلها سلامة لا تجعلها عذاباً، حتى استقرت بين يديه، والحواريون من حوله، فأقبل هو وأصحابه حتى قعدوا حولها، وإذا عليها منديل مغطى، فقال عيسى: أيكم أوثق بنفسه وأقل بلاء عند ربه فليأخذ هذا المنديل، وليكشف لنا عن هذه الآية، قالوا: يا روح الله أنت أولانا بذلك، فأكشف عنها، فاستأنف وضوءاً جديداً، وصلى ركعتين، وسأل ربه أن يأذن له بالكشف عنها، ثم قعد إليها، وتناول المنديل، فإذا عليها سمكة مشوية، ليس فيها شوك، وحولها من كل البقل ما خلا الكراث، وعند رأسها الخل، وعند ذنبها الملح، وحولها خمسة أرغفة، على رغيف تمر، وعلى رغيف زيتون، وعلى رغيف خمس رمانات، فقال شمعون رأس الحواريين: يا روح الله أأمن طعام الدنيا هذا، أأمن طعام الجنة؟ فقال عيسى: سبحان الله أما تتنهون! ما أخوفني عليكم، قال شمعون: لا وإله بني إسرائيل ما أردت بهذا سوءاً، قال عيسى: ليس ما ترون عليها من طعام الدنيا، ولا من طعام الجنة، إنما هو شيء ابتدعه الله، فقال له: «كن» فكان أسرع من طرفة عين، فقال الحواريون: يا روح الله إنما نريد أن ترينا في هذه الآية آية، فقال: سبحان الله! ما اكتفيتُم بهذه الآية؟! ثم أقبل على السمكة فقال: عودي بإذن الله حية طرية، فعادت تضطرب على المائدة، ثم قال: عودي كما كنت، فعادت مشوية، فقال: يا روح الله كن أنت أول من يأكل منها، فقال: معاذ الله بل يأكل منها من سألها، فلما رأوا امتناعه، خافوا أن يكون نزولها عقوبة، فلما رأى عيسى ذلك دعا لها الفقراء والزمنى واليتامى، فقال: كلوا من رزق ربكم، ودعوة نبيكم؛ ليكون مهزوها لكم، وعقوبتها على غيركم، فأكل منها ألف وسبعمائة إنسان، يصدرون عنها شباعاً وهي كهيتها حين نزلت، فصح كل مريض، واستغنى كل فقير أكل منها، ثم نزلت بعد ذلك عليهم، فازدحموا عليها، فجعلها عيسى نوباً بينهم، فكانت تنزل عليهم أربعين يوماً، تنزل يوماً وتغيب يوماً، وكانت تنزل عند ارتفاع الضحى، فيأكلون منها حتى إذا قالوا، ارتفعت إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض.

الطوع والاستجابة.

وقرئت: «هل تستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» معناه: وهل لك عنده من الجاه والحظوة هذا^(١)!

فصل

مائدة من السماء معناه، قال الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والحواريون موصوفون بالعلم، ومددوحن بحسن الإجابة، كقوله جلّ قوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] وليس ما قال الله - جلّ قوله - ها هنا، وحكاه عنهم من جنس ما تقدم من حسن الاستجابة، والتوقير لرسولهم - رضي الله عن جميعهم - وهو الحق وقوله الحق، فظاهر قولهم هنا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إما أن يكون جهلاً منهم بالله جلّ ذكره أو جهلاً منهم بمنزلة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك رده ﷻ على هؤلاء القائلين: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

وكذلك قول هؤلاء له ﷻ: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣] هذا كله غير معروف منهم، ولا معهود من سيرتهم، غير أن ابن جبير قرأ: «ويعلم أن قد صدقتنا» بالياء المضمومة وفتح اللام^(٢).

(١) قرأ الكسائي: بالتاء (هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ) وينصب الباء. وقرأ الباقون: بالياء وبضم الباء. [بحر العلوم للسمرقندي (١/٢٦)].

(٢) قرأ ابن جبير: (ونعلم) بضم النون مبنيًا للمفعول، وهكذا في كتاب «التحرير والتحبير» وفي كتاب ابن عطية. وقرأ سعيد بن جبير: ويعلم بالياء المضمومة والضمير عائد على القلوب، وفي كتاب الزمخشري: ويعلم بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش وتعلم بالتاء أي

قال - جلّ قوله - لموسى عليه السلام: ﴿يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠] أراه - والله أعلم بمراده - أنه سماه أتباع الحوارين باسم الحوارين، فأدخل جلّ ذكره الأتباع في ذكر المتبوعين، كذلك قد يدخل المرسل إليهم في ذكر المسلمين، كما قال لموسى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٠ - ١١].

والظلم وعمل السوء ليس من وصف المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - والحواريون عليهم السلام المنزهون عما يخالف التعزيز والتوقير للمرسل، وحسن الاستجابة.

فصل

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن ينزل عليهم ﴿مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾ [المائدة: ١١٤] فكان ذلك؛ أعني: أنزل المائدة عليهم من السماء، دليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] قوله الحق هذا يُنبئ لما تقدم ذكره من إدخال المرسلين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - وإدخال أتباع الحوارين في ذكر الحوارين قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ...﴾.

والحواريون عليهم السلام ليسوا بموصوفين بكفر، ولا سمعنا عنهم برّد ولا كفر. والحمد لله رب العالمين، فأنزلها عليهم لا بد ولا محالة لوعده الله صلى الله عليه وسلم عيسى رسوله عليه السلام بها، وكان من دعائه عليه السلام: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ فهذا يعطي أن إنزالها عليهم كان على طريق الاعتیاد، وإن ذلك على التكرار الله أعلم بمقدار قوله: ﴿وَآخِرِنَا﴾ وآخرهم فهو مجيئهم الجيئة الثانية في مستقبل الأمر، فعلى نسق دعائه عليه السلام سوف ينزلها عليهم في أيامهم المستقبلية إن شاء الله تعالى، أو يكون معنى الخيرات المنزلة من السماء والبركات المَجْعولة في الأرض يومئذ.

وما عبّر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم من بسط النعم وشمول الخير يومئذ، وهذا كائن لا

محالة، فهل يكون مع ذلك إنزال المائدة من السماء أم لا والله أعلم، والأرض كلها يومئذ مائدة، وقوله صلوات الله عليه: ﴿وَأَيَّةٌ مِّنْكَ﴾ قد يكون ما يكون عليه نزول المائدة، وأية ما يكون من ذلك في الجيئة المستقبلية.

وقد جعل الله ﷺ في ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ [المائدة: ١٤] والذين زعموا أنهم اتبعوه، وليسويهم بقسيسهم ورهبانهم أن جَبَلَ قُلُوبَ الْأَتْبَاعِ إِلَى الْحِرْصِ فِي سَوْقِ الْأَقْوَاتِ إِلَيْهِمْ، والرغبة في المساهمة لهم في ذات أيديهم زائداً على أوقاف قد أعدت لزيارتهم وأموال منسوبة إلى كنائسهم، فهذا من تنزيله المائدة نزلها من كونها نازلة عليهم من السماء إلى أن جعل ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه ذلك الإنزال على قلوب عباده وأيديهم، وجعل ذلك؛ أعني: ما هو اليوم في حق الأتباع من جلب الأقوات، ومسابقتهم إلى المساهمة لهم، وتوفير الدواعي منهم على ذلك آية على ما مضى من حكمة الله في إنزالها، وما يكون منه في المستقبل من شأنها.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا أَنتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَال سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّمُ الْفُتُوبَ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنۢ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [المائدة: ١١٦ - ١٢٠].

قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا أَنتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ...﴾ [المائدة: ١١٦] التقدير منتظم بقوله - جلَّ قوله - وهو أعلم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] بفتح الهمزة والجيم.

قوله جلَّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ منتظم بقوله جلَّ قوله: ﴿فَسَوْفَ

يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴿٥٤﴾ [المائدة: ٥٤] وذلك أن مجيء عيسى عليه السلام يكون بعد طلوع الشمس من مغربها، ثم الدجال، ثم نزول عيسى ابن مريم عليه السلام.....

قال عليه السلام لعيسى ابن مريم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّكَ وَرَأْفَعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يقول والله أعلم: كما يكون هذا إلى يوم القيامة، وهو يوم الجمعة من أيام الدهر وقيام الساعة هو في ذلك اليوم، وإنما ذلك ساعة في يومها ذلك، فيجمع الله عليه السلام الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - يومئذ، ويمكن أن يكون الرسل المجموعون يومئذ أنبياءه ورسله إلى الأقطار، وهذا هو الأظهر، وجميع الرسل - عليهم السلام - على العموم يوم البعث الآخر.

وفيه يقول - جلّ قوله - لرسوله وعنده عيسى صلوات الله وسلامه على جميع المرسلين: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ [المائدة: ١١٠] وإذ وإذ إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَنُكِّنَّا عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ...﴾ [المائدة: ١١٣] إلى قوله: ﴿مَنْ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥] يذكّره جلّ ذكره بأنعمه قبله، وقبل من أرسل إليهم به، وهذا خطاب لا يأتي أبداً إلا لاستدعاء إجابة ممن أرسله إليهم وتكليف لهم.

وإنما كان يكون سوق الخطاب وصيغته لو كان بعد قيام الساعة، وفي مشهد الجمع الأكبر أنعمت عليك وأعطيتك الكذا والكذا؛ لنبين كذلك لفظ التقرير باقتران كلمة التذكير به، ويوم الحساب اقتضاء حقوق له ﷺ وتباعات ونحو هذا، فإن اعترض معترض بقوله جلّ قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] فقد تقدم الرد عليه بأنه يوم القيامة، والساعة تقوم في وقت من ذلك اليوم ونزول عيسى عليه السلام، وما يكون في ذلك آية على ما يكون في البعث الآخر، ولذلك سماه رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام فقال: «وَأَنْ تَوْمَنَ بِالْبَعْثِ الْآخِرِ»^(١).

وعلى حال فإن الله ﷻ غير متعذر عليه جمعهم كيف شاء، وهم الآن عنده،

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وأحمد (٩٤٩٧)، وابن ماجه (٦٤).

وقد جمعهم لرسول الله ﷺ في السماء ليلة أُسري به، فأُمُّهم حاشا الرهط الثلاثة إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه على جميعهم.

كذلك قال - جلّ قوله - لعيسى ابن مريم: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] تقرير وتوبيخ منه لمن في الأرض يومئذٍ من الذين غلوا في أمره، وقالوا فيه بأهوائهم ما لم ينزل الله به من سلطان، وما ليس لهم به علم، فسبح الله جلّ ذكره عبده ورسوله عيسى ابن مريم ﷺ عندما قذفوه من افتراءهم بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [المائدة: ١١٦] فاستشهد ﷺ بالعليم الخبير ﷺ إن كنت قلته فقد علمته. انتهى.

فصل

يتخرج تسييحه ربه جل وعز ﷺ على وجهين:

أحدهما: لما ذكروه به وأنه دعا إلى نفسه، وهذه عظمة قذفه بها، فسبح الله جلّ ذكره لكونه رسولا نبيا روح الله وكلمته، كما سبّح الله نفسه ﷺ عند ذكر أم المؤمنين يافك وبهتان، فقال جلّ قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦] ويمكن أن يكون تسييحه ربه ﷺ صلوات الله وسلامه عليه تنزيها له، وإجلالا لجلاله، وإعظاما لقدره، ورهبة من علي شأنه أن يكون له أو معه في الإمكان، أو في الوجود إله سواه سبحانه وله الحمد، لا إله إلا هو العلي الكبير.

قوله ﷺ فما حكاه عنه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١) [المائدة: ١١٦] أي: تعلم سري وجهري، وظاهري وباطني، وما يسمى منه نفس إلا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، ولا أعلم ما في نفسك كقوله جلّ قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وكقوله جلّ قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) خَصَّ النَّفْسَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا مَظْنَةُ الْكُتْمِ وَالْإِنْطَوَاءِ عَلَى الْمَعْلُومَاتِ.

وقوله جلّ قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

قوله تعالى فيما حكاه عن عبده ورسوله عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] وقرأ طلحة: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَعِبَادُكَ» بإسقاط «إنهم» أي: إن لك تعذيبهم بحق ملكك فتفعل ما تشاء.

ويمكن أن يكون معنى قوله عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ أي: بالقتل والسبي والخزي والغلبة ﴿وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ﴾ أي: بأن تتوب عليهم بالإيمان والإسلام ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فهذا مما تقدم ذكره يدل على أن التقدير يكون عند نزوله عليه السلام، ولا يقبل منهم يومئذ إلا الإسلام والتوبة، أو القتل والانتقام منهم وصفهم بالعزة، وبأنه لا يغفر أن يشرك به ووصفه بالحكمة، فيكون ذلك تقدير للحاضرين، ثم يقررون في القيامة؛ لتوبيخ من كان رفعه عليه السلام ومن نزوله إلى الأرض.

ألا تسمعه عليه السلام يقول: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اْعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ في الغيبة ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

يريد عليه السلام من هو عندك بالرفع أو بالشهادة أو بوفاة الموت، ومن هو في دار الدنيا لم يخرج منها بعد ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ الآن؛ أي: بالسيف والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ أي: ملكك تفعل بهم ما تشاء ﴿وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨] أي: تتوب عليهم، وتدخلهم بذلك في الإسلام.

وفي هذا إشارة إلى الترحم والشفاعة لهم، ولو كان ذلك يوم الحساب الآجل لم يعرض بالاسترحام ولا بذكر مغفرة، وإنما يخاطب رب العزة عليه السلام وتعالى علاؤه وشأنه عباده من الدار الآخرة، فلذلك يقول عليه السلام بلفظ المستقبل؛ إذ كل شيء هو سواء في حقه الماضي والمستقبل.

كذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّنَّهِ أَضَلَّلَنَّا كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ يعني: الأصنام ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي: من تبعني على الولاية العليا وابتغاء الخلعة، فإنه مني ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ أي: من قصر عن ذلك بذنوب يقترفها ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] وهو أعلم بالله - جلّ ثناؤه - من أن يشفع لمن عصاه العصيان

الأعظم بأن يتخذ إلهاً من دونه، فيعبد الأصنام.

فدلّ على هذا كله أن تقرير عيسى عليه السلام المذكورين في هذا الموضع، هو في هذه الحياة الدنيا توبيخاً لمن عصاه بعده، فافتري عليه الكذب؛ إذ هم رسل الله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - لا يتعرض للشفاعة فيمن كفر بالله وكذب بالحق لما جاءه، وكذب على رسله وكتبه، وهذا قول الله - جلّ ثناؤه - الفاصل بالحق: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وجاء قوله ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ...﴾ [المائدة: ١١٩] إلى آخر السورة ظاهر ليوم الجزاء، كذلك الكتاب ظاهره المثاني.

تفسير سورة الأنعام

مكية غير تسع آيات نزلت هذه السورة ليلاً
المنسوخ منها أربع عشرة آية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ

(١) هذه السورة مكية كلها، وقال الكسائي: إلا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ وما يرتبط بها، وقال ابن عباس: نزلت ليلاً بمكة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح، إلا ست آيات: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ وعنه أيضاً وعن مجاهد والكلبي إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ إلى قوله: ﴿تَتَفَوَّنَ﴾ وقال قتادة: إلا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ﴾ وهو الذي أنشأ وذكر ابن العربي أن قوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ﴾ نزل بمكة يوم عرفة، ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله، وجرت تلك المحاوراة وذكر ثواب ما للصادقين، وأعقب ذلك بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهن وأنه قادر على كل شيء، ذكر بأن الحمد له المستغرق لجميع المحامد فلا يمكن أن يشبث معه شريك في الإلهية فيحمد، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية، كون ملك السماوات والأرض وما فيهن له بوصف ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه له الاستيلاء والسلطنة عليه، ولما تقدّم قولهم في عيسى وكفرهم بذلك وذكر الصادقين وجزاءهم أعقب ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ فكان ذلك مناسباً للكافر والصادق.

مَا لَمْ تُمْكِنْ لَكُنْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ قَبَرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ [الأنعام: ١ - ٦].

قوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾
[الأنعام: ١] الحمد جماع المدح والمدائح كلها، والثناء الحسن أجمعه، وهو أوسع
الصفات، ثم عبّر ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه عن قدرته الكاملة، وعلمه المحيط
ومشيئته النافذة، وتدبيره المحكم والتوحيد العلي، إلى سائر ذلك مما هي الأسماء
الحسنى والصفات الكاملة العلا، معبرة عنه مقتضية له، وهو أيضًا تعريض بالإعلام
بضلال أهل الأوثان، وكل من عبد إلها غير الله ملكًا كان أو إنسانًا أو جانًا أو حيوانًا،
معنى كان أو جسمًا؛ إذ لا يخلو أن يكون ذلك في السماوات أو في الأرض.

ثم عرض ﷻ يبطل الثنوية والمجوس والمانوية، وغيرهم الذين اعتدوا وعبدوا
النور، واعتقدوا أن فاعل هذا بأسره أصلان قديمان: أحدهما نور، والآخر ظلام،
قالوا: فالنور خير بطبعه، والظلام شرير بطبعه إلى غيرها من ضلالتهم.

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾
[الأنعام: ٢] ذكّرهم ﷻ بالعودة بعد البداية؛ إذ خلقهم من طين أوجب من حكمته
عن ذلك أن يعيدهم إلى ما منه بدأهم، ثم بعد ذلك يحييهم عودًا بعد بدء، كما قال
جلّ ذكره: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]
ومثله كثير.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام: ٢] لما ذكر جلّ
ذكره أوليتهم، وعرض بأخريتهم وما بين ذلك سرد على ذلك ذكر الآجال اختلف
فيما هو المراد من قوله: ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ فمن قائل يقول:
قضى أجلًا؛ يعني: الدنيا، وأجل مسمى عنده؛ يعني: اليوم الآخر.

ومن قائل يقول: الأجل المسمى هو آخر مدة الدنيا الذي حدّه يوم القيامة، فهو
مسمى بهذا التحديد، وأجل عنده هو مدة الآخرة الذي ليس هو عندنا نحن معلومًا،
وهو في علم غيبه معلوم.

وقال: إن في الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديره: ثم قضى أجلًا مسمى وأجل

عنده، وكتاب الله أكبر شهادة وأقوم قبلاً.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ غُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١] أي: إنه على تفاوت ما بين الآجال من نقص في أجل لحكمة، أو زيادة فيه لحكمة على اختلاف ذلك، وتنويعه قدر من ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير.

وقال ﷻ: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٨ - ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ: «من أحب أن ينسأ الله في عمره ويزيد في رزقه فليصل رحمه»^(١).

وفي أخرى: «فليبدأ بربه»^(٢).

قال ﷻ: «ما منكم من أحد أو ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب مكانها من الجنة والنار، فإذا مات أحكم أتاها ملكاه فيقولان له: ما علمك بهذا الرجل محمد؟» إلى قوله ﷻ: «فيقولان له: هذا مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، ويقولان للكافر: هذا مقعدك من الجنة أبدلك الله به مقعداً من النار» قال رسول الله ﷺ: «فيراهما جميعاً»^(٣).

لذلك جعل جل ذكره سبيل الضلالة وسبيل الهداية، قال الله ﷻ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

وقال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: السبيلين ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] والوجود من هذا مملوء مصمت لمن نظر بقلبه وهدي لرشده، كذلك القرآن وحديث الرسول ﷺ.

قال الله ﷻ فيما حكاه عن رسله منهم نوح، وغيره على جميعهم السلام:

(١) أخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧)، وأبو داود (١٦٩٣)، وأحمد (١٢٦١٠)، والنسائي (١١٤٢٩)، والطبراني في الأوسط (٢٤١١). ينسأ: يؤخر.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي شبة (١٣١).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٧٣٩٥)، والنسائي (٢٠٦٢)، وأحمد (١٢٦٠٥)، والطبراني في الأوسط (٧٢٢٤)، وعبد بن حميد (١١٨٣).

﴿قُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلَ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢] فذكر أنهم عتوا وعصوا، فقطع بذلك دابرهم واستأصل شأفتهم كما فعل بكثير، وإن هم آمنوا واتقوا وعده ووعيده الحق أن يتمتعهم متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، وأن يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بأموال وبنين، ويجعل لهم جنات، ويجعل لهم أنهارًا هذا كله إنهم إن عتوا وكفروا يقطع عنهم المطر من السماء والنبات من الأرض، ويمنعهم الأزراق ويهلكهم ويفنيهم، ويمنع منهم التناسل كما فعل بكثير كقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] إلى غير ذلك مما يعلم أنه يخلق ما يشاء ويختار.

ولو كان كما زعم بعضهم لكان أمره أشبه بحال المضطر، كيف يكون هذا أو يظن بتدبيره، وهذا هو الواسع العليم خلق كل شيء، وقدره على ما شاء تقديرًا وعلمه، ومشيتته أوسع من التصرف وتنويع التدبير دون نهاية ولا غاية، والأجل المسمى هو الذي إليه المنتهى في الأعمال والأعمار والأزراق؛ كقيام الساعة للدنيا، وكموت من يموت من غير عارض له من قتل بحدث، أو أسباب تقضي مقدره لأجل قد قضاها، فهو مقدر لمقدور، وكل شيء عنده بمقدار.

وهذا هو الأجل المعنى بقوله جلّ قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

والأجل الذي هو دونه الذي قال فيه: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا﴾ [الأنعام: ٢] هو ما قد قدره بحلول أسباب وحوادث تقدرها.

وفي هذا يتصور المعنى بقوله جلّ قوله: ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مُّعَذِّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١] وفي هذا قد ينفع الحذر، وفيه يوجد تأثير بر الوالدين وصلة الرحم، والإيمان والعمل بطاعة الله تعالى بالاستجابة لله وللرسول.

ألا ترى أنهم لما استجابوا لله ولرسوله نعشهم، ومدّ لهم في أعمارهم حتى يتوفاهم على آجالهم، ومدتهم المقدرة لهم من حلول منياتهم، ومتى عتوا عما نهوا

عنه، ربما أهلكهم هلاكًا واحدًا بجمع آجالهم بذلك كموت نفس واحدة، فكل موجود له أجلان إن أخطأه الأول بقدر مقدور، ثم يغلب الأجل المسمى.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢] أي: في البعث بعد الموت هلا تعرفتم بما ينجيكم من الموت في كل طرفه وكل نفس وأدنى من ذلك، ويحييكم بذلك مكان الإماتة أنه يحييكم بعد موتكم، وكما تتصرم الآجال دون الأجل المسمى، كذلك يتصرم أجل عمر الدنيا، كذلك يتصرم أمد الموت بالبعث منه.

فصل

إذا تمهد ما ذكرناه، فالأجل المسمى لكل محدث واحد ينتهي إليه مع السلامة من العوارض دونه، وما دونه بآجال كثيرة، وعلى التحقيق فعلى عدد الأنفاس وأدق من ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن، إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاعه»^(١).

وعلى كل موجود محدث، حافظ بحفظه من العوارض التي قضيت الآجال بحدوثها حتى يأتي أجله المقدور بسببه، وعارضه المحتوم عليه حلول الأجل فيه، فتتخلى الحفظه عنه؛ لأنه قد قُضي الأجل بذلك الأجل أيضًا بما هو عليه، وهو مسمى قد سمي له لم يكن له أن يتقدمه، ولا أن يتأخر عنه، ولكن له حكم يبقى وتباعة ترجى وتبقى؛ كالذي يقتل مظلومًا، فعلى قاتله القصاص، وللمظلوم بذلك عاقبة يرجوها عند الحكم العدل جل ذكره.

وكالذي يقتل في سبيل الله، فبدله ربه حياة لأجل حياته التي باعها، فيرزقه عيشًا عنده وحظوة ورزقًا جزاء لعيشه ورزقه وما نزله له، ولو لم يكن محتومًا بسبب

(١) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (١٢٦/٨)، وأحمد (١٧٦٦٧)، وابن ماجه (١٩٩)، والحاكم (١٨٨١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والنسائي (٧٧٣٨)، والطبراني في الكبير (٦٤٢٧) وفي الشاميين (٣٣٠/١)، وابن حبان (٩٤٦)، وابن عساكر (١٥٧/١٠).

قاطع به عن أجله المسمى به الذي قطع به دونه، ومات عنه لم يكن له هنالك عوض؛ إذ أنه إنما مات بأجله المسمى الذي لا أجل له سواه.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ [الأحزاب: ١٦] أي: إنه ولو نفعتكم الفرار من القتل الذي يكون عن أجلكم الأدنى، فإنكم لا تمتعون إلى الأجل المسمى إلا قليلاً.

أعقب هذا كله بقوله الحق: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ مَّكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦]^(١) فأنبأ صريحاً بأجالة المختومة وأرزاقه المنقطعة باتباع ذلك ولواحقه، فعلى هذا انبنى التدبير الحق حتى إن الدنيا لتعود آخرة في حق أقوام؛ لأجل عبرة بها وعمل لها، والآخرة تعود دنيا جزاء وإثابة في حق آخرين؛ لغفلة مستولية ولحكمة بالغة وأمر عزم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أصفق الإجماع أن المكان محصور محاط، والمحيط به وحاصره هو الله خالقه، وإن الممكن ضعف عن حقيقة القدرة، ونقص عن حقيقة الكمال، وكذلك القول في الزمان وما يتبع ذلك، وكذلك المواجهة والمحاذاة والتلقاء، والفوق والتحت والقبل والبعد، وإن الله لا يحجبه شيء عن شيء، ولا يبعد عليه شيء، بل هو قريب من كل شيء بوصفه.

وهو القدرة والدرك، والأشياء مبعدة بأوصافها، وهو البعد والحجبة، والبعد

(١) اعلم أن الله تعالى وصف القرون الماضية بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿مَّكَّانُهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ﴾ قال صاحب «الكشاف»: مكن له في الأرض جعل له مكاناً ونحوه في أرض له. والصفة الثانية: قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾ يريد الغيث والمطر، فالسماء معناه المطر ههنا، والمدرار الكثير الدر، وأصله من قولهم: در اللبن إذا أقبل على الحالب منه شيء كثير، فالمدرار يصلح أن يكون من نعت السحاب، ويجوز أن يكون من نعت المطر، يقال: سحاب مدرار إذا تتابع أمطاره. قال مقاتل: ﴿مِدْرَارًا﴾ متتابعاً مرة بعد أخرى، ويستوي في المدرار المذكر والمؤنث. والصفة الثالثة: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ والمراد منه كثرة البساتين. [تفسير الرازي (٦/٢٢٣)].

والإبعاد والحجب حكم مشيئته، والحدود والأقطار حجب بريته، والمسافة والتلقاء مكان لسواه، والنواحي والجهات مكان المحدثات، والنهار والليل مسكن المتصرفات، والبعد والفضاء مكان المخلوقين، والتوسعة والهواء مكان العالمين، والأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحجب والأستار متصلة بمخلوقه.

وإلى هذا ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] غير متصل بخلق ولا مفارق، وغير مماس للكون ولا مباعد، بل منفرد بنفسه متحد بوصفه سبحانه وله الحمد، كما أن ليس كمثله شيء، فكذلك ليس كوجوده وجود، وليس كشأنه شأن، كان في أزل أزله بأسمائه ووصفه وصفاته، وهو الآن على ما لم يزل عليه وخلق كل شيء، فقدره تقديرًا.

وكل وصف لموصوف في الحدث فهو مشير إليه، وآية على وصف له هو في القدم موجود له، حقيقة ذلك في الحضرة الرحمانية، ومعارف الصمدانية في معالم الجبروت والملكوت، كذا سبحات الكبرياء والعظمة ونزاهة القدس والجلال، فهو - جلّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه وجدّه - يعبر بأنه في السماوات وفي الأرض، ومع جميع خليقته عبارة حق عن وجود حقيقة، فهو كذلك من حيث هو لا من حيث هي.

فأما المعلمون من المشايخ ؓ فإنهم لم يفرغوا لتحرير العبارات العوام، فكل ما أتى من هذا تأوله مخافة الإيهام، ونفوا عنه الاتباع خشية الإشكال إذ ذلك؛ أعني: توهم ما لا يجوز عليه معدوم عند العقول الصافية، ونواظر البصائر الصائبة، كيف تشبه الخليقة الحقيقة؟ بل كيف يماثل القدرة المقدور؟! جلّ القديم الأول عن أن يكون في حضرته الجلالية صفة حديثة، كما استحال أن تكون الأمور الحديثة صفات قديمة، ليس كذاته ذات، ولا كفعله فعل، ولا كصفته صفة، ولا كحضرته حضرة إلا موافقة ألفاظ، علاؤه وشأنه وجدّه عن أن يغلبه عبده أو يمانعه ملكه، تعالى عن ذلك كله علواً كبيرًا.

أتبع ذلك بما هو في معناه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الأنعام: ٤] فتعزّف الآيات واستشهد البيّنات، ثم اعتبر من

محدث إلى قديم، ومن وصف محدث دنيوي إلى وصف قدس جلالي، فلو عبّر لنا بما هو من حيث هو يخرج باللفظ، والخطاب عن أن يكون معقولاً لنا؛ لعدم معرفتنا بما هنالك، ولم يكن الكلام عربياً ولا مبيّناً، بل إنما هو تنزيل من رب العالمين، وكل عبارة تجيء بأنه في السماء، أو في الأرض، أو على حال يومهم حدثاً أو حيلولة أو تغييراً، فإنما ذلك كله عبارة عما هو عليه على ما لم يزل بما لم يزل فيما لم يزل، وإنما هي الآيات تشير والبيّنات تشهد، فالحق يبين والوجود يدل وينبئ عن الموجود، فافهم.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٧) وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ^(٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ^(٩) وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ^(١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ^(١١) قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَٰكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^(١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^(١٣) ﴿[الأنعام: ٧ - ١٣].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾^(٧) [الأنعام: ٧] وصفهم ﷻ بإنكار المشاهدة، وإنما يكون ذلك عن الطبع الكائن عن عقوبة الإعراض، كما قال جلّ قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

(١) عن الكلبي وغيره أنها نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنت رسوله. [تفسير الألوسي (٢٣٥/٥)].

فلموجود الطبع على القلوب عميت منهم البصائر وضُت الأذان وبكمت الألسن، فهم يشاهدون الآيات ويعاينون البيئات، فيمرون عليها وهم عنها معرضون، وربما التفتوا إليها من حال إعراضهم، ويذكروها من غيابات حجب غفلاتهم، فيتمثل لهم في صورة الفتنة، فلهوا بها وأنسوا بمشاهدتها دون ذكر شهيدها جلّ ذكره فاتخذوها هزواً ولعباً عن حقيقة حق يهديهم، وربما تأولها على ما ليست به، وقولوها ما لم يقل به في شهادتها لخالفها ﷻ، وربما ألدوا بها إلى أنها من المعهود المتعارف كما قال - جلّ قوله - في بعضهم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤].

وقال أيضًا - جلّ قوله - في آخرين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَغْرَجُونَ﴾ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ - ١٥] فحيث يذره في طغيانهم يعمهون، وفي جهالتهم يترددون حتى يأخذهم على أقبح ما كانوا به عاملين، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته.

وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨] إلى قوله: ﴿وَلَلْبَشَاءِ عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩] أخبر - جل ثناؤه - أنه لا ينزل الملائكة من السماء إلا بالحق؛ أي: بقضاء، والأمر من موت أو قيام الساعة أو مجيء الله جلّ ذكره للعرض الأكبر، أو ما يكون من معنى الانقراض لهذه الدار، وكشف الدار الآخرة.

يقول الله جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢] أي: منعاً ممنوعاً وسدّاً مسدوداً، أو نحو هذا بمعنى ألا إمالة.

ثم قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَشَاءِ عَلَيْهِمْ مَا يُلْبَسُونَ﴾^(١)

(١) قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ أي: لجعلناه في صورة البشر، والحكمة فيه أمور: أحدها: إن الجنس إلى الجنس أميل. وثانيها: إن البشر لا يطبق رؤية الملك. وثالثها: إن طاعات الملائكة قوية فيستحقرون طاعة البشر، وربما لا يعدونهم في الإقدام على المعاصي. ورابعها: إن النبوة فضل من الله فيختص بها من يشاء من عباده سواء كان ملكاً أو بشراً. [تفسير الرازي (٢٢٦/٦)].

[الأنعام: ٩] لما كانوا كل ما رأوا آية يستسخرون، أو يلحدون بها إلى المتعارف من جري العوائد، جعل كل آية في السماوات والأرض لها وجه إلى المعهود، وليجدوا لتأويلهم مخارج المبطلون والإلحاد بها مذهباً للجاحدون.

وجعل لها أيضاً وجهاً أبطنه عنهم إلى صريح النذارة والبشارة، والإعلام بحقائق موجودات الدار الآخرة وشهادة الوجود العلي، فمن نظر كل آية في السماوات والأرض يحملها على معهودها، وما جرت به العوائد في سنها لم يحدث له ذكرًا، ولا وجد لها علمًا، ولا أكسبه ذلك منها خشية، ولا وجد لها بعدًا. هذا أصل لهذا الباب فهو جل ذكره لو أنزل من الملائكة رسلاً عوض البشر لجعل ظواهرهم بشرًا؛ للإلباس على دونهم، وبواطنهم كالمعهود المتعارف من الملائكة فتحاً لباب الإيمان بالغيب على تابعيه، كذلك لما قضى وقدر أن يتخذ من البشر رسلاً إلى البشريين جعل ظواهرهم بشرية وبواطنهم ملكية، فمن اقتصر بعلمه ونظره على ظواهرهم عدم الإيمان بهم وبما جاءوا به؛ إذ ظواهرهم غير دالة على صدقهم، ولم يمتنع اليقين بما هم عليه من نبوتهم، وصدق ما جاءوا به على متأملهم.

كذلك القرآن العزيز فيه آيات بينات للعلم بما هي عليه آيات، وأخر متشابهات ظواهرها بخلاف بواطنها، فمن اقتصر على تفهم القرآن على ظواهر أكثره من المتشابهات دون التوغل في التذكر، والتفكر في معانيها والرسوخ إلى بواطنها لم يصل إلى رفيع العلم، ومُنِعَ من درجة اليقين، وأعلى رتبة أن يكون دارساً وقارئاً.

وكذلك من طلب العلم في أكثر المبينات بالرسوخ إلى بواطن بطنها لها، فقد افتتن هذا بتقصيره كما ضل هذا بتعديه، والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما هو فيما هنالك، وبآيات الله ﷻ في السماوات والأرض من ملكه وملكوته، وما خلق الله من شيء ظن الوصول إليه والحظوة عنده والجاه لديه، وهو ﷻ وتعالى علوه وشأنه قد كتب على نفسه إنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فوجب في منبعث الابتلاء.

وبدء القضية أن يجعل على الهداية حجابًا، وعلى الضلالة شبهة؛ لئلا يصل إلى العلا من علمه، والرفيع من درجاته إلا من بذل جهده في ذاته ﷻ، واستفرغ

وسعه في طلب مرضاته، وأخلص له في طلبه.

قال الله - جلّ ثناؤه - وذكر عيسى صلوات الله عليه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] أي: أنعم عليه بالنبوة والرسالة، والكتاب الذي علمه، والحكمة التي آتاه، والروح الذي جعله فيه منه، وكلمته التي كونه عنها.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] والأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم - آيات على ما قاله في هذه الآية شواهد صدق، وبخاصة منهم عيسى ابن مريم صلوات الله عليهما وسلم على جميع النبيين والملائكة والمقربين.

قال الله ﷻ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] فافهم - وفقنا الله وإياك - فقد جمع لك فصول العلم في أطراف الكلام، وأن القرآن الكريم كله متشابه متعاقد متصادق، وكذلك الوجود كله لمن تأمله آيات مبینات لطالبي العلم ابتغاء طاعة الله ورضوانه.

قوله ﷻ: ﴿قُلْ لِّمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٢] هذا محذوف لبيان دلائله وصدق شهادته، معناه والله أعلم: فلم أتخذتم من دونه أولياء لا يملكون شيئاً ولا ينفعون، أو ما يكون هذا عبارة عنه.

ثم استأنف الكلام، فقال جلّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: لمن آمن بالله ورسله وأطاع، وقد يكون قوله جلّ قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ على العموم لولا رحمته في الدنيا التي شملت الكل في الدنيا ما عاش فيها الكافر، ولا العاصي ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [النساء: ٨٧] الأمر الإيجاب التي في الكتب؛ لإجابه ذلك على نفسه، والنون فيه للتأكيد والتحقيق.

ثم استأنف من الكلام ما أنبأت عنه الفطرة وقامت عليه الشواهد، فأزاحت عنه الشكوك، فقال: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧] يعني: يوم القيامة.

ثم استأنف ﷻ كلاماً آخر قبله ما دلّ عليه قوله: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: في يوم القيامة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وهذا في هذا المعنى كقوله جلّ قوله: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾

يعني: في يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] يعني: اليوم، وهذا تقرير منه ﷻ لهم على ضلالتهم، وفيه تعريض بما هو الحق المبين ألا نظير له، ولا مثل له ولا عدل له، ولا إله معه ولا شريك ولا ولد، فلم يدعون معه إلها، ولم ينسبون إليه ما نُزّه عنه علو جده، وبرأه منه طهارة قدسه.

أكد ذلك ﷻ بما هو في معناه قوله الحق: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ يعني: ما اشتمل عليه الليل والنهار ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١٣] أي: وإن كان لا يشتمل عليه الليل والنهار، فهو غير غائب عن كل ما سكن في الليل والنهار، وتقلبته بل هو الشهيد الحاضر، القريب الرقيب العتيد، القريب لا أقرب منه، ولا أعظم تحقيقاً من حضوره، ليس كمبعوداتهم سواء لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئاً ما لهم من شرك في السماوات ولا في الأرض.

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾ (١٤) ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٥) ﴿مَنْ يُصِرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْأَمِينُ﴾ (١٦) ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُنْسِكَ يَخَيِّرْ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٧) ﴿وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْغَنِيُّ﴾ (١٨) ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ لَا تُذَرَّكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (١٩) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢٠) [الأنعام: ١٤ - ٢٠].

دَلَّ على صدق هذا التأويل ما أعقبه به من قوله الحق جَلَّ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ وَليًا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] أي: يرزق ولا يرزق.

وقرأها ابن عباس ومجاهد والأعمش وأبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز: «ولا يطعم»

بفتح الباء، ينبئ عن غناه ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه^(١).

﴿قُلْ إِنِّي أُمِزْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: من أمتي.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] حذره ﷺ من موافقة الشرك، وإن كان على الإسلام قائماً، كما قال جلّ قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وقال أيضاً - جلّ قوله - في الأنبياء والرسل غيره: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] وقد يحمل على أنه خطاب له ﷺ، والمراد به أمته، والأولى أبلغ في التخويف وأقرب لأداة التحذير؛ إذ هو وسائر الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - لا يأمنون على إسلامهم أن يسلبوه، فكيف بمن سواهم.

ومن هذا المقام كان يقول رسول الله ﷺ: «يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبي على دينك»^(٢).

وفي أخرى: «على طاعتك»^(٣) لعلمه ﷺ أن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الله ﷻ، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ.

من المعهود أن فطرة الإسلام قد يدخل عليها الشرك كما دخل على المشركين، قال الله ﷻ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ [الأنعام: ١٩] أمر ﷺ رسوله ﷺ أن يجيب بالحق ﴿قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يعني: هو شهيد، ثم عطف ﷺ بالواو،

(١) قرئ: «ولا يطعم» بفتح الباء، وروى ابن المأمون عن يعقوب: «وهو يُطْعَمُ ولا يُطْعِمُ» على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير الله، وقرأ الأشهب: «وهو يطعم ولا يطعم» على بنائهما للفاعل، وفسر بأن معناه: وهو يطعم ولا يستطعم، وحكى الأزهرى: أطعمت بمعنى استطعمت، ونحوه أفدت، ويجوز أن يكون المعنى: وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح، كقولك: وهو يعطي ويمنع، ويسقط ويقدر، ويغني ويفقر. [الكشاف (٩٨/٢)].

(٢) تقدم تخريجه في السابق.

(٣) أخرجه أحمد (٩٦٦٠)، وعبد بن حميد (١٥٢٣)، وأبو يعلى في مسنده (٤٧٠٠)، والنسائي في الكبرى (١٠١٣٦).

ومعنى الوحي على معنى الشهادة، فقال: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ أي: من بلغه القرآن، وقد تكون الواو عاطفة على معنى ما بطن من ذكر الشهادة، وهو الله شهيد بيني وبينكم، وبعضكم المؤمنون شهداء له في الأرض.

ثم قال: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ﴾ فشهادة الله بيني وبينكم، ومن بلغ شهادة المؤمنين لله بما بلغوه من الوحي شهادة المبلغ إليهم، كما قال: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [آل عمران: ٩٩].

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

قال: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَشَّاهِدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ [الأنعام: ١٩] كما قال رسول الله ﷺ: «لا أشهد على جور»^(١) أشهد غيري شهد شهادة الحق ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بشهادة الحق لنفسه، يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّي بِرِءٍ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

ثم ذكر ﷻ علم أهل الكتاب بالقرآن، وإنهم يعرفون أنه من عند الله، وأن صرف القبلة إلى البيت الحرام كانوا يعرفون ذلك كما يعرفون أبنائهم، فكتموا شهادتهم؛ لذلك خسروا أنفسهم في الآخرة، فلم يؤمنوا في الدنيا؛ ليحقيق بهم ما سبق لهم عند الله من خسران أنفسهم وأهاليهم.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ نَخَشُّهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْصُرُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْكُمْ مَشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلًا مَائِدًا لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ

(١) أخرجه البخاري (٢٥٠٧)، ومسلم (١٦٢٣)، والنسائي (٣٦٨١)، وأحمد (١٨٣٨٩)، وابن حبان (٥٠٧)، والبيهقي في سننه (١٢٣٥٤)، وأبو عوانة في مستخرجه (٤٦٠٨).

عَنْهُ وَيَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَإِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ دُفِقُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ ﴿[الأنعام: ٢١ - ٢٧].

أتبع ذلك قوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ...﴾ [الأنعام: ٢١].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أهل الكتاب والذين أشركوا والذين عدلوا بالله، ثم خص أهل الشرك بالمساءلة بقوله: ﴿أَيُّنْ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُزْعِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ﴾ أي: معذرتهم أو إفكتهم ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾^(١) [الأنعام: ٢٦] يمكن أن يكون عني بهذا المشركين، فإن قوماً منهم كأبي طالب وغيره كانوا يغضبون له ويحبونه، وينهون المشركين غيرهم عن أذيته، ومع هذا فهم يبعدون عنه، فلا يؤمنون به ولا يتبعونه.

ويمكن أن يكون المراد به أهل الكتاب كانوا ينهون الناس عن اتباعه، والإيمان بما جاء به من الوحي، ويريدون على ذلك بأن يبعدوا عنه كقول طائفة منهم: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٧٢] بقوله: عسى من آمن به يرجع ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وطائفة منهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ ويقولون: هذا من عند الله ﴿إِنْ أُوْتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾ أي: إن أمركم بمثل هذا فآتمروا، وإن لم يأمركم بمثل هذا ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة: ٤١] على دينكم هذا، وشبهه من نهيمهم عن اتباع الرسول والكتاب.

(١) روي عن ابن عباس أنها نزلت في أبي طالب كان ينهى المشركين أن يؤذوا الرسول ﷺ وأتباعه وكانوا يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش بأبي طالب يريدون سوءاً برسول الله ﷺ. وقال محمد بن الحنفية والسدي والضحاك: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع الرسول ﷺ ويتباعدون بأنفسهم عنه. [تفسير البحر المحیط (١١٠/٥)].

﴿بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَتُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُمْ وَفَتَحْنَا لَهُمْ سُبُلَ مَعَادٍ فَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرُهُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا لَأَعْلَفْنَا نَبَاهَهُمْ وَكُنَّا لَهُمْ عَاقِبَةً ذَاتَ فَتْرَةٍ ۚ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا لَأَكْثَرُنَّ كُفْرًا ۚ﴾ (٢٨) ﴿وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلهَاتُنَا الْأَنْثِيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۚ﴾ (٢٩) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ ۚ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۚ﴾ (٣٠) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِمْ قَالُوا إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرُنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ۚ﴾ (٣١) ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۚ﴾ (٣٢) ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ۚ﴾ (٣٣)

[الأنعام: ٢٨ - ٣٣].

قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ (١) [الأنعام: ٢٧] هؤلاء هم المشركون، دل على هذا قولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

ثم قال جل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ [الأنعام: ٣٠] وهؤلاء هم أهل الكتاب، والله أعلم.

ثم قال عز من قائل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ المراد به - والله أعلم - أهل الكتاب فإنهم وإن أظهروا خلافه ومناقضته، فإن قلوبهم تعرفه دل على صدق هذا التأويل وصفه - جل وصفه - إياهم بالجحد في قوله جل قوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وعلى قراءة من قرأ: «يَكْذِبُونَكَ» بإسكان الكاف وتخفيف الذال (٢)، فعام

(١) قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من تتأتى منه الرؤية، وعبر عن المستقبل يوم القيامة بلفظ الماضي تنبيها على تحقق وقوعه كما ذكره علماء المعاني، و﴿وَقَفُوا﴾ معناه: حبسوا، يقال: وقفته ووقفاً ووقف وقوفاً، وقيل: معنى: ﴿وَقَفُوا﴾ على النار، أدخلوها، فتكون «على» بمعنى «في». وقيل: هي بمعنى الباء: أي: وقفوا بالنار؛ أي: بقربها معانين لها، ومفعول ترى محذوف، وجواب «لو» محذوف، ليذهب السامع كل مذهب، والتقدير: لو تراه إذا وقفوا على النار لرأيت منظراً هائلاً وحالاً فظيغاً. [فتح القدير (٤٠١/٢)].

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٠/٣)، وتفسير الرازي (٢٦٨/٦).

﴿يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤] لو شاء لأنزلها لكنه قد ألزم ذلك حكماً مضت عليه سنته في عباده، وهو ما أخذ به الأولين قبلهم الذين سألوا أنبياءهم - عليهم السلام - الآيات، ثم لم يؤمنوا بها ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٣] فهذا معنى قوله جلّ قوله: ﴿وَلَكِن أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧] حقيقة حكم ما سألوه، ولم يرسل بها إليهم نظراً لهم، وإبقاءً عليهم، كما قال عزّ من قائل: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] وحذف هنا ذكر الجزاء «فعذبناهم» أو ما كان في معنى ذلك.

ثم قال عزّ من قائل: ﴿وَأَتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩] ثم حذف أيضاً ذكر عقوبته إياهم اعتماداً على ما تقدم من ذكر ذلك في غير هذا الموضع، فوصف - جلّ وصفه - أكثرهم بالجهل، وعدم العلم لما جهلوا أن الآية الشرطية؛ إذ لم يقرن بمجيئها الإيمان بها، فجزاء سائلها العذاب ومعالجة العقوبة. أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلّ قوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] يقول جلّ قوله: في آيات السماء والأرض، وفيما لديكم من المعهود منها لكم غنى عما سألتموه، فما من دابة تدب في الأرض، ولا طائر يطير في السماء إلا أمم أمثالكم؛ أي: أمم يؤم بعضهم بعضاً في التفاضل، والسير والمعاملات، والمناكح واللغات، والخلق والخلق، والشرود والتأنس إلى غير ذلك مما جبلت عليه حتى يصعد التفضيل.

والاختصاص بها إلى خاص منها مختص بما هو إمام بالإضافة إلى من هو مؤتم به، فقد كانت هذه آيات بينات على إثبات الوحداية، وفرقان النبوة وبراهين صحة الرسالة شواهد صادقات، والسنة معربة عن الحق الذي دعوتكم مفصحات، كذلك لو اتصل نظرهم إلى نبات الأرض على كل سنة قد سُتّ له، جُبل عليها في خلقه وشكله، ومنافعه ومضاره، وروائحه وطعومه، وتوابعه كلها كذلك إلا تربة الجمادات من الأحجار، وقطع الأرض والجبال إلى غير ذلك.

كذلك قال عز من قائل وهو أعلم: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ولفظة الكتاب مترددة في الإعلام بين أن يكون المراد بها اللوح المحفوظ، فهو الذي عم كل مذكور سواه، وزم كل كائن إلى يوم القيامة.

ويمكن أن يكون المراد بذكر الكتاب هذا القرآن، وهو أيضًا قد عم بالذكر الموجودات كلها أيضًا نصًا عليها وعمومًا لها، وفي هذه الآية على هذا التأويل بين جل ذكره إنه ما فرط فيه من شيء، وكل دابة في الأرض دبت ودرجت أو كل طائر في السماء، فهي أم أمثالنا لكل أمة منها لسانها وشكلها، وصورها وسيرها الذي لا يعدوها في مناحج ومعاملات بينها، مقصورة عليها فطرها فاطرها ﷻ، وهذا إليه كما ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وقال جل من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ﴾ أي: منهم من علم ﴿صَلَاتِهِ وَنَسِيحَتِهِ﴾ [النور: ٤١] لذلك قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] كما حصل ﷻ أفعالهم وخلقهم وأرزاقهم، فلذلك إليه يحشرهم.

فصل

ذكر ﷻ الجناحين هنا - والله أعلم - والعلم مستقر بأن كل طائر يطير بجناحيه فتح لباب من الغيب؛ لما استاق جل ذكره ما دب من دواب الأرض، وما طار في الهواء إرشادًا منه للمعتبرين من عباده يرونه؛ ليتحصل لهم العلم والعبرة بما شاهدوه على العيان بصحة قدرة خالقها، ولطيف حكمة ممسكها حال طيرانها، ويتصور لهم بذلك سنن النبوة في استئان سنن كل صنف منها أمة لا يعدوها، ولا يخالفها باستئان كل صنف منها سنة صنفه لا يعدو ذلك ولا يخالفه، وكان ذلك إعلامًا بأن طيران النسيم ودواب الجنة خيلها وركابها ليس من شرط ذلك أن تكون طائرة بأجنحة، بل تكون طائرة وإن لم يكن لها أجنحة.

وقد جاء: «إن المتقين ينجيهم الله تعالى على الصراط بمفازتهم، قال: فيمر أحدهم كالبرق، ويمر الآخر كالرمح، وكرجع الطرف، وكحضر الفرس

الجواد...»^(١).

فصل

كل ما خلق الله ﷻ من شيء رفيع أو ضيع كريم أو خسيس لا بد من إعادته يوم البعث، كما قال الصادق الحق ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وكما قال جل قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ذلك ليقاص للجلحاء^(٢) من القرناء، والضعيف من القوي، ويُستل العود لِمَ خدش العود، ثم لا بد أن يميز الخبيث من الطيب، فيركم الخبيث بعضه على بعض، فيجعله في جهنم، ثم يجعل الطيب في الجنة؛ ذلك ليعذب المكذبين الذين كذبوا بآيات الله، وعصوا أمره، وعتوا على رسله بما كذبوا وكفروا ربهم.

وبما عهدوه في الدنيا من ضرائها وسرائها، فلم يستنوا بموجودات ذلك من سموم هنا وحرور وسعير وصرود وزمهير، فيقضوا بموجودات ذلك فيما ها هنا على ما ينبي في الدار الآخرة، ولينعم أهل الجنة بما عهدوه في الدنيا من خيراتها فيشكروه عليها، ومن مكروهاها فيصبروا له عليها، وطلبوا له معرفته من هذه وهذه حتى وصلوا إليه إيمانًا وإيقانًا، فيكفيهم المكروه وينيلهم المحبوب، ويزيدهم من فضله زائدًا إلى ما في الدار الآخرة على عظيم قدرها، وتفاوت شبه ما بينهما لكنه يجمع إلى تلك كما تقدم.

فصل

الخبيث من كل ما دب في الأرض ودرج، أو طار في الهواء هو ما منع الماعون وسلط ضره، والطيب هو ما أتى الماعون وبذل نفعه، ومن الموجودات ما منع الماعون، ولم يوصل ضره إلى مخلوق، كما أن منها ما أتى الماعون، وأوصل شره إلى الغير، وحكم ما هذا سبيله في إنزاله أي منزلة في الدارين هو إلى الله ﷻ،

(١) لم أقف عليه هكذا، ولعله مأخوذ بالمعنى.

(٢) الجلحاء من الشاء والبقر: بمنزلة الجماء التي لا قَرْنَ لها. انظر: تاج العروس (١/١٥٦٦).

هو أعلم بما هو الطيب من ذلك والخبيث.

كما قال جلّ قوله: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ...﴾ [الأنفال: ٣٧].

غير أنا نعلم بما أعلمناه ﷺ أن نصيب الرحمة منه أوفر وأغلب لا محالة، كذلك أيضًا في النبات والجمادات الطيب والخبيث، يأتي الله جلّ ذكره بالدنيا جمعًا، فيقضي قضائه ويحكم حكمه في عباده، ثم يميز خبيثها إلى النار وطيبها إلى الجنة؛ لذلك قال عزّ من قائل: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا ضُفُّوا فِي الظُّلُمَاتِ...﴾ [الأنعام: ٣٨ - ٣٩].

وإنما ذكر جلّ ذكره نعت المكلفين، وخصّهم بالذكر في ذلك للمعهود منه ﷺ أنه إنما يكلف من حقه أيسره، ويترك أكثره رحمة منه بالعباد ورأفة، فذكر ﷺ إرجاعهم بعد البلى وكذب أكثرهم، فاستوجبوا لديه ما أوعدهم به، فكيف كان يكون بعد تكذيبهم بما قد أضمحل ويس، وما رطب وبرد، وما سخن بجواهر ذلك وأعراضه وتوابعه، وأوائل ذلك وأواخره من أول وجود الدنيا إلى انقراضها، وهي جملة يتعذر زمّها على أكثر الأوهام، ويتغيب عنها في كثير من الأحوال الإيمان بها. قال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال جلّ قوله: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] فأخبرك ﷺ نصًّا صريحًا أنه خلق كل شيء لعباده ومن أجلهم، وجعل كل ذلك آلاء وآيات على مراده من الغائب الآتي، وأخبر أنه قد قدر العودة بعد البدأة، وصرح ﷺ بذكر إعادة العبد، فمن الجلي البين أنه كما يعيده بعد أن بدأه لذلك يعيد ما خلقه من أجله آيات على الدار الآخرة التي انتزعت منها، ثم جعل هذا آية على تلك، وعبرة من هذه إلى تلك، ثم جعل مصيرهم إليها.

فصل

اعلم أن الحساب كله في المكلفين هو أمر نشأ من لدن عالم الجماد إلى الثقلين الجن والإنس، غير أن الفرق بين ما هو مكلف، وبين ما ليس بمكلف:

وجود الخزي والتعذيب والآلام للمكلفين بما هم فيه، وما ليس بمكلف ولا يجد ألمًا بما هو فيه، وبالضد في الطيب خلا أن القرين الخبيث يمنع القرب والجوار، ويناله الحزب الطيب دونه.

وقد سُمِّيَ رسول الله ﷺ كثيرًا من المؤذيات: فواسق، وكفّرًا وأحل قتلها في الحل والحرم، وفي الصلاة إلى غير ذلك مما ينكشف بالاستقراء، وتتبع مسالك العلم من إشارات الشرع وشواهد الوجود، فمن كان هكذا فهو في النور الموجود عن الحق المخلوق به السماوات والأرض، في بصره النور يبصر به، وفي لسانه النور ينطق به، وكذلك في السمع والشم والذوق.

كما قال بعضهم:

في القلب نور ونور الحق ينجده نور على النور دلال على الصمد

قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ضُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾^(١) [الأنعام: ٣٩] عبّر - جلّ ذكره وجلت عبارته - بكونهم في الظلمات عن عماهم عن الهدى، وبكونهم في اليوم الآخر في ظلمات أعمالهم، ولم يقل: «إنهم عمي» كما قال - جلّ قوله - في سورة البقرة، وإنما ذلك لمعنى زائد على العمى فيما هنالك، وذلك أنهم كانوا في عماهم لا نور يحتوشهم من إيمان، ولا ضياء يضيء لهم من عمل صالح ولا نور، فهم على ذلك كالعمى في الليل المظلم البهيم.

وضد هذا وعليه هو الذي عبّر عنه رسول الله ﷺ بقوله ﷺ: «اللهم اجعل لي نورًا في سمعي، ونورًا في بصري ونورًا في لساني، ونورًا في لحمي ونورًا في دمي، ونورًا في مخي ونورًا في عظامي، ونورًا في شعري ونورًا في بشري، واملاً قلبي نورًا واملاً صدري نورًا، واجعل نورًا من أمامي ونورًا من ورائي، ونورًا من فوقي ونورًا من تحتي، ونورًا عن يميني ونورًا عن شمالي، اللهم أعظم لي نورًا واجعل لي نورًا»^(٢).

(١) قال النقاش: نزلت في بني عبد الدار ثم انسحبت على سواهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤١٩)، والطبراني (٣٤١٩)، وابن عساكر (١٥٧/١٧)، وابن خزيمة (١٠٥٦).

والذين كذبوا بآيات الله وكفروا به في أبعد البعد من هذه الأنوار؛ لذلك قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وإنما ذلك من حقيقة وصفهم بما وصفهم به؛ لعدم النور الذي يقوم لأهليه مقام وصفه جلّ وصفه: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ [النور: ٣٥] وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله تعالى، أحاطت بأولئك الظلمات لكفرهم، وأحدثت بذواتهم دياجي جهلهم، وعموا لذلك وصموا فلم يجيبوا الداعي ولا سمعوا المنادي.

فصل

ذكر الله ﷻ آياته في السماوات والأرض شواهد على توحيده، ودلالات مبینات لصدق رسله - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وإعلامًا بالحق الموجود في الدار الآخرة الذي تضمنه وعده الحق وعيده كما جعلها آيات على وجود أسمائه الحسنی، وصفات ذاته الكاملة الحق العلي من عظيم قدرته، وإحاطة علمه بهدایتة وإضلاله من سبق علمه العلي ﷻ بضلاله هذا بفضلته وهذا بعدله.

ثم قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١) [الأنعام: ٣٩] إذ كل ما في السماوات والأرض مفطور على الإسلام، مجبول على الدين القيم، من استرشدها

(١) ثم قال تعالى: ﴿مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وهو صريح في أن الهدى والضلال ليسا إلا من الله تعالى. وفي الآية وجوه: الأول: قال الجبائي: معناه أنه تعالى يجعلهم صمًا وبكمًا يوم القيامة عند الحشر، ويكونون كذلك في الحقيقة بأن يجعلهم في الآخرة صمًا وبكمًا في الظلمات، ويضلهم بذلك عن الجنة وعن طريقها ويصيرهم إلى النار. الثاني: قال الجبائي أيضًا: ويحتمل أنهم كذلك في الدنيا فيكون توسعًا من حيث جعلوا بتكذيبهم بآيات الله تعالى في الظلمات لا يهتدون إلى منافع الدين، كالصم والبكم الذين لا يهتدون إلى منافع الدنيا، فشبههم من هذا الوجه بهم، وأجرى عليهم مثل صفاتهم على سبيل التشبيه. والوجه الثالث: قال الكعبي: قوله: ﴿صُمُّ وَبُكْمٌ﴾ محمول على الشتم والإهانة لا على أنهم كانوا كذلك في الحقيقة. [تفسير الرازي (٢٨٤/٦)].

رشد، ومن اهتدى بها هدى، ويبصر مواقع أحكام الله ﷻ وعدله في خليقته، حتى كأنه لقوة يقينه مشاهد بفعله مبادئ الصنع عن تأسيس التقدير السابق في الأزل، قائم بلبّه على تفصيله وتوصيله إلى تمامه.

ويرى جملة الخليقة شخصاً قائماً بين يدي مالكة ﷻ، معبداً له محتسباً، قد أحاطت به مسكنة المقدار وتخلله الأمر، وجرى فيه الروح أكرم من جريان الأرواح في الأجسام، ويرى سريان العبادة في جملته وأعضائه وأجزائه، وأجزاء أجزائه إلى منتهى التحصيل تسييحاً وتحميداً، وتهليلاً وتكبيراً، وصلاةً وشهادةً، وخشوعاً وإنفاقاً مما عنده، وصوماً وحجاً لفطره، قائماً له على ذلك.

فصل

إنما ضُرف الأكثر من الأنام عن مشاهدة ذلك، منها غيبتهم في أسفار غفلاتهم، وأتاهم على التيقظ برؤيتها، وأصمهم عن سماع شهادتها عندما يريدونه من استرشادها إيجادهم بها إلى المعهود من ظواهرها، وحملهم معاني خطابها عند أداء شهادتها على المتعارف في بادئ الرأي، مما يبلغونه من سوء نياتهم وآراء خواصهم، فنسوا لذلك حظاً مما ذكروا به، ولم يتصفحوا الوجود بعزم ولا تدبر، والوحي بقوة، وطلب للمعونة من مالكةا ﷻ، أيقظنا الله ﷻ من سنة الغفلة.

لذلك قال عز من قائل: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ...﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَاكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ بَلْ إِلَٰهَهُمْ يُدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿١٠٨﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٩﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿١١٠﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١١﴾﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ

وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَرِفُ أَلَا يَتَّبِعُ تَعَهُمْ
يَصْدِفُونَ ﴿٦١﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤٦].

أتبع ما تقدم ذكره قوله جلّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ
السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠] المعنى انتظم بقوله جلّ قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا
نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الأنعام: ٣٧] وبالجواب بعده إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [الأنعام: ٣٩].

جعل ﷺ يسرد عليهم آياته بعد هذا إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [الأنعام: ٤٢] إلى قوله جلّ قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ
نَصَرِفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦] أي: عن النظر إليها، والعمل والهداية
بها إلى التعلل بطلب إنزال آيات سواها فعل من لا يفقه ولا يعلم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَنَّةَ هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَنِيعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ
لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لِّمَالِهِمْ يَتَّقُونَ ﴿٧١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَصِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ
فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنعام: ٤٧ - ٥٢].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَنَّةَ﴾ [الأنعام: ٤٧] إلى قوله جلّ
قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي

مَلِكٌ ﴿١﴾ [الأنعام: ٥٠] جعل جلّ ذكره من آياته على صدق ما جاء به كونه ليس عنده خزائن الله، وهو على ذلك يثير الماء من بين أصابعه، ويدعو بالمطر الجود، ويشير إلى السحاب السماء يمّنة ويسرة، فتتجاب استجابة لإشارته بيده هكذا وهكذا، ويجعل به قليل الطعام كثيرًا إلى غير ذلك من آياته من هذه الجهة.

وبكونه من البشر وليس بملك، وهو على ذلك عليه هدي الملك سمّا ووقارًا، وخيرًا وعبادة، وتقوى وخشية لربه واستجابة له، والملائكة تنزل عليه - على جميعهم سلام الله ورحمته - بالذكر والوحي، والنصر والولاية والصحة، وبأنه لا يعلم الغيب، وهو بذلك يخبر بالغيوب وينذر المندرين ويبشر المبشرين، ويُنزل عليهم الخبر من السماء، ويخبر ما كان وما يكون، ويتلو كتاب الله ﷻ، وكلامه الحكيم ينزل عليه من لدن رب العالمين إلى الروح القدس، إلى الروح الأمين إلى قلبه المقدس المطهر، إلى لسانه الصادق قرآنًا عربيًا أعجز الثقلين وبهر العرب والعجم، فكان تعريه من أوصاف الملائكة - عليهم السلام - وعلم الغيوب وخزائن الله مع موجود ما يوجد عنده من ذلك أدل دليل، وأعرب شاهد بالحق على علم.

حقق ذلك بقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ لذلك قال - عزّ من قائل - وقوله الحق: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ هو البصير المعني بهذا النعت ها هنا، والأعمى هو سواء من ليس بنبي ولا رسول، وأغرقهم في العمى من كذب وعتا، ثم يسري نور البصر في كل من آمن واهتدى هم درجات عند الله، ختم ذلك بقوله الحق: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠] يريد فيما تقدم ذكره.

قوله عزّ من قائل: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣] الكاف للتشبيه،

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: هذا جواب لقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ فالمعنى ليس عندي خزائن قدرته فأُنزل ما اقترحموه من الآيات، ولا أعلم الغيب فأخبركم به، والخزانة ما يخزن فيه الشيء، ومنه الحديث: «فإنما تخزن لهم ضرور مواشيهم أطعمانهم أحب أحدكم أن تؤتى مشربته فتكسر خزائنه» وخزائن الله مقدراته؛ أي: لا أملك أن أفعل كل ما أريد مما تقترحون ولا أعلم الغيب أيضًا ولا أقول لكم: إني ملك، وكان القوم يتوهمون أن الملائكة أفضل، أي: لست بملك فأشاهد من أمور الله ما لا يشهده البشر، واستدل بهذا القائلون بأن الملائكة أفضل من الأنبياء.

وذلك إشارة إلى المشار إليه موضعه الكاف من ذلك.

يقول الله - جلّ قوله - وهو أعلم: وكما فتناهم بل كذلك فتننا بعضهم ببعض ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] يعني ﷺ: المهتدين، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١].

يقول الله جلّ من قائل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] كما قال - جلّ قوله - في أعلى هذا المقام: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ (٥٣) ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنْتُمْ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا يَجْهَلُونَ ثَرَاتًا مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٤) ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٥٥) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِجُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ﴾ (٥٧) ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَأْتِيَهُمْ إِلَّا اللَّهُ يَفْصَحُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِلِينَ﴾ (٥٨) ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَأَقْضَى الْأَمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ (٥٩) [الأنعام: ٥٣ - ٥٨].

قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] انتظم هذا بما اتصل به من ذكر المهتدين، والنهي عن أن يطردهم من مجلسه، وعن أن يبعدهم، وأمره له بالألا تعدوهم عيناه إلى سواهم من أهل الشارات والمراكب والملابس.

وفيه من الفقه عن الله ﷻ، والبشارة منه لعباده المؤمنين بحسن اللقاء الكريم منه لهم، كما قال عزّ من قائل: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومن ذلك توصيته ﷺ بهم في قوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

ومن ذلك تأنيبه رسوله ﷺ في قولك ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾

[عبس: ١ - ٢] وإنما كان يقول ابن أم مكتوم: «[أرشدني يا رسول الله أرشدني]^(١)» وهو متشاغل برجل من المشركين، فأنزل الله عليه هذه السورة، وأعرض بالمواجهة إبلاغاً منه في المقصود بذلك إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى...﴾ [عبس: ٨ - ١٠] فاعبده وأرجه وتوكل عليه.

تنبيه:

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] أي: مبشرين للذين آمنوا ومنذرين للذين كفروا، ثم الذين آمنوا إن لم يثبتوا على الإيمان والإسلام وطاعة الله.

وقال - جلّ قوله - بعد هذا: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ يعني: القرآن ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يَخْشَوْا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] كقوله جلّ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنِ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].

وقوله عزّ قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١] أي: التقوى الأرفع.

وقال - جلّ قوله - بعد هذا: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤] إنذاراً لمن اتقى كيف يتقي التقوى كله، وبشارة للمؤمنين ثم للتائبين، وانتظم هذا الخطاب أوله بآخره وبما بينهما.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما نصرف لهم الآيات، ونبينها لهم كذلك ﴿نُفِضَ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] بالرفع؛ أي: ليستبين لك وللمؤمنين سبيل المجرمين.

وبالنصب: ولتستبين أنت سبيل المجرمين؛ أي: سبيلهم فيما هم صائرون إليه^(٢).

(١) في الأصل: «اذني يا رسول الله اذني».

(٢) انظر: تفسير البغوي (١٤٩/٣)، وتفسير الألوسي (٣٤٣/٥).

وعطف بالواو في قوله جلّ قوله: ﴿وَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ على محذوف، تقدير القول: وكذلك نفصل الآيات بشارة ونذارة ولتستبين سبيل المجرمين.
لذلك أعقب بقوله الحق جلّ قوله: ﴿وَلَنُنَبِّئَنَّ﴾ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا مَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

ثم إلى قوله الحق جلّ قوله: ﴿يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧] يقضي الحق من الحكم والقضاء، والقضاء الحق.

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٥٨﴾
وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ ٦٠ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاكِمِينَ ٦١ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنَ ظِلْمَتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٦٢ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ٦٣﴾ [الأنعام: ٥٩ - ٦٤].

قوله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ...﴾ إلى قوله: ﴿مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

مفاتيح الغيب وهو أعلم: صفاته العلا علمه المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً، وقدرته المخرجة للكائنات من العدم إلى الوجود وكلامه العلي، يقول - جلّ قوله - للكائن: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] وإرادته ما يشاء كان وما لم يشأ لا يكون، هو يقدم ويؤخر ويرفع ويضع، ويفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى شاء، وهذه لا يعلم غيرها سواه، وعلى القول بالتحقيق فإنه ليس عنده غيب، وإنما وجود الغيب بالإضافة إلى سواه، وإضافة بعض العلوم إلى بعض.

أتبع ذلك ذكر الموجودات الغائبة عن أكثر العباد، فقال جلّ قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَغْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: جاء في الخبر أن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك، وروى البخاري عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله ولا يعلم ما في غد إلا الله ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله» وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: من زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَغْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ومفاتيح جمع مفتاح، هذه اللغة الفصيحة، ويقال: مفتاح ويجمع مفاتيح، وهي قراءة ابن السميعة «مفاتيح» والمفتاح عبارة عن كل ما يحل غلقاً، محسوساً كان كالقفل على البيت أو معقول كالنظر. الثانية: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية من كتابه إلا من اصطفى من عباده، فمن قال: إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمانة ادعاها أم لا، وكذلك من قال: إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة، وأنه سبب الماء عادة، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه لم يكفر، إلا أنه يستحب له ألا يتكلم به، فإن فيه تشبيهاً بكلمة أهل الكفر، وجهلاً بلطف حكمته؛ لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة دون النوء، قال ابن العربي: وكذلك قول الطيب: إذا كان الثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وإن كانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجباً في الخلقة لم يكفر ولم يفسق، وأما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر، أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون فلا ريب في كفره أيضاً، فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر، فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن. أما عدم تكفيره فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه من قوله: ﴿وَالْقَمَرُ قَدْرُ نَازِلٍ﴾ وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك على العامة؛ إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبو حتى يسروا ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به. الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَيَغْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ خصهما بالذكر؛ لأنهما أعظم المخلوقات المجاورة للبشر، أي يعلم ما يهلك في البر والبحر، ويقال: يعلم ما في البر من النبات والحب والنوى، وما في البحر من الدواب وورق ما فيها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَغْلَمُهَا﴾ روى يزيد بن هارون عن نافع عن محمد بن إسحاق عن نافع ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان» وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَغْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

كما قال جلّ قوله: ﴿وَمَا مِنْ غَائِيَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

وقد يكون على حكم تنزيل الخطاب بأن يتوجه المعنى إلى خزائن الغيب ما أخبر به في خزائنه، التي له ما في السماوات والأرض، كالماء ينزله ﷻ من السماء من خزائنه، ثم الماء خزانة لجميع النبات والحيوان والنبات خزانة للحيوان والأرزاق إلى غير ذلك، كما كانت الرياح خزانة للماء.

قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١ - ٢٢] وهذه خزائن قد أعلم بها.

وقال - جلّ قوله - في تلك: ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فالوجه الأول أولى، والله أعلم.

والعرب تقول للخزانة التي تخترن: مفتاح بغير ألف، وتجمعها: مفاتيح، ويقولون لما يفتح به الغلق: مفتاح بالألف، ويجمعونها: مفاتيح بالياء.

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً...﴾ [الأنعام: ٦١] معهود فعل صفة القهر فيما سبيله الغلبة للنفوس وصفات الباطن، كما معهود فعل القدرة في إيجاد الأجسام وذوات المقادير، والله ﷻ يحفظ خلقه من أن يصيبهم من أمره ما قد سبق في علمه، وفي تقديره من أمره أن يصرفه عنهم، ثم هؤلاء الحفظة يتعاقبون في الموجودات على رتبة حفظة الأعمال حفظة بالليل وحفظة بالنهار.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢].

وقال رسول الله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر...»^(١).

(١) أخرجه مالك (٤١٦)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (١٤٦٤)، وأحمد (٨٣٤١)، والنسائي (٤٨٩)، والبيهقي (٢٢٧١) وفي الشعب (٢٧٠٨)، والطبراني في الشاميين (٣٢٠٤)، وابن حبان (١٧٦٧)، وأبو عوانة (٨٧١).

وقد ذكر الصنفين معاً في قوله جلّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠] فهذا إخبار منه ﷺ عن إحاطة العلم والتحصيل.

ثم قال جلّ قوله: ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

ألا تسمع إلى قوله جلّ قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢] ولهذا استاق الاسم في هذا الموضع.

ثم قال جلّ قوله: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا...﴾ [الأنبياء: ٤٢ - ٤٣].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جلّ قوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ ظاهراً بخطاب أنهم يحفظونه من الموت ما لم يأت أجله، فإذا حضر أجله المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] أي: في أمر الله لا يفرط الحافظ ولا المحفوظ من أجله، بل يقهر الحافظ والمحفوظ والذي من أجله وله كان الحفظ. كذلك قال جلّ قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨].

وباطن هذا الخطاب أنه حفيظ من كل ضار ونافع، ومر وحلو ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ أي: فيما يناوله الحفظ، ولم يتناوله ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] يجزي بالحسنة ثوابها ونورها، وبالسيئة إثمها وظلمتها في القلب ذلك في غير زمان أو يعفو.

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جلّ قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً...﴾ [الأنعام: ٦٣] إلى قوله جلّ قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤] فأخبر جلّ ذكره أنه ينجي بعوارض وأسباب؛ بالدعاء والصدقة وصالح الأعمال، كما يأخذ ﷻ بعوارض وأسباب وهي الذنوب والمعاصي ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤] ولما كان من سننه جلّ ذكره أن ينجي بعوارض وأسباب، وربما أخذ بها فأهلك كان ذلك

لبعضهم فتنه.

قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٤] أي: بالأسباب العارضة التي بها أنجى، وأهلك كقولهم: لولا فلان، ولولا الريح، ولولا كذا، وإنما هي عوارض وأسباب، وقد قدرها الله ﷻ للإنجاء والأخذ من معصية وطاعة، أو ما شاء من ذلك لما شاء.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِعْمًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم مَّا بَعْضٌ أَنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُوْنَ ۝٧٥﴾ وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَّسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝٧٦ لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٧٧ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبْسِطَنَّ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٧٨ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرْنِي لَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُ ۝٧٩ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَذَكَرِيهِمْ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ عَدْلًا لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنعام: ٦٥ - ٧٠].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] الخسف والحدث أو ما يكون من عذاب يخرج من الأرض، وهاتان وإن كانتا مما يحذرنا باستصحاب الحال، فهما أيضًا مستعملتان لوجه آخر يتوجه الخطاب إليه.

انتظامه بقوله جلّ قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ [الأنعام: ٤٠].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦].
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

ثم بعد هو ﷻ يوجه الخطاب إلى وصف القدرة والمشية، ويعرض بالعقوبة

وشدة الأخذ، وربما وجه الخطاب إلى الأخذ والبطش بالجزاء، وعرض بوصف العزة، رجع الخطاب: قال رسول الله ﷺ: «سيكون في أمتي قذف وخسف»^(١).

وقال ﷺ: «من أشراط الساعة كذا وكذا، وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب»^(٢).

ثم قال جلّ قوله: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ وهاتان وجدتا في الأمة سنة قتل عثمان ؓ، وهو سيف الله جلّ ذكره لم يغمد إلى هلم جزأ، نسأل الله العفو الغفور معافاته ومغفرته في الدنيا والآخرة.

أتبع هذا قوله جلّ قوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥] أي: مبعث الجزاء من حيث هو، فإن الفقه هو معرفة حقيقة الأصول المنتزعة عنها الفروع.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦] يريد ﷺ: النبأ والقرآن.

﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ يريد: أجله ووقته المنتزعة عنها الفروع ومحلّه ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] إنذار منه ﷺ بما هو كائن من ذلك.

قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ...﴾^(٣) [الأنعام: ٦٨] آيات الله يكون المراد بذكرها هاهنا: الوحي والتزليل الذي هو القرآن والحكمة.

وقد يكون المراد بها آياته في مخلوقات، كقوله جلّ قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾ [البقرة: ١٦٤].

وكقوله جلّ قوله: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنَّ فِي

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٢).

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٠١)، والطيايسي (١٠٦٧)، وأحمد (١٦١٨٨)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢١٨٣) والنسائي في الكبرى (١١٤٨٢)، وابن ماجه (٤٠٥٥)، وابن حبان (٦٧٩١).

(٣) نقل الواحدي أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وَقَعُوا في رسول الله ﷺ والقرآن، فَسْتَمَوْا واستهزءوا فأمرهم ألا يقعدوا معهم حتى يَخُوضُوا في حديث غيره، والَخُوضُ في اللغة عبارة عن المُفاوِضَةِ على وجه اللَّعِبِ واللَّعِبِ.

ضُدُّوهُمْ إِلَّا كِبَرُ مَا هُمْ بِبَالِغِهِ.... ﴿[غافر: ٥٦].

إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر: ٥٩].

إلى قوله جلّ قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ....﴾ [غافر: ٦٥] حيث جاء في الوجود من الوحي والعالم، والخوض تردد كلام خارج على سنن الهوى والشهوات مشوب فيه الحق بالباطل، مرادهم بذلك تنقص الرسول ﷺ، وما أرسل به، وأخذ أعراس المؤمنين، فالجدال المذموم في آيات الرسل أن ينسبوا إلى الباطل، كما قال جلّ قوله: ﴿وَجَادِلُوا بِالبَّاطِلِ لِئَذْ حُضُّوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥] كما قالوا فيه: سحر وجنون، وكهانة وأساطير الأولين.

والجدال المذموم في الآيات التي جعلها الله في السماوات والأرض، وهو أن يحرف الآيات التي يخوف الله بها عباده، من معارف الحق الكائن بعد الموت يوم القيامة في دار القرار إلى أن يلحدوا بها إلى معارف من الحق الكائن معهودة كائنة عن كائنات متعارفات، فإن ذلك يؤثر التأنس بها، وعدم الخوف عندها يعدلون بها عن حقيقة ما أوجدت له إلى ما يبطل الانتفاع بها، فقد كان الرسول ﷺ إذا غيبت السماء اصفرّ لونه ودخل وخرج، وإذا أمطرت سري عنه، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «وما يدريني لعله كما قال قوم هود عليه السلام: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطَرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»^(١).

وكان نزول هذه الآية؛ أعني: قوله جلّ قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨] والإيمان بعد لم يظهر ظهور علو غلبه، فلما أظهر الله الإسلام، وجاء بالفتح والنصر نزل آيات القتل والقتال وتخرجكم هذه، وما هو في معناها إلى حال ذلك ووقته. انتهى.

أتبع هذا بقوله جلّ قوله: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ هم أهل الكتابين.

ثم قال جلّ قوله: ﴿وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الأنعام: ٧٠] «أن» وما بعدها بتأويل المصدر، ومعنى الإبسال: الارتهان والمنع والخذلان، والإسلام من

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٠٢٤)، والنسائي في الكبرى (١٨٣١).

أسلمت فلائاً فأنا أسلمه، فالإبسال كلمة معناها مركب، من معاني هذه الكلمات يقال: أسد باسل؛ بمعنى: منيع لا يقرب، فمن مُنع الجنة والرحمة فقد ارتهن بعمله، ومن لم ينصر فقد خُذل، ومن خُذل فقد أسلم إلى المكروه والعذاب.

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتَهِتْنَا قُلْ لَنْ هُدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَلَيْهِمُ الْقَيْسُ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زِدْ اتَّخِذْ أَصْنَامًا لِلَّهِ إِنِّي أَرَىٰ أَرْكَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِقِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧١ - ٧٦].

أتبع هذا قوله جلّ قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [الأنعام: ٧١] كالْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ وَالْكَافِرِينَ بِاللَّهِ وَالْكَافِرِينَ بِكِتَابِهِ، وَكَالَّذِي فَعَلْتُمْ أَنْتُمْ رَكِبْتُمْ أَهْوَاءَكُمْ، فَكُتِمْتُمْ مَا اسْتَحْفَظْتُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عِنْدَكُمْ، فَاسْتَعْمَلْتُمْ الشَّيَاطِينَ بِالْهَوَىٰ كَمَا فَعَلْتَ بِأَوْلَئِكَ، فَصَرْتُمْ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَيَارَىٰ فِي الْأَرْضِ، هَذَا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ خَاصَّةً.

فلا أنتم عملتم بكتابتكم المأخوذ عليكم الميثاق فيه، ولا اتبعتم ما جاءكم من الهدى والقرآن، ولا رضيتم الشرك والكفر ديناً؛ لتبيان ضلالتهم، فتحيرتم ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَانَ﴾^(١) فَضَلَّ فِي مَهَامَةِ الْأَرْضِ وَمَتَأَلَّفَهَا ﴿لَهُ

(١) اعلم أنه تعالى وصف هذا الإنسان بثلاثة أنواع من الصفات: الصفة الأولى: قوله: ﴿اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ حمزة: «استهواه» بألف ممالأة على التذكير والباقون بالتاء؛ لأن الجمع يصلح أن يذكر على معنى الجمع، ويصلح أن يؤنث على معنى الجماعة. الصفة الثانية: قوله: ﴿خَيْرَانَ﴾ قال الأصمعي: يقال: حار يحار حيرة وحيرًا، ومعنى الحيرة هي التردد في

أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ﴿٧١﴾ محمد وأصحابه - عليهم السلام - يدعونهم إلى الهدى، فيقول أحدهم لداعيه إلى الهدى: ﴿إِثْنَانَا﴾ فادخل فيما نحن فيه، وأنزل ما أنت عليه من هدايتك ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمْرًا لِّسَلَامٍ لِّرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] ولم يقل: «وأمرنا أن نسلم» وإنما ذلك - والله أعلم - لما في سياق الخطاب من معنى الهداية والدعاية، فيمكن أن يكون تقدير الكلام: إن دعاية الله أو هداية الله؛ لنسلم لرب العالمين هو الهدى.

أو يكون على تقدير محذوف عطف عليه بقوله جلّ قوله: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فعطف ﴿عَلَى مَا فِي الْخَطَابِ مِنْ مَعْنَى الْأَمْرِ، وَتَنَاوُلِ الْعَزْمِ وَالْوَجُوبِ بِهِ الْجَمْلَتَيْنِ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى قَوْلِهِ الْحَقَّ﴾ إعلامًا بشأنه، وتعريفًا بقدره ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٧٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وفي ذكر هذا كله وما تقدم ذكره مبعث وإشارة إلى النظر في الملكوت، وأنه سبيل الإسلام والإيمان والعلم الموصل المحيط، وبما حواه في الغيب والشهادة، وهو العلم الذي يشرف به عالمه على مطالع الدنيا والآخرة.

أعقب ذلك بقوله الحق جلّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤] ذكر أن آزر كان اسم أبي إبراهيم، وإنما كان اسمه: «تارخ» فربما كان ذلك له لقبًا

الأمر بحيث لا يهتدي إلى مخرجه، واعلم أن هذا المثل في غاية الحسن؛ وذلك لأن الذي يهوي من المكان العالي إلى الوهدة العميقة يهوي إليها مع الاستدارة على نفسه، وذلك يوجب كمال التردد والتحير، وأيضًا فعند نزوله لا يعرف أنه يسقط على موضع يزداد بلاؤه بسبب سقوطه عليه أو يقل، فإذا اعتبرت مجموع هذه الأحوال علمت أنك لا تجد مثالاً للمتحير المتردد الخائف أحسن ولا أكمل من هذا المثال. الصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ قالوا: نزلت هذه الآية في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ؓ فإنه كان يدعو أباه إلى الكفر وأبوه كان يدعوهُ إلى الإيمان ويأمره بأن يرجع من طريق الجهالة إلى الهداية ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان. وقيل: المراد أن لذلك الكافر الضال أصحابًا يدعونهُ إلى ذلك الضلال ويسمونهُ بأنه هو الهدى وهذا بعيد، والقول الصحيح هو الأول. [تفسير الرازي (٣٢٨/٦ - ٣٢٩)].

فالله أعلم، فإن كان ذلك كذلك فهو من المعاونة والمظاهرة لقومه على اتخاذ الأصنام آلهة من دون الله تعالى وجلّ ذكره، وعلى ذلك قرأها الأعمش: «إِزْرًا أَتُخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً» بكسر الهمزة وسكون الزاي وبالتنوين والنصب.

وقرئ أيضًا: «أَعْضُدْ يَعْتَصِدْ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

وقال: إن اسم أبي إبراهيم لم يكن آزر كان اسمه تارخ.

وقرأ أبي: «آزَرَ اتَّخَذْتُ» بالثاء بلفظ الفعل الماضي.

وقرأ غيره: «أَزْرًا أَتُخَذُ أَصْنَامًا آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ» بهمزتين مفتوحتين ساكنة الزاي على سنة الاستفهام، وكذلك قرأها الحسن وابن عياض.

وقرأ قتادة: «يَوْمَ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ» بضم الصاد وفتح الواو، وعلى الجمع؛ أي: صور الناس.

وقرئ: «مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» بالثاء ثلاث نقط، وقال: هو بالسريانية: ملكوت.

وقرأ أبو السمال: «مَلَكُوتِ» بإسكان اللام، فقوله جلّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...﴾ [الأنعام: ٧٤] منتظم بمعنى ما تقدم من ذكر الهداية والضلالة، وليعلم ببعد ما بين من علمه الله، أو هداه إليه هداية أو فطرة، وبين أشرك بالله سواء.

أعقب ذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥] عطف بالواو في قوله جلّ قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ﴾ وشبه بالكاف إشارة إلى ما تقدم ذكره من هداية، وعلم فطرة وصديقية، وعلم أسماء في قصة آدم عليه السلام، وغيره من المهتدين.

وقال: «نري» ولم يقل جلّ قوله: «أرينا» وقد تقدم علم إبراهيم عليه السلام وعلمه، أرى والله أعلم أن مخرج علم هذا من قول رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»^(١) وأن حين التقدير وترتيب الكلام كانت البراءة من الآخرين، كالجزاء سواء خلافاً للإيجاد الموجود من آدم عليه السلام، وإلى ما بعده ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ

(١) أخرجه البخاري (٨٣٦)، ومسلم (٨٥٥)، والنسائي (١٣٦٧)، وأحمد (٧٣٠٨)، والشافعي (٦٠/١)، وابن خزيمة (١٧٢٠)، والبيهقي (٥٣٥٤).

مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿[الأنعام: ٨٨].

الملوكوت هو فعل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ في جميع الموجودات من تدبير بجميع التقدير من تدبير وإمساك، وإزالة واضمحلال، وإنشاء وخلق، وتبليغ وتنفيذ، وإنباء بعضهم وجميع ما هو الأمر المسخر به السماوات والأرض من خلق وقوى، وتجديد خلقه وإخلاق إلى ما وراء ذلك لا يعلمون إلا بأمره، ولا خروج لهم عن حكمه، فهذا هو المسمى الملوكوت مأخوذ من الملك، والملك عطف بالواو، وأدخل لام كي في قوله جلّ قوله: ﴿وَلْيَكُونَنَّ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾.

تقدير الكلام والله أعلم: نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض؛ ليؤمن بالغيب، ويزداد إيماناً إلى إيمانه، فرفعه بذلك إلى محل النبوة والخلة العليا، ويكون من تبعه على ذلك، واقتدى به من الموقنين كما قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦].

واعلم أن برؤية الملوكوت يشرف على مطالع الدنيا والآخرة، فيشاهد الآخرة من الدنيا، وذلك هو اليقين، وفي ذلك اليقين معلوم الغيب برؤية الله جلّ ذكره والملائكة ولذلك وهو أعلم استاق ذكر الكوكب والقمر والشمس، كما قال رسول الله ﷺ: «كما ترون الشمس وكما ترون القمر»^(١).

واتصل ذلك بما في قوله جلّ قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ...﴾ [الأنعام: ٧٤] من وعظه إياه.

وقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾ [الأنعام: ٧٤] كما قال: ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

وكقوله: ﴿أَفَنُفِكَا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ - ٨٧] وهذا كلام عن علم يقيناً أن جميع الموجودات مفتقرة إلى موجدتها ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في جميع إيجادها ووجودها، وأنها بمنزلة السوامع المتعبد لها، لا تملك ضرباً ولا نفعا ولا تغني عنه شيئاً.

ثم استاق ذكر الكوكب وجعل البراءة منها علة للأفول، وذلك اعتماد منه على

(١) تقدم تخريجه.

الرؤية مع ما في ذلك من طريق النظر، وسنن التفكير وكيف الاعتبار، وإنه صعود في مكان منظور فيه معتبر به إلى ما هو هذا آية عليه ودليل إليه، وكانت رؤية النيرات الكوكب والقمر والشمس آيات على رؤيته لما لها من نور وتبعها من أمر ﴿الله نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ...﴾ [النور: ٣٥].

وأما تبرؤه عليه السلام من الكواكب لأجل أفولها فيما سبق إليه من وحي، أو تعريف بأن الحق المبين لا أفول له؛ إذ الأفول فقد وعدم وجود، مع ما في ذلك من تنقل وتغير وقطع مسافة، وليس كالحجاب فإنه يحجب عنه خليفته ويحتجب عنها، وبما شاء وكيف، لا إله إلا هو العلي الكبير.

وأما الإشارة إلا من اتبعه واقتدى به في ذلك يكون من الموقنين، فإن أمراً سخر له الشمس والقمر والنجوم والسموات والأرض والجبال، وأوجد الموجودات على أنواعها لأمرٍ حق وحكم عزم؛ إذ العبث لا يجوز في حكمته، وأفعال اللعب تستحيل على نعوت تعاليه وأوصاف كبريائه.

وقد وصف ما هو فاعله ووعد بما هو جاعله من تقويض هذا البناء، وتبديل الأرض والسماء، وسريان الشمس والقمر وجميع الكواكب، وتسيير الجبال، وأن شيئاً سواه عليه السلام وتعالى علاؤه وشأنه لا يملك نفعا ولا ضرا، وإنما يملكه هو لا سواه، وأن الأمر من الدنيا إلى ما هو مستقبل مؤسس على حكم الشيء من صغير إلى كبير، كما تقدم الإيجاد من مبدأ الأمر إلى هلم جراً، فعظم الأمر وجلّ الخطر، وتحقق الإيمان بالغيب كالوجود.

قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كإصبع أدخلته في اليم، فانظر بما تخرج منها»^(١).

ومفهوم قوله: إن الذي يخرج به الإصبع من اليم هو ماء، وعلى قلته فهو ماء اليم، فالدنيا إذاً منتزعة من الآخرة يسير من كثير، وصغير من كبير، كالماء الخارج

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨)، وابن ماجة (٤١٠٨)، وأحمد (١٨٠٤٣)، والحميدي (٨٥٥)، وابن أبي شيبة (٣٤٣٠٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٤٥٩)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٨٣٥)، وابن حبان (٦١٥٩)، والطبراني (٧١٣)، والقضاعي (١٣٨٧)، وهناد (٥١٧).

من البحر مع الإصبع، وأن المثل المذكور منه ﷺ للتقريب كمثل الخضر لموسى عليه السلام في قوله وقد نقر عصفور من حرف السفينة في لجة البحر نقرة أو نقرتين، وهو يومئذ في مجتمع البحور، وهو أكثر ماء على وجه الأرض: «ما علمي يا موسى وعلمك في علم الله ﷻ إلا كنقرة هذا العصفور من هذا البحر»^(١) وعلم الخضر وموسى كان من علم الله ﷻ، وكذلك موجود الدنيا هو من موجود الآخرة.

سهل على إبراهيم المأتى في العبرة من دليل إلى ما هو مدلول عليه، ومن إشارة إلى ما هو مشار إليه؛ إذ معرفها والمشار إليه بها، والمشهود له بها إنه جاعلها ومسخرها هو الحي القادر العالم المريد المدبر الحكيم، وإنهن كما هن مدبرات لا تستغني عن مدبر قادر مصرف.

كذلك قال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: جَلَّ قَوْلُهُ: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: الحق الذي إليه المصير، فاعبر - وفقك الله - مما نشاهده هنا إلى حق فيما هنالك، واحكم بالمماثلة من قليل هنا إلى كثير هناك باق، ولا يفنى، كذلك قال: ﴿يَفْضِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرِيٌّ وَمَا تَشْرِكُونَ ٧٨﴾ إِلَيَّ وَجْهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْكُمُونَ فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٨١﴾ [الأنعام: ٧٧ - ٨١].

قوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ...﴾ [الأنعام: ٨٠] محتاجتهم إياه أن أضافوا ما قد

(١) تقدم تخريجه.

جعل الله جلّ ذكره لهن من أمره في طلوعهن، وحلولهن في محالهن من أفلاكهن مع اختلاف الأوقات والشهور والأزمان، وما قد حَفَّ بذلك الأمر من ملائكته - على جميعهم السلام - لتنفيذ ذلك الأمر عنه بإذنه يقولون، وإقراره إياهم يعملون. يقولون له: ألا ترى ما تصنعه الشمس من أمر كذا وكذا والقمر؟ وربما عددوا منافع ومضار جعلها الله من أمره كما تقدم، فكان ذلك له هداية، وفي حقهم فتنة وعمى عن رؤية الفاعل المسخر المدبر - جلّ وعلا - فاكتفى ﷺ بما هو من عنده من علم الله ﷻ، وتديبره بها الكفاية كلها، فقال: ﴿أَتَحَاْجُوْنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠] يقول: وقد هداني إلى أن كل ما تذكرونه من أمر تضيفونه إليهن، فهو أمر الله وتديبره وحده لا شريك له، وحرّفوه بما زعموا أنه كائن عنهن في حال طلوعهن وغروبهن، ومقابلتهن على نسب يتظنونها أوجدوها، حقيقتها لله جلّ ذكره وهو الأول فيها، والآخر والظاهر والباطن.

كذلك قال قوم هود ﷺ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤] فقال إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] ولو تذكروا لأبصروا أن كل الأفاعيل التي يظنونها عندها هي من الله ﷻ، وقد وُقِّت لكل مفعول ظهورًا، وشرّع لمخرجه ومظهره من الملائكة المدبرات الأمر - عليهم السلام - أن يظهروا تلك الآيات بإذن الله، ومشيته عند طلوع الشمس والقمر أو أي الكواكب كان، أو غروبها، أو توسطها السماء، أو مقابلتها لسواها، وعلى نسب معلومة محدودة قد حدّها ﷻ لمدبرات الأمر من الملائكة عليهم السلام.

وكما قد أمرنا نحن بامثال فعل الصلوات في أوقات مطالع الفجر الكائن عند ظهور ضوء الشمس قبل طلوعها واستوائها، وحال جنوحها إلى الغروب وقت غروبها عند غروب الشفق الكائن، عند بقايا ضيائها بعد غروبها، وجعل ﷻ ذلك على حدود معلومة في كل صلاة أوائلها وأواسطها وأواخرها، كل ذلك بحدود جريان الشمس وظهور الظلام وزواله.

ولا يقال: إن صلاتنا هي للشمس، ولا أن عبادتنا هي للكواكب لأجل ذلك، وكذلك جعل حد الصيام طلوع الفجر، والفطر غروب الشمس، وقال ﷺ: «صوموا

لرؤيته وأفطروا لرؤيته»^(١).

وجعل وقت أداء الزكاة حلول الحول، وهو كون الشمس في موضع بدئها من أول، فافهم.

وكذلك الحج هو في شهر معلوم في أيام معدودات، ومعدودات من ذلك الشهر، فهذه شرائعه ﷺ التي شرعها لنا؛ لنصل بها إلى مرضاته، فهذه الكواكب كذلك شمسها وقمرها، وغيرهن من ذوات الأمر شرع لهن بشرائع، وجعل المقيمين لهن ملائكة - عليهم السلام - تيسيراً لهن، وتسخييراً لمنافع عباده إلى أن يأتي أمر لتقويض البناء، وتبديل الأرض غير الأرض، فيكون الأمر كله من لدنه، ذلك هو الحق المبين.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن دُورَيْتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُنْذِلِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ وَدُرِيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَأَجْنَاسِهِمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٢ - ٨٨].

فعلى هذا وصلك الله فاعمل، ولا يجرمنك شتان قوم قصرت علومهم، فقصرت به همهم عن الوصول إلى العلي الكبير، فلمعرفة هذا وما هو منه أعلى مدح الله ﷻ خليله الكريم بقوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ٨٣].

(١) أخرجه البخاري (١٨١٠)، ومسلم (١٠٨١)، والنسائي (٢١١٧)، وابن حبان (٣٤٥٧)، وأحمد (٩٥٥٢)، والطبراني (١١٧٥)، والترمذي (٦٨٤) وقال: حسن صحيح، والبيهقي (٧٧٣٣)، والحاكم (١٥٤٧)، والدارقطني (١٥٩/٢) والطيايسي (١٨١٠).

واقض أن تلك الأفاعيل التي يضيفونها إلى الكواكب إنما هي أفاعيل الملائكة - عليهم السلام - بأمر الله ﷻ لتوقيت مؤقت عندما يظنونه من مطالع ومغارب ومقارنة، يقول ﷻ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ [الأنعام: ٨١] فأَي الفريقين أحق بالأمن؛ مَنْ كان مطالبه الحي القيوم الملك الحق المبين أم مَنْ كان لا قدرة به ولا حياة ولا علم ولا تبعة له ولا حقيقة؟! فحكم الله ﷻ بحكمه الحق وقضى بالفصل، وهو أحكم الحاكمين بقوله الحق: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك كبير ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] الهداية.

ثم بعد هذا الله جلّ ذكره حكّم فصل في عباده المذنبين الظالمين أنفسهم بذنوب أصابوها، وهو موضع الشبهة من العلم في حقنا، غير أن من حكم الله ﷻ في كثير من عباده المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بشرك، ولا شك أنه يكفر عنهم سيئاتهم بأمراضهم وأوصابهم ومصائبهم، وبالشدائد تصيبيهم، والأواء صغيرة ذلك وكبيره، لا يظلم من ذلك كله مثقال ذرة.

ولما نزلت: ﴿لَيْسَ بِأَمَانَتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وقد جزع لظاهاها: «يا أبا بكر، ألسنت تمرض؟ ألسنت تسقم؟ ألسنت تصيبك اللأواء؟.....»^(١).

ثم استمر ﷺ على ذكر الأنبياء والرسل من الأولين والآخرين - صلوات الله عليهم أجمعين - وعَمَّ وخَصَّ وأحال على ما لم يسمَّ، فذكر معهم آبائهم وإخوانهم، ومن اجتباه وهداه، ومن آتاه النبوة والحكم، وهذا كله مدرك للإيمان بملكووت السماوات والأرض:

فمنهم: العموم بالإضافة إلى العلية منهم، وهم الإخوان والأتباع والآباء

(١) أخرجه أحمد (٦٨)، وأبو يعلى (١٠٠)، وابن حبان (٢٩٢٦)، والحاكم (٤٤٥٠)، والبيهقي (٦٣٢٨) وفي الشعب (٩٤٦٦)، وهناد (٤٢٩)، وابن عدي (١٩٢/٥)، وابن جرير (٢٩٤/٥)، والضياء (٦٩). اللأواء: الشدة والمشقة وضيق المعيشة.

والأبناء كعموم المؤمنين في الجملة.

ومنهم: من أتم عليهم النعمة وبلغ به درجة النبوة، فافهم، وهذا هو الطريق فالزمه، وهم الذين هداهم الله فبهداهم اقتده، وسله التوفيق والتسديد والصدق والإخلاص.

فصل

ذكر الذين تعاطوا معرفة أجرام الكواكب، وأبعاد الأفلاك تزعموا أن الشمس أكبر من الأرض بمائة وثمانية وثمانين ضعفًا، ومنهم من زاد على ذلك بثلاثمائة ضعف، وكذلك قالوا في القمر وسائر الكواكب بالزيادة على الأرض، وفاضلوا بين ذلك، فإن كان المعنى فيهم بموضع المضاعفة طريق الشمس في فللكها من مشرقها إلى مغربها، ثم بمصعدها في أعلى مسالكها في ذلك، ومنازلها إلى أدنى ذلك من المشارق والمغارب، فربما قاربوا أو ظن بهم ذلك، وإن كان هذا غير مدرك لبشر من غير توقيف نبوة، ولا إعلام بوحي من عند الله.

وإن كان المعنى بذلك قرص الشمس، فالمشاهدة تبطل ذلك، وإنما أوقعهم في هذا التهافت ما رأوه من أمر الله المجعول فيها وبها؛ وذلك أن الله جلّ ذكره جعلها شخصًا محاطًا به محصورًا له، مقدم ومؤخر، وجنبت رفعه الله ﷻ في لوح الجو، وأجراها في الفلك الرابع الذي هو بموضع الوسط من الأفلاك، فلك القمر دع عنك ما دون ذلك من فلك الرياح، وفلكي الليل والنهار، وفلك المياه، وهي جسم نير سراجي عمّ ضياؤه ما سمي نهارًا، فكان ذلك سبب شهرتها.

واضطرار الإبصار إلى رؤيتها دون تضام من أحد إلى أحد، ولا تضار حال الرؤية؛ لعلوها في الأجواء، وإشراق ما جعله الله ﷻ في ضيائها وثاقب سناها، جعلها الله ﷻ آية من آياته، وعلي موجودات في الدار الوسطى والدار الآخرة، والله المثل الأعلى في السماوات والأرض، وهو أعلى وأجل وأقدر على ما هو أكبر وأبين بيانًا وأحق حقيقة وأكرم ظهورًا، ولها من القصور أن تطلع على الأرض كلها طلعة واحدة، بل هي طالعة في حق قوم وضاحية في حق آخرين، ومستوية آية ذلك في طلوع الفجر وعند غروبها، وأن حال الغبيين لا ثابت لا يتعجل عن وقته ولا

يتأخر، تقدير من عزيز عليم.

ثم قد تنكسف فينكسف منها جزء، فيشاهده قوم ولا يشاهده آخرون، ويتم كسوفها في ضمنها كالنقطة، والمعهود المتعارف أن ظلال الأشخاص تعظم مع القرب، وتستدق على البعد، وفي مثل ما بين الأرض وبينها يوجد ذلك، وذلك كله دليل على قصورها، ونقصها عن العظم الذي وصفوها به.

أما أنها لمن آلاء الله جلّ ذكره ومن آياته، قال رسول الله ﷺ في حديث ابن المُتَنَفِّقِ وقد سأله عن الرؤية، فقال: يا رسول الله بِمَ يُبَصَّرُ يَوْمَئِذٍ؟ قال ﷺ: «بمثل بصرِكَ ساعتِكَ هذه» وذكر كلامًا فيه أنه سأله، فقال: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد يراه أهل الأرض كلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «أريك مثل ذلك في آلاء الله الشمس والقمر، هما شخص واحد ويريانكم، ولعمر إلهك لهو قادر على ذلك منهما»^(١).

وهذا نص منه على ما عجزا عنه من الظهور على جميع الأفطار زائدًا، إلى ما في ذلك من الأخبار عن نقصهما عن الكمال الذي هو الإبصار، والقائلون بما تقدم ذكره من عظم أجرام الكواكب هم القائلون حقًا: إنهما لا يطلعان على جميع الأرض.

فصل

يقال لجميع الملائكة عليهم السلام: ملك.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] يعني: جميع الملائكة - عليهم السلام - فهو إذا لتكثير اسم الجميع، وتفخيم لمفعولهم، وتعظيم وصفهم له بالإحكام وحسن التماسك وبديع الترتيب؛ لأنهم - عليهم السلام - إنما يعملون بأمر الله ﷻ وبمشيئته، فإحكامهم في مفعولهم هو موجود عن إحكامه جلّ ذكره وواقع على وفق مشيئته.

(١) أخرجه أحمد (١٦٦٣٥)، والطبراني (١٥٨٠٩)، والحاكم (٨٨٣٤).

وقد جعل الله ﷻ لكل موجود وجودًا من الملائكة - عليهم السلام - ما يطابقه يكون فعله في وجود ذلك الشيء إيجابًا له وإعدادًا وإنشاء، أو ما يكون في سبيل تنفيذ أمر الله جلّ ذكره من ذلك، فالملكوت إذا مأخوذ من جمع ملك، وينضاف إلى ذلك آية وصف لمفعولهم بالإحكام والإبداع وحسن التماسك كما تقدم.

والعرب تقول: «ملككت العجين» إذا أجادت عجنه، وبذلك يكون تماسكه، كرهبوت من رهبة، ورغبوت من رغبة ورغب، فكذلك ملكوت من ملكة وملك. وأقرب سبيل تسنن على تعرفه فيما أعلمه - والله أعلم - معرفة الأسماء والعلم بمسالك طرقها في العالم، وعلى القول بالعموم وكشف المعنى، فمعرفة الحق المخلوق به السماوات والأرض وكل شيء، وكل ذلك موجود في علم الأسماء والصفات العلا، ومن ذلك تدقيق النظر في تعرف جمع مواد المخلوقات، وتعرف دقائق مسالك النشء فيها، من جواهر وأعراض وأحكام وخلق وأمر.

وبالجملة: فما كان تميمًا للكلمات من سنته المتممة لذلك، ثم على ظهور ذلك المفعول واجتماعه، فعبر عنه بلفظة الملك، وقد يعبر بالملك عما يؤول إليه ﷻ الدنيا إلى ما هي الآخرة من سماوات وأرضين ومعاني الدار الآخرة، وهو قوله جلّ قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩].

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقد يعبر بلفظ الملك عما هو سلطان الله في مملكته، وقدرته في مقدوراته، وجبروته وكبريائه، وأمّا من حيث الموجود المخلوق فهو جمع موجودات المخلوقات من الأرض والسماوات وما فيهن، وما بينهن إلى ما علا وإلى ما سفل، ثم ما يكون عن ذلك، وما يؤول إليه من وجود الدار الآخرة، والخلق والأمر من قبل ومن بعد، وتعرف ذلك من قوله جلّ ثناؤه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...﴾ [الملك: ١] إلى قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

وتبين في ذلك ما فطر الجملة عليه من شرعه الواضح المنهج وسنته النيرة، وسنته التي لا أمت فيها، ولا عوج في الأولى وفي الآخرة وفيما بين ذلك، وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله ﷻ في موضعه.

فصل

قال الله جلّ قوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ سَمِعَتِ الْمَلَائِكَةُ لَهُ كَوْنَهُ سِلْسِلَةً عَلَىٰ صِفْوَانٍ، فَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنَحَتَهَا خُضْعًا لِلْأَمْرِ، وَيَسْبَحُونَ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ»^(١) أي: أعلمهم؛ يعني: حملة العرش من ذلك المسموع ما هو الحق، ثم يسأل الذين يلونهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ فتخبرونهم، ثم كذلك تسبح ملائكة كل سماء سماء، ويبلغ التسبيح ووضع الأجنحة منهم خضوعاً؛ لورود أمر الله والتساؤل، والإخبار منهم للسائلين مبلغ الأمر والتنفيذ، وتستدير الدوائر كل دائرة على التي هي دونها، والتي دونها تستدير على دوائر دونها، وحكم الأعلى ينظم الأسفل، فمن مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفرد يعمل، ومن جامع لما تحته مفرداً أيضاً.

هكذا إلى ما يكون منها هي في مصافها كالدقائق، ودقائق الدقائق المفصلة على التحصيل الإلهي، وكالجواهر التي تتركب عنها الأجسام كلها، والأمر في تلك الجواهر محمول حمل الجواهر الأعراض والملائكة - عليهم السلام - يسبحون بحمد ربهم عالمون بأمره، وذلك ما يخرجهم الله ﷻ من أمره من فيح جهنم - أعادنا الله الرحيم برحمته منها - إلى ما ها هنا.

وما يفتحه من رحمة بالماء عن أمره فتستديره الدوائر، فيكون الحاصل من ذلك ما يخلقه الله ﷻ من نبات وحيوان، وحرور وزمهرير، واختلاف وأهوية وعوارض، وما يكون بين ذلك من إنشاء جنات وزروع وإيجاد موجودات، فمن دافع وجاذب، وماسك ومقيم، ونازع وناشط، ومغذٍ وهاضم إلى غير ذلك من مصور ومدبر، وحافظ ومرسل، ومبلغ وكتبة، وطلبة يطلبون المحفوظ ما قدر له من أمر، وحفظة يحفظونه من أمر لا يقدر، وكلّ حكم الله وأمره وقضاؤه وقدره،

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٤)، والترمذي (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١٩٤)، والحميدي (١١٥١)، وابن حبان (٣٦)، وابن منده في الإيمان (٧٠٠). فزع عنهم: كشف عنهم الفزع.

والإنشاء مكنون، والنشء مشاهد والصنع مخفي، والمصنوع قائم بين مقتبل ومدبر وممسك.

وهذا تبيان لما هنا لك وآية عليه؛ إذ الملائكة - عليهم السلام - تنزل عليه بالأمر وتعرج سرمداً، فينزل أمر كل سماء إلى ما تحته، ويعرج ما هو التحت إلى ما علا، تستدير بحكمه الأفلاك على تدواره وصورة حركته، وأمره الذي حملة على ما هو به، وإلى أدق دوائر من ذي العرش العظيم - جلّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه - إلى حيث شاء انتهاءه والنهاية إليه ﷺ، ويعم الأمر بمشيئته ما شاء عمومه وشموله على أنواع تصرفه، وتضاعيف تفصيله، وإفراد ملكوته المجمعول له به وعمومه، وتغاير أملاكه المدبرين للأمر المراد منه، وإحاطة ملك الملك الحق ملكوت كل شيء خلقاً وأمراً.

﴿وَالَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣] حتى يشمل المراد الأمر، والتنفيذ بالتدبير شمولاً كلياً، شمول الغذاء جملة الجسم، شافعة في إتمام ما جعل إليهم، وتسبيحاً لله جلّ ذكره وعملاً بأمره وتنفيذاً لمشيئته، ولا يشفعون إلا فيما ارتضاه من ذلك، ومنهم الجامع لما فوق سواء الأعلى ينتظم الأسفل.

قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطمّ الأرض - وفي أخرى «السماء» - مكان الأرض، وحق لها أن تثط ما من موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك يسبح الله ويقدسه ويعبده»^(١). وفي أخرى: «أربعة أصابع» مكان: «شبر».

فقد تبين - وفقك الله - أن معاني الخليفة أكثر أضعافاً من ذواتها هذا في الخلق من جاذب ودافع، وماسك وناشط ومقسم، وكما تقدم بأضعاف ذلك، ثم في الأمر من مدبر وقابض وباسط، ومقدم ومؤخر، ورافع وخافض، وحافظ إلى غير ذلك من تصارييف الأمر، كما تبين أيضاً أن الملائكة - عليهم السلام - الموكلين

(١) أخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، والترمذي (٢٣١٢) وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٣٨٨٣) وقال: صحيح الإسناد، والطبراني في الكبير (١٧٥١) وفي الأوسط (٣٥٦٨)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٠٧).

أكثر أضعافاً من المعاني؛ إذ لكل معنى دافع وقابض وماسك.

ويتبين أيضاً من غير هذا بأول قضية للعقل أن الموات لا يفعل شيئاً، ولا يوصف بقدرة على فعل لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فكيف باختراع وإبداع؟! وبذلك ثبت لنا أن للعالم صانعاً صنعه هو غيره، ومدبراً دبره هو سواه، حي قادر عالم مريد، له الأسماء الحسنی والصفات الكاملة الحق العلي؛ إذ الحي منا لا يوجد نفسه ولا غيره، ولا يدبر نفسه ولا غيره، فكيف بحال الموات، وما لا يوصف بحياة ولا قدرة، لولا أن الله ﷻ أوجد له فاعلين كما أراد منهم.

آية ذلك: إيجاد الحركة الإرادية للحيوان والفعل المنسوب إلى القصد، وجعل ذلك كسباً واستطاعة للمتحرك الفاعل وأضافه إليه، وربما أثاب عليه وعذب، نشأ ذلك في الحيوان البهيمي إلى الإنسان الذي يفعله باختيار، وتدير إلى المؤمن الذي يخرج أفعاله على رضا مالكة وطاعة خالقه، وأمره إلى الملائكة - عليهم السلام - أرضية ثم هوائية إلى سمائية، إلى ما فوق ذلك إلى الحملة وهم أربعة، وسيحمله ثمانية، كذلك كل شيء دق أو جل، فافهم فهمنا الله وإياك.

قال الله ﷻ مخبراً عن بعض ما أومأنا إليه: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ - ٥].
﴿وَالْمُرْسَلَاتِ غُرْقًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ١ - ٥].

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمَقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١ - ٤].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: ٨٨] قل: الله ﷻ.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فأخبرك أيضاً صريحاً أن لكل شيء ملكوتاً، والملكوت إذاً هو تحسين الملائكة - عليهم السلام - وتديرهم، وفعلهم على ما شاء ربهم عز ذكره لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

آية ذلك فيما ها هنا حواس الإنسان وجوارحه العمل مضاف إليها من سمع وبصر وحركة وعمل، وكل ذلك عن ذات الحامل لها المدبر المريد بها ما شاء،

وفيما هنالك أحق حقيقة وأكرم وجودًا ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦] لذلك وهو أعلم أجاز في إخباره عن الخلق والإنشاء، وأكثر الأفعال إدخال نون الجميع كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] يقول الله جل ذكره للمراد: «كن» وتقول الملائكة - عليهم السلام - دونها تبليغًا عن ربهم؛ لذلك مع إفهام المراد من ذلك كذلك، وهذا يسمى خطاب البسط، فإذا قبض الخطاب، وأضاف إلى نفسه قال وقوله الحق: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥].

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] ونحو هذا وهو كثير.

قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦] معنى، فلما أظلم عليه الليل ليس حقيقة هذا اللفظ من التغطية، وإن كان يفهم منه ذلك بآخره، ولو كان ذلك كذلك لقال عز من قائل: «فلما جئته الليل» وإن كان مسموعًا في كلامهم جئته وجنَّ عليه، فإن للقرآن العزيز فضل تحقيق ليس لسواه من الكلام.

ومنه: الجنين، قيل فيه ذلك؛ لأنه في ظلمات ثلاث أظلمت عليه، وإن كان مغطى بالبطن والرحم والمشيمة، فمفهوم الأول والثاني يبين لك أنه بكونه في الظلمات يسمى: جنينًا، وبذلك تمدح تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] أخبر بذلك ﷻ عن اقتداره، وأنه بصير في الظلمات علیم بالخفيات.

كما قال جلَّ قوله: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠].

وكقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٥٩] ونحو هذا.

ويسمى الجنان: جانًا؛ لأنهم خلقوا من نار السموم، وهو اسم عام لجميع الملائكة الذين أعدوا لمجازاة أهل العذاب - صلوات الله على جميعهم - وخلق الله نسل إبليس - لعنه الله - من مارج من النار؛ أي: مختلط النار بالزهرير.

قال الله ﷻ: ﴿وَالْجَنَّاتُ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧] فهذا هو إبليس - لعنه الله - ومن خلقه الله من الملائكة المعصومين عليهم السلام.

يقول الله ﷻ: ﴿وَالْجَنَّاتُ خَلْقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﷺ، ومن هؤلاء هم فتانوا القبر وخزنة جهنم، وأصحاب عذاب ما هنالك نعوذ بالله من عذاب الله.

وقال عز من قائل: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] كذلك خلق ﷻ من خالص النور ملائكة، هم ملائكة الرحمة أعدهم لمجازاة أهل طاعته.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ فهؤلاء ولد إبليس لما أهبط كما أهبط آدم ﷺ، فانسل فيما هنا كان ذلك منه حيث تنفست جهنم بنفسيها، فخلق نسله من ذلك، كما كان نسل آدم من ذلك مختلط النار بالزمهرير، وكان نسبة النار أقرب إليهم نسباً؛ لعدم ذلك فيهم، كما كان حظ الطين والماء إلى نسل آدم أقرب لقدم ذلك فيهم.

وأما نور الله العلي فلا ضد له إنما أوجد الضد للمحدث، فطرد النور الظلام إلى منتهاه، وأوجد بينهما برزخاً في موضع التقائهما واختلاطهما، كالبرزخ بين البحرين، والغبشين من الليل والنهار، والخيف بين السهل والجبل، فذلك البرزخ بينهما هي النار أوجد جلّ وتعالى عنها حجباً فيما هنالك وأنهاراً جارية، وما شاء لم يكن ظلمة لما فيها من الضياء، ولا كان نوراً لما فيه من الظلمة.

ولذلك لما ذكر إبليس قال فيه: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] فمفهوم هذا إنه كان مهتدياً ففسق؛ أي: خرج عن هدايته، ثم بآخره يفهم من هذا إنه كان من الظلام، فرجع إلى أصله بإغوائه إياه وإزالته عصمته عنه، ووصف الظلام، وفعله الكفر والتغطية، وعبر عن خلقته بالطرف الواحد منه، وهو الظلام؛ ذلك لأنه ذكره في معرض الذم له، كما عبر عن خلقته الإنسان حين أراد ذمه أنه من التراب، وأضرب في ذلك عن ذكر الماء الذي هو موضع الحمد منه، كذلك لما أراده من ذم إبليس أضرب عن ذكر النار التي خلقه منها؛ لما في النار من

ضياء ونفع، ولما فيها من وصف علي.

قال رسول الله ﷺ ووصف ربه ﷻ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، حجاب النور - وفي أخرى: «حجاب النار» - لو كشفه» أي: لو كشف الحجاب الذي حجب به خلقه عن البروز إلى حجابه العلي الخاص به «لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

فكل نور أو نار فعين النور والنار هو، بل أبقى ذلك في وصف المعصومين منهم على جميعهم السلام، فلأن كان إبليس - لعنه الله - من قبيل الظلام كان كافراً عدواً، ففسق لذلك عن أمر ربه بمشيئة الله جلّ ذكره في إزالة عصمته عنه وظلم، وإن كان من أهل النار كان عدواً، وكان رجوعه إليها وعمله لها، ودعاه إلى ما يوجبها بإضلال الله ﷻ له، كما أنه بما في النار من شوب نور كان طائعا لربه - جلّ ثناؤه - برهة من النار، وكان من جملة الملائكة، وتوجه إليه الخطاب مع من توجه باسم الملائكة، وكان أيضا من نسله مؤمنون وكافرون وطائعون لله ﷻ.

ولما كان الملائكة - عليهم السلام - الذين هم الجان خلقهم من نار السموم، وكانت كلمة الله جلّ ذكره قد سبقت لهم بالهداية، كانوا لها خزنة وسدنة، وملائكة غضابا لله شداذا في ذاته ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

ومن إثارة ذلك قال رسول الله ﷺ، وقد سئل من أكرم الناس، قال: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(٢).

وقال في أخرى «الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا

(١) أخرجه مسلم (١٧٩)، وابن ماجه (١٩٥)، وأحمد (١٩٦٤٩)، وأبو عوانة (٣٧٩)، وابن حبان (٢٦٦)، والطبراني (١٥٨٩) وفي الأوسط (٦٠٢٥)، وأبو يعلى في مسنده (٧١٠٣)، وعبد بن حميد (٤٥٣)، والطيالسي (٤٨٧)، والبخاري (٣٠١٨). السبحات: جمع سبحة، وهي: النور والضياء والبهاء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٦٣١١)، وأحمد (١٦٩٧١)، وابن أبي شيبة (٣٢٣٨٧)، وابن أبي عاصم (١٥٢٧)، وابن عساكر (٦٠/٤١).

فقها^(١) ونحو هذا من إشارات الوحي كثير، فهذه عبرة ظاهرة قف عليها.

فصل

هذا هو الملا الأعلى

قال الله جلّ ذكره: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٧ - ٦٩] وسيأتي ذكر اختصاصهم إن شاء الله تعالى.

ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا...﴾ [ص: ٧١] ثم إن الله جلّ ذكره كان قد سبق في قضائه وعلي حكمته أنه أهبط آدم عليه السلام وإبليس إلى الأرض فأنسلا، وكان منهما المؤمنون والكافرون، فسمي نسل آدم: إنسًا، وسمي نسل إبليس: جنًا.

وأما الملائكة الذين لم يجز عليهم خطيئة الذين هم من قبيل النور وقبيل النار - على جميعهم السلام - فلم يكن من بعدهم من طريق النسل، بل كانوا مما خلق عن النور كالكلام الطيب: التسييح والتحميد والتهليل والتكبير والتمجيد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة والذكر والتسييح، ونحو هذا من العبادات.

ومنهم: المخلوقون من الماء؛ إذ هو أيضًا من قبيل النور، فما كان منهم مخلوقًا من هذا القبيل، فهم الفعلة والقومة، والمنشرون للذكر والعبادة على ما وكلوا به إلى النبات والجماد والتراب، على ما تقدم ذكره من جاذب وماسك ودافع وناشط ومقسم ومصور ومغذٍ وناشر ومنشئ، مع التسييح والتحميد ونحو هذا، فما كان من هذا فهو للصلاة الفعلة والمفعول معًا ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذه المذكورات من جاذب وممسك وغيرهم من الفعلة سمتها الأوائل: القوى، وجدوا ذلك وجدًا بالنظر، ولم يكن لهم نور نبوة يستضيئون به، فإن كان

(١) أخرجه البخاري (٣٣٠٥)، ومسلم (١٨١٨)، وأحمد (٧٣٠٤)، والترمذي (٢٠٢٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (١٠٨٠١)، والبيهقي (١٦٤٣٩)، والحميدي (١٠٤٤)، وأبو عوانة (٦٩٦٩)، وأبو يعلى (٦٠٧٠)، وابن حبان (٩٢)، والديلمي (٦٨٨٠).

أرادوا بقولهم قوى الملائكة، وكان ذلك معهودًا عندهم في لسانهم وعرفهم، يعبرون بقوى عن ملائكة فهو الصواب إن شاء الله تعالى، وإن كانوا أرادوا ظاهر ما ذهب إليه أتباعهم، فهو الخطأ الصرف، وهم يقولون أن تلك القوى موات ولا يصفونها بحياة، وقد تقدمت إشارة إلى إبطال ذلك.

وكذلك تقدم في شرحه اسمه «الحنان» جلّ ذكره تفسير قولهم: ما هو الجن والبنّ، وأن أصل ذلك في جبلة العالم من ممتزج نفسي جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها - رحمته بالماء، فكان لذلك معنى معهودًا في موجودات الجماد والنبات والحيوان، فلما أهبط الله ﷻ آدم - صلوات الله وسلامه عليه - وزوّجه إلى الأرض حنّ إليه من ذلك ما حنّ، وبان عنه ما بان، فهو الجن الممتزج بعضه في أصل الخلقة.

ومنه الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم، ومن النبات والجماد في الغذاء ومواد الخلقة، ثم يتسع النظر وينخرق انخراقًا عظيمًا، ولا تساعه يعتاص على الفهم أن يضمه إلى زمام العقل، وإن كان قضاء الإيمان ينسبط عليه، والحمد لله رب العالمين.

قوله ﷻ: فيما حكاه لنا عن إبراهيم ﷺ لما رأى الكوكب ثم القمر ثم الشمس، فقال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٦].

﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧].

﴿هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ [الأنعام: ٧٨].

في ذلك دليل على أن للناظر في طلب الحق في أثناء تردد النظر أن يجعل مفروضه ما تقرر في نفسه ونفس خصمه، وهو الأصل في صناعة الجدل، وربما سمي هذا المفروض باسم المطلوب الأعلى على سبيل التسليم للخصم، والتجوز حتى يتبين الصواب، ولا يكون ذلك جورًا ودلائل هذا كثيرة:

منها: إن الله مدح إبراهيم ﷺ بما ذكره عنه من ذلك، ولم يكن الله جلّ ذكره ليمدحه على جور وضلالة.

ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغُوا إِلَيَّ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ ثم قال: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١ - ٨٢] أي: أنا أول العابدين على التنزيه له بالتعظيم عما يصفه به الجاهلون.

فصل

جعل الله ﷻ العلة في التولي عن الكوكب والقمر والشمس الأفول، وقال ﷻ: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] ولم يراع الانتقال منها والتبدل والحلول في الأمكنة والسيار، وظهور المنظور فيه في مقابلة وتحير، وكونه ذا حجم إلى غير ذلك من صفات المحدثين وسائر المخلوقات، بل أضرب عن هذا كله وانتظر به الأفول، فلما أفل تبرأ منه وهو إمام المتذكرين وقائد المعتمرين ﷻ، ولم يخبر الله جل ثناؤه بذلك، واستاقه عنه في معرض الثناء عليه، والتعريض بالانتماء به إلا وقد رضي ذلك منه، وهذا ينظر بالقبول إلى قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

وقول رسول الله ﷺ: «تروون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر، وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحب»^(١).

تنبيه:

لا معنى لكاف التشبيه هنا في قوله ﷻ: «كما ترون» إلا العبارة عن دوام تجليه وعلي ظهوره، وحكم التجلي معلوم منه بوعده الكريم، ثم المثل الأعلى، والأفول معناه عدم وغيبة وتخل، والله يتعالى عن ذلك.

فصل

قال رسول الله ﷺ: «سترون ربكم عيانًا كما ترون القمر...»^(٢) والمعهود أن رؤيتنا الشمس والقمر على الدوام، ما خلا الأفول الذي تبرأ منه إبراهيم ﷻ من

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

اعتقاد الربوبية لهن من أجله، وقال: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وقال الله ﷻ: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ نَاصِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣] وهذا خطاب مطلق لا تقييد فيه.

وقال جل ثناؤه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال رسول الله ﷺ في حدث لقيط بن عامر عنه، وقد سأله ابن المتفق، فوصف الموقف والمحشر قال: «وتخلص الشمس والقمر وتحبس الشمس والقمر، ولا ترون منهما واحدا» قال: قلت: يا رسول الله، بَمَ نبصر يومئذ؟ قال: «بمثل بصرك ساعتك هذه، وذلك في يوم أسفرت الأرض وواجهته الجبال»^(١).

مصادقه: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

وفيه قال: «وتنظرون إليه ساعة» قال: «وينظر إليكم» يعني: في الموقف، قال: قلت: يا رسول الله، كيف وهو شخص واحد ونحن ملاء الأرض، وننظر إليه وينظر إلينا؟ قال: «أنبتك بمثل ذلك في آلاء الله ﷻ الشمس والقمر آية صغيرة، ترونهما في ساعة واحدة ويريانكم، ولا تضامون في رؤيتهما، ولعمر إلهك هو أقدر على ذلك منهما على أن يراكم وتروهما».

هذا إلى ما جاء في حديث الزيارة من طريان التجلي بعد الاحتجاب، فوصف أن من رؤية الله جل ذكره ما هو على الدوام دون غيبة، ومن الرؤية ما هو في ساعة، ووقت دون آخر.

قال رسول الله ﷺ: «جتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢).

آية ما أنبأ به رسول الله ﷺ رؤيتنا الشمس في حياتنا الدنيا هذه، ولسنا نستطيع رؤية القرص منها إنما نرى ضياءها وإشراقها، ونشاهد ما جعل الله لها من الآثار

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٠٦)، ومسلم (١٨٠)، والترمذي (٢٥٢٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرى (٧٧٦٥)، وابن ماجه (١٨٦)، وأحمد (١٩٦٩٧)، وأبو يعلى (٧٣٣١)، والرويانى (٥١٣).

المنسوبة إليها التي هي لله ﷻ حقيقة، فإن رمنا رؤية عينها التي هي القرص لم نستطع بذلك الشعاع المانع للأبصار، هو آية على رداء الكبرياء فيما هنالك.

وهذه الرؤية المذكورة الدائمة لهم فيما هنالك هي مشاهدتهم الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق المخلوق به السماوات والأرض، وقد وعد وعدًا حقًا بأن يتجلى لهم فيرونه عيانًا، ويكلمهم كفاحًا عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه.

﴿رَبُّنَا آمَنَّا...﴾ إلى قوله: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣] في يسر وعافية.

فالمفهوم من هذا وهذا أن معنى قوله: «وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» أنها رؤية أصحاب الجنة في البرزخ؛ لأنها رؤية ارتفعت عن رؤيته بالبصائر والإيمان في الدنيا، ونزلت عما عبَّر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «ترون ربكم عيانًا» وقوله: «ليس بينكم وبينه حجاب».

وذكر أيضًا أن من الرؤية ما يكون في موضع من الجنة، قد أكرمه الله منه بذلك فيه حديث الزيارة، وإنهم يسرون إلى معادهم في ذلك.

وقال أيضًا: «إن أهل الجنة إذ دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم، ثم يردون في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا، فيزورون ربهم ويبرز لهم عرشه، ويتبدى لهم عزَّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه في روضة من رياض الجنة، ويوضع لهم منابر.....».

وفي آخره: «إنهم يقولون لأهاليهم إذا رجعوا إليهم: إنا جالسنا اليوم ربنا الجبار، ويحققنا أن نقلب بمثل ما انقلبنا»^(١) يرويهِ معاذ بن جبل رضي الله عنا وعنه.

فصل

الأقول كما تقدم عدم وتخلٍ، وغير جائز ذلك عليه في صفاته العلا، وأيضًا فإن الغروب للشمس والقمر والنجوم كالموت لذوات الأرواح.

ألا ترى أن الليل الذي هو ظاهره عن غروب الشمس، هو دليل على الموت والطلوع منها تجلٍّ، والوصف لله جلَّ ذكره بالتجلي والظهور صحيح شائع وجوده

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٤٩) وقال: غريب، وابن ماجه (٤٣٣٦)، وابن حبان (٧٥٦١)، وابن عساکر (٥١/٣٤).

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩] والحجب فعله ومقدوره في مشيئته إذا شاء جلّ ذكره وتعالى علاؤه وجدّه حجبهم عنه، وإذا شاء أراهم نفسه بوعده الكريم وفضله العظيم، فلذلك جاز أن يوصف بأنه مكان فهو الغني عن كل شيء بكل معنى، وعلى كل وجه، وعلى ذلك فهو الله في السماوات وفي الأرض ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وهو الموصوف المعلوم بأنه ﴿مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

وأنه ما يكون ﴿مِنْ تَجْوَى ثَلَاثَةِ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةَ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [المجادلة: ٧] وهو الذي لا يحصره العدد، وهو أقرب إلى القلب من وريده، وإلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، وإلى اللسان من ريقه، بقرب هو وصفه لا تقرب ولا تقرب.

وأما وصفه جل وعلا بمكان أو ترتيب زمان، أو ذكر عدد، وما لنا نحو هذا، فهو نزول منه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بوصفه الذي هو وصف له من حيث هو، إلى ما شاء من مفعوله ما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل بما شاء من حكمه، لولا وصف التنزل والاستواء ما فهم عنه معنى من معانيه في خليقته، فافهم يقرب عليك البعيد.

والله يفعل ما يريد لا يعدو عليه فعله، ولا يمانعه في حكمته عبده، وبه تعرف المعارف لا بها يُعرف، وإليه تتحاكم الأبواب لا هو إليها يتحاكم، فاعقل خطاب ربك واعبده كما أمرك، وتوكل عليه هو فوق كل شيء، ومحيط بكل شيء، ليس محيطاً به شيء الرحمن اسمه، والاستواء نعته وفعله، والعرش خلقه منفصل من صفاته، لا يخلو منه مكان، وعلى ذلك فليس هو بمضطر إلى مكان؛ إذ المكان لا يجوز عليه ولا تسعه الأمكنة.

لما كان هذا خطاباً ينبي عنه ﷻ وعن مفعوله، كان لذلك الخطاب ذا جهتين، والأنباء ذا عرفين وجه الخطاب تعرف المفعول، وخرج الإنباء بمعهود الغير، وأما وصفه هو من حيث هو وصف له، فليست العبارات له بمدركة، ولا معهودات الخلقة لوصفه العلي، متناولة ليس بمفتقر إلى حامل يحمله، ولا حيلة تجمععه، ولا

حلوا يوجده الملائكة حملة العرش؛ بمعنى أنهم منفذون الأمر النازل عليهم من أعلاه، والعرش محل لاستوائه.

وعلى ذلك فهو الحامل للعرش العظيم بقدرته، وجامع للعرش وحافظ له، ولحفظه الحفظة بلطف صنعه، هو موجد ما أحب لمن أحب من التجلي بمعاني أسمائه وصفاته بخفي لطفه ولطف قدرته، وهو مُمكن للعرش وهو على العرش باختيار نفسه، فالعرش حد خلقه الأعلى هو غير محدود لعرشه، والعرش محتاج إلى مكان، والرب ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه غير محتاج إليه، كما كان بسط العرش في توسعة الحول لا يسعه غير مشيئته، ولا يظهر إلا في أنوار صفته، ولا يرى إلا بنوره إن شاء وسعه أدنى شيء، وإن لم يشأ لم يسعه كل شيء إن أراد عرفه كل شيء، وإن لم يرد لم يعرفه شيء، وإن أحب وجد عند كل شيء، وإن لم يحب لم يوجد بشيء.

الأحكام والأقدار واقعة على خلقه، والحدود والأقطار حجب بريته، والحجب والأستار، والمكان والزمان، والعلو والسفل، ومعاني الخليقة كلها متصلة بمخلوقاته، سبحانه وله الحمد جاوز المقدار والأحكام، وفات العقول والأوهام، فالأوهام لا تصوره والأفكار لا تكيفه، لا تصفه الألسن ولا تبلغ وصفه العبارات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فصل

فأما القول على ما ورد من ذكر الرؤية على الدوام الذي عبّر عنه قول رسول الله ﷺ: «ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر وكما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحب»^(١) وقد تبرأ إمام المعبرين وقائد الناظرين في ملكوت السماوات والأرض من التعبد للأقلىن، ولم يكن رسول الله ﷺ ليمثل رؤية الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه بأقول، قد تبرأ منه خليفه ومدحه على ذلك ربه، فالمعتمد عليه إنها رؤية على الدوام، لا أقول يعتقبها ولا زوال يعرفها، خلا مشيئته في الحجب

(١) تقدم تخريجه.

والاحتجاب، كمشيئته فيما هو على ذلك في هذه الدار آية، وهو الحق الذي خلق به السماوات والأرض وما بينهما.

وقد كرر ذلك بغير ما عبارة في الكتاب العزيز، وأعلنه للمتوسمين وأظهره لقلوب المتفكرين، وهو آثاره في مصنوعاته ومجاري مقتضيات أسمائه وصفاته العلا في جميع موجوداته، وما فطرها عليه من معاني الإسلام والإيمان، واستشهد بها على معالم ما في الدار الآخرة من موجود، وهو الحق المذكور دائم الوجود، غير ممتنع عن البصائر المؤيدة بنوره محجوب عن قلوب الغافلين مُحَرَّم علمه، والإيمان به على الضالين والكافرين والمكذبين.

والحكمة تعطي أنه ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه، ينشئ هذا الخلق المذكور في موجودات الدار الآخرة إن شاء الله تعالى، فكما أراه المعتبرين رؤية العلم دون أقول يلحق ذلك الحق المذكور، بل حكمه متى نظروا إليه ببصائرهم يروه كما يرون الشمس بأبصارهم وصحوا، والقمر ليلة البدر دون تضارر ولا تضام، ولا ضيم يلحقهم في ذلك، كذلك يرون الحق المبين، وربما كان ذلك من الرؤية ما هما آية عليه فيما هنالك دون أقول ولا غيبوبة.

قال الله جل من قائل: ﴿يُؤْمِنُ يَوْفِيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] وربما كان ذلك من الرؤية والتلذذ بها، والتنبيه إليه على مقدار التنبيه لرؤية ما هنا من ذلك وجزاء له، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى ملكه وجنانه مسيرة ألف سنة، وأن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله بكرة وعشية»^(١) وإنما ذلك - وهو أعلم - على قدر حضور المشاهدة ودوام حال المراقبة، ورؤية الإيمان كما أن له ثواب رؤية لأوقات الصلوات، وقد نص عليها رسول الله ﷺ: «إذا صلى أحدكم فإن الله قبل وجهه إذا صلى»^(٢).

وقال عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠) وقال: غريب، وأحمد (٥٣١٧)، وعبد بن حميد (٨١٩)، وأبو يعلى (٥٧٢٩)، والحاكم (٣٨٨٠)، وأبو يعلى (٥٥٨١).

(٢) تقدم تخريجه.

[البقرة: ١١٥].

ثم له رؤية لأوقات صلوات الجمعيات، وقد نصَّ عليها رسول الله ﷺ بذكر الزيارة، وقال ﷺ: «في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو قائم يصلي يسأل الله تعالى فيها شيئاً من أمور الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة»^(١).

وتلك آية عليها حال صلاة الجمعة، والقيام إليها جعل الله ﷻ هذه الساعة أمانة، وآية على كرامة الرؤية فيما هنالك، وإكرامه بها وهي أوقات الصلاة وحالها، فافهم.

قال جبريل صلوات الله وسلامه عليه: «وذلك مقدار انصرافكم من صلاة الجمعة» ثم الله أعلم بما وراء ذلك من موجودات الدار الآخرة فيما هذا سبيله.

الرؤية على الدوام فيما هنالك هي ثواب لرؤية الحق المخلوق به السماوات والأرض فيما هنا، وهم في ذلك على درجات، فأرفعهم قدرًا وأقربهم قسمًا من ذلك أبصرهم اليوم لما عبَّر عنه بقوله الحق: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] ثم له فضل عظيم بتجلِّي علي كريم وعد به قوله الحق وهو الحليم الكريم، فرؤيته اليوم بالإيمان والبصائر، ورؤيته في الآخرة بالعيان، ورؤيته في حال البرزخ بين ذلك رؤية، وهي أرفع من هذه وأتم، ودون وجودها في الدار الآخرة.

قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر من فتنته: «تعلمون أن أحدكم لن يرى ربه حتى يموت»^(٢).

ثم قال رسول الله ﷺ: «وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على

(١) أخرجه مالك (٢٣٩)، والبخاري (٥٢٩٤)، ومسلم (٢٠٠٦)، والترمذي (٣٣٣٩) وقال: حسن غريب، والنسائي (١٤٤٣)، وابن ماجه (١١٩١)، وأحمد (٧٩٠٣)، والبيهقي (٥٣٥٣) وفي الشعب (٢٨٤٠)، والحاكم (٩٨٢)، والطبراني (٤٠) وفي الأوسط (١٠٨٧)، وابن أبي شيبة (٥٠٢٩)، وأبو عوانة في مستخرجه (٢٠٥٢)، وعبد بن حميد (٩٠١).

(٢) أخرجه مسلم (١٦٩)، والترمذي (٢٢٣٥) وقال: حسن صحيح، وأحمد (٢٣٧٢٢).

وجهه في جنة عدن»^(١) آية هذا رؤيتنا الشمس، ومحلها من بروجها على وجهها من الضياء ما لا تستطيع روية وجهها على الكشف والحقيقة، وأما رؤية الآخرة فهو التجلي العلي والتكليم الكريم والرؤية الجليلة.

وقال رسول الله ﷺ: «جنة عدن هي سرّة الجنة وأوسطها، وفيها دار النبين والمرسلين»^(٢).

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩] والوجه عبارة عن إقبال الباطن من العبد بالإيمان والإخلاص والنية، ثم ينسبط معلوم ذلك ووصفه على ظاهره، فوجهة الجسم إلى الكعبة البيت الحرام، ووجهة القلب بالإيمان والإخلاص لله جلّ ذكره، وفطرة السماوات والأرض قد تقدم ذكرها.

﴿حَنِيفًا﴾ معناه هنا الاستقامة، تقول العرب للرجل التي عوجها إلى الرجل الأخرى: حنفاء، والحنف: الميل، ولما أن كان ميلها إلى جهة الأخرى كان ذلك ميلاً إلى استقامة الخلقة؛ لذلك سمى الله تعالى إبراهيم عليه السلام: حنيفاً؛ لأنه تحنف؛ أي: مال عن سائر الأديان إلى الدين القيم دين الإسلام، بل لأنه استقام عليه من لدن فطرته الأولى، لا لأنه مال عن سواه إليه.

وزيد هذا عليك بأن الأصل هو الإسلام المفطور عليه الخلقة، وأن الممدوح هو من استقام على منهاجه، واستن ستنه لا من مال عنه، ولا يقال لمن تمسك بالعروة الوثقى: مال إليه عن سواه، إنما يقال في مذموم ذلك: مال عن الإسلام إلى سواه، كما يقال: كفر وضل وكذب، هذه عبارات عُبر بها عمن ضلّ عن هدايته وغطى ظاهرها، وكذب فطرته وجحد خلخته، فما ذكره أهل اللغة غير صحيح التأويل، ولا مصيب المنتزع منه، وما أرى ذلك إلا من الأسماء العرفية التي تممها الشرع على ما تقدم ذكره أو ما نحا نحوه، فالحنيف إذا الذي أمال هواه وحسده

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

وكبره، وشرته كلها إلى إيمانه وإسلامه، فأتى الله بقلب سليم.

وبعبارة أخرى: فالحنيف إذاً هو من سلك في اعتباره مسالك الحق المخلوق به السماوات والأرض، فوقف بذلك على الصراط المستقيم وعرف المعبودات، ولأي معنى عُبدت، واطلع في ذلك على مَنْ حيث ضل به الضالون، وتنطع من أجله المتنطعون في اتباع أباطيلها، وأيقن بحقيقة اليقين، وصحيح العلم المقصود الحق ما هو، والمطلوب العلي الأعلى من هو، فعرف البون ما بين الهداية والضلالة والحق والباطل، فعبد المعبود الحق الذي لا إله إلا هو رب الأرباب ومبين الحق، وكان ميله تحنفاً وعبادة، وإله الإلهة بوجهة خالصة ونية صادقة دون ما سواه، فكان ذلك تحنفاً منه لمعبوده الحق الذي هو محق الحق ومبين الحق، وكان ميله تحنفاً وعبادة، استقامة بحقيقة من ذاته لمن تعبد له، وتبرؤاً صحيحاً ممن تبرأ منه.

فعلى هذا يتصور الميل أنه الإقامة على الحق، والثبوت على الاستقامة، وأنه نفس التحنف، وكان الخليل - صلوات الله وسلامه عليه - قد وقف على المعبودات، وخواصها التي جعلها الله عز جلاله لها، وعلم ما خلق جلّ ذكره له، وجعله لها ليلوهم أيهم أحسن عملاً، وأن تلك سنة الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه في بريته؛ لتمام كلماته، فعلمه ذلك ولزومه سواء السبيل في سلوكه، وحقيقة الوجهة في تحقيقه سمي: حنيفاً.

والفطرة أيضاً هي الإطلاع والبدء، يقال من ذلك: «فطر ناب البعير» إذا نبت، والتفاطر: بثور تطلع في وجه الغلام أول اقتباله، وأفطر الصائم وفطر أيضاً، ويأول اللبن الحليب بأنه الفطرة.

قال الله ﷻ: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الروم: ٨] فهو الذي فطرها بالإسلام؛ أي: سبقه إليها، وأفطرها به من صومها، وأبدأها به أيضاً، فابتناهن على مباني الإسلام، وسبق إليهن خشيته ومخافته ومعرفته، وأجرى ذلك منهن مجرى الأرواح في الأجسام، فعلى الإسلام انبت ولمعرفتها به سبحته وإياه حمدت، وله كبرت وهلت وإجلاله وإعظامه قتت.

وفي بعض الآثار: «إن الله ﷻ لما فرغ من خلقه وما خلقه إلا بالحق لحظه لحظة فرجف من قواعده، ثم لحظه لحظة أخرى فكاد أن يزول من مكانه، ثم لحظه

لحظة ثالثة فكاد أن يهمد من خوفه»^(١) وإنما فعل ذلك جلّ وتعالى ليُعرفه نفسه ويلهمه ربوبيته، فعرف الخلق ربوبيته يومئذ معرفة لا ينبغي له أن ينكرها أبداً، وذُلّ الخلق له يومئذ ذلاً لا ينبغي له أن يعتز بعده أبداً، ودخله من الخوف يومئذ خوف لا يخرج منه بعدها أبداً، وأقر له بالمملكة يومئذ إقراراً لا ينبغي له أن يستنكف منه بعدها أبداً، ثم صارت تلك المعرفة وراثية فيما يكون من النسل بعد ذلك إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] الظلم هنا هو الشرك على ذلك جاء مساق الآية، ولذلك أرجع الخطاب على أوله الذي معناه الهداية إلى الإسلام، واعتقاد الوحداية لله جلّ ذكره للذين على حقيقتهم فطر الله السماوات والأرض وما بينهما، هدى إلى ذلك ملائكته وأنبياءه ورسله وأوليائه، وذكر إبراهيم - على جميعهم السلام - وأنه قد هداه إلى رؤية ملكوت السماوات والأرض، هدى إلى ذلك ثم قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ فالمعنى إذا بذكر الظلم هو ما كان عليه من حاج إبراهيم في ربه.

الضمير في قوله: ﴿فِي ذُرِّيَّتِهِ﴾ [العنكبوت: ٢٧] راجع إلى إبراهيم عليه السلام، وقيل: نوح عليه السلام، وكلا القولين صواب، ولكل خطاب وجهه إلى المقصود به، وأخبر جلّ ذكره عمن اصطفاه وهداه واجتبه من أنبيائه ورسله وأوليائه - صلوات الله وسلامه على جميعهم - أنهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] حاشا لهم من ذلك هذا على جلاله أخطارهم ورفعة أعمالهم.

فوزان هذا إن شاء الله أنه من آمن بالله والرسول، ثم وافى على ذلك مع تسديد في شأنه أن ذنوبه مغفورة إن شاء الله وعد من الله صادق وله الأمن، وعد حق وقول صدق كما حبطت أعمال أولئك بالشرك ولو كانوا أنبياء، كذلك تغتفر ذنوب هذا حتماً، ثم يكون من الآمنين إن شاء الله.

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٢٠).

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] ولو شاء لقال: «بشرك» مكان قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ لكنه هكذا أنزله، والله أعلم بما ينزل.

وقال في مواضع غير هذا، ونهى أن يسخر بعضهم ببعض، وعن أن يتنازروا بالألقاب، ثم أعقب ذلك بقوله الحق: ﴿يَسْأَلُ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وقال في آدم ﷺ وزوجه حواء بعد مواقعهما الخطيئة: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا...﴾ [الأعراف: ٢٣] إلى غير هذا من تسميتهم ما سوى الشرك بالله من الذنوب ظلماً.

وفي قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] الكفاية في إثبات الظلم منه كبير هو الشرك بالله، ومنه صغير هو غير الشرك، ثم يكون صغيره أيضاً وكبره على قدر الذنوب، وقد جاء بعد ذلك - والله أعلم - ما يجب الإيمان به من ذكر الموازنة يوم القيامة، وأن قوماً يخرجون من النار بعدما يجعلون فيها للذنوب أصابوها، فكان ظاهر ذكر الظلم في هذه الآية يعطي الأمن كله، ولئن كان من الظلم ما هو الشرك، كان ما قاله رسول الله ﷺ لما أحرقتهم النذارة ردهم بذلك إلى البشارة بقوله ﷺ: «ليس الأمر كما ظننتم إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»^(١).

فصل

لما كان الإيمان في القلب الإسلام في الظاهر ترتب الظلم فيما طريقه الإيمان،

(١) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٣٤٦)، وأحمد (٤١١٢)، والبيهقي في سننه (٢١٢٦٠)، والحاكم (٥٣٣٥)، وابن أبي شيبة في مسنده (٢١٦).

وفيما طريقه الإسلام على ذلك، فكان الظلم في الأصل، وهو الشرك والكفر والجحد والتكذيب، وأقله الارتباب وتزلزل العقد لعدم اليقين، وقلة العلم بالله تعالى، ووجود الإعراض عن النظر في آياته، والظلم في الفرع هو الفسق ومواقعة الذنوب والإصرار عليها، ولهذا يكون موجوداً الجزاء يوم القيامة؛ إذ يقول الله جلّ قوله: «أخرجوا من النار من قال: لا إله إلا الله، فهذا الإسلام، وفي قلبه مثقال دينار من إيمان...» إلى قوله: «أدنى أدنى من مثقال ذرة من خير أو من إيمان»^(١) فالصنف الأول لإسلامهم يعرفهم المؤمنون بدارات وجوههم وسلامته من النار؛ لبركة السجود، وبجوارح أيضاً عملت خيراً سلمت من النار.

كما قال: «فمنهم من تأخذه النار إلى قدميه ومنهم من تأخذه إلى نصف ساقيه وإلى حقويه...»^(٢) هذا في الشفاعة الأولى، ثم الثانية على القرب من ذلك، ثم الثالثة تعرفهم الملائكة بما أبقي الله ﷻ من القلوب بحرمة الإيمان، كما أبقي من الوجوه بحرمة السجود لما كان منهم هداية ما جازاهم هنالك بأمن ما؛ لقوله الحق: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] وتصديقاً لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

ووقعت الشفاعة الرابعة التي هي الله جلّ ذكره وتعالى علاؤه وشأنه على محض الفضل، فإنهم يخرجون من النار قد امتحشوا، وأتت عليهم نار جهنم - أعاذنا الله الرحيم برحمته منها ومن خزيه وعذابه - ولو كان قولهم: «لا إله إلا الله» عن عقد من القلب، ولو على ضعف من العقد لم تسلك النار على احتياج الألسنة منهم والقلوب، لكنهم كانوا في الدنيا فاقدين للهداية، فلذلك أتت النار على جملتهم، وكانوا قد أصاب الله جلّ ذكره بهم كلمة الحق قولاً، فتلافاهم برحمته وفضله العظيم.

وأما المهتدون الهداية كلها ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

(١) أخرجه بنحوه الترمذي (٢٧٩٧)، وأحمد (١٤٢٨٩)، والحاكم (٢١٦)، وأبو عوانة في مستخرجه (٣٣٩)، وأبو يعلى (٣١٨٥)، وعبد بن حميد (١١٧٥).

(٢) تقدم تخريجه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (٨٩) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمُهَدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩٠) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (٩١) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (٩٢) [الأنعام: ٨٩ - ٩٢].

قوله جلّ ذكره: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ...﴾ [الأنعام: ٩١] ما قدروه حق قدره؛ أي: ما عرفوه حق معرفته ولا عظموه كالذي ينبغي له، أما علموا أن من أسمائه جلّ ذكره الباعث والمرسل والمنذر والمبتلي والممتحن والمنزل، وأن من شهادة الحق المخلوق به السماوات والأرض البعث للجزاء أو عقاب، وذلك لا يكون إلا بالرسول والكتب والحكمة التي بعثهم بها، وكذلك بعد البعث الصراط والميزان والحوض والشفاعة، وغير ذلك من معاني النبوة والرسالة، كما قال في غير هذا الموضع بعد قوله: ﴿قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

ثم قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِّمِمينِهِ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر: ٦٧] يخبر عن عظيم قدرته وجليل ملكه، ودلائل التوحيد سوى ما اختصت به الوجدانية من الدلائل في الوحي والوجود، وفيه: ﴿قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١] فاستاق هذا كله في معرض الإخبار عن إنزاله، وعن النبوة المبثوثة في العالم.

ثم وصل بذلك قوله: ﴿أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ فهذا من معلوم الكتاب والنبوة، كما قال جلّ قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾ [آل عمران: ١٦٤] وهذا

معلوم المؤمنين، ثم فوق هذا ما علمه إخوان الأنبياء - عليهم السلام - الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَنِبْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] وهذا ما خصهم به من سائر المؤمنين من إلهام وفطنة وشعر ومحاذنة، ونفث في روع، وما عبّر عنه قوله جلّ قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به....»^(١).

أعقب ذلك قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ تَمَّ ذَرَهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] أظهر فردانيته، وتعليم هؤلاء كما هو الذي تولاهم فردًا دون كسب منهم لذلك ولا تعمل.

ثم قال جلّ قوله: ﴿تَمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] سمى جلّ ذكره ما هم فيه: خوضًا، لما كان هو المعلم والخالق الأول لما يقولون من شبه أباطيلهم هو الله جلّ ذكره، ثم كان المزين لهم الشيطان - لعنه الله - فوجهوا قولهم ذلك إثباتًا لكفرانهم وضلالتهم فكان خوضًا لذلك، والخوض الأخذ بالكلام حقًا وباطلاً، والذهاب في ذلك كل مذهب.

وفيه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني: القرآن ﴿مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: من كتاب ورسول ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي: بالقرآن؛ يعني: الإيمان الأرفع ﴿وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢] وهذا إشارة إلى إخوان محمد ﷺ.

كما قال: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤ - ٣٥] أخبر جلّ ذكره أن الإيمان يزداد بالصلاة وبصالح الأعمال، فهو - أعني: الإيمان - يتردد به ومنه وإليه حتى يتكامل العبد على ذلك، ويكون من الموقنين.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١] بدل آيات الله وغيرها وكتمها، أو قال: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْخَيْبِ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْخَبْءَ مِنَ الْبَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: ٩٣ - ٩٧].

﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ هذا هو المتنبئ دجال كذاب ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] كبعض من فسق عن أمر ربه، فدعا إلى نفسه كفرعون ومن أشبهه ممن قاله.

ثم جمعهم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ الكافر المحتضر، وربما الفاسق الملعن ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: بالضرب والهون، يخبر جل ذكره عن عنفهم: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٣] عبارة عن شدة ما يجده المحتضر منهم دون تأنيس من ولي تنفعهم ولايته، ولا حمل عنهم شيئاً من أوجاعهم، فإن الكافر ربما حضر اليسر عليه حال موته، فباطنه على أشد حال يكلف هو إخراج نفسه الخبيثة بإزعاج من الملائكة، وضرب وتشديد عليه في ذلك، نعوذ بالله من ذلك.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٩٣] من وصفهم إياه إنه لا يعبدهم بعد موتهم، وغير ذلك من ضلالهم من قولهم: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ﴿سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ وافترائهم على الله الكذب ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] يعني: عن آياته الدالة على النبوة بخصوص هنا، ثم بعموم عن آياته الدالة على الوحداية، وعلى الحق المخلوق به السماوات

والأرض يُعذب كلُّ بوصف كفره وعمله، وبعد هذا جعل الله جلَّ ذكره يسرد آياته الدالات على ما هو عليه من الوحدانية والقدرة والعلم والإرادة، وعلى ما هو عليه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، وعلى النبوة والرسالة، وعلى موجودات الجنة، يعلم بهذا كله موجودات ما أوجده هاهنا، فلتعلم ذلك من آيات يتلوها عليك ربك ﷻ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (٩٨) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْوَعُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٩) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (١٠٠) ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٠١) [الأنعام: ٩٨ - ١٠١].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] نصب «الجن» على البدل من «شركاء».

يقول الله جل وتعالى: وعلى ما نصبنا لهم من الدلائل، واستشهدنا به من الشواهد، وبيّنا لهم من البينات جعلوا لله شركاء الجن وهو خلقهم، فكيف يكون المخلوق شريكاً لخالقه؟ ثم كيف يستقيم هذا بكون الدال مدلولاً عليه، أو بكون المخلوق ولداً لخالقه.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٠] أي: اختلقوا، واقتطعوا له ذلك بغير علم، وقد قرئت بالتخفيف: «خرقوا» وكذلك أيضاً قرئت: «وخرقوا» بالحاء من التحريف، وقرئت أيضاً بالتخفيف^(١).

(١) قرأ نافع: «وخرقوا» بالتشديد، للمبالغة والتكثير؛ لأن المشركين ادّعوا الملائكة بنات الله، والنصارى المسيح، واليهود عزيزاً. وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، وأبو الجوزاء: «وخرقوا» بحاء غير معجمة ويتشديد الراء وبالفاء. وقرأ ابن السميع، والجحدري: «خارقوا» بألف

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ أَلَيْعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢ - ١٠٩].

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقد مضى في شرح الأسماء من الكلام في الرؤية ما يغني عن تكراره هنا. وبالجملة: فإنه تبارك وتعالى إنما يرى بنوره وبلطفه منه، والأبصار بما هي لا تدركه إنما يوصل هذا إليها من نور جمال جلاله لطفًا يوصلها من الرؤية له، والنظر إليه القدر الذي شاء هو ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، والراؤون على درجات في الرؤية كما كانوا في العلم به والإيمان والعمل لذلك درجات.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَزِمُوا بِهٖ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا لِلْيَوْمِ نَاقِلِينَ ﴿١١١﴾﴾ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ﴿وَلَيَصْحَقَنَّ إِلَيْهِ أَفْعَادُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْنَهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ

مُفْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ يُكَلِّبُ يَلْعَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَلَئِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ [الأنعام: ١١٠-١١٦].

قوله ﴿١١٣﴾: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥] انتظم هذا بما مضى من لدن قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا...﴾ إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩].

إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

إلى قوله: ﴿وَلِتَضَعِيَ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٣].

ثم عطف بعد قوله: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

قوله الحق: وتمت كلمات ربك صدقًا وعدل سنة، بما فيها من قضاء وقدر وخلق وأمر، لا مبدل لكلماته، ومن كلماته الخاصة بما هاهنا قوله: «هؤلاء للجنة ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء للنار ويعمل أهل النار يعملون»^(١) بما يقتضيه من عوارض وأسباب، وما يقرنه بالعبد من مقارنين صالحين، أو غير ذلك من جن وإنس، إنما ذلك لتتم كلماته بسنته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِنَّمَا ذَكَرَ

أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظُلْهَرِ الْأَنْعَامِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْأَنْعَامَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجْعِدُوا لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمْهُمْ لَأَنْتُمْ لَمَشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴿[الأنعام: ١١٧ - ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] من نظر في آيات الله جلّ ذكره في الوجودين: الوحي والعالم، ووقف بعلمه على أن أحدا لا يجوز له منال شيء من الأشياء دقّ أو جلّ، كان ذلك في هواء أو اعتمادا على أرض أو تمتعا بحيوان، أو غير ذلك إلا بإذن مالكة وذكر اسم الله عليه.

قال رسول الله ﷺ: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس منه»^(١). وجميع الخليقة كلها قاطبة ملك لله جلّ ذكره وله المثل الأعلى، وهو لم يحل لأحد أن ينال منه منالاً إلا بعد ذكر اسم الله عليه، وأقل ما في ذلك على متناوله أن يعرف أنه ملك لله، وهو المنعم به وحده لا شريك له، وأنه مطالب بالشكر له، وإلا فهو حرام على من تعمد ترك التسمية، ومن اعتقد أنه ليس بملك لله، فهو كافر ومشرك.

ثم سرد على ذلك قوله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩].

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ [الأنعام: ١١٩] كقوله: ﴿وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ

هُمْ إِلَّا يَخْزُصُونَ ﴿[الأنعام: ١١٦].

ولما كان رسول الله ﷺ مرسلًا إلى الناس كافة كان خطاب القرآن متوجهًا إلى جميعهم على افتراق مذاهبهم وتشتت آرائهم ونحلهم، فتارة يخص وأخرى يعم. ألا تسمع إلى قوله الصدق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى...﴾ [الحج: ١٧].

وقوله: ﴿هَٰذَانِ خَضِمَانٍ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ [الحج: ١٩] فعرض في هذه السورة بضلال الثنوية في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. وقد تقدم ذكر هذا إلى قوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥] عبّر بهذا الخطاب الجميع من المكذبين، ثم إلى قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

ولما أنكروا الخصوصية أنكروا النبوة جملة حتى آل ذلك بجهلهم في إنكار الخصوصية ألا ينتفعوا من جميع الحيوان بلحم ولا جلد ولا شعر ولا وبر، ولا تسخير بصنف من الأصناف، ولا يقتلوا منها مؤذيًا.

ومنهم: من رخص في ذلك حال الضرورة، وعلى مقدار اختلافهم في ذلك، ومن أولئك سرى إنكار الخصوصية، وتكذيب النبوة إلى مشركي العرب حتى قال بعضهم: ﴿مَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]. ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] ومثل هذا كثير.

ومنهم: من أقر بنبوة إبراهيم عليه السلام وآدم.

ومنهم: من أنكرها الإنكار كله، وقالوا: إن الله موصوف بالقدرة على أن ينزل إلى العباد ملائكة يرشدوهم إلى مراده منهم.

ومنهم أيضًا: من لا يقر بالملائكة عليهم السلام، وقال هؤلاء: إن الله قادر على أن يجعل في قلوب عباده المرسل إليهم مراده منهم، وجعل في نفوسهم قبول قول من زعم أنه مرسل إليهم.

قالوا: وقد أقام العقول على التمييز والمعرفة بوجوب شكر المنعم وأداء حق الفاضل، ونحو هذا من أنواع أباطيلهم.

قال الله عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [الأنعام: ٨] أي: لأهلكنا من أبدينا إليه صفحة الملك، ولم ننظره ساعة ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: النبي ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

ثم كذلك إلى قوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ١٣] هذا خطاب راجع معناه إلى قوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١٠] أي: إن له النور وما فيه، والظلمات وما فيها، خالقهما واحد.

إلى قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧] ردًا على الثنوية المانوية في قولهم: إن فاعل الخير غير فاعل الشر.

كذلك إلى قوله جلّ قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. إلى قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام: ٣٨] تنبيهًا على إثبات الخصوصية، وردًا على منكري النبوة.

يقول جلّ من قائل: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ يوم مفضولها فاضلها، وعامها خاصها حتى ينتهي ذلك إلى أفضلها، وفيه أيضًا إثبات الوحداية، وفيه أيضًا إثبات البعث بعد الإمامة بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] يستخلفهم فيها قرنًا بعد قرن وأمة بعد أمة، ثم يميتهم ثم يحييهم، ثم يحشرهم إليه في هذا، أعني قوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ إعلام بأن كل شيء يعيده يوم القيامة، ويحضره بعثًا وحشرًا، ثم يجعل الخبيث كما قال في سورة الأنفال: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧].

ومفهوم هذا أنه يجعل الطيب كله في الجنة، وفي هذا رد منه على الثنوية والمجوس، والمتفلسفة من أهل التوحيد منهم، ومن غيرهم من كفار الأمم في قولهم: إن الله جلّ ذكره لا يعيد الأجسام، وأنه إنما يجازي الأرواح والنفوس بعد موتها.

قالوا: فمن كان صالحًا وحافظ على العهد من شكر المنعمين، وأداء حقوق

الفاضلين إلى غير ذلك من حدود حدودها ومناهج شرعوها ألحقه بقرار الفوز، وذلك عندهم بأن يرفعهم إلى عالم فوق عالمه من الموجودات.

قالوا: وإن قصر عن ذلك نقله عن معاده إلى منزلة دون منزلته هاهنا، ويعنون بالمعاد ما يكون من بقاء الأنفس بعد الموت.

قالوا: ويهول بعد موته في ظلمات ثم يسفل به، فيجعل في موجودات خسيصة تشابه وجود باطنه في هذه الحياة، لم يدركوا بعقولهم القاصرة تقويض هذا البناء، ولا تبديل الأرضين والسموات، وظهور الدار الآخرة عياناً، وطموس هذه الدار الفانية وذهاب دولتها، كما حجبت عقولهم عن حقيقة البعث الآخر والجزاء الآجل، وتبوء الفريقين كلتا الدارين الجنة أو النار وما فيهما، بل لم يدركوا الحق في دار البرزخ من عذاب في القبر أو نعيم، وحال كونه ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] إلى آخر السورة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ضُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] المراد الأول بذلك: الثنوية والمجوس، ثم سائر أتباعهم من الكفار والمكذبين، ثم الغافلين، نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة فيما بينهما.

ثم كذلك إلى قوله الحق: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ...﴾ [الأنعام: ٤٨] هذا رد عليهم من إنكارهم النبوة والرسالة، وما جاء في ذلك من عند الله تبارك وتعالى، وإثبات لما أنكروه من ذلك، وكذبوا به إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّمُوسَىٰ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥].

إلى قوله جلّ قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]. إلى قوله الحق: ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩] رد على بعض المنتسبين منهم إلى التوحيد في قولهم: إن كل ما تغير أو حدث أو ظمئ، أو روي أو ثبت، أو اضمحل أو سقط، أو زاد أو نقص فليس ذلك بلازم أن يكون عن علمه به، ولا إذنه فيه.

قالوا: وإن أكثر ما ينسب إليه مما يُرَدُّ أو يُسَخَّن، أو يُبَيِّس أو يغذو، أو يُحَبِّس أو يُطْلَق إلى غير ذلك من العوارض وغير العوارض.

قالوا: فهي مباني انبنت عليه بما شرعته النفس في هذا العالم؛ لتستن

الموجودات في سفلها إلى إتمام ما يسرته النفس له، وهذه المسماة عندهم بالنفس واحدة من جهتين سموهن بالالهيات، فاعجب لتأفيكهم عن الحق بصدوفهم عنه بعد وصولهم إليه، فكان مثلهم في ذلك مثل من طلب مطلوبًا ما، فلما وجده شغل عنه بغيره وشبه عليه به، فتعلق بسواه وترك الحق جانبًا.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢ - ٢٣].

قال الله جلّ قوله يبين لهم: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠] إلى قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٦ - ٤٧].

وربما عارض معارض بقول رسول الله ﷺ مجيبًا لسائله يوم قال له: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «تردون موردًا واحدًا وتصدرون مصادر شتى»^(١).

وفي أخرى: «تهلكون معهم وتحشرون على نياتهم»^(٢).

فاعلم أن هؤلاء ظلموا أيضًا بكونهم بين أظهرهم، فلم ينكروا عليهم، وإذا لم يستطيعوا ذلك كانوا يخرجون من بين أظهرهم، وقد قال لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، وكان من العدل أن أصابهم العذاب لمكثهم بينهم، ثم يكونون على نياتهم وإسلامهم.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠] لما ذكر الحق المخلوق به السماوات والأرض والناظرين فيه، وذكر المهتدين الهادين من الأنبياء والرسل والإخوان والأولياء - عليهم السلام - قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ يعني: العرب وكفار الأمم من غيرهم

(١) أخرجه مسلم (٢٨٨٤)، وأحمد (٢٤٧٨٢).

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩] يعني: من تقدم ذكرهم. ثم أقام المنار ونهج السبيل، فقال جلّ قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبْهَتَاهُمْ أَفْتَدِّهِ﴾ [الأنعام: ٩٠].

ثم قال جلّ من قائل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] تلك ضلالة ورثوها عن إمامهم اللعين، وسفيهم الرجيم من إنكاره خصوصية الله جل ثناؤه لآدم صلوات الله وملائكته عليه، وإبائته عن السجود والاتباع له، والاهتمام به والإقرار بفضله، ثم جعلها كلمة باقية في بقية بعض ذريته وتابعيه فهم على أثره يهرعون.

ثم ذكر أحوالهم عند المعاناة، وأحال بها على معرفة عاقبتهم من لدن حال المعاناة إلى خروج أنفسهم من أجسامهم، ثم كونهم طول مدة البرزخ بقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ثم أحال ما لهم في دار القرار بالمعلوم من قوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦] ونحوه كثير نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة.

وما بين ذلك أعقب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزَلَ اللَّهُ﴾ ثم بقوله جلّ قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ﴾ [الأنعام: ٩٣] ثم كذلك يسرد الآيات على الوحداية، ويبين الدلالات على النبوة الجارية في مسالك الموجودات، ويصف نفسه بما هو أهله، ويذكر أضاليل المشركين، وتعسف المبطلين فيما أحدثوه مما يسري إليهم من ضلال الأمم قبلهم، وماخذ الشياطين بهم كل مأخذ.

قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] فمن محاجتهم إياهم أنهم كانوا يقولون: تأكلون ذبائحكم ولا تأكلون ما ذبح الله، وكذبوا - لعنهم الله - ذبائح الله هو ما أمر به ورضيه، واسم الله جلّ ذكره هو الطاهر المطهر به طابت الموجودات وتطهرت من أرجاسها، فكل ما خرجت نفسه من حيوان أذن الله في ذكاته، وأكله يذكر اسم الله

عليه كان فيما يميزه الله عن الخبث ويجعله في الجنة.

وما خرجت نفسه على ما أهل به لغير الله كانت له حقيقة في النار يعذب بها من جنى ذلك عليه، وحقيقة في الطيبات.

وما خرجت من نفس ماتت حتف أنفها لم تكن من الفواسق، فريق الله أسبق وحزبه أغلب.

وكذلك نفس كل مكلف خرجت بشهادة أن لا إله إلا الله، فهي في الجنة ما لم يعقها عائق من ظلمها نفسها، وعاقبتها إلى الجنة إن شاء الله تعالى.

﴿تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ...﴾ [النحل: ٣٢] وتقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣] وإن خرجت بغير اسم الله على عمد منها كانت في النار، وإنما يظهر ذلك في وفاة الشهداء؛ لكبر منزلتها الذين هم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

والمؤمنون نائلون من هذه الحياة حظوظهم، والحيوان أيضًا في درجاتهم، وبذكر اسم الله يحيى المؤمنون في الحياة الدنيا.

قال الله ﷻ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ يعني: بالكفر والجهل ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ أي: يقول لا إله إلا الله ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا﴾ أي: بالعمل وبالعمل الصالحات ﴿يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] كمن مثله في الظلمات؛ أي: بالكفر ليس بخارج منها، فظاهر هذا أن العبد يكون هنا ميتًا بالكفر والجهل كما تقدم، فيحييه الله بالإيمان والعلم، ويجعل له نورًا في قلبه وفي بصره وحواسه، يمشي بنوره في الناس يعلم ويبصر ويدوق ويشم ويحس.

يقول: هذا كمن مثله في الظلمات الكفر والجهل والعصيان، ليس يتوب الله عليه من ذلك فيخرجه من ظلماته، وفيه أيضًا بما فيه من مجاورة ذكر الذبائح ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ الموت المكتوب على كل نفس بغير زكاة مطهرة ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بذكر اسم الله، وذكره عليه كما حيا المؤمن والشهيد عند الله بذلك، كمن مثله في الظلمات؛ أي: المثال الذي تقدم ذكره في صدر الكتاب، وهو باطن هذا الظاهر الذي يسمى الآل والمثال والعبد، ونحو هذا.

ثم قال جلّ قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] أي:

من أكلهم ما لم يذكر اسم الله عليه، فإن منهم من يذكر على قتل ما يأكله من الحيوان اسم الطواغيت، ومنهم من لا يذكر اسم الله إهمالاً منهم لذلك، فيكون مثال ذلك المقتول حال البرزخ في الظلمات، ولها حقائق في الدار الآخرة تسليط على من فعل بها ذلك، كذلك أيضاً لها حقائق في دار الكرامة تنعيماً للمؤمنين.

ألا ترى أن الملي الذي منع زكاة ماله من بقر أو غنم أو ذهب أو فضة يسلط ذلك كله عليه في عرصة المحشر طول ذلك اليوم، كما قال رسول الله ﷺ: «في يوم كان مقداره ألف سنة»^(١) حتى يرى مصيره إما إلى الجنة وإما إلى النار، ثم بعد ذلك ﴿يُمِيزُ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَغْضَهُ عَلَى بَغْضِ فِرْزَكُمُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧] ويجعل الطيب كله في الجنة.

فمثالات الطيبات التي أحالها الكفار بعصيانهم وسوء أعمالهم في جهنم، تراوحهم بالعذاب وضروب النكال، وحقائقها في الجنة بنعيمها، وملكاً لأهل الإيمان إن شاء الله تعالى، هو يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وهذا كله عن نور أسماء الله وموجود أنوارها، ولزوم البركة عنها بالتوحيد العلي فافهم.

تنبيه:

أنبياء الله ورسله وأوليائوه، والمؤمنون يستخرجون بذكر الله ﷻ أنفسهم وذبائحهم ومآكلهم وملابسهم، ومراكبهم وأموالهم، وذرايعهم وأزواجهم من يد المبلس الملعون لما اقتطعه لنفسه، وظن أنه من الخليقة في قوله: ﴿لَا تُخِذْ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضُلَّتْهُمْ وَلَا مُنِيتُهُمْ وَلَا مَرْتُهُمْ فَلْيَبْتَكَنْ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتُهُمْ فَلْيَغْزِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨ - ١١٩] أي: بوسمها لآلهتهم، وعزلها أن تكون مما لم يذكر اسم الله عليه، فيسلبه المؤمنون ذلك بذكر اسم الله عليه من جميع وجوهه، فتكون لهم في الدنيا وهي لهم في الآخرة خالصة.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ثم قال جلّ قوله: ﴿كَذَلِكَ

(١) تقدم تخريجه.

نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ [الأعراف: ٣٢].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِينَ لِيَتَذَكَّرُوا فِيهَا وَمَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَّا بَأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٢٣) وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعِدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) لَمْ تَأْرَ السَّلَامَ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٧) ﴿[الأنعام: ١٢٣ - ١٢٧].

قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَعِدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] إذا انشرح الصدر للإسلام دخله النور، وهو نور العبودية، فإذا دخل النور في القلب انشرح الإيمان بالغيوب واتسع لها، فكان من ذلك النور ضياء، فيصبر به البصيرة كما يبصر البصر الظاهر بضياء الشمس في الدنيا، وإذا خلا القلب من ذلك النور خرج، فضاق متسعته عن الإيمان والإسلام، فلم يبصر ما غاب عنه ولا سمع النداء، فلم يجب المنادي بما هو فيه من بعد ما أحاط به من الظلمات، فمتى أراد أن يتهدد لاستعلام معالم الآخرة، ومعرفة الله جلَّ ذكره والإيمان بذلك عسر عليه المطلب وضاق عليه المذهب، فكان في ذلك كمن يروم الصعود إلى السماء.

والرجس والنجس والخبث موجودون عن أعمال الشياطين، وذلك لازم للذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر.

﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ....﴾ [الأنعام: ١٢٦] صراط ربك أن تعبد الله وحده وتكفر بما دونه، وأن تؤمن برسله وأنبيائه وكتبه، وتأتمر لهم ونطيع فيما يأمرون به كل رسول منهم في وقته وفي نبوته، وهو الذي جاء به القرآن العزيز، وهو دين المسلمين.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمْعَشَرُ الْيَوْمَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَحَرَّتْهُمْ لَهْوَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢].

قوله ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرُ الْيَوْمَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ هذه مطالبة منه جل ذكره، يطالبهم بما أضلوا عباده عن هداية فطرتهم ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] لما أقرروا على أنفسهم.

قال جل من قائل: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] ما دامت السماوات والأرض؛ يريد: طول مدة البرزخ، وذلك هو مدة دوام السماوات والأرض، ثم قطع بالخلود إخراجهم إياهم إلى اليوم المجموع له الناس يوم الحشر بما في ذلك اليوم من قضاء وفصل وموازين، وسؤال وحساب وصراط إلى غير ذلك، ثم هو يعيدهم إليها في اليوم الآخر في خلود أبدي وعذاب سرمدي.

وهذا كلمته الحق في قوله: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧] يعني: ما تقدم ذكره من الخروج منها إلى النشور، ثم هو يعيدهم إليها بحكم الخلود الذي استثنى بمشيئته في البعث والنشور، وأتم أيضًا بحكمه العلي في ذلك كلمته الحق لإبليس، التي عبّر عنها قوله: اذهب لِمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ [الأعراف: ١٨].

ولا يكون ذلك ما لم يكن المعهود المتعارف في إجازة إسكان الواسع الرحب في الضيق الحرج، وإدخال الكبير الناهي في الكبير والعظم في الصغير الذي لا يتبين من صغره ودقته، لم يضيق الواسع ولا وسع الضيق، ولا عظم الصغير ولا صغر

الكبير، ولا حقره، ويكون معهود ذلك كالمعهود الآن في ضد ذلك، ووجود ذلك بمشيئة الله جلّ ذكره، فإذا شاء ذلك حل أجل الاستثناء ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بِغَضِ الظَّالِمِينَ بِغَضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] المشبه به والمشار إليه هو ما تقدم ذكره: استكثار الجن من تولي الإنس، وأشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ المعنى: الأعمال الصالحة بواسطة الإيمان تورث الولاية الصالحة، وتبعد هذه الولاية إلى ولاية الله العلي الكبير. وبالضد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣١].

وقال: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. وقال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥]. كما قال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ عَمَلًا رَحْمَنٍ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيُضِلُّوهُمْ عَنْ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ....﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٧]. وقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلِيَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣] فهذه ولاية الحزبين في الدنيا والآخرة وفيما بين ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ [الأنعام: ١٣٠] اختلف الناس هل من الجن رسل من عند الله إليهم أم لا؛ إذ فيهم المهتدون؟ فقال فريق من العلماء: إن لهم رسلاً من أنفسهم، واحتج بهذه الآية وما يشبهها، وليس استدلال من استدل بهذا الاستدلال، ولا مقال من قال بهذا المقال بكافٍ ولا شافٍ؛ لاشتراك الدليل، وتردده بين الصنفين من الجن والإنس.

أما رسول من الجن إلى الإنس، فما كان قط ذلك لأمرين: أحدهما: أن لو أرسل من الجن رسولاً إلى الإنس لم يتحصل التبليغ الذي هو المهم؛ إذ ليسوا بمرثيين لنا، وذلك شرط في المرسل والمبلغ. قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

مَلَكًا رَسُولًا ﴿[الإسراء: ٩٥].

وأما الوجه الآخر فإنهم ليسوا بأئمة، إنما الأئمة هم الإنس، وبذلك اختبر الله ﷻ أباهم المبلس الملعون فأبى، فقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ...﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقال في شان إرسال بعض الإنس إلى بعض: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] وهذا في الضالين من الجن أكد وأشد لوراثه ورثوها من أبيهم - لعنهم الله - غير أن منهم منذر ين تلقون من الرسل، ويبلغون إلى قومهم كما حكى الله ﷻ عنهم.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأَنْتَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِرِكُمْ إِنْ عَمِلْتُمْ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣ - ١٣٧].

قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] هذا المعنى راجع بوجه إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَغْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَغْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ...﴾ [الأنعام: ١٤١] فكانوا يقولون: ﴿هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٦].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعُمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعُمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سِيَجَرِيزِهِمْ بِمَا كَانُوا

يَقْتُولُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى
 أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ
 عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ
 افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَقْرُوشَاتٍ
 وَغَيْرَ مَقْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَاتِ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ
 مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِنْهَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
 خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ
 اثْنَيْنِ قُلْ مَّا الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ إِنَّ
 كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴿[الأنعام: ١٣٨ - ١٤٣].

ويتصل به فيما يستقبل قوله ﷻ: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ
 اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣].

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ مَّا الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
 اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أَوْحَى إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً
 أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَازِرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسٌ أَوْ فَسَقًا أَوْ هِلًا لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ
 بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
 وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْإِبِلِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ
 مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِغَيْرِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴿[الأنعام: ١٤٤ - ١٤٦].

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]
يقول جل من قائل: هذا [حكم]^(١) ذكرانها وإنائها من حرمها أو حرم ما حرمت
منها، اتتوني بعلم أو بكتاب من عند الله أو سنة رسول من عند الله، بل اتبعتم
أهواءكم بغير هدى من الله، فمن أظلم ممن اتبع هواه بغير هدى من الله.

ثم قال وقوله الحق: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ﴾
[الأنعام: ١٤٥] وهو العلم إلا ما أنزل من عند الله، وما انتزع عنه باستنباط تأويلاً
يفهم أو قياماً على صحة.

ثم قال وقوله الحق: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَوْزَنًا أَوْ دُمًّا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فنصّ جلّ ذكره على تحريم الرجس، فحيثما كان الرجس
فهو حرام.

ثم قال: ﴿أَوْ فَسَقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥] فكان ما أهل لغير الله به؛
أي: ذكر غير اسم الله عليه بعمد التحليل بذلك، فهو فسق؛ أي: خروج عن الإسلام
لله، وهذا كله حرام إلا لمضطر ليس بباغٍ على أحد، ولا يبغى بذلك تحليل ما
حرم الله، ولا يعتدي ما أمر به أن يقول: هو مضطر، وليس به، فيأخذ من ذلك أكثر
من حاجته لبلاغه، ويلحق بهذا من خرج باغياً على أحد إلى سفر، فأصابه في
خروجه ذلك ما يبلغه إلى الاضطراب، فليس ما ذكره بحلال له تناوله إلا أن يحدث
توبة من نيته تلك، وإلا فقد جمع نية الاعتداء، وأكل ما لا يحل له أكله على ذلك.

أتبع هذا قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ
جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله لتوجه عليهم قوله:
﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فكان قوله ﷻ:
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ...﴾ [الأنعام: ١٤٥] تسميماً لصديق قيله، وإخباره عما
أوجده رسوله ﷺ فيما حرمه على طاعم.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ

(١) ما بين [] بتر في (ق) وسقط من (ف).

الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَّيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ [الأنعام: ١٤٧ - ١٥٠].

ثم قال جلّ قوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رُبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧] أي: إن رحمته في الدنيا وسعت المؤمن والكافر، كذلك رحمته الرحمانية حكمها في الدنيا أن تسع المؤمنين والكافرين؛ لينال كلّ حظّه المقدر له في أم الكتاب، فإذا جاء وعد الآخرة، أو أخذه بالإهلاك من شاء، فلا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

كذلك تقول الملائكة على جميعهم السلام: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] فإذا كان يوم القيامة قصرت رحمته على عباده المؤمنين، وغضبه على أعدائه الكافرين، نعوذ بالله من غضبه وعذابه.

قوله ﷻ: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ...﴾ [الأنعام: ١٤٨].

نظيرتها في سورة النحل: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

وبمعناها في سورة يس: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

ذكر بعض من فسرهما المعنى: إنهم لو قالوها بحقيقة من أنفسهم لكان ذلك إيماناً منهم، لكنهم قالوها على سبيل التهزي والسخرية بالمخاطبين لهم، وربما كان ذلك كما زعموه، ولهم جهة من الخطاب قوله: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والأوجه في مفهوم هذا الخطاب أنهم كانوا يعرفون أن الله خالقهم وخالق

السموات والأرض، وراثه ورثوها عن آبائهم إبراهيم وإسماعيل، والمهتدين قبلهم إلى معلوم الفطرة ومعهود ما جبلت عليه منهم الخلقة.

قال الله عز من قائل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨].

وقال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] لكنهم أفكوا عن هذه الحقيقة بضلاتهم، وحجبوا عن معهودها، وظلوا على ذلك في ضلاتهم يترددون، وفي طغيانهم يعمهون، فإذا ألزمهم ضيق الاضطرار، ورجعوا إلى الحق وضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله، فنبذوا هذه المعرفة الأولى دون ظهورهم، ولم يظهروها بإيمان مكين في قلوبهم وشهادة على أنفسهم، وعمل بها خارج عن بواطنهم باد على ظواهرهم.

وبهذا وعلى معهود هذا كان يحتوشهم نور الإيمان، وتثبت في قلوبهم وأعمالهم حقائق الإسلام، لو أنهم آمنوا بالله ورسوله لهداهم الله بإيمانهم، لكنهم كانوا يقولونها مع كفرهم على حقيقة محجوبة ومعرفة غائبة بقلوب لا علم فيها، وبصائر غير بصيرة، وشهادات غير مشاهدة لها قد غمرتهم غفلتهم، وبعثوا بذلك عن حقيقتهم، فهم على ذلك، متى تكلموا بالحق نطقوا به لا يعلمونه، ولا يبصرونه كالذي يصدر عن النومان وصاحب الهذيان، ومصاحب الجهل غير محمود في إصابته لا سيما إذا كان حاله التكذيب، وعمله على سنن الكفر.

قال الله عز من قائل لما أن ﴿قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ ومرادهم بالدهر: اختلاف الليل والنهار وتعاقب الأزمان، أجابهم جل ذكره بالحق الذي هو أهله بقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤] والمراد الحق هنا بالدهر: هو الله جل ذكره، وهو اسم من أسمائه.

كذلك قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ يعنون بمعبوداتهم هنا: الملائكة عليهم السلام، فأجابهم جل ذكره: ﴿مَّا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠].

فعبر ﷺ عن حالهم هذه لما قالوا الحق أن مشيئة الله جل ذكره غالبية فيهم بأنهم يخرضون، ولم يحمد إصابتهم في مقالهم ذلك؛ لعدم وقوفهم على العلم

وصدور المقال عن غير يقين، فأبطل قولهم بالحق وأحبطه لعدم العلم واليقين، كما تحبط أعمالهم بالشرك والكفر والعمل على غير سنة، فافهم.

ولما كانوا مع ذلك غير عالمين ولا متبعين لمن علم، ولا تالين آثار من قبلهم وكذبوا بأفعالهم قولهم، كان جوابهم قوله: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] في الخطاب حذف، تقدير محذوفه: كذلك كذب الذين من قبلهم مع إقامتهم على التكذيب والكفر والعمل دون توبة، ولا إيمان بالله وبالرسل حتى ذاقوا بأسنا وحلت بهم نقماتنا، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين؟ ولأن ما أجابوا به رسلهم من قولهم هذا إنما صدر عن معرفة مغرورة غطت عليها ظلمات الكفر والجحد، لم يوصلوها إلى إيمان صحيح، ولا وصلوها بتصديق رسول وقرآن.

قال الله ﷻ لنبيه: ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّد: ﴿هَلْ عِندَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ﴾ كِتَابٌ أَوْ سَنَةٌ ﴿فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والظن لا يغني من الحق شيئاً، إنما يغني العلم واليقين، أو اتباع من يعلم ويوقن، وعلى هذا المفهوم يقول الله جلّ ذكره: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦] أي: ليسوا عندهم على الحقيقة بشركاء الله تعالى؛ إذ لم يخلقوا سماء ولا أرضاً، ولا ينزلوا الماء من السماء، ولا يخلقون ولا يرزقون، إنما ذلك منهم لما عبّر عنه قول الله ﷻ حكاية عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

تنبيه:

انطلق المقال في هذا الفن؛ إذ هو كثير ما من أجله قست قلوب أهل الإيمان الموجود عن الغفلة وأغياها المراقبة والذكر، ثم ينشأ وينمو بالاشتغال، وإهمال القلوب في أودية التخليط، ثم ينمو ذلك لمحبة الدنيا والأمانى لها وبها، ومع ذلك يغلب حجاب الغفلة، ويكثف الستر الحائل بين القلوب ومنبعث نور الإيمان إليها، ثم بالمدامة على ذلك يخلف الذكر النسيان، والعلم الجهل، والمراقبة الإهمال والجد الفتور، فلا يزال كذلك نور الإيمان يتقلص، والظلمة على القلوب تتزيد والخشية تنقص، والقسوة تفيض حتى يعلو الران القلوب فتتكسر.

ثم يخلف ذلك الفسق والفجور، تتصاعد ظلمات ذلك إلى بقايا الإيمان فتذهب حقائقه، وإلى الإسلام فتمحق رسومه، فيكون الكلام تزيئاً والأعمال عوائد ثم رياء، والشهادة بالإيمان والإخلاص لمظة^(١) على اللسان، وما لم يتعاهد الإسلام والإيمان بالتجديد والتحقيق، ويعمرا بتوجيه النيات وإعمال الجوارح في الطاعات، وتعاهد القلوب بالتخويف واستشعار الخشية ولزوم الخشوع، وإلا كان ما عبّر عنه قوله الحق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

ذكر الصحابة رضي الله عنهم إنه ما كان بين نزول هذه الآية، وبين الإيمان مع إسلامهم أربع سنين، واستبطأهم الله ﷻ عن الصعود في درجات الإيمان، مع أنه كان في قلوبهم غصاً طرياً، فكيف بمن ولد ونشأ في الفتنة، ومرت عليه وعلى آبائه وأسلافه وبني جنسه الكثير من السنين إلا هكذا مات الإيمان والعلم، وذهب التقى والخشية، وأض الأمر إلى ما نشاهده وأكثر من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قوله ﷻ جواباً لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ مخاطباً رسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] مبيناً لقولكم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فإنهم قالوا حقاً لو صدر ذلك منهم عن إيمان وتوبة وحسن مراجعة إلى الحق، فما هذا العلم المطلوب منهم الإتيان به؟

الجواب انعقد الإجماع الأعظم أنه لا شيء إلا ما شاء الله، وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أجمع المهتدون أن الله تعالى خلق للعباد استطاعة بالله، وحولاً وقوة بالله لا يخرجون بأنفسهم عن عطائه ومنعه وحسن تقديره، وهو في كل شيء الأول والآخر الظاهر والباطن، فكلمتهم هذه عن علاتها خرجت عن سنن التوحيد المعروف،

(١) لُمظة: نُكْثَة. انظر: لسان العرب (٤٦١/٧).

و«إنما لكل امرئ ما نوى»^(١) وبقي عليهم إتمام عقد التوحيد.

وهو إتمام معنى قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] هذه كلمتهم لو قالوها بعلم وبقي عليهم، وهو الواحد القهار، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

قال الله جلّ من قائل: ﴿إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢] فهو الله لا إله إلا هو خلقه، ثم سواه بأن نفخ فيه الروح، فجعله بذلك سميعًا بصيرًا، مؤمنًا مسلمًا، منيبًا راضيًا، عالمًا حكيمًا إلى سائر الأسماء والصفات، فلا بد من إعطاء حكمة الله قسطها مع توحيده نفسه وتنزيهه العلي، وأن يوجد في أفعال عباده فيضاف إليه وينسب، وإلا كان المعتقد على ما معنى قول الجبرية حيث إنهم إن أوقفوا أفعالهم، وأخرجوا مراداتهم على أنفسهم خرجوا على معتقد القدرية، بل أمرهم راجع للحق المخلوق به السماوات والأرض، هو الواحد القهار، هو الفاعل الأول تعالى وجوده، وهو الفاعل بملكه لإسناده من خلق أو أمر؛ لأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة والجوارح والظاهر والباطن [وبيده] كل شيء، هكذا ملكهم، وبما لهم من وجود في أنفسهم أوجدتهم عليه، كانوا عبيدًا له أرقاء، كلفهم وأمرهم ونهاهم، وقد نفخ في آدم عليه السلام من روحه واصطفاه، وجعل ذلك وراثته في الهادين المهتدين من ذريته، ووالى منهم الأولياء، واتخذ منهم الأخلاء والأحباء ونسبهم إلى نفسه، وجعلهم من أجل ذلك أئمة للمتقين، فهم عباد الله تبارك وتعالى وأحبأؤه.

قال الله عزّ من قائل في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] فوجه الحكمة في تمثله لها بشرًا سويًا؛ ليخرج المراد منها بشرًا، وكون المراد أيضًا ملكيًا لما كان في حين كونه ملكًا باطنًا، ملكي الباطن

(١) أخرجه مالك (٩٨٣)، والبخاري (١) ومسلم (١٩٠٧)، وأحمد (١٦٨)، والترمذي (١٦٤٧)، وأبو داود (٢٢٠١) والنسائي (٣٤٣٧) وابن ماجه (٤٢٢٧) وابن المبارك (١٨٨)، والحميدي (٢٨)، والبيهقي (١٨١) والطبراني في الأوسط (٤٠) والخطيب (٢٤٤/٤) وابن عساكر (٣٢/١٦٦) وابن منده في الإيمان (٢٠١) وتمام في الفوائد (٤٨٣) وابن خزيمة (١٤٢) والدارقطني (٥٠/١) وأبو عوانة (٧٤٣٨) والبزار (٢٥٧) وهناد (٨٧١)، وابن حبان (٣٨٨).

بشري الظاهر، باطن لباطن وظاهر لظاهر، فافهم.

قال رسول الله ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»^(١) وقد تقدم الكلام في هذا، وأن النسبة على الأسماء والصفات لا على معاني الذات، فهذا علم بمعنى قوله ﷺ: ﴿هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وللمعنى الجامع للمراد قال: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] ما بان عنه فهو عبده، وما رضي عنه فهو وليه، وما سخطه فهو عدوه، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم.

قوله ﷺ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ انتظم هذا الخطاب بما تقدم من قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَزْمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وبأنه حيث جاء يقول جل ثناؤه: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

حجته البالغة في ذلك أنه يفعل ما يشاء بحق الملك يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء، وإليه يرجع الأمر كله، ولو أنه نعم الكافر وعذب المؤمن، وأجاز هذا ورضيه لكان الحق حيث كان، هو الله لا إله إلا هو وكيف كان حكمه فهو العدل، وهو المحمود بكل وجه وبكل معنى، هو الإمام العلي إلى كل مقصد، به تُعرَف المعارف لا بها يعرف، وبحكمه تُعلم الأحكام وتحسن المقاصد، لا بالإحكام والمقاصد تُعلم أحكامه ومقاصده، كما كانت به الكائنات لا بها كان، وإنما نفاذ حجة العباد بشرط ارتباطهم إلى طاعته، وإنما تحسن مقاصدهم وأعمالهم، وأقوالهم وعلومهم إذا رضي ذلك منهم، فمتى كان ذلك منهم كذلك أفلحوا وأفلجوا.

قوله ﷺ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٥٠] أرجع ﷺ الخطاب إلى محاجتهم في كفرهم، وجعلهم مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا لشركائهم، فحرموا على ذلك هذا وأحلوا هذا، فطالبهم جل ذكره بالشهداء الذين يشهدون لهم بأن الله حرم ما حرموه، وأحل ما أحلوه، ولا شاهد فيما ها هنا

(١) تقدم تخريجه.

سوى الكتاب من الله والنبوة.

ثم قال جل ذكره: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ فإن شهادتهم زور وكذب وبهتان ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدُلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] به سواء أمره بالعدل والإحسان، ونهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي كالمعهود منه، وترك اتباع المكذبين والكافرين والعادلين بالله جل ذكره سواء، وفي هذا من الفقه أن أحد الخصمين متى رضي بشهادة خصمه أو قول غيره، فشهد المرضي به أو قال بغير الحق، فليس على الراضي لزوم الحكم بقوله ولا شهادته، وفي هذا الضرب من الفقه نظر.

وإنما طالبهم الله بمن يشهد لهم على تحريم ما أحله الله، فهذا لا يجدونه ولا يقبل منهم إلا بكتاب من عند الله، أو توقيف من رسول الله، فقال جل قوله لنبيه ﷺ، وقوله ذلك متوجه إلى سواء: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ للقطع على أن ما يدينون به ويشهدون عليه ليس من عند الله، وإنما تكون شهادتهم تلك شهادة لمدعيهم، ولا تجوز شهادة خصم ولا ظنين، وقد يجمع هذا فيهم، ليس كذلك قول الخصم لخصمه المدعي الحق عليه: قد رضيت بك شاهداً على حقي عندك، فيقول خصمه: لا حق لك عندي.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ إِنَّهُنَّ ذُرِّيَّتُكُمْ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْفُجَرَاءِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ. لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ الْيَتِيمَ وَالْيَتِيمَ وَالْيَتِيمَ لَا تَكْفِ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ. لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... ﴿[الأنعام: ١٥١] أمره جلّ ذكره أن يسرد عليهم ما حرم عليهم ربهم، كما حرم عليهم أوليائهم من الشياطين والشركاء، فاستاق بعضاً على صيغته النهي، وبعضاً على صيغته الأمر، وبعضاً على صيغته الخبر، إعلاماً منه جل وتعالى أن المأمور به منهي عنه، وأن المنهي عنه مأمور بتركه، وأن الخبر قد يأتي بمعنى الأمر والنهي.

وفيه: ﴿أَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ هو صراط الإسلام ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فصرط الإسلام والهدى صراط واحد، وسبل الضلالات كثيرة، وهي سبل الشياطين، فمن نكب عن الصراط الذي هو صراط الإسلام أخذ في السبل، ومن أخذ فيها تفرقت به السبل عن الصراط المستقيم.

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ مَّبَارَكٌ مُّبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ آيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدُقُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدُقُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِمْتِنَانًا تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأنعام: ١٥٤ - ١٥٨].

وذكر الله جل وتعالى التوصية بالإيمان والكتاب بقوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] يريد - وهو أعلم - أن موسى عليه السلام قد كان أحسن في هذه الوصايا، فإنها وإن كانت من الكتاب - أعني: التوراة والإنجيل والقرآن - فإنها مما يعلم بالعقل، وإن كان العقل لا يحل شيئاً من الكتاب ولا يحرمه إلا بإذن.

أكد ذلك بحكم الوحي في الكتاب والنبوة؛ لذلك - وهو أعلم - وصف موسى ﷺ بأنه أحسن، وأنه تمم ذلك عليه بأن أنزله عليه في التوراة كما فعل ذلك في القرآن، فكان ذلك من الحكمة التي أتاه والعلم للذين يُجزى بهما من أحسن في إيمانه وإسلامه، حيث يقول جلّ قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاشْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤].

وقال مثل ذلك في يوسف ﷺ ثم قال: ﴿وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤] أي: تفصيلاً لكل شيء أراد تفصيله من كبير وصغير وعلم علي، وعنى بهذا - وهو أعلم - ما ذكر رسول الله ﷺ: «إن موسى ﷺ كتب الله له التوراة بيده، فكان فيها تفصيلاً لكل شيء»^(١) وكل شيء هو اللوح المحفوظ، وسيأتي شرح ذلك في موضعه إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ يعني: وهو أعلم الموت ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ﴾ أي: لفصل القضاء يوم القيامة ﴿أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ يريد: طلوع الشمس من مغربها والدابة والدجال، ونحو هذا يوم يأتي بعض آيات ربك ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] يعني: التوبة والعمل الصالح.

فصل

اختلفت الروايات أي هذه الآيات قبل وهي عشرة، وأكثر الروايات على أن أولها: طلوع الشمس من مغربها، فإذا هي طلعت من مغربها آمن الناس كلهم أجمعون، وذلك يوم ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإن كان ذلك كذلك.

وقد جاء أن نزول عيسى ابن مريم ﷺ بعد آخر أيام الدجال - لعنه الله - وإنه

(١) أخرجه مسلم (٦٩١٢)، وأبو داود (٤٧٠٣)، وابن ماجه (٨٤)، وأبو يعلى في مسنده (٦١١٥) بلفظ: «كَتَبَ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ» وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٦٧٦)، والدارقطني في الصفات (٢٨)، والخرائطي في مساوئ الأخلاق (٤٢٦)، وأبو الشيخ (١٥٥٥/٥)، والديلمي (٦٧٥) بلفظ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَكَتَبَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ، وَغَرَسَ الْفَرْدَوْسَ بِيَدِهِ».

إذا قتله، وأظهره الله أسرع الناس إلى الإسلام، فإن كان طلوع الشمس من مغربها قبل ذلك، وكما ذكر في الحكم في إيمان من لم يؤمن، أو توبة من لم يتب قبل، فأين هذا من هذا.

أرى - والله أعلم - أن هذه الآيات لا تبقى عندها إيمان عبد لم يستبصر في إيمانه، ولا توبة من لم يدخر صالحًا في إيمانه من عمله، والمراد بتلك الآيات التمحيص، فلا يبقى عليها إلى كل مستبصر، أو عالم موقن حنيف، متفرغ لشأنه مقبل على ربه، وغير هؤلاء يفتنون كما قال رسول الله ﷺ: «هل تنتظرون إلا مرضًا مقعدًا أو هرمًا مفندًا أو فقراً مدققًا، أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»^(١) فذكر القواطع بما هي، وأنه لا ينجو منها إلا المجد المشمر. وأما قبل هذه الآيات، فالناس قد أوسعهم الله مهملة، ورحمته تأتي بقوم وتذهب بقوم أمة بعد أمة، وجيلًا بعد جيل، تابع ومتبوع وسابق وآخر يتلوه.

فصل

طلوع الشمس من مغربها إعلام بأن يوم الدنيا قد أقرض وانسلخ، وأن اليوم الآخر قد ظهر وابتدأ، وتلك هي آية على ذلك، وكذلك تبدو الآيات وتنخرق العادات.

قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكلم الرجل فخذ به صنع أهله بعده، وحتى تكلمه عذبة سوطه، ولا تقوم الساعة حتى يكلم الناس السباع»^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يرعى غنمًا إذا أتى الذئب فأخذ شاة منها، فتبعه الراعي فانتزعها منه، فقال له: فمن لها يوم السَّبْع يوم لا راعي لها

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٧٦)، والحاكم (٨٠٢٠)، والطبراني (٧٧٤) وفي الأوسط (٤٠٩٢)، والبيهقي في الشعب (١٠١٧٧)، وأبو يعلى في مسنده (٧٠/٦)، والقضاعي في الشهاب (٧٦٨). الهرم: كبر السن وضعفه. مفندًا: يصيب صاحبه بالفنء، وهو التخريف والهذيان وإنكار العقل من الهرم أو المرض. أدهى: من الداهية والمصيبة، والأمر العظيم ينزل بالإنسان.

(٢) أخرجه أحمد (١١٨٠٩)، والترمذي (٢١٨١) وقال: حسن غريب، وعبد بن حميد (٨٧٧)، وابن حبان (٦٤٩٤)، والحاكم (٨٤٤٢) وصححه، والديلمي (٧٠٧٢). عذبة: طرف.

غيري؟...»^(١).

وهذا إعلام منه ﷺ بأن السباع تفصح يومئذٍ، وكان ما حكاه به قال: «آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر» فشهد لهم بالصدقية، وهو أيضًا مثل ضربه - صلوات الله عليه - أنذر بمعناه ما تُبتلى به هذه الأمة، وقد كان من ذلك ما كان، والله المرجو للفرج وعليه التكلان.

وجميع ما يأتي به الدجال - لعنه الله - من العظائم الخارقة للعادات من أجل ذلك؛ لأن يوم الدنيا المطبوع على ما جبل عليه من معهود العوائد قد انقضى، وأن أوله يوم الآخرة بما فيه قد ابتدأ لذلك، قال إبراهيم عليه السلام للجبار الذي حابه في ربه؛ إذ سألته: من ربك؟ قال: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وأشبه تحديه ذلك بما تتحدى به الدجال - لعنه الله - وما صدق في ذلك دعواه للعللة التي تقدم ذكرها، فأجابه إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨] أي: إن ذلك لا يصح لك إلا بعد طلوعها من مغربها، ولم يأذن الله في ذلك بعد، فاطلعها أنت ويفعل ذلك، وذلك فعل الجبار من قبيل الدجال لعنه الله؛ لأنه كان دجالاً في سبيل الربوبية، ومنهم الدجالون في سبيل النبوة، وكما كان السامري في زمان موسى عليه السلام علماً من أعلامه، وابن صياد والعبسي ومسيلمة من أعلامه فكذلك الجبار، وإنما هي معالم تظهر وتخفى وآيات تبدو وتحتجب، يفعل الله إلى أن يأتي وعد الله.

وكان إبراهيم عليه السلام في محاجته ذلك الجبار عن ربه جل وتعالى آية على الولي الحنيف الذي يحاج الملعون الدجال في المستقبل، فطلوع الشمس هي إذاً أولها لا محالة ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿لَئِنْ أَلَدْنَ فَرْقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم

(١) أخرجه البخاري (٢٣٢٤)، والترمذي (٤٠٥٩)، وأحمد (٧٥٥٤)، والحميدي (١١٠٣)، والنسائي في الكبرى (٨١١١)، والطبراني (٨٦٠)، وابن حبان (٦٥٩٤)، والطيالسي (٢٤٦٦). السبع بسكون الباء: يوم القيامة أو الفزع، وبضمها: الحيوان المفترس.

يَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَذُكِّرْتُ وَمَعَايَا وَمَمَافٍ لِلَّهِ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ. وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّيَ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ [الأنعام: ١٥٩ - ١٦٥].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِينًا لَّسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩] أرجع الخطاب جل ذكره إلى معنى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] والمراد بهم أهل الكتاب، ثم بآخره كل من أخذ في غير سبيل الله، الشيع: الفرق، والشيع: الأتباع، فهم أتباع الضلالة وأشياع الشياطين.

وقد قرئت: «فاروقا دينهم»^(١) ولما فاروقا دين الإسلام تفرقوا في سبل الضلالات.

قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] وقرئ هذا الحرف: «فله عشر أمثالها» ومعناها على بادئ الرأي سواء، وبين ذلك فرقان قوله: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي: عشر كل واحدة منها مثل الحسنة التي جاء بها، وقوله: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ وهي قراءة الجماعة على إضافة العشر إلى أمثالها، فإن أمثال الحسنة هي عشرتها، فعلى هذا له مائة حسنة، وقد يكون من العالمين من يكون أمثال حسنته سبعون وسبعمائة.

قال الله ﷻ: ﴿مِثْلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١] فهذه السبع هي أمثال هذه الحبة؛ لأنهن خرجن منها، فعشر

(١) قرأ الجمهور (فرقوا) بتشديد الراء. وقرأه حمزة والكسائي (فاروقا دينهم) بألف بعد الفاء؛ فالمراد بالدين دين الإسلام. [التحرير والتنوير (١/٣٢٤٥)].

أمثالها إذا سبعمائة، ومن كانت حسنه سبعمائة كان أمثالها سبعة آلاف، حتى يكون ما قال رسول الله ﷺ: «إن الله قد يجزي على الحسنة بألف ألف حسنة»^(١) وكم قد رأينا من حبة أنبت أكثر من سبع سنابل ﴿وَاللَّهُ يَضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ وختم الله جل وتعالى الخطاب بقوله: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١] فمن أوصله جل ذكره إلى أن يعطيه بمقتضى أسمائه، فذلك المزيد الأعلى، وذلك الذي يُعطى بغير حساب.

ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فينعم المؤمن في الجنة؛ لأنه آمن بها بعشر أمثال حسنته، ويعذب الكافر في جهنم؛ لأنه كذب بها بمثل سيئته، ولا ظلم عليه سبحانه وله الحمد سبقت رحمته غضبه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١] نصب «دينًا» على المدح، أمره جل ذكره أن يحدث بنعمة ربه، وأنزل عليه من ذلك قرآنًا يقرؤه على أمته؛ ليحدث بذلك من أمته من أنعم الله عليه وهو تمام الإيمان، وأن يحدث بنعمة ربه تفرد بها شهادة، كان رسول الله ﷺ يقول عندما كان يظهر الله على يديه من المعجزات، ويكرمه به من خرق العادات: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله».

ثم قال له: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] هذه صورة توحيد الأعمال إلى الله جل ذكره وعلى هذا تنعقد النيات، قد كان رسول الله ﷺ يقولها عندما كان يتوجه إلى الصلاة، وأكثر ما جاء ذلك عنه في صلاة الليل، وربما كان يقول: «وأنا من المسلمين».

وينبغي أن يفرد لكل عمل ذكر يشابهه وإن جمع ذلك في توجيه كل عمل، فهو أحسن كما تقدم في هذه الآية لما ذكر ملة إبراهيم، وإنها صراط الله المستقيم، وإنه هو الدين القيم لا شركة فيه ولا عوج، بين ما هذا الدين القيم بأن يقول العبد عند الشروع في الأعمال: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا

(١) أخرجه بنحوه ابن جرير في تفسيره (٩١/٥)، وأحمد (٧٩٣٢).

شَرِيكَ لَهُ ﴿[الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] ويستشعر أنه بذلك أمر، وأنه من المسلمين.
فهذه ملة إبراهيم عليه السلام التي قال فيها: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ترجى منه - صلوات الله عليه وسلامه - بأن يتوب على
من عصاه، فيغفر له ويرحمه إنه غفور رحيم، أمر حق وحكم فصل، من عبد الأصنام
ومات على ذلك فغير مرحوم ولا مغفور له.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ
دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ ^(١) [الأنعام: ١٦٥] يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع
في الدنيا بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم.

يقول وهو أعلم: انظروا كيف رفع فلم ينكروا المفاضلة بينكم في الجاه عنده،
والحظوة لديه، انتظامه بما تقدم في صدر السورة من قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ
مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨] ثم لما جاء في أثناء الخطاب من إنكارهم النبوة والرسالة من
البشر، وبخاصة إنكارهم تخصيص محمد رسول الله ﷺ من بينهم حتى قالوا: ﴿لَوْلَا
نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِثِيِّينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] فكان جوابه الحق
قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] أدخل لام التأكيد

(١) ذكرهم تعالى بنعمته عليهم إذ كان النبي ﷺ المبعث وهو محمد ﷺ خاتم النبيين فأتمته
خلفت سائر الأمم ولا يجيء بعدها أمة تخلفها إذ عليهم تقوم الساعة، وقال الحسن: إن
النبي ﷺ قال: «توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» وروى «أنتم آخرها وأكرمها
على الله» ورفع الدرجات هو بالشرف في المراتب الدنيوية والعلم وسعة الرزق «وليلوكم»
متعلق بقوله «ورفع» فيما آتاكم من ذلك جاهاً ومالاً وعلماً وكيف تكونون في ذلك، وقيل:
الخطاب لبني آدم خلفوا في الأرض عن الجن أو عن الملائكة، وقيل: يخلف بعضهم بعضاً،
وقيل: خلفاء الأرض تملكونها وتتصرفون فيها، ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
لما كان الابتلاء يظهر به المسيء والمحسن والطائع والعاصي ذكر هذين الوصفين وختم
بهما ولما كان الغالب على فواصل الآي قبلها هو التهديد بدأ بقوله: ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ يعني:
لمن كفر ما أعطاه الله تعالى، وسرعة عقابه إن كان في الدنيا فالسرعة ظاهرة، وإن كان في
الآخرة فوصف بالسرعة لتحقيقه؛ إذ كل ما هو آتٍ، ولما كانت جهة الرحمة أرجى أكد
ذلك بدخول اللام في الخبر، ويكون الوصفين بنياء بناءً مبالغة، ولم يأت في جهة العقاب
بوصفه بذلك فلم يأتِ إن ربك معاقب وسريع العقاب من باب الصفة المشبهة.

على معنى المغفرة والرحمة، ولم يدخلها على معنى سرعة العقاب، وهذا من قوله:
«إن رحمتي تغلب غضبي»^(١) عَلَّامٌ وتعالى علاؤه وشأنه. انتهى.

(١) تقدم تخريجه.

تفسير سورة الأعراف^(١)

[وبه أستعين]^(٢)

(١) هذه السورة مكية كلها قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وعطاء وجابر بن زيد والضحاك وغيرهم، وقال مقاتل إلا قوله: ﴿وَاسْتَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿مَنْ ظَهَرِهُمْ دَرَيْتَهُمْ﴾ فإن ذلك مدني وروي هذا أيضا عن ابن عباس، وقيل إلى قوله: ﴿وَإِذْ نُنَاقِشُ﴾ واعتلاق هذه السورة بما قبلها هو أنه لما ذكر تعالى قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ واستطرد منه لما بعده وإلى قوله آخر السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وذكر ابتلاءهم فيما آتاهم وذلك لا يكون إلا بالتكاليف الشرعية ذكر ما يكون به التكليف وهو الكتاب الإلهي وذكر الأمر باتباعه كما أمر في قوله: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ وتقدم الكلام على هذه الحروف المقطعة أوائل السورة في أول البقرة، وذكر ما حدثه الناس فيها ولم يقدّم دليل على شيء من تفسيرهم يعين ما قالوا وزادوا هنا لأجل الصاد أن معناه أنا الله أعلم وأفضل رواه أبو الضحى عن ابن عباس أو المصور قاله السدي: أو الله الملك النصير قاله بعضهم أو أنا الله المصير إليّ، حكاه الماوردي أو المصير كتاب فحذف الياء والراء ترخيماً وعبر عن المصير بالمص قاله التبريزي، وقيل عنه: أنا الله الصادق، وقيل معناه ﴿أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صُدْرَكَ﴾ قاله الكرماني قال: واكتفى ببعض الكلام، وهذه الأقوال في الحروف المقطعة لولا أن المفسرين شحنوا بها كتبهم خلفاً عن سلف لضربنا عن ذكرها صفحاً فإن ذكرها يدل على ما لا ينبغي ذكره من تأويلات الباطنية وأصحاب الألغاز والرموز، ونهيه تعالى أن يكون في صدره حرج منه أي من سببه لما تضمنه من أعباء الرسالة وتبليغها لمن لم يؤمن بكتاب ولا اعتقد صحة رسالة وتكليف الناس أحكامها وهذه أمور صعبة ومعانيها يشق عليه ذلك وأسند النهي إلى الحرج ومعناه نهى المخاطب عن التعرض للحرج، وكان أبلغ من نهى المخاطب لما فيه من أن الحرج لو كان مما ينهى لنهيناه عنك فأنته أنت عنه بعدم التعرض له، ولأن فيه تنزيه نبيه ﷺ بأن ينهاه فيأتي التركيب فلا تخرج منه؛ لأن ما أنزله الله تعالى إليه يناسب أن يسر به وينشرح لما فيه من تخصيصه بذلك وتشريفه حيث أهله لإنزال كتابه عليه وجعله سفيراً بينه وبين خلقه فلهذه الفوائد عدل عن أن ينهاه ونهى الحرج، وفسر الحرج هنا بالشك وهو تفسير قلق وسمى الشك حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر كما أن المتيقن منشرح الصدر وإن صحّ هذا عن ابن عباس فيكون مما توجه فيه الخطاب إليه لفظاً وهو لأتمه معنى أي فلا يشكوا أنه من عند الله تعالى.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ
بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ
﴿٦﴾ [الأعراف: ١ - ٦].

قوله تعالى: ﴿الْمَصَّ﴾ قد تقدم الكلام في الحروف المقطعة من أوائل السور والله أعلم بما ينزل، وعلى ما تقدم من النظر، فاتصال الصاد بـ«الم» دلالة على أنه صدع ﴿الْمَصَّ﴾ بالنصيحة والصدق، وارتفع كتاب [أنزل إليك]^(١) على البدل من ﴿الْمَصَّ﴾ كأنه قال: [كتاب أنزل إليك]^(٢) وربما صلح في ذلك أن يقال: [ارتفع بأخبر ابتداء]^(٣) مضمراً، [كأنه قال: المص]^(٤) هو كتاب أنزل إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف: ٢] [وتتذكر]^(٥) من آمن، فلا يكن في صدرك حرج منه؛ أي: [أما]^(٦) في الحروف من استغلاق؛ إذ هي مفصولة من أم الكتاب، وما يعلم تأويلها [على هذا المعنى]^(٧) إلا الله، ويعلم هو ﷺ ما علمه ربه ﷻ من ذلك، وربما كان هذا الخطاب له على هذا التأويل ألا يطالب نفسه بكنه معرفتها.

وهذا هو الأظهر لقوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «هذا كتاب أنزل».

(٣) في النسخة (ق): «أنه ارتفع بأنه خبر ابتداء».

(٤) في النسخة (ق): «وهي كلمة صادقة وآية كاملة لذلك حسن الوقف عليها ثم قال عز من قائل».

(٥) في النسخة (ق): «وتذكر».

(٦) في النسخة (ق): «لما».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

والكناية في قوله: ﴿مَنْهُ﴾ راجعة [إلى] ^(١) الكتاب المنزل، وهي الحروف المشار إليها، وإلا فأَي حرج يجد الرسول ﷺ في نفسه من القرآن المنزل [إليه] ^(٢) شرفه به وكرمه على العالمين، ثم بآخره يفهم منه، فلا يكن في صدرك حرج [ممن خالفك] ^(٣) وتكذيب من كذبك، إنما أنت مبلغ ونذير.

قوله ﷻ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ^(٤) [الأعراف: ٣] اتصل معنى هذه النصيحة للرسول ﷺ ثم لجميع العباد بمعنى ما تقدم من نصيحة في قوله: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]. وقرأ الجحدري هذا الحرف «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ [من] ^(٥) ربكم» بالغين المعجمة مع تقديم الباء، فيكون معنى ذلك «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ والهداية إليه» والإيمان به فعل الراسخين في العلم، وقد تقدم وصفهم فصَحَّ بما تلوناه في [أول] ^(٦) هذه السورة، وبما تقدم لنا أن الحروف المقطعة كتاب منزل من عند الله في هذا الكتاب الذي هو القرآن العربي وليس به إلا أن هذا مفصل منه كما صح بما تقدم أنها من الكتاب المبين وليست به إلا أنها آيات عليه فاتصل الحبل، والحمد لله رب العالمين من الكتاب المبين إلى ما فصل عنه من الحروف المقطعة إلى ما فصل عنها من القرآن المبين ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقرأ

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «عليه وقد».

(٣) في النسخة (ق): «من خلاف من خالفك».

(٤) لما ذكر تعالى أن هذا الكتاب أنزل إلى الرسول أمر الأمة باتباعه، و﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾: يشمل القرآن والسنة؛ لقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤] ونهاهم عن ابتغاء أولياء من دون الله كالأصنام والزهبان والكهان والأجبار والنار والكواكب وغير ذلك، والظاهر أن الضمير في ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ عائد على «ربكم». وقيل: على «ما». وقيل: على «الكتاب» والمعنى: لا تعدلوا عنه إلى الكتب المنسوخة. وقيل: أراد بالأولياء الشياطين؛ شياطين الجن والإنس، وإنهم الذين يحملون على عبادة الأوثان والأهواء والبدع، ويضلون عن دين الله. تفسير البحر المحيط (٣٠٩/٥).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحرف مجاهد ولا يتبع بالياء صرف وجه الخطاب بالياء عن الرسول والمؤمنين إن الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله والذين يتبعون من دون الله أولياء.

يقول الله عز وجل: ﴿فَلْيَلْأَمَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] عدم التذكار يورث الغفلة وهي تورث القسوة والقلوب القاسية بعيدة من الله محجوبة عن فهم كتابه غير موفقة للإصابة ومن يذكر أبصر، ومن أبصر اهتدى، ومن اهتدى أفلح ونجا، [ومفتاح^(١) الدعاء.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾^(٢) [الأعراف: ٤] [تبيين^(٣) من سبيل التذكار، والبيات: هو بالليل، بَيَّت القوم: إذا أخذتهم ليلاً والقتل بالنهار، ودلت «أو» هنا على تصرف أخذه إياهم مرة كذا، ومرة كذا، ووجه الحكمة في ذلك ألا يأمنه العباد على حال، ولا في وقت دون وقت. ثم [يتسق على^(٤)] ذلك قوله: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥] تلك سنة الله ﷻ في عباده المنذرين عند إماتتهم وعند أخذه إياهم بالعذاب، و«من مات قامت قيامته»^(٥) يعرفهم ذنوبهم، فلا يخرجوا من الدنيا حتى يشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين.

(١) في النسخة (ق): «مفتاح».

(٢) «كم» هنا خبرية، التقدير: وكثير من القرى أهلكناها، وأعاد الضمير في «أهلكناها» على معنى «كم» وهي في موضع رفع بالابتداء، و«أهلكناها» جملة في موضع الخبر، وأجازوا أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل يفسره أهلكناها، تقديره: وكم من قرية أهلكناها، ولا بد في الآية من تقدير محذوف مضاف لقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فمنهم من قدره: وكم من أهل قرية، ومنهم من قدره: أهلكنا أهلها، وينبغي أن يقدر عند قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾ أي: فجاء أهلها، لمجيء الحال من أهلها بدليل ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ لأنه يمكن إهلاك القرى بالخسف والهدم وغير ذلك، فلا ضرورة تدعو إلى حذف المضاف قبل قوله: ﴿فَجَاءَهَا﴾. تفسير البحر المحيط (٣١٠/٥).

(٣) في النسخة (ق): «دل على سبيل».

(٤) في النسخة (ق): «نسق».

(٥) أخرجه الديلمي (١١١٧).

قوله ﷻ: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]
يقول للذين أرسل إليهم: ماذا أجبت المرسلين؟ ويقال لهم: ﴿أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ
تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٤] ويقال للرسول، عليهم السلام:
﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [القصص: ٦٥]؟ هل بلغتكم أممكم ما أرسلتم به.

﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعْلَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (٧) ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا
بِعَائِنَا يُبْطِلُونَ (٩) وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ
(١٠)﴾ [الأعراف: ٧ - ١٠].

قوله ﷻ: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨] يمكن أن يكون الحق هنا ما
[يعلمه] (١) الموازين من حسن وسيئ وثقل وخفة، وهو القسط كما قال عز من قائل:
﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ إلى [قوله] (٢) ﴿حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]
ويمكن أن يكون المراد بذكر الحق الشهادة بأن الوزن يومئذ حق وجوده كما كان
رسول الله ﷺ يقول: «أنت الحق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والصراف
حق، والميزان حق» (٣) إلى آخر الشهادات.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي
إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فِيمَا أُغْوِيْنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)
ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ
أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَيَكَادُ اسْتَكُنَّ أَنْتَ وَزَوْجُكَ

(١) في النسخة (ق): «تعطيه».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) أخرجه بنحوه البخاري (١١٢٠)، وابن ماجه (١٤١٦)، والبيهقي (٤٨٥١).

الْجَنَّةَ فَمَلَأَ مِنْ حَيْثُ يَشَاءُ وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ [الأعراف: ١١ - ٢١].

قوله جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] الخلق قبل التصوير، ودل [لما]^(١) نسق على أول الخطاب بحرف «ثم» على أن المخبر عنه هو آدم ﷺ وكان ذلك إخباراً عما خلقه من بعده من نبيه، [وتصورهم]^(٢) إذ كان أولاً لهم وقد كان ﷺ خلق الخلق قبل أن يوجد لهم.

قال رسول الله ﷺ «إن الله خلق الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء...»^(٣) وهذا أولى التأويلين الخلق أولاً كما ذكره رسول الله ﷺ، ثم التصوير يوم خلق آدم تصوير كل ذي وجود على توبته، وهو المعبر عنه بالتسوية [والسجود والله أعلم سجود ائتمام به]^(٤).

[وعلی الكلام الأول فالتصوير أوله حال وجود الخلق، قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلق، وقضى القضية، وأخذ ميثاق النبيين، وعرشه على الماء»^(٥) والتسوية آخر هذا الإيجاد الذي هو الحياة الدنيا ثم يخلق [الروح] والتصوير [المعبر به] ثم [أمر] السجود، والله أعلم سجود الاثتمام به]^(٦).

قال الله جل قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢] ظاهر قوله: ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ هو إكماله إياه وإلهامه رشده.

قال الله ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٨]

(١) في النسخة (ق): «بما».

(٢) في النسخة (ق): «تصويرهم».

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) سقط من النسخة (ق).

ثم قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وهذه عبارة عن [إعماله وكمال التعبد]^(١) بما هو عبد الخضوع لخالقه، فلما سَوَّاهُ وزاده بأن نفخ فيه من روحه [إتمامه]^(٢) السجود إليه، وقد كان تقدم جل ذكره إلى الملائكة - عليهم السلام - بالسجود [له]^(٣)، وقد قال رسول الله ﷺ: «قوموا فلاصلي لكم»^(٤).

وقال ﷺ: «من صلى منكم لغيره فليقصّر، فإن من ورائه الضعيف والستقيم والكبير وذا الحاجة، ومن صلى لنفسه فليطل ما شاء»^(٥) فالإمام يصلي لمن وراءه، والمأموم يصلي لصلاة إمامه، يقوم لقيامه ويسجد لسجوده ويجلس لجلوسه.

وآدم إنما سَوَّاهُ ربه ونفخ فيه من روحه، وألهمه عبادته وسجوده إليه، ولما سجد لربه تعبداً له سجد الملائكة كلهم أجمعون لسجوده لله رب العالمين كما أمرهم [الله]^(٦)، وكيف يأمر الله جل ذكره بالفحشاء؟ إنما يأمر بالعدل والإحسان كما تقدم قبل هذا، والعدل والإحسان هو السجود لله العلي الكبير لا إلى غيره، وهذا الخطاب؛ أعني: قوله: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١] وذكر السجود له هو من متشابه القرآن العزيز الذي محكمه وأُمُّه [إن الله لا يأمر بالفحشاء]^(٧) إنما يأمر بالعدل والإحسان ولا فاحشة ولا منكر أعظم من سجود عبد لغير ربه وخالقه.

قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

(١) في النسخة (ق): «إكمال وإكمال العبد».

(٢) في النسخة (ق): «ألهمه».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البيهقي (٩٦/٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٧١)، ومسلم (٤٦٧)، والترمذي (٢٣٦) وقال: حديث حسن صحيح.

وعبد الرزاق (٣٧١٢)، وأحمد (١٠٣١١).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «قوله: إن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر وإنه».

فصل

كان إبليس [لعنه الله]^(١) من الملائكة - عليهم السلام - [كما تقدم قبل هذا]^(٢)، ولذلك توجه إليه الخطاب، واستحق الذم بترك السجود، ولما استكبر عن امتثال الأمر أخرجه من ملكوت السماء، وأهبطه إلى الأرض، وعزله بذلك عن أن يكون من الملائكة الذين يملكون الملكوت ويجيدون تماسكه، ولعنه؛ أي: أبعد من أن يفعل بأمره وطاعته، [وبأن]^(٣) يشفع عنده لمن ارتضى، فهو أبداً يعمل بغير طاعة ربه بعمل الملائكة - عليهم السلام - في تنفيذ أمر الله، وجميع مواد الخلقة في كل شيء مخلوق [هو في]^(٤) تكوين الكائنات، [والقلم]^(٥) الأمر، وتقسيمه وتقييده بإذن ربهم في مسالك أكوان العالم علواً وسفلاً فيما يكون ذلك من أمر كون فقط، وما يكون من أمر شرع وكون معاً.

والفعل منسوب إلى فاعله، ومحلّه الموجود منه فهم على الأمرين أو أحدهما يعملون بأمره، وجعل عمالة إبليس [لعنه الله]^(٦) التزيين والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وسلبه الأكثر بما أقدر عليه الملائكة من تأثير الفعل في الكائنات كالتمصير، وجمع مواد الخلقة إلى غير ذلك مما يعبر عنه قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الأنعام: ٧٣]^(٧) فيكون إلا فيما عوضه منه من سبيل الإضلال، وفعل المنكر من سحر وتزيين وما هو بسبيله.

فصل

قال الله عز من قائل في سورة ص ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [ص: ٧٣]

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «من أن».

(٤) في النسخة (ق): «وفي».

(٥) في النسخة (ق): «والقاء».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) سقط من النسخة (ق).

إلى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال في سورة الحجر: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢].

وقال في هذه السورة: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]

وقال بعض من فسر هذا المعنى: إن «ألا» في قوله «تَسْجُدَ» زائدة ومعناه والله أعلم: أن قوله ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ألسنت أنا الذي منعتك [من ذلك] ^(١)، دل على هذا التوجيه قول إبليس، لعنه الله: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ ^(٢) [الحجر: ٣٩] وقوله:

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الإغواء إيقاع الغي في القلب، أي: فيما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار، وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، وقد تقدم في البقرة، قيل: معنى الكلام القسم، أي فياغواك إياي لأفعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف، دليل على هذا القول قوله في ص: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ كان إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسلط على العباد، فأقسم به إعظاماً لقدره عنده، وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلاغواك إياي، وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغواك إياي، وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شيء أغواه؟ وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟ وقيل: المعنى فيما أهلكني بلعنك إياي، والإغواء الإهلاك، قال الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أي: هلاكاً، وقيل: فيما أضللتني، والإغواء: الإضلال والإبعاد، قال ابن عباس، وقيل: خيبتني من رحمتك أي: من يخب، وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوي غيًّا إذا فسد عليه أمره، أو فسد هو في نفسه، وهو أحد معاني قول تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ أي: فسد عيشه في الجنة، ويقال: غوي الفصيل إذا لم يدر لبن أمه.

الثانية: مذهب أهل السنة أي أن الله تعالى أضله وخلق فيه الكفر، ولذلك نسب الإغواء في هذا إلى الله تعالى وهو الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى، وخالف الإمامية والقدرية وغيرهما شيخهم إبليس الذي طاعوه في كل ما زينه لهم، ولم يطاعوه في هذه المسألة ويقولون: أخطأ إبليس، وهو أهل للخطأ حيث نسب الغواية إلى ربه، تعالى الله عن ذلك، فيقال لهم: وإبليس وإن كان أهلاً للخطأ فما تصنعون في نبي مكرم معصوم، وهو نوح عليه السلام حيث قال لقومه: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد روي أن طاووساً جاءه رجل في المسجد الحرام، وكان متهمًا بالقدر، وكان من الفقهاء الكبار، فجلس إليه فقال له طاووس: تقوم أو تقام؟ فقيل لطاوس: تقول هذا لرجل فقيه فقال: إبليس أفقه منه، يقول إبليس: رب بما أغويتني، ويقول هذا: أنا أغوي نفسي.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: بالصد عنه، وتزيين الباطل حتى

﴿بِمَا أَعْوَيْتَنِي﴾ وبوجه آخر يكون معناها: ألا فعلت كذا؟ فتقرب على ذلك من معنى «هلا» ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] وكان من حكم «هلا» مجاورة الفعل الماضي، يقال من ذلك: ألا فعلت كذا كما قال: هلا فعلت كما يقول القائل في حال المعتبة لمخاطبه: مالك يا هذا تأبى من كذا ألا فعلت كذا؟ أو هلا فعلت فتكون بذلك كذا؟ فيكون معنى قوله: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] [مالك ألا سجدت فتكون مع الساجدين من الملائكة والمهتدين من ذريته]^(١).

وجاء [ها]^(٢) هنا ذكر السجود بلفظ المستقبل في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢] وما منعك ألا تكون مع الساجدين؟ لكن هنا الخطاب مركب من معنيين:

أحدهما: ما تقدم ذكره من تعجيزه وانفراد العلي الكبير - عز جلاله - بالقدرة، [ومعنى السببية]^(٣) التي خضع لها وخشع بقوله: ﴿رَبِّ بِمَا أَعْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩].
والمعنى الآخر: هو تأنيبه وتوقيفه على [مخالفة]^(٤) الأمر وتهديده، عبر عن هذا المعنى قوله في «ص»: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي

يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما خيب، حسب ما تقدم من المعاني الثلاثة في ﴿أَعْوَيْتَنِي﴾ والصراط المستقيم هو الطريق الموصل إلى الجنة، و«صراطك» منصوب على حذف «على» أو «في» من قوله: ﴿صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كما حكى سيويه «ضرب زيد الظهر والبطن ومن أحسن ما قيل في تأويل ﴿ثُمَّ لَا تَبْنِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: لأصدنهم عن الحق، وأرغبهم في الدنيا، وأشككهم في الآخرة، وهذا غاية في الضلالة، كما قال: ﴿وَلَا ضَلَالَتُهُمْ﴾ حسب ما تقدم، والحكم بن عتية: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من دنياهم ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ من آخرتهم ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني حسناتهم، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ يعني سيئاتهم، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ أي: موحدين طائعين مظهرين الشكر.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ومضاء المشيئة».

(٤) في النسخة (ق): «مخالفته».

أَسْتَكْبَرْتُ أَمْ كُنْتُ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ [واستباق] ^(١) اسم العزة في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] إذ العزيز يفعل ما يشاء، ويضل من يشاء، وينفذ أمره فيمن يشاء هدايته وفيمن يشاء إضلاله، وتكون له مع ذلك الحجة البالغة، وهو الحميد المحمود مع أنه لو شاء [لهذاكم] ^(٢) أجمعين، فكان هذا من ذكر العزة إيماء إلى ما توجه إليه الخطاب من تعجيز إبليس، وتوحد العزيز العلي بالعزة والقهر، ومضاء المشيئة العالية وهكذا هو يظن إذا أظهر، ويظهر إذا أبطن ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ يريد وهو أعلم: أسماء الله ﷻ، وأسماء الموجودات، وأسماء الملائكة الموكلين بإيجادها وتدميرها على ما يقتضيه مسالك أسمائه في الموجودات؛ إذ لأسمائه آثار في كل ما خلق، وفي خلقه دلائل على كل ما تسمى به واتصف ولكل مخلوقاته ملائكة موكلون به فخاص وعام، وأسماء ملائكته على كل موجود موافقة [وجدت له] ^(٣) لوجود كل موجود وجدت له ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ يعني: وهو أعلم [الموجودات] ^(٤) التي في مقتضى أسمائه ﴿فَقَالَ﴾ [للملائكة] ^(٥): ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١] أي الأسماء التي تقتضي هذه الموجودات.

وقوله لآدم ﷺ: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] يعني: وهو أعلم الملائكة بأسمائهم؛ أي: بأسماء أنفسهم فأنبأ كلاً باسمه المطابق لما وكل [إليه] ^(٦) من الموجودات، وكان إبليس - لعنه الله - يومئذ مع الملائكة - عليهم السلام - على مصافه لما وجد له يومئذ فأنبأه فيمن أنباء باسمه الذي هو أولى به بأنه إبليس،

(١) في النسخة (ق): «استاق».

(٢) في النسخة (ق): «لهذاهم».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

وما يسر له من [العمل]^(١) في المستقبل.

فلما أنبأ الملائكة بأسمائهم قال الله ﷻ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي: في مستقبل شأنكم ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٢) [البقرة: ٣٣] أي: ما تخبؤه نفوسكم.

﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطُوفَا بِخِصْفَيْنِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَزَقٍ الْجَنَّةِ وَفَادَاهُمَا رَبُّهُمَا آلَتْهُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٣) قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ^(٤) قَالَ أَهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌّ ومتنعٌ إلى حين^(٥) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ^(٦) يَبْنَىءُ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِيَاسُ الثَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ^(٧) يَبْنَىءُ آدَمَ لَا يَفْنَيْكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسُهُمَا لِيُريَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَأَيْتُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٢ - ٢٧].

قوله ﷻ في [توصيته]^(٨) بالتحرز من فتنة الشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ويقول جل قوله: فراعوا كيده بالغيب لا من حيث ترونه، وقوله: «يراكم» مع

(١) في النسخة (ق): «عمل».

(٢) جواب لـ«ما» وتقرير لما مر من الجواب الإجمالي، واستحضار له على وجه أبسط من ذلك وأشرح، ولا يخفى ما في الآية من الإيجاز؛ إذ كان الظاهر أعلم غيب السماوات والأرض وشهادتهما، وأعلم ما كنتم تبذون وما كنتم تكتمون وما ستبدون وتكتمون، إلا أنه سبحانه اقتصر على غيب السماوات والأرض؛ لأنه يعلم منه شهادتهما بالأولى، واقتصر من الماضي على المكتوم؛ لأنه يعلم منه البادي كذلك، وعلى المبدأ من المستقبل؛ لأنه قبل الوقوع خفي، فلا فرق بينه وبين غيره من خفياته، وتغيير الأسلوب حيث لم يقل: «وتكتمون» لعله لإفادة استمرار الكتمان، فالمعنى: أعلم ما تبدون قبل أن تبدوه، وأعلم ما تستمرون على كتمانهم. تفسير الألوسي (١/٢٦٧).

(٣) في النسخة (ق): «توصيته».

التحذير من كيده «هو وقبيله» يريد الكفار من الجن، وجاء به مقروناً في اللفظ؛ إذ المراد به الجنس، [ذكره]^(١) قبيله لاشتراك مؤمنهم معهم في الغيب عنا؛ لأنهم من قبيل واحد، وخلقهم واحدة، وإن تصرف بهم المشيئة [الغالبية]^(٢) ففترقت بهم السبل في الهداية والضلالة والطاعة والمعصية وحسن الاستجابة لأجل ذلك.

فصل

خلق الله آدم ﷺ من ماء وتراب [ظاهر من ظاهر]^(٣)، وخلق إبليس - لعنه الله - من قبل من نار السموم، ثم ذريته من مارج النار غيباً من غيب، ولما كانت النار لا تظهر إلا فيما علقت به من الظواهر [كان ما خلق منها لا يظهر إلا فيما علق من الظواهر ذاته وعمله ولما كانت النار أيضاً تحيل كلما علقت به من الظواهر]^(٤) إلى النارية خلقاً أو خلقاً [فالحبث كان ما علق]^(٥) عنها يحيل ما علق به من الظواهر ديانة وغواية وضلالة كأنواع الجنون، وما يكون عن لمم [النفس ويحيل ما علق به إلى ضلالتة ليصير]^(٦) عاقبته إلى النار التي خلق منها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

كان رسول الله ﷺ قد شرع لنا الوضوء مما مسته النار، وإنما كان ذلك منه عن ربه ﷻ [إحكاماً]^(٧) منه - جل ذكره - برجس الشيطان المخلوق منها، وإيماء إلى موجود خبئه ولعنته إياه، واستنكافاً من نفخه ونفته وهمزه، ولما ثبت ذلك الشرع خفف ﷻ عن عبادته؛ ليعلم أهل اللقن عنه [لما]^(٨) جعل فيها من طاعتها له، وأنه

(١) في النسخة (ق): «ذكر».

(٢) في النسخة (ق): «العالية».

(٣) في النسخة (ق): «طاهر».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «كان ما خلق».

(٦) في النسخة (ق): «المس وتحيل ما علق به إلى ضلالة لتصير».

(٧) في النسخة (ق): «إعلاماً».

(٨) في النسخة (ق): «بما».

خلقها عن صفة من صفاته، [وجعل خلقه إياها]^(١) سوطاً يسوق بها عباده إليه، وأنه خلق منها الملائكة - عليهم السلام - الذين ينتقم بهم من أعدائه الذين جعلهم سدنة لمواطن أنواع عذابه [وهم]^(٢) عباد له طائعون لأمره، قانتون له، يسبحون بالليل والنهار لا يفترون، وإنه إذا شاء جعلها رحمة كفعله بها في الدنيا، حيث جعل من [نفسها]^(٣) سعيها وزمهريرها جنة معجلة في الدنيا بواسطة فتحه برحمته غلب في ذلك رحمته على غضبه، وقد تاب على كثير من عباده الذين خلقهم عنها بواسطة اللعين، وهم ذريته فأقر أمره جل ذكره على ألا وضوء مما مسّت النار، وجعل هذه الغائبات مع القطع على وجودها دلائل على تحقيق العلم بإيجاده غيباً كلّفنا الإيمان بوجوده، وأوماً إلى ما وراءه مع ما هو عليه من حال الغيب ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧] وكما جعل شياطينهم وكافريهم أولياء للذين لا يؤمنون [وكما جعل شياطينهم]^(٤) منا وسماهم لذلك شياطين بقوله: ﴿شَّيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] وكذلك جعل مؤمنهم أولياء للمؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله شيطان» وفي أخرى: «إلا ومعه القرين»^(٥) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا إن الله أعانني عليه فأسلم، فهو لا يأمرنى إلا بخير»^(٦) فالذي مع رسول الله ﷺ ليس شيطان، إنما هو قرين، والكافر قرينه كافر، [فهو]^(٧) لا يأمره إلا بكفر وشر فهو شيطان.

ثم مفهوم هذا الخطاب من كلا الطرفين أن للمؤمنين أولياءهم من الجن

(١) في النسخة (ق): «وجعله إياها».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «نفسها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (١٠١٧).

(٦) أخرجه ابن حبان (٦٤١٦)، والطبراني (٧٢٢٣).

(٧) سقط من النسخة (ق).

مؤمنون، وأنهم مسلمون لإسلام من قنونا به، وإسلام القرين لإسلام قرينه، وإسلام صغير وإسلام كبير، ولذلك تجد المسلم من المسلمين لا تكاد نفسه تنازعه إلى الكفر ولا إلى الشرك بالله، [ولنجد الآخر من المسلمين لا نزاع عهده^(١)] إلى قتل النفس، ولا إلى شرب الخمر، ولا إلى زنا، هكذا حتى [يلخص المؤمنون على ذرياتهم إلى أن يكونوا]^(٢) كما قال رسول الله ﷺ: «فهو لا يأمرني إلا بخير»^(٣).

ثم مع هذا فلم يمتنع المسلم منا بإسلامه من شيطان مضل وما رد كافر يوسوس إليه ويلقي إلى النفس بواسطة ما في الخلقة من قبيله، ومن كيد يكيد. قال رسول الله ﷺ: «إن عفرينًا عرض لي وأنا في الصلاة، وفي يده شعلة من نار...»^(٤).

فصل

من مفهوم ما جاء به الوحي الكريم أن إبليس كان من الملائكة - عليهم السلام - ولا محالة؛ إذ كان من الملائكة أنه كانت له عمالة يعمل فيها، وإنما عزله [منها]^(٥) ربه ﷻ لمخالفته، وقال له: «اهبط منها» فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج، [فخروجه وهبوطه]^(٦) من السماء أو من الملكوت الذي كان يعمل [فيها]^(٧) ولعنه؛ أي: أبعد من قربه والعمل بطاعته، فالمعلوم بالوجود [والمفهوم]^(٨) أنه عوضه من هدايته ضلالاً، ومن طاعته معصيةً، ومن إيمانه كفرًا، ومن عمله في الملكوت ما يقابله في الطرف الآخر، أيضًا وهو السحر على ضروبه وجميع أنواعه.

(١) في النسخة (ق): «وتجد الآخر من المسلمين لا تنازع عنده».

(٢) في النسخة (ق): «يخلص المؤمنون على درجاتهم إلى أن يكون».

(٣) انظر التخريج السابق.

(٤) أخرجه بنحوه مالك في «الموطأ» (١٧٤٢)، والنسائي (١٠٧٩٣).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فهبوطه وخروجه».

(٧) في النسخة (ق): «فيه».

(٨) في النسخة (ق): «والفهم».

ألا ترى أن السحر روم قلب أعيان فيما سبيله [البواطن]^(١)، وتقليب بواطن من بغض إلى حب، ومن حب إلى بغض، وحقيقة ذلك تغطيه على حقائق [وتحيل على]^(٢) ظواهر، وقد كان قبل عمله في تحقيق إيجاد فالملائكة - عليهم السلام - وهذا يوجب أن يكون ما يأتي به الدجال - لعنه الله - حيلولة وسحراً، لكنه من أعلى نهاية ذاك كذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «فناره جنة وجنته نار»^(٣).

وقال [فيه]^(٤) أيضاً: «يرون السماء تمطر وهي لا تمطر، وترون الأرض تنبت وهي لا تنبت»^(٥).

[ولذلك]^(٦) من واجب الوجود أن ما [في يد]^(٧) عيسى ابن مريم ﷺ حقيقة وجود، وهذا الشهود^(٨) وأبين من أن تجتلب عليه شاهد؛ لأنه في البشر فيما تقارب والملائكة والدجال في البشر فيما [يقاربه]^(٩) إبليس والشيطان.

فصل

قال الله ﷻ [حكاية عن مؤمني الجن]^(١٠): ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُغْوِذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ﴾ [الجن: ٦] هذا نص على أنهم؛ أعني: من كان من ولد إبليس - لعنه الله - [بالحال، وإنساً]^(١١) أيضاً مفهوم وجودهم من الوحي الكريم، فالظاهر من

(١) في النسخة (ق): «الظواهر».

(٢) في النسخة (ق): «تخييل في».

(٣) أخرجه الطبراني (٧٦٤٤)، وفي «مسند الشاميين» (٨٦١)، والحاكم (٨٦٢٠) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني (٤٣٠).

(٦) في النسخة (ق): «وكذلك».

(٧) في النسخة (ق): «أتى به».

(٨) في النسخة (ق): «وجوده وهذا أشهر».

(٩) في النسخة (ق): «يقارب».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «رجال ونساء».

مفهوم ذلك لما أهبط مما هنالك خلق الله له زوجة منه كما فعل بآدم عليه السلام ثم ﴿بَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١].

[وكذلك]^(١) فالظاهر من مفهوم ذلك، وإن كانوا رجالاً ونساء فليسوا على كمال صور بني [بذلك فالظاهر من مفهوم فليسوا على كمال صورة؛ يعني]^(٢) آدم، كما ليسوا على صورة البهائم والأنعام والحشرات؛ أعني: نسل إبليس - لعنه الله - بل هم على صور قاصرة عن صور بني آدم، وإن [تخليلوا فظهروا لمن ظهروا له على صورة حسنة]^(٣)، فإنهم قد منحوا ذلك، وليس في العالمين - أعني: ما هو دون الإنسان - أحسن جملة من صورة الإنسان إلا ما صور على صورة آدم، فإنه حسنت صورته أحسن تصوير، هو العالم الكلي وغيرها من الصور، وإن كانت صور حق فليست كهي وإن كانت الفضائل ليست في النيات، والنيات والفضائل قد خص الله بها من يشاء، وقد نرى الكافر من أحسن الناس صورة، ونرى بعض المؤمنين على غير ذلك.

﴿قَالَ﴾ الله ﴿تَعَالَى﴾: ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا﴾ فما يكون لك أن تتكبر فيها ﴿أَهْبِطَا مِنْهَا﴾ جميعاً ﴿أَهْبِطُوا﴾ [منها]^(٤) جميعاً ﴿يَنْزِعُكُمْ لِنَعِصِ عَذْوٍ﴾ [طه: ١٢٣] فالظاهر مما تلاه علينا [أن]^(٥) إبليس أهبط من الجنة وأخرج من حيث أخرج آدم ﴿عليه السلام﴾ وأهبط، وإن كان [أخرج]^(٦) إبليس - لعنه الله - قبل خروج آدم ﴿عليه السلام﴾، ويمكن أن يكون إبليس أهبط من ملكوت السماء إلى ملكوت الأرض؛ أعني: إلى غيب الدنيا، فإنه قد تقدم أنه عزل من الملكوت، وإنما له من ذلك البطل والخسر، لكن ذلك وجود ما لا يمكن جحده ولا [إبطاله]^(٧)، وقد أوجده على يديه وبواسطته. انتهى.

(١) في النسخة (ق): «ولذلك».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «خليلوا وظهروا لمن ظهروا لهم على صورة خسيصة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «إخراج».

(٧) في النسخة (ق): «إنكاره».

وأما آدم عليه السلام فإنه أُخرج من باطن الدنيا إلى ظاهر الأرض، [فمنزلة] ^(١) الجن في هذه الدار في غيب دون غيب البرزخ، ولذلك كان حكم البرزخ [غائباً] ^(٢) عنهم. قال رسول الله ﷺ في [الجنّازة] ^(٣): «يسمعا كل شيء إلا الثقلين» ^(٤).

ومنزلة نحن منها [ظاهر في حقنا لغيرهم فيه] ^(٥)، لذلك كانوا لنا بمنزلة من يرانا ولا نراه، وهم وإن كانوا في غيب من منزلتنا ومنزلنا مكشوف [لربهم] ^(٦) لا يستطيعون التعلق بالظواهر إلا بإباحة من مالك الأعيان - جل ذكره - غيب الله ذلك عنهم [بغيب] ^(٧) يعرفونه، فلا يفتحون لذلك غلقاً، ولا يحلون لذلك وكاء ولا يكشفون إناء ولا يذهبون بمتاع ظاهر، وهم على ذلك قد أعطوا قوى وقدرًا وأعمالًا وصناعات.

أخبر بذلك الصادق الحق عليه السلام في قوله: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بطاعته، ثم قال: ﴿وَمَن يَزِغُ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ * يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحَارِبٍ وَتَمَائِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ ﴿[سبأ: ١٢ - ١٣] [وقد ورد انسياق] ^(٨) هذا إلى ما [ذكر أن] ^(٩) الجن كانت تعمل وتبني له الصروح الممردة، وتشيد له الملك المعجز.

ولما علم عليه السلام بمجيء صاحبة سبأ إليه قال للملأ حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرَشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ * قَالَ عَفْرِتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿[النمل: ٣٨ - ٣٩] وأخبر الله ﷻ بذلك عنه في معرض وصف ملك سليمان عليه السلام على ظاهر التصديق له والرضا به.

(١) في النسخة (ق): «فمنزل».

(٢) في النسخة (ق): «كان غائباً».

(٣) في النسخة (خ): «الحفائر».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «ظاهر لغيرهم في حقنا نحن هم فيه».

(٦) في النسخة (ق): «لديهم».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «وقدور راسيات».

(٩) في النسخة (ق): «ذكره من أن».

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾^(١)
[النمل: ٤٠] فكان [ذلك]^(٢) الأظهر أن هذا من الجن، وإلا فقد تقدم قول العفريت،
وإنما أجرينَا ذكر هذا تنبيهاً على قهر قدرة الله جلّ ذكره.

وقد أخبر عن جليل أفعالهم وعظيم ما أعطاهم من [قدرة]^(٣) وجودة المصانع
وغير ذلك، ومنعهم [من]^(٤) أن يفتحوا غلقاً أو يجلووا لنا وكاء أو يذهبوا بمتاع هذه
حالهم في غيب ظاهرنا وفي ملكوت منزلنا.

ومن هذه الحقائق يفتح الله على من يشاء من المؤمنين، ييسر لهم من أمرهم
ما يشاء، أصل ذلك صحة الإيمان به وقوة اليقين، والطهارة من الذنوب، فإن ضد
الطهارة من الذنب أخرج آدم عليه السلام من الجنة التي هي معدل [التيسير]^(٥) كله
موضعه، واليقين يشرف بهم عليها في الدنيا ثم [يصير]^(٦) بعد الموت إلى ما هو
أرفع جدّاً وأمكن، والله عليم حكيم.

فصل

المعلوم الذي يجب الإيمان به - والله أعلم - أن الشاك والمنكر لقدرة الله
الغائبة وما تكون عليه هذه الشواهد آيات [محكمات لا يتقل ذلك]^(٧) عن أصل
التوحيد، فإن حاله تلك لا تكتسب [مقام التوحيد]^(٨) كما أنه بتصحيح حال التوحيد
يدرك مشاهدة ذلك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾
[الطلاق: ٢ - ٣].

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

(١) في النسخة (ق): «كذلك».

(٢) في النسخة (ق): «القدرة».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «اليسر».

(٥) في النسخة (ق): «يصيرهم».

(٦) في النسخة (ق): «وإن كان لا يتقل».

(٧) في النسخة (ق): «مقام التوحيد وجدّاً ولا علماً».

فصل

الموجودات المحدثات ما له منها ظاهر فله باطن، وأظهر الظواهر ما خلق الله من ظاهر الموجودات الظواهر، وليس من شرط ما بطن من الموجودات أن يكون له ظاهر كظاهر ما خلق من [ظاهر]^(١) الموجودات، وإن كان له ظاهر بالإضافة إلى باطنه، وقد تقدم أن كل ما خلق من الأصول [الظاهرة خلق]^(٢) خلقاً ظاهراً كآدم عليه السلام وما تحته من العوالم من جماد ونبات وحيوان والعالم الكلي، فالجن إذاً ليس لهم ظاهر وصلوا به إلى البروز [إلى إحكام]^(٣) الظاهر حاشا التعلق بما تعلقوا به من ذلك فيظهروا فيه، وإنما برز إلى الظهور التام ما خلق من التراب والماء والهواء والنار، فاجتمعت فيه الظواهر والبواطن [عطف]^(٤) العلوي وإياه جسد السفلي، وهو من الجملة بمنزلة القلب، ومن القلب بمنزلة اللب مهما عرف نفسه وأطاع ربه، فلما تقدم ذكره لم تتم صورة [الجن في الحق]^(٥) وخالق الكل جل وتعالى ﴿هُوَ﴾ الله ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أحد صمد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٣ - ٤].

فصل

وقد تقدم ذكر إخراج إبليس - لعنه الله - وإخراج آدم عليه السلام من حيث أخرجوا، وإن مسكنهم [في دنيا باطنة فهذه وعالم غيب عنا، فإنهم ليسوا على كمال صورة الحق الذي هو العالم الكلي، وإن لهم مثلاً فيه]^(٦) مُنَحُوا التحول إليها هم منها في حقيقة حق قائم، لكن مجرميهم جل ظهورهم التخيل والكذب والتصور [على

(١) في النسخة (ق): «ظواهر».

(٢) في النسخة (ق): «الظاهرية خلق لها».

(٣) في النسخة (خ): «بما إحكام».

(٤) في النسخة (ق): «عليه عطف».

(٥) في النسخة (ق): «الحق في الجن».

(٦) في النسخة (ق): «مثالات».

ما^(١) ليس هم على حقيقة منه، وأن ذلك من قبيل السحر الذي استعملوا به من قبلهم ظهر وعنهم انتشر.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. وذكر الأنعام وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا...﴾ [يس: ٣٦]. وقال: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]. وهذا خطاب عام في موجودات الدنيا والآخرة، وهذه الدنيا لها ظاهر وهي لآدم عليه السلام وما تبعه وما خلق له، ولها باطن وهي دنيا الجن وما تبعهم وما خلق لهم فيها، وهي التي أخرجوا إليها.

وقد قال الله ﷻ: ﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] ﴿بَغْضًا لِمِ بَغْضِ عَدُوِّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] فإذا لهم دواب وأنعام ومتاع دنيا خصوا بها دوننا سوى ما أشركوا فيها من بواطن ما هو لنا وظواهره.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من شيء يوضع لابن آدم إلا سبق الشيطان إليه يده، فاسم الله يحرمه عليه»^(٢).

وقال: «إن الشيطان يأكل من طعام من لا يذكر اسم الله عليه»^(٣). وقال لمؤمنيه وقد [سألوا القرار]^(٤) في هذه الدار وما يبلغهم إلى الآخرة، فقال لهم: «[لكم]^(٥) كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل

(١) في النسخة (ق): «بما».

(٢) لم أقف عليه هكذا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٢٩٧)، ومسلم (٢٠١٧) وأبو داود (٣٧٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠١٠٣). وأخرجه أيضًا: البيهقي في شعب الإيمان (٥٨٣٠).

(٤) في النسخة (ق): «سألوه الزاد».

(٥) سقط من النسخة (ق).

بَغْرَةَ عِلْفٍ لِدَوَابِكُمْ»^(١).

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٣] المعنى إلى آخره.

وضرب الله مثلاً لدنيا الكافر ودنيا المؤمن بالبحار وما يوجد فيها من لحم طري وحلية، وعبور عليها إلى مقاصد بعيدة وقريبة ومنافع توجد، وضرب مثلاً لدنيا المؤمن بالأنهار، وهي أقل فائدة وأدنى عائدة سوى الانتفاع بعدوبتها، وذلك مثل لحلاوة طاعة الله بالتوحيد وعدوبته، ولمرارة الشرك والبعد عن الله، واشتركا فيما [يخرج]^(٢) منها من لحم طري، وذلك في البحر الأجاج [أكثر]^(٣) وأعم وأفخم وأوجد جدًّا، والحلي المستخرج منه هو المعهود [أو أكثر]^(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٥).

وجل الكفر لإبليس - لعنه الله - [وهو معدنه ومنه منبعثه]^(٦)، ولأجل ذلك كان اليسر أكثر عندهم في الأمور، ألا تراهم يجدون العظم أوفر ما كان لحمًا والبحر علفًا لدوابهم، ودخل مؤمنوهم في ذلك بالتبعية، وحكم الخلقة من التمكن أن تكون مصانعهم في باطن ما هو ظاهر لنا أعظم، ومنازلهم وأحوالهم أفخم، وإن الله - جل ذكره - قد خصَّ بعضهم بفضل على بعض، وجعل لهم منها أكتانًا، وستر بعضهم من بعض كما سترنا نحن [بها]^(٧) بعضنا من بعض؛ لأن ذلك كله وما تبعه

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٧)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٢٧).

(٢) في النسخة (ق): «يستخرج».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «والأكثر».

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٥٦)، والترمذي (٢٣٢٤) وابن ماجه (٤١١٣)، وابن حبان (٦٨٧)، وأحمد

(٨٢٧٢)، وأبو يعلى (٦٥٢٦)، والطبراني في «الأوسط» (٢٧٨٢)، وأبو نعيم (٣٥٠/٦)،

والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٩٧)، والديلمي (٣١٠٣).

(٦) في النسخة (ق): «عنده رأيت وهو معدنه ومنه مبعثه».

(٧) في النسخة (ق): «فيها».

من المتاع والقرآن ومن الممكن أيضًا، والله أعلم بحكمه أن يكون مؤمنوهم في الآخرة في سواحل الجنة كما كانوا في الدنيا في سواحل ما [هنا]^(١)، وفي أفياء ظلالها معاني ذواتها وحقائق حقها، وإن المؤمنين يومئذ يرونهم من حيث لا يرونهم المؤمنون؛ لأن ظواهر المؤمنين يومئذ وبواطنهم تحمل إلى أعلى وجودها أو يكون غير ذلك فالله أعلم، [وإن]^(٢) كافريهم في أشد لهب جهنم وأكبر حرها وسعرها.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥].

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢٨) ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشُّبُهَاتِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٣٠) ﴿يَبْنِيٰ ۖ ءَادَمَ خُدُوًا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٢) ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤) ﴿يَبْنِيٰ ۖ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكَ مَا يَنْتَقِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥) [الأعراف: ٢٨ - ٣٥].

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾^(٣)

(١) في النسخة (ق): «ها هنا».

(٢) في النسخة (ق): «وإن كان».

(٣) قال ابن عرفة: الخطابات في القرآن على ثلاثة أنواع: فمنها: ما هو صريح العموم، مثل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١] ومنها: ما هو صريح الخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم.

[الأعراف: ٣٢] أرجع الخطاب إلى معنى ما تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

وما تقدم ذكره أيضًا من [تحريمهم] ^(١) السائبة، وجعلهم البحيرة والوصيلة بغير هدى من الله، وجعلهم لشركائهم نصيبًا مما رزقهم الله افتراء [على الله] ^(٢)، وكانوا مع ذلك يتخرجون من أن يطوف أحدهم بالبيت الحرام [عريانًا] ^(٣) إلا أن يطوف بثياب أحد من قريش، وكانوا يسمون: الخمس؛ لشدتهم في دينهم، فربما طاف الرجل من العرب أو المرأة عريانين، فأنزل الله جل ذكره: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] أي: من حرم هذا؟ من شرع هذا؟

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وهي لهم في الآخرة ﴿خَالِصَةٌ﴾ [الأعراف: ٣٢] حيث لا يشركهم [فيها] ^(٤) الكافرون والمنافقون.

ثم أنشأ يذكر ما حرمه هو ﷺ بقوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ....﴾ ^(٥) [الأعراف: ٣٣].

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٦)
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكَذِبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ قَالُوا هَٰؤُلَاءِ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشْهَدُوا عَلَيْنَا أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ أَذْخَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ

عليه وعلى آله وسلم، مثل: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنَّ﴾ [سورة الجن: ١] ومنها: ما هو محتمل، كهذه الآية.

(١) في النسخة (ق): «تحريم».

(٢) في النسخة (ق): «عليه».

(٣) في النسخة (ق): «إلا عريانًا».

(٤) في النسخة (ق): «فيه».

(٥) قال الكلبي: لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بذلك، وقالوا: استحلوا الحرم، فزلت. تفسير البحر المحيط (٣٣٨/٥).

كَلَّمَاءَ دَخَلَتْ أُمَّةٌ أُخْتَبِهَا حَتَّى إِذَا أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِجْنَهُمْ لِأَوْلَئِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
أَضَلُّونَا فَفَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ [الأعراف: ٣٦ - ٣٨].

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٧] الذين افتروا على الله الكذب وهم المتنبئون أيضًا هم الذين شرعوا للناس ما لم يأذن به الله، فضلوا بذلك وأضلوا، والذين كذبوا بآيات الله هم الأتباع والمتبوعون، فانظم بمعنى ما تقدم ذكره بالمجاورة والمعنى.

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧] يطوون آثارهم، ويأكلون أرزاقهم، ويعمرون في آجالهم كما سبق لهم [إلى قوله] ^(١): ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨] هذا حال الموت في دار البرزخ يقرن كل كافر بوليّه من الجن فيكون معه في دار البرزخ [يحشر] ^(٢) ويدخل مدخله في جهنم، فللعنبي عذاب السعير، وللإنسي عذاب النار وعذاب جهنم [نعوذ بالله، أعاذنا الله من ذلك] ^(٣).

ويتضاعف لكل واحد منهما عذابه بعذاب قرينه، لذلك قال وهو أعلم: ﴿لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨] و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨] يضاعف لهم الضعفان أضعافًا على مقادير ضلالهم وإضلالهم لإفسادهم وصدّهم عن السبيل.

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأَخْرَجْنَاهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ

(١) في النسخة (ق): «إلى قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧] إلى قوله الحق عز وجل: ﴿جاءهم﴾».

(٢) في النسخة (ق): «والمحشر».

(٣) في النسخة (ق): «نعوذ بالله من ذلك كله».

فَوَقَّهْمَ عَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ [الأعراف: ٣٩ - ٤١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٤٠] المستكبر عن الآيات هنا هو المكذب بالرسالة والنبوة وبما جاءت به، فمعنى الآية: إن الذين [كفروا]^(١) بالله وبرسله، ويكون التكذيب والاستكبار حالين لهم ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] [لما]^(٢) لم يؤمنوا بآيات الله في السماوات والأرض وتعاموا عنها، [ولما لم]^(٣) يشهدوا بشهادتها لله لم تستبشر بهم الملائكة - عليهم السلام - ولا السماوات والأرض بل لعنهم الله ولعنهم اللاعنون، الملائكة والسماوات والأرض وكل شيء يسبح لله وحده، وغلقت أبواب السماء دونهم بعد الموت، ولما لم يعملوا الصالحات ولا صدقوا بالآخرة لم يدخلوا الجنة، ولا كان لهم فيها حظ.

قال الله ﷻ: ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ على عظمه وغلظه، وسم الخياط على ضيقه ودقته لم يوسع سم الخياط ولا صغر الجمل، وقد قرأ ابن عباس وعكرمة هذا الحرف «الْجَمَلُ» بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حبل السفينة الغليظ^(٤) تبارك الله رب العالمين.

علّق ذلك بكون مقدور غائب محال وجوده في مجرى العادة، وذلك [يعلق]^(٥) بالمشيئة العالية ومقدور للعلي الكبير، بل هو مثل ضربه في رجوع جملة المثال إلى موضع الحياة من الجسم وهو القلب، واعتبر ذلك بالزرع تزدرع الحبة، وهي الجامعة لصورة الزرع الأخضر على كماله، فلا تكون الحبة كاملة إلا بأن يلج، المعنى الذي به نشأ الزرع إلى كماله، ولا يكون ذلك من الزمان إلا زمن المصيف،

(١) في النسخة (ق): «كذبوا».

(٢) في النسخة (ق): «كما».

(٣) في النسخة (ق): «ولا».

(٤) يروى عن ابن عباس أنه قرأ (الجمل) بضم الجيم وتشديد الميم، وقال: هو القلس من حبال السفن. [معاني القرآن للنحاس (٣/٣٥)].

(٥) في النسخة (ق): «معلق».

وهو [ظهور اليوم]^(١) الآخر، صحح ذلك القرآن، والوجود عمٌّ عن ذلك في هذا الموضع بقوله: ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ لذلك تقول لهم الخزنة - عليهم السلام - في بعض محاوراتهم إياهم: ﴿ذَلِكُمْ﴾ يريدون مكثهم في النار ﴿بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا...﴾ [غافر: ١٢] إلى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

[كذلك]^(٢) جعله علة الرؤية ظهور المقدور الحاضر [في قوله]^(٣): ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وكون الجبل مستقرًا مكانه معهود مشاهد، فحصل العلم بوجود الرؤية واليقين [بمثالها]^(٤) والحمد لله رب العالمين، كما حصل اليأس من خروجهم من النار.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢) ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ فَجَرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَلَّتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تُلَكُّمُ الْجَنَّةَ أَوْ رُشْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِذْ نُودُوا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٤٤) ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمَّا دَخَلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ (٤٦) ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٧) ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ

(١) في النسخة (خ): «أوان ظهور النور».

(٢) في النسخة (ق): «ليس كذلك».

(٣) في النسخة (خ): «قوله».

(٤) في النسخة (ق): «بمثالها».

تَحْزَنُونَ ﴿١٩﴾ [الأعراف: ٤٢ - ٤٩].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا...﴾ [الأعراف: ٤٤] لو تكلم الكافر بعد الموت لأخبر لا بد ولا محالة؛ [لأنه]^(١) قد وجد ما وعده ربه حقًا من العذاب وسوء المصير، ويشعر هو نفسه أن لو قد مات على ما هو عليه لوجد جزاء عمله حاضرًا، كذلك فعل رسول الله ﷺ بأصحاب القليب.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٤٤ - ٤٥] نشأ الذي في قلب [المؤمنين من العلم بما بين الحالتين]^(٢)، واليون بما بين المنزلتين في الآخرة إلى أذان المؤذن بين الفريقين، يعلم فيه الجميع أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله؛ يعني: ما جاءت به الرسل عليهم السلام ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٥].

ثم قال جل ذكره: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] يعني: بين أهل الجنة والنار، وهذا القرب معلوم عن إثارة الوجود [المفهوم أول افتراقهما هو من موضع واحد، ثم لا يزال الفراق يطول والبعد يتأكد أبدًا، وكذلك البيت أقرب ما يكون حال موته بين أهله، ثم]^(٣) لا يزال شخصه يبلى وذكره ينسى، وأثره ينقطع حتى يبعد كل البعد، كذلك قال عز من قائل يصف حال المنافقين في عرصة [المحشر]^(٤): ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورًا لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ...﴾ [الحديد: ١٣].

[الظاهر المعهود أن هذا الإعلام بهذا الخطاب من لدن قوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ [ص: ٥٦] إلى قوله: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ [ص: ٥٩] قالوا: أي: المورد وعليه ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٣٦] في النظر إليها.....]^(٥).

(١) في النسخة (ق): «بأنه».

(٢) في النسخة (ق): «المؤمن من العلم بما بين الحياتين».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «المحشر وبعد الموت حال البرزخ».

(٥) سقط من النسخة (ق) وبياض في النسخة (غ).

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦] قيل: الأعراف: موضع مشرف بين الجنة والنار، وربما سُمي الموقف والموضع بمعنى أهله، فالله أعلم.

والأقرب أنهم قوم قد عجزت حسنتهم عن أن تدخلهم الجنة، ولم تبلغ بهم سيئاتهم أن تدخلهم النار، وكانوا مع ذلك يعرفون في الدنيا، ويعرفون [كشهادة]^(١) الرؤساء وأشباههم، فوقفوا لتخلفهم بموضع مفترق الجمع، فتمر بهم زمر أهل الجنة ذات اليمين، وزمر أهل النار ذات الشمال [نعوذ بالله من سوء المصير، يعرف الأولون منهم الأولين من أهل النار]^(٢) ويعرف الآخرون الآخرين بسيماهم، سيما هؤلاء سواد الوجوه وزرق العيون، قد غشيتها الغبرة وترهقها القترة، ومن سيماهم وسم على الخراطيم، فعدل بصورتهم عن صورة الحق إلى صورة الخنازير والقردة، وأنواع [الحيات]^(٣) التي كانت طباعهم تميل إليها، ومن سيماهم كتب بشمائلهم، وسيماء المؤمنين بياض الوجوه واستبشارها وضحكهم، كتبهم بأيمانهم مكرمون.

ووجوه أصحاب الأعراف إلى الجنة كما كانوا في الدنيا قلوبهم ووجوههم إلى الإسلام والإيمان، ينادون أهل الجنة بالسلام والترحيب والتهليل والتلبية^(٤)، وأصحاب الأعراف لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطعمون في رحمة الله جل ذكره، ثم تصرف أبصارهم إلى أصحاب النار فيرون سوء مصيرهم [فيئسون]^(٥)، ثم يتهلون إلى ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧].

ويعرف أصحاب الأعراف [منهم]^(٦) رجالاً كانوا في الدنيا رؤساء متبوعين فينادونهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨] فيجيبهم أولئك ينقمون عليهم موقفهم ذلك، يعيرونهم باحتباسهم

(١) في النسخة (ق): «كشهرة».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الحيوانات».

(٤) في النسخة (ق): «الإيمان والإسلام ينادون الجنة بالسلام والترحيب».

(٥) في النسخة (ق): «فيئسون».

(٦) سقط من النسخة (ق).

عن إخوانهم هنالك [بجواب]^(١) حذفه، ومعناه والله أعلم: وأنتم فما أغنى عنكم دينكم الإسلام وما كنتم تعبدون، فيجيبهم أصحاب الأعراف بجواب هو محذوف. أظهر هذا، وهذا ما بعده وقبله معنى الجواب والله أعلم: إنا طامعون في رحمة ربنا أو ما يكون من الكلام معناه هذا، [فيقولون]^(٢) لهم أصحاب النار بجواب حذفه أيضًا معناه [وهو]^(٣) أعلم: والله لا ينالهم الله برحمته أبدًا، فيغضب الله رب [العالمين]^(٤) ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لهم من أجل قولهم ذلك وللحظ الذي [له]^(٥) فيهم، وهو الذي قدره وأبدأه منهم برحمته، فيقول جل قوله: ﴿أَهْؤْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٦) [الأعراف: ٤٩].

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنِ افْعِلُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَكِبَ غَرَرَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَفْنَا قَوْمَهُمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٨) وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هَذَا ذِكْرًا لَّعَلَّ قَوْمٍ يُوْمِنُونَ﴾^(٩)

(١) في النسخة (ق): «الجواب».

(٢) في النسخة (ق): «فيقول».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «العزة».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) إشارة لهم إلى أهل الجنة الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم؛ لفقيرهم وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ يقال لأصحاب الأعراف: ادخلوا الجنة، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون. وفائدة ذلك: بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها، وأن أحدًا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قبضتهم، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً. الكشاف (٢/٢٣٥).

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ
 فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ
 عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
 ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ
 بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٣﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا
 يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ
 رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ
 رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ بِأَمْرِهِ إِذْنًا رِيًّا
 وَالَّذِي جُمِعَ لِيُخْرِجَ الْأَنْبِيَاءَ كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴿[الأعراف:

. [٥٨ - ٥٠]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
 يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨] أعلم ﷺ بحقيقة الحق الذي بثه في عالمه وخلق به
 السماوات والأرض وما بين ذلك في الستة الأيام من الدهر التي أولها السبت
 والأحد^(١) إلى الخميس.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُورُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
 أَنْدَادًا﴾ [فصلت: ٩] يعني: وهو أعلم السبت والأحد، خلق التربة يوم السبت، وخلق
 الجبال يوم الأحد، وقيل هذا في هذين اليومين خلق السماء دخانًا مرفوعًا في
 الهواء، ثم [باركها]^(٢) في الأرض، وقدر فيها أوقاتها في الأربعة الأيام الباقية وقبل
 هذا في هذه الأربعة الأيام قضى السماوات سبعة فصلهن بعضهن من بعض،

(١) في النسخة (ق): «ثم الأحد».

(٢) في النسخة (ق): «بارك».

وأغطش ليل السماء الدنيا وزينها بالنجوم وحرسها بالرجوم، وأخرج ضحاها وأوحى في كل سماء أمرها في أربعة أيام سواء للسائلين.

ثم استوى إلى السماء وهي دخان [فقط]^(١) فعطف بحرف «ثم» على قوله: ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: إن قضاءه السماوات وتفصيلهن كان بعد اليومين الذين خلق الله فيهما السماء دخاناً، والأرض والجبال بين ذلك في موضع آخر من كتابه في قوله: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩].

[ثم قال]^(٢): ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] إلى آخر المعنى، فبيّن بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ وليس المشار إليه [بقوله]^(٣) إلا ما ذكره من إتمام أمر السماء، فهذه الستة الأيام التي خلق الله فيهن السماوات والأرض بنص القرآن.

ثم [بيّان]^(٤) رسول الله ﷺ حيث قال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال يوم الأحد، وخلق الشرى يوم الإثنين - وفي أخرى: «[البحر]^(٥) والماء» - وخلق الظلمة يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق السماء أولاً ثم الأرضين»^(٦).

وإنما أخبر هنا عن خلقه الأرض، ولذلك لم يعرج على ذكر السماء إلا عن جنب، ولما كان الغرض في سورة «النازعات» الإخبار عن السماء أعلم [بتقديمه]^(٧) خلق السماء فقال: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «بقوله: ذلك».

(٤) في النسخة (ق): «بتبيان».

(٥) في النسخة (ق): «الشجر».

(٦) أخرجه البخاري في «التاريخ» (٤١٣/١) وقال: قال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب، وهو أصح. ومسلم (٢٧٨٩)، وأحمد (٦٣٢٣)، والنسائي في الكبرى (١١٠١٠)، وابن خزيمة (١٧٣١)، وأبو يعلى (٦١٣٢)، والديلمي (٢٩٢٧) بنحوه.

(٧) في النسخة (ق): «بتقدمه».

إلى آخر المعنى، إلى قوله: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠] فالسمااء هي الأولى في الإيجاد وقضاء الأمر والتفصيل والتبريك، ويتلوها الأرض في جميع شأنها وذلك كله في الستة الأيام.

ثم قال عز من قائل: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ....﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الحديد: ٤].

وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣].

وقال في موضع آخر: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَغْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤ - ٥] المعنى إلى آخره حيث جاء ينبئ فيه أنه ﷻ فعل فعلاً ما على العرش سماه استواء؛ لأنه قصد إلى التسوية والسواء؛ [أي: الإتمام والإكمال والعدل ونحو هذا، فسوى كل موجود على وجوده الذي شاء به، وله التسوية على العرش العظيم]^(١).

دل على هذا التوجيه قوله جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] أي: فصلهن وأكملهن، وأوحى فيهن أمرهن بحكم سواء وتدير عدل على ما [سوى]^(٢) علمه، فسمى الفعل الذي هو قصد إلى المقصود باسم مشتق [من اسم المقصود لما قصد

(١) في النسخة (ق): «إلى الإتمام والإكمال على ما قد سبق في مشيئته».

(٢) في النسخة (ق): «سبق في».

إلى تسوية السماء سمي القصد: استواء، وذلك^(١) المعهود في لسان العرب الذي نزل القرآن به، تقول: «اكتوى زيد» إذا قصد الكي، و«استقاء» إذا [استفعل]^(٢) القيء. قال الله جل من قائل: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [النساء: ٤٣] أي: اقصدوا، من يمت الشيء: قصده، سمي [ذلك]^(٣) الفعل تيممًا.

وقال رسول الله ﷺ: «التيمم ضربة للوجه وأخرى للذراعين»^(٤) فسمي الفعل الذي هو بدل من الوضوء تيممًا، وأجرى المسلمون اسم التيمم على [الفعل الذي هو بدل من البدل كذلك كلمة الاستواء ورفع على الاستواء الفعل]^(٥) الذي هو الإكمال والإتمام والتسوية على النحو الذي أراده، وهذا كثير [معلوم]^(٦) متعارف في كلامهم وفي المعهود من [عباراتهم]^(٧)، والسواء الكمال.

قال الله ﷻ: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِّلْمَسْأَلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] أي: كاملة تامة. وقال: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ [ص: ٧١ - ٧٢] [يعني: أكملته وأتممته]^(٨).

وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا...﴾ [يوسف: ٢٢].

ثم بعد هذا يكون المفهوم من استوائه سبحة من سبحاته - جل ذكره - كما قال في وصف نفسه ﷻ: وتكبر وتعالى [وتبارك]^(٩) ونحو هذا؛ إذ ليس [من فعله

(١) في النسخة (ق): «من المقصود لما قصد إلى التسوية سمي القصد: استواء، وذلك هو».

(٢) في النسخة (ق): «استعمل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه أحمد (١٨٣٤٥)، وابن أبي شيبة (٣٦٢٩٠)، والدارمي (٧٤٥)، وابن خزيمة (٢٦٦)، والطبراني في «الأوسط» (٥٤٢).

(٥) في النسخة (ق): «ذلك كذلك كلمة الاستواء واقعة على الفعل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «عاداتهم».

(٨) في النسخة (ق): «أي: أكملته خلقًا ونفخت فيه من روحي».

(٩) سقط من النسخة (ق).

شيء^(١) إلا وهو دال على كماله وعظمته وجلاله ونعوت تعاليه.

فصل

قال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

فاستواء الإنسان كمال عقله وعمله وتوفر صفاته، والمستوي منه هو المقول له العبد، وموضع استوائه من حيث هو عقل الدماغ، ثم ينزل [منه الأمر]^(٢) إلى القلب، ثم عن القلب تنبعث الدواعي والأغراض والإرادات بالأفعال إلى الجوارح الظاهرة من طاعة أو عصيان، وكان القلب أولى بأن تضاف [الأفعال]^(٣) إليه؛ إذ هو المصدر لها كالإنسان تضاف إليه أفعاله، وإن كان في الحقيقة [مسوقاً]^(٤) أيضاً ومحمولاً عليها؛ إذ كان بإرادته ومشيئته ل يتم أمر الله فيه الذي [له أوجده]^(٥).

عبرة: فالله الحي القيوم ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه لما استوى على العرش ل تتم كلماته صدقاً وعدلاً، وليدبر بأمره السابق في الأزل قبل إيجاد الخليقة حيث به الجملة كما حيي جسم الإنسان باستواء المستوي فيه وعليه، فكان [لذلك]^(٦) كل ما كان في جسمه [معلق ما]^(٧) له محسوس ظاهراً وباطناً لا يخطر له خاطر في باطنه، ولا يحدث في جسمه حادث مع التيقظ ووجود الصحة إلا أحسه.

(١) في النسخة (ق): «شيء من فعله».

(٢) في النسخة (ق): «الأمر منه».

(٣) في النسخة (ق): «الأفعال والإرادات».

(٤) في النسخة (خ): «مسوقاً».

(٥) في النسخة (ق): «أوجده له» وبعد هذا الكلام قال: «تنبيه: وقد يجوز أن يعتقد العبد أيضاً أنه مستوٍ في القلب من حيث هو حي، فهو في الدماغ من حيث هو عقل، وفي القلب من حيث هو حي، وهو روح ومن حيث هو إيمان».

(٦) في النسخة (ق): «كذلك».

(٧) في النسخة (ق): «هو معلوم».

والروح أو العقل [المشار]^(١) إليه بهذه العبارة وليس من جنس الجسم ولا وصفه وصفه، بل هو شيء لا [تعرفه]^(٢) جملة الإنسان، ولا يقف على كنهه، ولا يحيط من علمه إلا بما شاء الله - جل ذكره - المالك لكل شيء، فالله الحي القيوم لا إله إلا هو أجل وجوداً وأكرم استواءً وأنزه وصفاً، وصف نفسه - عز جلاله - عند استوائه على العرش بأنه ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢] وبأنه مع كل كائن في جملة العبد الكلي بما هو، وبأنه أقرب إلى كل شيء من ذاته، [إنما]^(٣) هو سبحانه وله الحمد ﴿لَا يَغْرُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ [سبأ: ٣].

قال الله ﷻ: ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الروم: ٨] ﷻ علواً كبيراً.

﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] فيما صنع كيف أتقن مصنوعه العليم بكل شيء^(٤).

واعلم أن هذا منبعث [وصفه الحق بأنه]^(٥) ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] ثم ينشأ هذا الحق بعد تحقيق الولاية، [وإنما يكون]^(٦) عن معنى من نفخة الروح في العبد إلى تحقيق معنى قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن دعاني لأجيبه، ولئن سألتني لأعطينه»^(٧) وإنما ذلك لحقيقة القرب الكائن عن حقيقة التقريب.

(١) في النسخة (ق): «هو المشار».

(٢) في النسخة (ق): «تعرف».

(٣) في النسخة (ق): «بما».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «من وصفه الحق».

(٦) في النسخة (ق): «ويكون ذلك».

(٧) أخرجه البخاري (٦١٣٧) وابن حبان (٣٤٧) والبيهقي (٢٠٧٦٩) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/١).

ثم [إلى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].
قوله الحق^(١): «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، وجعت فلم تطعمني،
[وظممت]^(٢) فلم تسقني...»^(٣).

وكما هو أقرب إلى العبد من وريده من حيث الخلقة فهو إذاً أقرب إليه
بالولاية وجوداً ومعنى وحكمًا [وغنيًا]^(٤)، فهو الذي لا يخلو منه مكان ولا كائن،
[وليس في]^(٥) مكان، فافهم وألقن، فإنه من فهم هذا المعنى على ما هو قرب عليه
البعيد وتيسر [عليه]^(٦) العسير، والله ولي التوفيق.
وقد زاد المحسنين تقريبًا [في قوله]^(٧): ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾
[البقرة: ١٨٦].

قوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] غشيان النهار
الليل إنما يظهر أمر الله فيه من لدن طلوع الفجر، بل من أول الفجر الأول، وهو
البياض المعترض في السماء علوًا إلى طلوع الشمس، كما يظهر انسلاخ النهار عن
الليل من لدن غروب الشمس إلى مغيب الشفق، ثم إلى ذهاب البياض الباقي بعده،
وما عدا هذين فهو فحمة العشاء، [وهو الغسق]^(٨) إلى آخر الثلث الأول من الليل،
ثم إلى النصف من الليل إلى آخر الليل، وذلك البياض الذي يظهر في السماء بعد
ذهاب الفُحمة هو ظاهر بركة التنزل الكريم، وسمى الفُحمة من الليل بغسق؛ لأنه إذ
ذاك كُمل خروجه من النهار [قال الله ﷻ]: ﴿وَأَيُّ لَّهِمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمُ

(١) في النسخة (ق): «إلى حقيقة قوله».

(٢) في النسخة (ق): «وصديت».

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٩)، وابن حبان (٢٦٩).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وليس في يده من حيث الخلقة».

(٦) في النسخة (ق): «له».

(٧) في النسخة (ق): «في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] و﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩] وقوله».

(٨) في النسخة (ق): «وهو الغسق».

مُظْلِمُونَ﴾^(١) فغشيان النهار إياه حكم باطن.

قال الله ﷻ: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧].

وقال في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ [الرعد: ٣].

فقوله: ﴿مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ منتظم بقوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ﴾ لما نصب ﷻ قنن الجبال على شكل الكرة بعد مده الأرض، جعل غسق الليل دائراً مع أعلى قنن [الجبال]^(٢)، ثم أول الليل يسلك النهار من الليل، وآخره يغشيه إياه، ثم قوله: ﴿وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ آيات على وجود موجودات الجنة، ولما كانت الدنيا بالإضافة إلى الآخرة ليلاً والآخرة نهاراً كان غشيان [النهار]^(٣) الليل فيها ها هنا، و﴿يَطْلُبُهُ﴾ إياه ﴿حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] أبداً، كان ذلك آية على طلاب الآخرة للدنيا تطلباً حثيثاً، كما قال جلّ من قائل: ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠] أي: إن النهار مدركه فيغشاه، ثم يمهله لإتمام الأجل المسمى كما تفعل الآخرة بالدنيا، [الآخرة]^(٤) تطلبها وهذه لا تفوتها حتى يأتي أمر الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

وآية أخرى: إن النهار بما هو دولة النور، وموضعه في هذه الدار، والليل على ضد ذلك، فالطلب للأعلى منهما، وهو النهار الذي هو عبارة في طريق التأويل عن النور، والنور في الوجود يطرد الظلام، وليس الظلام بطارد للنور، لكنه خالف له [وقف]^(٥) على تمييز الفرق بين ذلك.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤] أمر الله ﷻ هو شأنه وذكره هنا عبارة عما يقضيه - عز جلاله - من

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الرواسي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فقف».

أمر «إذا قضى الله الأمر في السماء سمعت الملائكة [له]^(١) كوقع سلسلة على صفوان...»^(٢).

وقد تقدم ذكر هذا وتقدم الله العلي - عزّ جلاله - في ذلك الأمر كله بالتقدير العلي وألزم له في الكتاب المبين.

قال الله عز من قائل: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] [أي: ما هو لكل سماء أوحى ذلك إليها؛ أي: الأمر الذي هو الخاص لها، ثم المعلوم لها من خاص وعام على أسبابه وكيانه الذي سبقت به مشيئته في ذواتها، فيخرجه بعد على آجاله، ويرتبه مراتبه وآياته، فكان ذلك الوحي لهن بمنزلة الفطر لجميع الخليفة بميته وبفضله يعطيه [بأمره] قال الله ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦]]^(٣).

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿بَلِ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٦] فكان [معنى خطابه عليه السلام] هذا قومه لما أضافوا الأفاعيل^(٤) إلى الكواكب، ثم نسبوا إليها أصنامهم ونحتوها على أرسادها، وأضافوا ما يصيبهم من [رخاء وشدة]^(٥) إلى الأوثان، واعتقدوا ذلك فيها، ونووه عندها.

قصد إلى منبعث ضلالهم بما أبطل تعلقهم بها وأدحض حجتهم لها، فقال ﷻ: ﴿بَلِ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

كما قال^(٦): ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «أي: هو لكل سماء على الخصوص لها الذي أوجدها له، أوحى ذلك إليها مجملاً محكماً، ثم هو الآن يفصل ذلك إلى يوم يبدلن بغيرهن، غرر ذلك في ذواتها فتخرجه بعد على مراتبه على آياته، كان ذلك الوحي بمنزلة الفطر لجميع الخليفة على ذلك فطر لهن وهو أمر عام، كل أمر له فيهن عنه يفصله تفصيلاً بعد تفصيل».

(٤) في النسخة (ق): «خطابه قومه لما أضافوا الأفعال».

(٥) في النسخة (ق): «شدة ورخاء».

(٦) سقط من النسخة (ق).

[الأنعام: ٧٩].

كما قال يوسف عليه السلام: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] ففطره لهن إيجاباً وأمرهن المقدر إليهن، والأمر الذي أوحى به إليهن هو أمر الإسلام [له، والأمر الذي أوحى في كل سماء وفي كل أمر هو أمر الإسلام له] ^(١) أولاً، ثم ما [كان] ^(٢) من كائن عنهن ومنهن، وكل ما أطيع الله به من عمل أو قول أو شهادة فهو [إسلام] ^(٣)، والأمر النازل من لدنه ﷻ فيما هذا سبيله أمر كون [لا بد] ^(٤) كائناً، وهو المعنى بقوله الحق الذي قال ﷻ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] والأمر الذي [أرسل به] ^(٥) رسله أمر شرع جمعه أو أمر أوجد له ما يقابله في المكلفين؛ أعني: الثقلين، [وهو] ^(٦) العصيان، فلذلك تطرق إليه الخلاف، ليس كذلك أمر الكون.

اتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] والخلق: الإيجاد، والأمر شأنه، وما يقضيه بمشيئته العالية، أجرى أمره من الخلق مجرى الأرواح [من] ^(٧) الأجسام، جمع بها بين الكلمتين، كل ما أوجده من شيء علواً وسفلاً دنياً وآخرة، [ثم تبارك جل ذكره، وسمى بالمنازل سبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع، وأحكم ما خلق، وأحسن ما دبر، فتبارك الله رب العالمين، فجمع كل مذكور من رب ومربوب قديم أو محدث، وما كان وما يكون أبداً وأزلاً] ^(٨).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يكون».

(٣) في النسخة (ق): «إسلام له».

(٤) في النسخة (ق): «جمعه أمور الأبد».

(٥) في النسخة (ق): «به أرسل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «في».

(٨) في النسخة (ق): «ثم تبارك - عز جلاله - عند ذكره ذلك، وتسمى بالمبارك لما كان الأحد في كنهه الأول، ثم أوجد جميع الموجودات ظاهراً وباطناً وأرسل الرسل وأنزل الكتاب

قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] إلى قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] أمر جل ذكره أن يكون الدعاء منا تضرعًا وخفية في حال الدعاء الكريم قربه وعلي وجوده ولغناء ذلك؛ لأنه لا يكون على الأغلب إلا [على علم من] ^(١) بقرب المدعو المرغوب إليه عز جلاله، [لا في حال ذلك من الداعي بعظيم غنى ذلك عند الله ﴿وَخُفْيَةً﴾ من إخفاء الصوت] ^(٢).

وقد مدح جل ذكره [نبيه] ^(٣) زكريا عليه السلام بذلك فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣] وذلك [لا يكون من الداعي إلا [من تجلى] ^(٤) علمه بربه وأصوب لقلبه؛ لأن القلب على ذلك أفرغ] ^(٥) ولأن الدعاء ليس من الأعمال التي يُرجا بها الاقتداء على الأغلب، فكان ترك الإعلان أولى؛ لأن [المخاطبة في حال الدعاء لله جل

تسمى بالمبارك، ولم يزل كذلك؛ لأنه كان من قدره السابق وعلمه العلي أنه سيفعل ذلك، وهو الله ﷻ في غير هذا الموضع ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي: الآن ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] أي: الآن، وإذا شاء تبديل السماوات والأرضين بغيرهن فعل ما شاء من ذلك، فيكون ذلك مزيدًا منه كما قال: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] فهو أبدًا يتبارك بمزيد إلى مزيد، وكان أول ذلك من تبريكه ما أخبر عنه من فعله الأول. قوله الحق: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أنزل عليه الكتاب وملاه حكمة وإيمانًا، وجعله أمينًا على وحيه وسفيرًا عنه ومن عباده، فتبارك لذلك ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] لما كان رسول الله ﷺ في عسرة حال احتج عليه المكذبون بما جاءهم به بقولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۚ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧ - ٨].

أجاب عز من قائل: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ...﴾ هذا ذكره البركة وتسميته باسم المبارك عز جلاله وتعالى علاؤه وشأنه عند ذكره الزيادة والأمر العجب، فسبحانه وله الحمد ما أتقن ما صنع وأحكم ما خلق وأحسن ما دبر فتبارك الله رب العالمين..

(١) في النسخة (ق): «عن علم من الداعي».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «عبده».

(٤) بياض في النسخة (غ) والزيادة لمناسبة السياق.

(٥) في النسخة (ق): «أحسن تفرغًا لقلب الداعي وأصوب لقلبه وأكرم لمناجاته».

ذكره^(١) حقيقة مناجاة من الداعي من قرارة نفسه وخالص من سره، فكأن السر أولى [وأقرب إلى توجيه الخطاب]^(٢) والاعتداء في الدعاء هو في المحافل، وعلى حال الجهر به إذا لم تدع إلى ذلك حاجة.

وقد يُنهى عن الجهر به مخافة السمعة والرياء، وقد يكون [معنى الاعتداء]^(٣) الإدلال، فإنه لا يتم عمل عامل بالإحسان حتى تباعد الإدلال والتعدي لظوره، وقد يكون الاعتداء [في الدعاء]^(٤) أن يسأل ربه ﷻ ما ليس له سؤاله، مثل [أن يسأله]^(٥) أن يجعله نبياً أو رسولاً ونحو هذا، وقد [سئل]^(٦) ذلك، وقد عبر عن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة»^(٧) فإذا تم الدعاء على شروطه [وأوصافه فقد قال]^(٨): ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [ثم قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي: بالعمل بطاعتي ﴿وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] إلى مسؤولهم يسألونه فيجيبهم يومئذ.

يؤيد هذا التأويل^(٩) وهو إذا أحسن في أداء الدعاء على ما أمر به، فقد قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ومن الدعاء ما هو قد وافق [أجل المدعو فيه، ومنه ما هو على المثل]^(١٠)، ومنه ما لم يأذن الله في إتمامه، وسبق الكتاب بخلافه، وقد سأل رسول الله ﷺ

(١) في النسخة (ق): «المخاطبة حال الدعاء».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الاعتداء المنهي عنه أيضًا في الدعاء».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «سؤال أحدنا».

(٦) في النسخة (ق): «سد».

(٧) تقدم تخريجه.

(٨) في النسخة (ق): «قال عز من قائل».

(٩) سقط من النسخة (ق).

(١٠) في النسخة (ق): «حضور أجل المرغوب فيه».

[ربه] ^(١) ثلاثاً فأعطاه اثنتين ومنعه الثالثة ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن بَعَدَ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦] غير أن الداعي إذا صحت نيته وقويت [خشيتة] ^(٢) فهو أيضًا بين ثلاث: بين أن يقضي حاجته معجلًا أو مؤجلًا، وبين أن يصرف عنه من السوء ما هو [أكثر من حاجته لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر ذلك له] ^(٣).

قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ...﴾ [الأعراف: ٥٧] [هذا منتظم] ^(٤) بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثم عطف على ما تقدم ذكره قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ [الأعراف: ٥٧] ناظرًا على المجاورة في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ﴾ [والمعنى بقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾] ^(٥) فأعلم بأمره في الرياح، ثم في الماء، ثم في خلقه ما يخلقه من الماء، ودل بذلك على [الذي] ^(٦) يملك حوائج العالمين، ويسمع دعاء المتضرعين، ويجيب نداء المضطرين، ويعلم السر وأخفى بقوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ...﴾ [الأعراف: ٥٥].

وقد يكون انتظام قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] بمعنى: الدعاء والأمر به تعريضًا بالمجانب [المعجل منه وبالمجانب المؤجل كأمره في الرياح، ثم في السحاب] ^(٧) إذا

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «حسبته».

(٣) في النسخة (ق): «أكرم من حاجته ثوابًا لدعائه وإخلاصه، وبين أن يدخر له ذلك إلى الآخرة، والدعاء من العمل المرضي بل هو خالص العبادة ومحض العمل بطاعة الله، فهو لا يضيع والحمد لله رب العالمين».

(٤) في النسخة (ق): «انتظم هذا المعنى».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «أنه هو الذي».

(٧) في النسخة (ق): «المعجل الإجابة المؤجلة كأمره في الرياح ثم بالسحاب».

شاء، ثم بالماء، [فيتم]^(١) على ذلك حوائج قوم فيسقون ويستقون، وتندى الأرض [وترطب النوى]^(٢)، ثم بآخره ينبت المرعى، ثم بآخره ما يخلق عنه ما [يصدر] عن ذلك إليه ومنه أيضاً^(٣) لأنه منه المؤجل [كما يقول إنما]^(٤) فيخلق عنه المعجل من مخلوقاته [ومؤجلها]^(٥) من نبات وأنعام وأناسي، فلا يسأمن سائل الله جل ذكره، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

[ثم]^(٦) قال: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧] أي: بالماء ينزله من السماء فينبت الأجسام في الأرض، ويأتي بأرواحها من الأجواء، ومن حيث [أحييناها]^(٧) بأمرنا أحكمنا هذا وفصلناه لعلكم تذكرون بحاضر ذلك غائبه، وقد تقدم في سورة البقرة الاعتبار بإنزال الله الماء حسب الاستطاعة ما [يكون]^(٨) فيه تطريق للمبتدئ وتذكير للمنتهي، والله ولي التوفيق، يقول الحق [ويهدي]^(٩) السبيل.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ وقرأ أبو جعفر: [«إلا نكدًا»]^(١٠) بفتح الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف «إلا نكدًا» بإسكان الكاف وجه [الاعتبار]^(١١) وجهة أخرى؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨].

(١) في النسخة (ق): «فيتيم».

(٢) في النسخة (ق): «ويرطب الهواء».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «كما ينزل الماء».

(٥) في النسخة (ق): «والمؤجل».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «أحللناها».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «وهو يهدي».

(١٠) في النسخة (ق): «لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا».

(١١) في النسخة (ق): «العبرة».

اللَّهُ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي
 سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٢﴾ أَوْعَيْبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ
 ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ
 نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٣﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا
 لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
 ﴿٦٤﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصِبْتُ أَنْتَجِدِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ
 سَمَيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ
 الْمُنْظَرِينَ ﴿٦٥﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا
 وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ
 إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا
 تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ آيَةٍ ﴿٦٧﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ
 خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِفُونَ
 الْجِبَالَ يَوْمًا فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ
 اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا
 مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْمِلَ بِهِءٌ مُؤْمِنُونَ ﴿٦٩﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
 بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءٌ كَاذِبُونَ ﴿٧٠﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ
 أَثْنَانَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ
 ﴿٧٢﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحْتَجُونَ
 النَّصِيحِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ
 ﴿٧٤﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْنِسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِقُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْفٰئِزِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرُوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْثَرُوا الْكَيْلَ وَاللِّمَزَاتِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَذَابُهُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَافِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفٰئِزِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَمْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَمْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَمْنُوا فِيهَا ﴿٩٢﴾ فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْفَوِرُوا لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَامَسُو عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴿[الأعراف: ٥٩ - ٩٥].﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾^(١) [الأعراف: ٥٩] إلى آخر القصص كله أرجع [بذلك]^(٢) الخطاب إلى ما تقدم في صدر السورة قوله جل قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] إلى قوله: ﴿وَكُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف: ٤] إلى آخر المعنى، وهذه من آياته في الأرض نَبَّهَ عليها بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ﴾ (يوسف: ١٠٩)^(٣).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] ومن لم يسر [في الأرض]^(٤) فلتكن له أذن سامعة.

[كما قال عز من قائل: ﴿وَكُم أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠] فهذه منها دل على ذلك ما تلاه علينا إلى خاتمة السورة.

قوله - جل قوله - بعض^(٥) نَبَأُ نُوحٍ ~~عليه السلام~~: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] من

(١) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ جواب قسم محذوف؛ أي: والله لقد أرسلنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أرسل وهو ابن خمسين سنة، وكان نجارًا، وهو نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو اسم إدريس ~~عليه السلام~~ ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ غيره علي. فالرفع على المحل، كأنه قيل: ما لكم إله غيره فلا تعبدوا معه غيره، والجر على اللفظ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يوم القيامة أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان. تفسير النسفي (٣٧٤/١).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «فإن الله جل ذكره قد جعل في ذلك الذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد القلب حاضره يعقل ما شاهده ويفهم ما سمعه فيعبر من شاهد ذلك إلى غائبه قوله جل ذكره يقص».

سنة الله - جل ذكره - [إرساله]^(١) الرسل إلى عباده أن جعل في ذلك من حكمته أحد ثلاثة أوجه [الله أعلم بما سوى ذلك]^(٢)؛ ليتقوا ربهم ويصدقوا رسله [فيثابون]^(٣) ثواب المؤمنين.

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] وفي حق هؤلاء لا تكون الرسل مبشرين وهادين ورحمة وغيثاً.

الوجه الثاني^(٤): أن يكذب منهم من سبقت عليه [الكلمة بذلك]^(٥) فيعاقبهم بذنوبهم، وفي حق هؤلاء [يكونون منذرين، وعذاباً وعقاباً].

قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٩]^(٦).

الثالث: أن يكذبوا ويردوا ما [جاءتهم به]^(٧) رسلهم فيستوجبون الإهلاك، فيتقدم إليهم بالأعذار، ويأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم [يذكرون فيتوبون، فإذا جاءهم البأس تضرعوا واستعجبوا ربهم، وتابوا إلى ربهم واستغاثوه]^(٨) فيكشف عنهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا...﴾ [الأنعام: ٤٣].

وأما قوم كذبوا الرسل واستمروا [في]^(٩) عتوهم، ولزموا عنادهم حتى [يروا العذاب الأليم، ويحقيق بهم الإهلاك من ربهم]^(١٠) فبعيد عنهم الإقالة.

قال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَخَدَّهْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾

(١) في النسخة (ق): «في إرسال».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وليشيهم على ذلك».

(٤) في النسخة (ق): «والوجه الآخر».

(٥) في النسخة (ق): «كلمة العذاب».

(٦) في النسخة (ق): «يكون الرسل منذرين وفي حق المهتدين مبشرين».

(٧) في النسخة (ق): «جاءت به».

(٨) في النسخة (ق): «يتذكرون ويتوبون ويتضرعون ويستغيثون ربهم ويستغفرونه».

(٩) في النسخة (ق): «على».

(١٠) في النسخة (ق): «رأوا العذاب».

[غافر: ٨٤].

يقول الله ﷻ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

[ومناجاة الله ﷻ على ما حكاها أهل التفسير والقرآن والوجود قد اتفق على ما قالوه والله أعلم، ولعل الذي كان حلًّا بها ولا كان البأس الأول الذي هو اشتراط الهلاك وإعلام العذاب، وهو الحق كما قال في غيرهم: ﴿فَأَخَذْنَاَهُم بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] وقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

قال الله ﷻ^(١): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ﴾ أي: [حين أخذناهم بالبِئْسَاءِ والضراء]^(٢) ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا﴾ [يونس: ٩٨] [وهذا استثناء من محذوف مقدر]^(٣) تقديره: فلم يكن ذلك، أو ما يكون [معنى]^(٤) المرسل إليهم تبليغ

(١) في النسخة (ق): «وما جاء عن بعض المفسرين أنه ما أمال أمة من الأمم سوى قوم يونس فغير صحيح القرآن والوجود قد أصفق على خلاف ما قالوه وإنما جنى هذا المعتقد عليهم في تأويل قول الله ﷻ».

(٢) في النسخة (ق): «إذا أخذناهم بالبِئْسَاءِ والضراء يقول».

(٣) في النسخة (ق): «إذ ذاك وهي الحالة الوسطى التي عبر عنها قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِئْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ثم بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] وقال في موضع آخر: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي من من إرسال الرسل إليهم ثم أخذنا إياهم بالبِئْسَاءِ والضراء ﴿فَنَتَخْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرَّخُوا بِمَا أَوْتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَمَّا هُمْ مُتَبَلِّسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] هذه سنة الله في عباده أقامها فيهم مقام ظهور الملائكة وأعلام الآخرة للمحتضر لا تنفعه إذ ذاك توبة ولا ترجى له إقالة فقوم يونس آمنوا في الحالة الوسطى فأقالهم الله وتاب عليهم إنه هو التواب الرحيم كيف وهو يقول وقوله الحق يبعد عنهم الرجوع والتوبة ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ﴾ أي بالحالة الأولى ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١] فما كان من هؤلاء من آمن إلا قوم يونس آمنوا حين أخذ الله إياهم بالبِئْسَاءِ والضراء ففي قوله ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ﴾ [يونس: ٩٨] محذوف».

(٤) في النسخة (ق): «بمعنى هذا إلا قوم ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَدَابَ الْجَزْيِ فِي

[الرسل]^(١) ومقامه بين أظهرهم [يروضهم]^(٢) ويبلغهم أمر ربهم إليهم إلى [ظهور]^(٣) العذاب معاناة مقام عمر العبد إلى معاناة أسباب الآخرة لحضور الموت، ومقام طول مدة [أيام]^(٤) الدنيا لجميع العباد إلى معاناة طلوع الشمس من مغربها، وما كان الله جل ذكره [ليأتيهم]^(٥) بالبأساء والضراء أولاً ليقدّم إليهم السيئة قبل الحسنة، وما ذاك من [سنه في قضائه ولا في معاملته]^(٦) عباده.

ألا تسمع إلى قول صالح عليه السلام [لقومه]^(٧): ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [النمل: ٤٦] [والحسنة هنا: الإيقان]^(٨) والتصديق، والسيئة: الخلاف [المعهود]^(٩) في أمم الأنبياء [بعدهم]^(١٠)، فإذا كان ذلك اعتادهم الله [ربهم]^(١١)

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿يونس: ٩٨﴾ فَأَقَامَ عليه السلام للامة.

- (١) في النسخة (ق): «الرسول».
- (٢) في النسخة (ق): «يرومهم».
- (٣) في النسخة (ق): «بلوغ».
- (٤) سقط من النسخة (ق).
- (٥) في النسخة (ق): «ليأتيهم به أي».
- (٦) في النسخة (ق): «سنه في قضائه ومعاملته».
- (٧) في النسخة (ق): «يخاطب قومه لما قالوا له: يا صالح ﴿إِنَّا بَعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال لهم».
- (٨) في النسخة (ق): «يقول عليه السلام: ليست هذه سنة الله في حال إنذاره عباده إن هم عتوا أخذهم بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون، فإن أبوا إلا مضياً في كفرهم أتاهم بما أنذرهم به، وهو وصف المكر بهم كما قال عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: ٤٣] إلى قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرَّخُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] ولعلم صالح رسول الله عليه السلام لهذا قال لهم: ﴿لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ [النمل: ٤٦] لهم [....] وقولهم: ﴿إِنَّا بَعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ثم قال لهم: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦] وإنما كانوا يتطيرون بالرسل في الحالة الثانية حين الأخذ بالبأساء والضراء ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ والحسنة هو الإيمان».

(٩) في النسخة (ق): «والعناد المعهود».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) سقط من النسخة (ق).

باليثبات المصائب والخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات [يكفر عنهم بذلك، ويخفف من أوزارهم، ولتقديمهم الحسنة قبل متعوا على ذلك إلى حين.

وأما من قدم الكفر والتكذيب وابتلي بالمصائب والبأساء فقليل رجوعه بعيد أوبته، فإذا هو لم يرجع جاءه العذاب^(١) فسد مسدود وحجر محجور دون الإقالة، ثم على ذلك لا بد ولا محالة وجود التلاوم [والإقرار منهم حيث]^(٢) لا ينفعهم كذلك المحتضر من [الكبار الندم والرجوع ولا قبول]^(٣).

قال الله ﷻ: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وقال جل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [استغاثته منه بربه ﷻ ﴿ارْجِعُونِ﴾ يخاطب ملائكة الموت]^(٤) ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ فيقول ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] [أي: لا بد من قولها ولا تنفعه]^(٥).

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَاهُمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَبُوا فَاَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ

(١) في النسخة (ق): «يتأتى بهم إن كانوا كافرين أو يخفف عنهم أوزارًا ويكفر عنهم سيئات إن كانوا موحدين فمتى جاءهم العذاب بعد هذا».

(٢) في النسخة (ق): «وحضور الندامة إياهم والإقرار منهم بالظلم لأنفسهم حين».

(٣) في النسخة (ق): «الكفار لا بد من الندم والرجوع ولا بد من سد قبول التوبة دونه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يعذبون فيه يعني البرزخ يكون عذابهم فيه أكبر من عذابه إياهم في الدنيا ودون عذاب الآخرة الذي هم صائرون إليه بعد البعث نعوذ بالله من أحوالهم في الدنيا والآخرة».

الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتْسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٢].

قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم...﴾ [الأعراف: ٩٦] أعلم ﷺ أن كل ثمرة تنقص أو مصيبة تنزل بقوم أو مكروه يحل بهم، فإن ذلك لتكذيبهم بآيات الله، أو غفلتهم عنها، أو لذنوب هم مقيمون [فيها]^(١)، وأن الفرج من ذلك بالتقوى [والإيمان والعمل بطاعته]^(٢).

فصل

[هذا قول الله - جل ذكره - وقوله الحق]^(٣) وقد جاء أيضاً: «أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمتل والأمتل»^(٤) (٥).

وقال جل قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الزخرف: ٣٣] المعنى إلى آخره، حيث وقع [كقول]^(٦) رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد رأى خزانته وما وقعت [عينه]^(٧) إلا على أهب يسيرة وقرظ فبكى فسأله رسول الله ﷺ عن بكائه، فقال: «نظرت إلى خزانتي وذكرت فارس والروم وما أوسع الله لهم» [فقال]^(٨): «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة»^(٩) ونحو هذا كثير.

(١) في النسخة (ق): «عليها».

(٢) في النسخة (ق): «وتجديد التوبة».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الأمتل فالأمتل».

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «ولقول».

(٧) في النسخة (ق): «عينه فيها».

(٨) في النسخة (ق): «فقال لهم يا عمر».

(٩) أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩)، وابن ماجه (٤١٥٣)، وأحمد (١٢٤٤٠)، وأبو

يعلى (٢٧٨٣)، وأبو عوانة (٤٥٧٣).

واعلم - وفقنا الله وإياك - أن هذا حق وهذا حق، لكنه متى جازى على الذنوب [والكفر ورد الرسل خير]^(١) ما بأولئك على القدر الذي شاءه، [وإذا كان الحكم علم وضع الدنيا على ما وضعها عليه، فإن الدنيا جنة الكافر ليتم مراده فيها، كما قال جل قوله: ﴿وَأَنْ لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا * لَنَقُتَنَّهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ - ١٧] متى كان الحكم..]^(٢) من جهة النظر من عبده والأخذ له بالأولى فالتخفيف عن المؤمنين من أثقال الدنيا [وأوزارها لذنوب توجب ترك التوقعة عليهم]^(٣) منها، والله عليم حكيم.

[صدق رسول الله ﷺ هي جنة الكافر؛ إذ كونه في هذه الدنيا محجوب عن النار وما فيها من ضروب العذاب وأنواع الأنكال، وهي أيضًا سجن المؤمن؛ لأنه فيها محبوس عن الجنة والرجوع إلى ربه ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢] المعنى هو موضع الإقامة، يقول: كأنهم لم يكن لهم فيها بقاء، بل ذهب بهم وما كانوا فيه من بقاء وسكن وأموال وأولاد وغير ذلك، ثم قال وقوله الحق: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٢].

يقول ﷻ: ﴿خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ﴾ [الزمر: ١٥] الذين كانوا في الدنيا، وتبين فصل بينهم فيما هنالك وخسروا أيضًا ملكهم الذي كان قد أوجد الله لهم في الجنة ورثه المؤمنون الذين استجابوا لله ورسوله.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠ - ١١] كما ورث أيضًا الكفار والمكذبون لله والرسل مجال المؤمنين في النار نعوذ بالله من ذلك^(٤).

(١) في النسخة (ق): «وتكذيب الرسل غير».

(٢) في النسخة (ق): «وما وضع الله الدنيا عليه فهي جنة الكافر وسجن المؤمن، وإذا كان الحكم».

(٣) في النسخة (ق): «وأوزار الذنوب يوجب ترك التوسعة عليه».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾^(١) [الأعراف: ٩٧] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] أنبا جل ذكره أن بأسه لا يأمنه [المؤمن الغافل]^(٢) عن ربه نهاراً دون ليل لا ليلاً دون نهار ولا ساعة دون ساعة، إنما يأمنه الغافلون [المكذبون]^(٣)، أولئك هم الخاسرون.

أعقب ذلك قوله: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾^(٤) [الأعراف: ١٠٠] تبّه أهل الغفلة [والعاقبة إلى التذكر]^(٥) والاعتاظ بسواهم، فما من أحد إلا وهو في مورث عمن كان قبله فيه قد أخذ أولئك بذنوبهم [خلف هؤلاء في مواضعهم، وخلف هؤلاء في مواضعهم،

(١) الهمزة دخلت على «أمن» للاستفهام على جهة التوقيف والتوبيخ والإنكار، والوعيد للكافرين المعاصرين للرسول ﷺ أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك، والفاء لعطف هذه الجملة على ما قبلها، وقال الزمخشري: فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟ قلت: المعطوف عليه قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطفت بالفاء؛ لأنّ المعنى: فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن ﴿أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ وأمنوا أن يأتيتهم بأسنا ضحى. انتهى. تفسير البحر المحيط (٤٠٤/٥).

(٢) في النسخة (ق): «مؤمن عاقل».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أي: يخلفون من خلا قبلهم من الأمم، والمراد بهم كما روي عن السدي: المشركون، وفسروا بأهل مكة ومن حولها، وعليه لا يبعد أن يكون في الآية إقامة الظاهر مقام الضمير إذا كان المراد بأهل القرى سابقاً أهل مكة وما حولها، وتعدية فعل الهداية باللام؛ لأنها كما روي عن ابن عباس ومجاهد بمعنى: التبيين، وهو على ما قيل: إما بطريق المجاز أو التضمن، أو لتزيله منزلة اللازم، كأنه قيل: أغفلوا ولم يفعل الهداية لهم ﴿أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: بجزاء ذنوبهم كما أصبنا من قبلهم، وإذا ضمن «أصبنا» معنى «أهلكنا» لا يحتاج إلى تقدير مضاف، و«أن» مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير شأن مقدّر، وخبره الجملة الشرطية، والمصدر المؤول فاعل «يَهْدِي» ومفعوله على احتمال التضمن محذوف؛ أي: أو لم يتبين لهم مآل أمرهم أو نحو ذلك. وجوّز أن يكون الفاعل ضمير الله تعالى، وأن يكون ضميراً عائداً على ما يفهم مما قبل؛ أي: أو لم يهد لهم ما جرى على الأمم السابقة. تفسير الألوسي (٢٨١/٦).

(٥) في النسخة (ق): «وأهل العافية إلى التذكير».

أفأمن هؤلاء أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم^(١).

وهذا من المكر الذي خُوف به قبل [هذا، إنما يؤيد هؤلاء، واستخلفهم]^(٢) في تركة أولئك [اختيارًا لهم]^(٣) لينظر كيف يعملون، فمن خالف [أمره]^(٤) واستخف صغار ذنوبه جرّه ذلك إلى كبارها، وكبارها إلى الغفلة والإعراض، وعقوبة الإعراض [الطبع والوقر والعمى، وغير ذلك]^(٥) يكون التكذيب والكفر؛ لذلك [قال عز من قائل]^(٦): ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] [لما عرضوا طبع الله على قلوبهم]^(٧).

ثم قال جل قوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف: ١٠٢] [يريد العهد الأول عهد الإقرار.

وقوله جل قوله]^(٨): ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لَتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ أي: الذي [أقررت له بالربوبية]^(٩) ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

(١) في النسخة (ق): «ثم استخلف هؤلاء فيما تخلف أولئك أفأمن الوارثون أيضًا أن يأخذهم الله بذنوبهم كما فعل بأولئك أو يطبع على قلوبهم لإعراضهم عن هذا الذكر فسيبلغهم السمع النافع».

(٢) في النسخة (ق): «إنما أورث هؤلاء واستخلفوا».

(٣) في النسخة (ق): «اختبارًا منه لهم وابتلاء».

(٤) في النسخة (ق): «أمر ربه».

(٥) في النسخة (ق): «الطبع على القلوب وإلقاء الوقر في الأسماع والعمى في البصائر ثم في الأبصار فلا يرى شيئًا يتذكر به ثم عن ذلك».

(٦) في النسخة (ق): «اتبع هذا المعنى بقوله».

(٧) في النسخة (ق): «حذف هنا ما معناه أرسلنا إليهم رسلنا ثم قال: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٠١] كيف يؤمنوا وقد طبع الله على قلوبهم وأصمهم وأعمى أبصارهم وبصائرهم وعيد شديد لمن تأمله بقلب شهيد».

(٨) في النسخة (ق): «يعني وهو أعلم بما ينزل العهد الذي عاهدهم عليه في البدء الأول ولذلك قال في غير هذه».

(٩) في النسخة (ق): «عاهدتموه وأقررت له بالربوبية ولأنبيائه بالتصديق لذلك أتبع المعنى بقوله».

مُؤْمِنِينَ ﴿[الحديد: ٨]﴾ [فذلك يومئذٍ أي: الذي أشهدتم آباءنا فشهدتم في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْتَضِرُنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] المعنى] ^(١).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأُلْقِيَ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّكَ هَذَا سَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَزِيحُهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تَوَكُّ بِكُلِّ شَعِيرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِنَّمَا أَنْ تُلْقِيَ وَإِنَّمَا أَنْ تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعُلبُوا هَٰذَاكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَهُمْ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ مَآذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَكْرْتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا إِلَهُكُمَا إِلَهُنَا مَنَاقِبُ مِنَّا إِلَآ أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِكَ رَبَّنَا لِمَا جَاءَنَا رَبَّنَا آفِئْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَدُرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ ءَاثِمَتَكَ قَالِ سَنُقِيلُ أَيْدِيَهُمْ وَنَسْتَعِيزُ بِسَاءَتِهِمْ وَإِنَّا لَفَوَقَهُمْ قَاهِرُونَ

(١) في النسخة (ق): «أي مصدقين بما عاهدتم الله عليه».

﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣ - ١٢٩].

قوله ﴿١٣٧﴾: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وفي قراءة أبي وعبد الله: «وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك» وقرأ ابن عباس: «وآلهتك» بكسر الألف [ونصب] ^(١) اللام. قال ابن عباس: [إنما] ^(٢) يعبد ولا يعبد.

وعلى قراءة الجماعة [من فتح الألف وكسر اللام] ^(٣) قيل: إن فرعون كان يعبد ثورا سراً.

عبرة: قال رسول الله ﷺ: «أخرجوا اليهود - [أو قال: المشركين] ^(٤) - من جزيرة العرب» ^(٥).

وقال: «لا يبقين في جزيرة العرب دينان» ^(٦).

وقال: «أنا بريء من كل مسلم مع مشرك [تترأى] ^(٧) ناراهما» ^(٨).

وإن كان قد قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى» ^(٩) فقد قال: «لا

(١) في النسخة (ق): «وفتح».

(٢) في النسخة (ق): «إنما كان».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطيالسي (٢٢٩)، والدارمي (٢٤٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٢٩٩١)، وابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٢٣٤)، والطبراني (٥٦٠).

(٦) أخرجه بنحوه مالك (١٥٨٤)، والبيهقي (١٨٥٣١).

(٧) في النسخة (ق): «لا تترأى».

(٨) أخرجه النسائي (٤٧٩٤)، والشافعي (٩٠٧).

(٩) أخرجه البخاري (٥٤٢٤)، ومسلم (٢٢٢٤)، والطيالسي (١٩٦١)، وأحمد (١٢٢٠٠)، وأبو

داود (٣٩١٦)، والترمذي (١٦١٥) وابن ماجه (٣٥٣٧)، وأبو يعلى (٢٨٧٠).

[يوردن]^(١) ممرض على مصبح^(٢).

وقال: «فر من المجذوم [فرارك]^(٣) من الأسد»^(٤).

ولئن كان فرعون عابد ثور [سراً]^(٥) فقد عبد [بنو]^(٦) إسرائيل العجل جهراً،
نعوذ بالله العظيم من الضلالة بعد الهدى.

[قال رسول الله ﷺ]^(٧): «وعدتم من حيث بدأتم»^(٨) ثلاثاً نعوذ بالله من درك
ذلك.

وبنو إسرائيل وإن كانوا بمصر مسلمين فقد أعداهم الجوار الخبيث يوماً ما،
ألا تراهم فيما يستقبلون يعبدون رجلاً [وهو الدجال]^(٩) كما عبد أهل مصر فرعون؟
وللمجاورة أحكام هذه منها كماء البحران حيث يلتقيان موجود بينهما البرزخ ما هو
ليس بعذب ولا بأجاج، وكذلك غيره من الموجودات.

[وفقه مفهوم هذا ألا يترك دينان في بلد من بلاد المسلمين مع القدرة على
ذلك فقد تبرأ رسول الله ﷺ ممن جاورهم ونهى أن يكونوا من المسلمين بحيث
تترأى نارهما]^(١٠).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ﴾^(١١)

(١) في النسخة (ق): «يورد».

(٢) أخرجه البخاري (٥٤٣٧)، ومسلم (٢٢٢١)، وأحمد (٩٢٥٢)، وأبو داود (٣٩١١)، وابن
ماجة (٣٥٤١)، وابن حبان (٦١١٥).

(٣) في النسخة (ق): «كما نفر».

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٨٠)، وأحمد (٩٧٢٠).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «قوم من بني».

(٧) في النسخة (ق): «قال رسول الله ﷺ لهذه الأمة».

(٨) أخرجه مسلم (٢٨٩٦)، وأحمد (٧٥٥٥)، وأبو داود (٣٠٣٥)، والبيهقي (١٨١٦٦).

(٩) سقط من النسخة (ق).

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

(١١) قال الأخفش: الطوفان: جمع «طوفانة» عند البصريين، وهو عند الكوفيين مصدر كالرجحان،
وحكى أبو زيد في مصدر طاف: طَوْفاً وطَوْافاً، ولم يحك طوفاناً، وعلى تقدير كونه مصدرًا
فلا يراد به هنا المصدر. قال ابن عباس: هو الماء المغرق. وقال قتادة والضحاك وابن جبير

[الأعراف: ١٣٣] [هذه وذكر في سورة النمل العصا واليد البيضاء، وقال له في تسع آيات: «إلى فرعون وقومه» فهذه ثمان آيات، فقيل: إن التاسعة هي الطمس قوله: ﴿اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨] وهذا قول مرغوب عنه؛ لبعده من المعنى؛ لأن الطمس إنما كان بعد إهلاكهم هذا إن كان الطمس [كيان عم] هذا القائل أن جعلها حجارة وأتلفها في الأرض، والأولى أن الطمس هو أن يمنعهم الله إنفاقها في سبيل الله، ولا يوفقهم لإيمان ولا توبة؛ لذلك قالوا - عليهما السلام - في دعائهما: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨] وأرى والله أعلم بما أراد أنها الرجز.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠)
 فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ آكَّرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لَتَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا رَفَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزَ قَالُوا يَمْشَى آدَمُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلَّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَتِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

[الأعراف: ١٣٠ - ١٣٦].

وأبو مالك ومقاتل: هو المطر أرسل عليهم دائماً الليل والنهار ثمانية أيام. واختاره الفراء وابن قتيبة، وقيل: ذلك مع ظلمة شديدة لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحد أن يخرج من داره. وقيل: أمطروا حتى كادوا يهلكون، وبيوت القبط وبني إسرائيل مشبكة فامتلات بيوت القبط ماء حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام. وقيل: طم فيض النيل عليهم حتى ملأ الأرض سهلاً وجبلاً. تفسير البحر المحيط (٤٣٠/٥).

وقد ذكر بقوله: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] إلى قوله جل قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥] وكانوا قبل الرجز كلما أتاهم بآية ضحكوا منها^(١).

فصل

ذكر في الكتاب الذي يُذكر أنه التوراة أن فرعون لما أبى عليهما [واستكبر]^(٢) هو وجنوده، أمر هارون عليه السلام برفع العصا إلى السماء [فأنزل الله عليهم بردًا لم يدع لهم]^(٣) زرعًا إلا أفسده، وموضع المؤمنين؛ يعني: بني إسرائيل في الصحو والعافية، ثم دعواه إلى أن يرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز فأبى عليهما، فأنذرهم بموت يكون في أبياتهم، فلما أصبحوا سمع في كل منزل بكاء وعويل - أو قال: صراخ وعويل - ثم دَعَوَاهُ أُخْرَى ليرسل معهما بني إسرائيل ليعبدوا ربهم في المفاز، فأبى عليهما في ذلك، فأمر هارون عليه السلام برفع العصا إلى السماء، فأصبحوا قد نقطوا ومسهم من ذلك عذاب، فاستغاثوا به ورغبوا إليه أن يدعو ربه [أن يكشف عنهم العذاب]^(٤) ولما كشف [الله]^(٥) عنهم العذاب نكثوا العهد وقد عبر عن ذلك القرآن العظيم.

[قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ...﴾ [الأعراف: ١٣٤] إلى آخرها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ ثم قال جل من قائل: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ [الزخرف: ٤٧-٤٩] المعنى إلى آخره^(٦).

(١) في النسخة (ق): «هذه أربعة وذكر في سورة القصص العصا واليد البيضاء فهذه ثمان آيات، وقال في تسع آيات وأرى والله أعلم أن تمام التسع آيات هي ما أوقع عليهم من الرجز ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وكانوا قبل وقوع الرجز بهم كلما جاءهم بآية ضحكوا منها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فأرسل الله عليهم بردًا لم يترك».

(٤) في النسخة (ق): «في كشف ذلك عنهم».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

وعلى ما [جاء]^(١) في الكتاب الذي يذكر أنه التوراة فالرجز ثلاث آيات والله أعلم، أمنا [بكتاب]^(٢) ربنا، وصدقنا كتبه ورساله، ولعل العصا واليد البيضاء لما كانتا آيتين [لهما على رسلهما]^(٣) إلى فرعون وملائه وقال لهما في تسع آيات: [إلى فرعون]^(٤) فيمكن أن يكون في جملة التسع، ويمكن أن يكون [في معنى]^(٥) [إلى]: فنحن على صدق ربنا وكتبه ورساله من الشاهدين.

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا أَلَيْسَ بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُونُ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَطْلُبُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِيَكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَجَبْتَكُمْ مِّنْ عَادِ فِرْعَوْنَ يَشُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَّيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّنْ رَّبُّهُ أَزْبَعَتْ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِيُحْيِيَنَّا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرِنِي وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَوْقًا فَلَمَّا آفَقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٧ - ١٤٥].

(٢) في النسخة (ق): «بآيات».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «على إرسالهما».

(٥) في النسخة (ق): «حرف في بمعنى».

قوله ﷻ: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٣٧] المستضعفون هم بنو إسرائيل، والأرض المبارك فيها أرض الشام، وهي المقدسة التي كتب الله لهم عمروها ما شاء الله حتى أخرجهم [الله] ^(١) منها حين شاء ذلك، والكلمة الحسنی التي أتمها عليهم هي قوله جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآيتين.

كان فرعون [وقومه] ^(٢) يجدون في العلم أن [بنی إسرائيل يفسدون ملكهم] ^(٣)، وكانوا يحذرون ذلك منهم، فأتى الله كلمته الحسنی عليهم، ثم دمر مصانع فرعون ومنازله، كما ذكر.

فصل

أشبه ذلك من صنع الله جل ذكره لهم صنعه بهذه الأمة لما فتح الله على رسوله ﷺ [والمؤمنين] ^(٤) مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فحج رسول الله ﷺ بالناس [حجة الوداع؛ إذ ألحق الله الحج بدعائم الإسلام] ^(٥) أنزل الله عليه يوم عرفة [في ليلة الجمعة] ^(٦) ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة: ٣] فبكى عمر وقال: [ما تم شيء] ^(٧) إلا بدأ نقصه، وتأخر نقص هذه الأمة إلى نحو الأربعة وعشرين عامًا.

وبينا رسول الله ﷺ يسير بمعسكر المسلمين في بعض غزواته إذ مروا بقوم قد جللوا نخلة من النخلات بأنماط، وهم حولها عاكفون، فصاحوا به من كل جانب: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «قلتموها، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع»

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومن كان معه».

(٣) في النسخة (ق): «من بني إسرائيل من يفسد عايهم ملكهم».

(٤) في النسخة (ق): «وعلى المؤمنين».

(٥) في النسخة (ق): «حجة الإسلام وهي حجة الوداع وهي التي ألحق بها فريضة الحج وبها تم دعائم الإسلام».

(٦) في النسخة (ق): «من تلك الحجة يوم الجمعة».

(٧) في النسخة (ق): «ما من شيء كمل».

حتى لو دخلوا حجر ضب [خرب]^(١) لدخلتموه»^(٢) ثم كان بعده ﷺ ما كان من الفتنه والقتال كما كان في أولئك.

[يقول الله جل من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]]^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»^(٤). وقال ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض فليذادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم ألا هلم» ثلاثًا إلى قوله: «إنك لا تدري ما أحدثوا [بعدي]»^(٥)، إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»^(٦).

[وفي أخرى: «فيؤخذ بأقوام ذات الشمال فأقول: أصيحابي أصيحابي، فيقول الملك: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك...»^(٧) وهؤلاء أصحاب الشمال والله أعلم]^(٨) من أهل الردة، [فهم]^(٩) ماتوا على ذلك أو قتلوا.

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يعني: العرب ومن كان يدين بدينهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] إلى قوله: ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١] إن هذا من أول خلافهم.

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «يقول الله جل من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ يعني: الرسل ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْتُمَا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] كما قال لأولئك: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَزْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٤] المعنى إلى قوله: ﴿فَمَا جَزَاء مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٨٥].

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «بعدك».

(٦) أخرجه بنحوه ابن ماجة (٤٤٤٨).

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٢٥).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «ثم».

ثم جعل يسرد - جل ذكره - خلافهم وعتوهم وفعلهم في نبوتهم إلى قوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾^(١) [الأعراف: ١٧١] وما ذكر هذا ﷺ منهم وأمثاله لتعداد معائبهم، لكن لنحذر على أنفسنا مثل ذلك، [وما]^(٢) نهى عن منهى عنه ولا قص علينا [لغيره]^(٣) قصصاً إلا أصابنا من ذلك ما شاء [كما كان ذلك المحذور أيضاً في جملتهم]^(٤)، فمنهم ومنا المعافى والمبتلى، ولهذه الأمة من فضل الله - جل وعز - أنهم عزروا [نبيهم]^(٥) ووقروه ولم يواجهوه لمخالفة، إنما كان ما كان منهم بعد وفاته ﷺ، ثم هذا أمر له ما بعده، نسأل الله ﷻ الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، ونضرع إليه في العفو والعافية.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] [لما كلم الله - جل ذكره - نبيه موسى ﷺ]^(٦) ألقى في قلبه محبة رؤية من [كان]^(٧) هذا كلامه [فسأله إياها، وكان سؤاله لرؤيته استعجالاً منه لثواب المواعدة، ولم يكن عنده علم بتخصيص الرؤية بالتأخر إلى لقاء الآخرة

(١) ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قلناه ورفعناه، كقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ [النساء: ١٥٤] ومنه: نتق السقاء إذا نفذه ليقطلع الزبدة منه. والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب. وقرئ بالطاء من «أطل عليه» إذا أشرف ﴿وَوُطِّئُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة؛ لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم: «إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم» فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه. الكشاف (٣٠٩/٢).

(٢) في النسخة (ق): «وهو ﷺ ما».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «رسولهم».

(٦) في النسخة (ق): «أي: على حاله هذه في داره هذه ﴿وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] لما كلمه الله ﷻ».

(٧) سقط من النسخة (ق).

ومواعدة فيها، قال له: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] ^(١).

فبعد أن منعه في ظاهر الكلام استدرك - جل وعز - [الرؤية بفصله] ^(٢) ما قد سبق في سابق علمه، [وعلق] ^(٣) جواز الرؤية [لجواز استقرار الجبل واستقراره] ^(٤).
[فعلق كون ما هو جائز كونه بما هو مشاهد وجوده، ولما لم يكن قضى بالرؤية في هذه الدار لم يقر الجبل قراره، فكان من مفهوم هذا أن جواز الرؤية في الآخرة حاصل إن شاء الله حيث استقرار كل شيء على ما يكون عليه.

فصل

لما تدكدك الجبل لتجليه العلي - عز جلاله - وخر موسى صعقاً جاز لقائل أن يقول: إنه رآه حين صعقه ذلك، وكان قوله: ﴿فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] وأن تعلق الوعد بشرط الاستقرار، فإن صدق الوعد له من الله غالب، ورؤيته - جل ذكره - حال الموت والصعق والنوم معلوم جوازها.

عبرة: لما كان سؤال الرؤية في أولهم؛ أعني: بني إسرائيل التي عبر عنها قوله ﷺ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] كان من سوس ذلك في بعض متأخريهم أن يتعلقوا في إيمانهم برؤية مرئي فاتخذوا العجل إلهاً من دون الله وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

(١) في النسخة (ق): «ولم يكن ﷺ علم أن رؤيته خاص للدار الآخرة، وهذا من أدل الدلائل على جواز رؤيته ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه، فإنه لم يلتق ذلك في قلب رسوله، وعزم عليه في السؤال إلا لجائز وجوده واجب كونه؛ لكنه في دار غير هذه وفي حياة غير هذه الحياة، وكان ﷺ في مقعد الصدق ومحل الحق ويجب علينا الإيمان بخواتمه، وإنها صادقة كما يجب الإيمان بكلامه المبلغ إلينا عنه، وما حكى الله عز جلاله ذلك عنه، إلا في معرض المدح له والرضا به».

(٢) في النسخة (ق): «بفصله».

(٣) في النسخة (ق): «ألا ترى أنه علق».

(٤) في النسخة (ق): «باستقرار الجبل مكانه واستقراره مكانه».

ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال إلهاً من دون الله، إنما الإيمان الحق الإيمان على الغيب، وإسلام النفس على ذلك بالجملة تصديقاً، وعلى ذلك وقعت المبالغة ولن يضر الإيمان على الغيب ما يراه المؤمن أو يرى له من رؤيا؛ لأن ذلك من عاجل بشرى المؤمن يتاح ذلك له من غير تطاول إليه.

قوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) أي: من اللوح المحفوظ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: تفصيلاً للوح المحفوظ، يقول تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْهَا﴾ يعني: الألواح والتوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وجزم ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بأيسرها، وعلى قدر ما يكشف للعبد من علم ما هو صائر إليه الغائب الآن على المشاهدة تكلف لذلك من المفيد ﴿سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الرَّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الْفِتْنَةِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾^(١٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٧) [الأعراف: ١٤٦ - ١٤٧].

قيل في التفسير: إن المعني بدار الفاسقين هي: مصر، وأرى - والله أعلم - أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسبيلهم وجماع شأنهم، ولذلك وصل به قوله: ﴿سَاصْرِفْ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ سوف أحرمهم الإيمان

(١) ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ قيل: إن موسى ﷺ صقع يوم الجمعة يوم عرفة وأفاق فيه، وأعطى التوراة يوم النحر، وظاهر قوله: ﴿وَكُتِبْنَا﴾ نسبة الكتابة إليه. فقيل: كتب بيده وأهل السماء يسمعون صرير القلم في اللوح. وقيل: أظهرها وخلقها في الألواح. وقيل: أمر القلم أن يخط لموسى في الألواح. وقيل: كتبها جبريل ﷺ بالقلم الذي كتب به الذكر، واستمد من نهر التور، ففي هذين القولين أسند ذلك إلى نفسه تشريف إذ ذاك صادر عن أمره. وقيل: معنى «كتبنا»: فرضنا، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الضِّيَامُ﴾ والضمير في «له» عائد على موسى، و«الألواح» جمع قلة، و«أل» فيها لتعريف الماهية، فإن كان هو الذي قطعها وشققها فتكون «أل» فيها للعهد. تفسير البحر المحيط (٤٤٦/٥).

بها، وإن آمنوا أحرمهم فهم كتابي وآياتي، ثم أخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ [الأعراف: ١٤٦] أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني، وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.

تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم، فأولئك أيضاً يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته في الموجودين إلا من شاء الله تنبيهه؛ إذ المتغافل عن النظر في كلام ربه وآياته قد أخذ من معنى الفسق بنصيب، فإنه ما أنزل الله كتابه ولا خلق السماوات والأرض وما بين ذلك إلا النظر في ذلك، والعبرة به تم قصد بالإخبار عن المكذبين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧] من تغافل أغفلنا قلبه عن النظر لنفسه بازدياد الإيمان والتطلع إلى معاهد الموقنين، ومن كذب بآياتي وكتابي أحبطنا أعماله وصيرناه إلى سوء المصير. وربما كان المعني بقوله: ﴿دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ زائداً إلى ما تقدم ذكره: أرض الشام؛ إذ كان فيها يومئذ الجبارون، وعلى حال فالعبد ما لم يكذب بآيات ربه ولقائه كان في سعة من أمره إن كان في غمار المسلمين كان من تبعيتهم وساقهم، وإن كان مع ذلك مخوفاً عليه، وإن كان من عليتهم وشغل خواطره بتفهم كتاب ربه والنظر في آياته وتعرف الحق المخلوق به السماوات والأرض، وعبر عن مشهود ذلك إلى غيبه كان في الدرجات العلا إن شاء الله.

اعلم - علمنا الله وإياك من علمه وأيقظنا من سنة غفلتنا - أن الغفلة أصل كل خطيئة ومنبعث كل مكروه؛ لأنها تكسب الوقر في أذن القلب، فتبطل عمل سمع العقل عن الله، والسمع الذي هو سمع الآذان سواء المتصف به والبهائم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١)

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهي الإبل =

[الفرقان: ٤٤] فهو على ذلك لا يسمع شهادات البينات، ويعدم على ذلك التهدي إليها، فلا يراها بقلبه ولا يسمعها بأذنه ولا يشعر لها بوهمه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما فعلت له وإن كان مصدقاً بها في أصل إيمانه.

ولعله أن يحقد بعين بصيرته لأجل وجود إيمانه بما جعلت له فلا يبصر، ويصيح بسمع فؤاده فلا يسمع نداءها، ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة للغيبة عن مشاهدتها في نوادي حضورها ونواديها، فاعلم قد عمت عموم الهوى، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، كيف لا وكل موجود أو مذكور أو غائب أو حاضر من حقائق ذلك ونواديها ولكن لا يشعرون أياهم يعيشون^(١).

والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل للإضراب وليس إبطالاً بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقاً فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودفعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهي بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

(١) هكذا في النسخة (ق)، والذي في النسخة (غ) هو: «هو المعهود»، وإنما يكون منه غير ذلك بخرق العادة، فكان كذلك جواز الرؤية حاصلاً، ولما لم يستقر الجبل على حاله لم تكن الرؤية على حال موسى أيضاً من استصحاب حال الصحة منه، ولما خثر صعباً كما تدكدك الجبل جاز لقائل أن يقول إنه رآه في حال ضعفه؛ ذلك وكأن مجاز الخطاب في قوله: ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاهُ﴾ على حالك تلك [...] الحياة، وهو خطاب جاء على صفة الوعد، وكان وعد الله مفعولاً.

ورؤيته جل ذكره حال الموت والنوم والصعق معلوم جوازها، لذلك والله أعلم قال ﷺ لما أراه ربه من العظمة: ﴿تَبَّتْ إِلَيْكَ﴾ أي: من أسألك [...] الإيمان بك على شرط الرؤية ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يعني: فالله أعلم لما حدث في أمته من هذا المعنى؛ إذ الرسول مثل [...] أول لهم فإنهم قالوا: ﴿يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأمره - جل ذكره - أن يختار من قومه سبعين رجلاً لميقات واعد له، وكان ذلك جانب الطور الأيمن، ورفع الجبل فوقهم حتى كان من فوقهم كأنه الظلة عليهم، فصعقوا ساعتهم تلك، وإن كان ذلك منهم سؤالاً تعسفاً؛ لذلك قال ﷺ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] ولم يذكر موتاً في صعقة موسى ﷺ، وذكره في صعقة السبعين

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمٌ مُّؤْمِنِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا

رجلاً من قومه، فلعل ذلك بون بين الرسول والمرسل إليهم، كما لا بد تفاضلت الرؤية منهم ومنه؛ إذ الرؤية متفاضلة كتفاضل العلم به. قال رسول الله ﷺ وذكر الدجال وحذر منه: «تعلمون أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت». عبرة: [...] أن يكون معنى قوله ﷺ: ﴿ثُبِّثْ إِلَيْكَ﴾ من أن أسألك ما لم يجعل لي، ومعنى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ممن جعلت ذلك له محمد - صلوات الله وسلامه عليهما - فإنه ذكر أن الله فضل موسى بالكلام ومحمداً بالرؤية، ومن الممكن أن يكون موسى قد سبق الله إليه أن ذلك كائن لمن شاءه، وطمع من رحمة الله أن يكون هو لما كان سؤاله الرؤية في عليهم، كان من [...] ذلك في سائرهم إلا من عظم الله ﷻ أن يتعلقوا بعبادة رب مرثي جهازاً، فاتخذوا العجل إلهاً من دون الله.

وقالوا لرسولهم لما أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ومآل أمرهم أن يتخذوا الدجال رباً وإلهاً من دون الله، إنما الإيمان يتلوه في الوجه الثاني التصديق بالغيب رد من رد ما جاء به وكذب به وشرده عنه، ثم يحمد الله على العافية، ويقدم الشكر عليها، ثم إذا انفصل عن قصص هذه الأمة إلى قصص أمة أمة ورسول رسول فهكذا، ثم يرجع إلى نفسه فيفاتشها عن ذنوبها ويتب إلى ربه منها، فإنه ما من أحد إلا فيه الكثير مما كان في أولئك إلا من عصم الله، وإنما صغرت بتقديم الإيمان، وبالدخول في الإسلام، وعلى ذلك فالوعيد عليها قائم بالإهلاك والتشديد موجود بوجود ما قامت بها. قال ﷺ وقد ذكر ما أصاب به قوم لوط ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا...﴾ [الحجر: ٧٤] ثم قال ﷺ: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكون خسف وقذف» وقال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠] أي: كما فعلنا بأولئك، ثم ليرجع على قصص أتباع الرسل وما أصابهم أيضاً في نبواتهم، وذكر خلافهم وعثوهم على أنبيائهم، وقلة تعزيرهم وتوقيرهم إياهم، وإن ذلك إنما [...] من أجل صغار ذنوبهم وإصرارهم على دقائقها، فدفعهم ذلك لكبارها، وكبارها إلى الاجترار على الأنبياء، وقلة التوقير لهم، ودفعهم ذلك إلى تكذيب بعضهم، ثم إلى قتال بعضهم، فاستوجبوا بذلك اللعن والغضب على الغضب. قال الله جل من قائل: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَقِفُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا يَعْثُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] فليتي العبد ربه، وليبادر صغار ذنوبه بالتوبة النصوح قبل أن يدفعه كثرة التلبس والأنس بها إلى كبارها، وكبارها إلى الطبع والإعراض عنه، واللعن والغضب عليه، نسأل الله معافاته ومغفرته، وما هو [...] أن تقع من عين الله ومحبه إلى مقتته، ثم بعده وعباداً به من ذلك».

يَكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ
وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ
﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسَفًا قَالَ بَلْأَسَمَاءُ خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ
وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي
وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ
اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ [الأعراف: ١٤٨ - ١٥١].

قوله ﷺ: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلِيلِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورَ﴾
[الأعراف: ١٤٨] المعنى إلى آخره.

ذكر في شرح بعض الكتب المنزلة والله أعلم: إن بني إسرائيل لما أمروا
بالخروج مع موسى ﷺ من أرض مصر [استعان نساؤهم على^(١) نساء القبط،
وإنما أذن لهم فرعون في خروج يرجعون منه، فأخفى بنو إسرائيل مرادهم
[بخروجهم ذلك]^(٢) واستعار نساؤهم حلي القبطيات للترزين به لمشهدهم ذلك،
وعطف الله قلوب القبطيات عليهن في ذلك فأكثروا من ذلك الحلي والمتاع، وقد
أشار القرآن إلى مصداق ذلك في حكايته عن قول عبدة العجل: ﴿حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ
زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ [طه: ٨٧].

[وإنما]^(٣) اتبعهم فرعون بجنوده كان ما قصه الله جل ذكره [في شأنه]^(٤) من
إغراق فرعون ومن كان معه، وإنجاء [المؤمنين مع موسى]^(٥)، ثم خلوا بعض
محلاتهم وسار موسى ﷺ لمواعدة ربه ﷻ، [واستخلف]^(٦) هارون ووصى بهم،

(١) في النسخة (ق): «استعار نساؤهم حلي».

(٢) في النسخة (ق): «وجهتهم تلك».

(٣) في النسخة (ق): «ولما».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «موسى ﷺ ومن كان معه».

(٦) في النسخة (ق): «وايستخلف عليهم».

فقال لهم السامري: إنكم استعرتم حلي القبط غصباً ولا يحل لكم الاستمتاع به، وحملهم على أن يقذف كل إنسان ما حصل عنده من ذلك الحلي في نار قد استوقدها، [فألقي^(١)] فيها ما ألقاه، وهي القبضة التي قبضها من أثر الرسول ﷺ، وخلق الله ﷻ من ذلك الحلي ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا﴾ يعني: له روح وجسم حي، [فقال^(٢)]: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ قال: وإنما نسي موسى إلهه فهو يطلبه ولا يجده، فاستهوى منهم [من^(٣)] استهوى، ونصحهم هارون بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾ [طه: ٩٠] [وكرر^(٤)] اللغظ، وارتفعت الأصوات في المعسكر بين المهتدين والذين ضلوا [به^(٥)].

ولما ورد موسى ﷺ على ربه ﷻ قال له: ﴿وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ * قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٣ - ٨٤].

[مؤخر التصديق بالغيب، وإسلام النفس على ذلك جملة، وعلى ذلك وقعت المبايعة، ولم يضر الإيمان بالغيب ما يراه المؤمن أو يري له من عاجل بشري يتاح له؛ إذ ذاك في غالب الحال من غير تناول عليه.

قوله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] كما قال - جل وصفه - في القرآن: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلَانَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

ومعنى قوله ﷻ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بعزم وحزم، وعلى قدر ما يكشف الله للعبد من علم الغيب الذي إليه المصير، يكلف لذلك من عدم التقييد، واليقين به لذلك، وهو أعلم.

قال جل قوله: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥] كما قال في

(١) في النسخة (ق): «فألقي السامري».

(٢) في النسخة (ق): «فقال لهم».

(٣) في النسخة (ق): «ما».

(٤) في النسخة (ق): «قال المفسرون كثر».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

هذه الآية: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨].
 ﴿سَارِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] [يريد وهو أعلم دار الشام التي كتب الله لهم. وقيل: هي مصر، وأرى والله أعلم أن دار الفاسقين هو مصيرهم وسيلهم، وجميع شأنهم؛ فإن كان ذلك هو المراد فهو وعد منه كما قال: ﴿وَأَوْزَنَّاَهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] يريد ممالكك فرعون كلها^(١).

ولذلك وصل به قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] يقول سوف أحرمهم الإيمان بها وإن آمنوا أحرمهم فهم كتابي وآياتي، ثم أخذ على وصفهم على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي: الذين آمنوا وكانوا غافلين، يقول: سأحرم هؤلاء وهؤلاء الفهم عني وأصرفهم عن النظر في آياتي وتفهم كتابي.
 تقدير الكلام: والذين آمنوا بآياتي وكانوا عنها غافلين حال إيمانهم؛ فأولئك أيضًا يصرفهم عن الفهم عنه في كتابه وحكمته.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] إلى قوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٧] أنبأ جل ذكره بما يصعد للعباد عن فهم كتابه، والتفقه في معاني خطابه، وما تعمى البصائر عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، وهو التكبر في الأرض، والعمل بغير طاعة الله ﷻ، والإعراض عن سماع المواعظ، وترك الأخذ بأحسن ما يسمعون، وترك الاقتداء بالرسل - عليهم السلام - وهذا كله يكسب التكذيب في الغفلة؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

والعبد ما لم يكذب بآيات الله ولقاء ربه في سعة من أمره إن كان في [عامّة] المسلمين كان من تبعيتهم وسباقتهم، وإن كان من عليتهم في الدرجات العلا؛ وإذ ما يكسبه الغفلة الوقر في أذن القلب عن شهادة البينات وعدم التعدي إليها، فلا

(١) ما بين [] تقديم وتأخير وزيادة واختلاف في النسخة (ق).

يراها بقلبه، ولا يسمعها بأذنه، ولا يسعى إليها بوجهه، بل يدركها بحواسه الظاهرة على غير ما جعلت له، وإن كان مصدقاً بها في أصل إيمانه، ولعله أن يحقق بعين بصيرته وجود إيمانه مما جعلت له فلا يرى، ويصيحخ يسمع فؤاده عساه يسمع نداها ويدرك شهاداتها فلا يسمع، فالغفلة حجاب عن معرفة الحقائق، وعلة الغيبة عن مشاهدتها في بوادي حضورها، واعلم أن بواديها قد عمت عموم [البوادي]، وأنوارها قد أشرقت إشراق الضياء، ولكن لا يشعرون أيان يبعثون.

فصل

قال الله ﷻ في قوله الحق: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧] ومن أبين التبيين في فصول القرآن وأعظمه يقيناً في اقتفاء الموعظة وتوكيد اليقين والخوف من إهلاك الله الأمم الماضية، وأخذة إياهم بذنوبهم. يقول الله ﷻ: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال: ﴿وَسَكَتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

فينبغي لمن أراد سلوك الفهم عن ربه ﷻ في حمل القرآن أن يتمثل نفسه عند قصص كل أمة أنه كالحاضر المشاهد لذلك الرسول، وأنه من جملة المرسل إليهم المبلغ إليهم عن ربهم الرسالة، فيسارع إلى القبول بما جاء به الرسول، وحسن الاستجابة لله بتوهم، ويعقد نية أنه كان يكون في تفرق عجائبه من العالمين به الناصرين له الموقرين المعززين له، وتبرأ إلى الله جل ذكره من قبيح^(١) يمكن أن يكون معنى قول موسى ﷺ: ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤] أي: على هدايتي وسنتي، ويمكن أن يكون [معنى]^(٢) ذلك أنه استتبعهم إلى [المواعدة]^(٣)، فعجل هو سبقاً إلى ربه ﷻ وهم على أثره لاحقون به.

قال الله ﷻ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى

(١) ما بين [] سقط واختلاف في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المواعدة».

قَوْمِهِ غَضَبَانِ أَسْفًا ﴿طه: ٨٥ - ٨٦﴾ أي: حزينًا والأسف الحزن على الفات، فحزن هو الله على ما فاته من هدايتهم.

﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿بَشِّرْهُمْ خَلْفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾^(١) يخاطب بذلك أخاه، ومن كان استعمله [على ذلك]^(٢) ﴿أَعْبَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠] يريد ما قدم إليه أنه يصيبهم بما يغضبه عليهم، وذلك قوله: ﴿وَلَا تَطْفُوا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] وما ذكر شيئاً على هذا التوجيه من خطاب إلا كان من ذلك ما يشاء ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

[وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَن﴾ تقدير الكلام ما منعك من أن تتبعني إذ رأيتهم ضلوا ويمكن أن يكون معناه ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني]^(٣) إلا أمر أريد [به]^(٤) أو أريد بهم؛ إذ يقول له على حال الغضب والأسف: ما منعك ألا تتبعني إذ رأيتهم ضلوا إلا [إرادة منك في ضلالهم]^(٥)، أو ما يقوم مقام

(١) خطاب إما لعبدة العجل وإما لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ أي: بشما ما فعلتم بعد غيبي حيث عبدتم العجل بعدما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه سبحانه وإخلاص العبادة له ﷻ، أو بشما قمتم مقامي حيث لم تراعوا عهدي، ولم تكفوا العبادة عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من حملهم على التوحيد وكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر حين قالوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وجوز أن يكون على الخطاب للفرقيين، على أن المراد بالخلافة: الخلافة فيما يعم الأمرين اللذين أشير إليهما، ولا تكرار في ذكر ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ بعد ﴿خَلْفْتُمُونِي﴾ لأن المراد: من بعد ولايتي وقيامي بما كنت أقوم؛ إذ بعديته على الحقيقة إنما تكون على ما قيل بعد فراقه الدنيا. وقيل: إن ﴿مَنْ بَعْدِي﴾ تأكيد من باب رأيت بعيني، وفائدته: تصوير نيابة المستخلف ومزاولة سيرته، كما أن هنالك تصوير الرؤية وما يتصل بها، و«ما» نكرة موصوفة مفسرة لفاعل «بش» المستكن فيه، والمخصوص بالذم محذوف؛ أي: بش خلافة خلفتمونيها من بعدي خلافتكم، والذم فيما إذا كان الخطاب لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين ليس للخلافة نفسها، بل لعدم الجري على مقتضاها، وأما إذا كان للسامري وأشياعه فالأمر ظاهر. [الألوسي (٣٦٩/٦)].

(٢) في النسخة (ق): «بعده».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «إردتك إضلالهم».

هذا من القول ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٢ - ٩٣].

وقال لقومه: ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾^(١) [الأعراف: ١٥٠].

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾^(١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا الشَّيْئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ^(١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ^(١٥٤) وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتَلْكُمَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن شَاءَ وَتَهْدِي مَن شَاءَ أَنتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ^(١٥٥) ﴿

[الأعراف: ١٥٢ - ١٥٥].

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ١٥٢].

[ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا الشَّيْئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٥٣]]^(٢).

وقال ﷻ للسامري: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَنْبُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ ﴿[طه: ٩٥ - ٩٦] يريد الملك ﷻ، وقرأ الحسن وقتادة [وحفص عن عامر]^(٣): «فقبضت قبضة» بالصاد غير معجمة، [وهو القبض]^(٤) بأطراف الأصابع، وبالصاد منقطة [معجمة: الأخذ بجميع]^(٥) الكف، وروي أيضًا

(١) فيه قولان: أحدهما: يعني وعد ربكم الذي وعدني به من الأربعين ليلة، وذلك أنه قدروا أنه قد مات لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة. قاله الحسن والسدي.
والثاني: وعد ربكم بالثواب على عبادته حتى عدلتم إلى عبادة غيره. قاله بعض المتأخرين.
النكت والعيون (١٩/٢).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحفص بن عاصم».

(٤) في النسخة (ق): «وهذا القبض».

(٥) في النسخة (ق): «القبض بجمع».

عن الحسن [وعن ابن عباس]^(١): «فقبضت قبضة من أثر فرس الرسول» وكذلك هي في قراءة عبد الله بن مسعود.

قال السامري: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦] أخبر عن توجيهه نيته، وإنها كانت لأمر سحري، فولاه [الله جل ذكره]^(٢) ما تولى كما قال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: إنهم كانوا يتركون في تعلمهم من الملكين - عليهما السلام - والعمل بما علموه سبيل الهداية التي كانا يعلمان الناس، ويأخذون بسبيل الضلالة، [وإنما كان ذلك]^(٣) عن تحويلهم نياتهم وتوجيههم إياها إلى ما وجهوها إليه، ولو وجه السامري نيته إلى هداية وخير لوجد ذلك؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٤).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا...﴾^(٥) [الأعراف: ١٤٩] كلمة تقولها العرب [تعبير]^(٦) بها عن صريح الندم وفقدان المقدرة [ووقوع القول]^(٧)، وأراه - والله أعلم - إن في ذلك تقديمًا وتأخيرًا [مجازه إن شاء الله تعالى]^(٨)، ولما رأوا أنهم قد ضلوا وسقط في أيديهم ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩]^(٩).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وحل ذلك».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) قال الزمخشري: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ولما اشتد ندمهم؛ لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعض يده غمًا فتصير يده مسقوطة فيها؛ لأن فاه قد وقع فيها. وقيل: من عادة التادم أن يطأ طي رأسه ويضع ذقنه على يده معتمدًا عليها، ويصير على هيئة لو نزع يده لسقط على وجهه، فكأن اليد مسقوطة فيها. ومعنى «في»: على، فمعنى: «في أيديهم» كقوله: ﴿وَلَا ضَلِيلَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] وقيل: هو مأخوذ من السقاط، وهو كثرة الخطأ، والخطأ يندم على فعله. تفسير اللباب لابن عادل (١٣/٨).

(٦) في النسخة (ق): «يعبرون».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «تقديره».

(٩) سقط من النسخة (ق).

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] كثيراً ما جاء عن السلف رضي الله عنه أن لتلك الألواح رضاضاً فالله أعلم، ووصف الله - جل وعز - موسى بأنه ألقى الألواح في حال غضبه على أخيه وقومه، ولم يذكر كسراً، ولا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك شيء يصح، بل قال الله جل قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَحَ﴾ وسمى [ما أخذ: الألواح]^(١)، فظاهر الخطاب يعلم أنها لم تكسر، وأنه لا [رضاض]^(٢) إلا أن يكون سمي ما يتكسر منها باسم أوله وهذا عدول عن ظاهر الخطاب لغيره معنى يوجب ذلك .

وقال جل قوله: ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأعراف: ١٥٤] والنسخة: هي المكتوب فيها من غيرها ورقاً كانت أو ألواحاً، وقال في الكتاب الأول: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ﴾ [الأعراف: ١٤٥] ولم يقل: «نسخنا» إلا أن يكون عبر مرة بالنسخ ومرة بالكتب؛ [لأن التوراة منتسخة عن أم الكتاب كغيرها من الكتب، فالله يعلم]^(٣).

وقال عز من قائل: ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وقال في الأول: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يعني من اللوح المحفوظ]^(٤) ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: لأمر الكتاب.

فصل

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كتب الله التوراة بيده»^(٥) والظاهر من اختلاف [هذه العبارات وتغييرهم في نبؤتهم]^(٦) أن نسخة ما وجده في الألواح غير ما هو كتاب الله بها بيده جزءاً لما غيروه من إيمانهم وبدلوه.

(١) في النسخة (ق): «ما أخذه ألواحاً».

(٢) في النسخة (ق): «رضاض لها».

(٣) في النسخة (ق): «لأن التوراة وغيرها من الكتب منتسخ كله من أم الكتاب فالله أعلم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) في النسخة (ق): «العبارات».

قال الله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ خَبَلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥] إن الإنسان ليحمل الأسفار ولا يعلم ما فيها، كيف بالحمار فهم لقلة فهمهم عن الكتاب، وعدم الفهم منهم لما فيه [مثل^(١)] للجاهل يحمل أسفارًا، وزاد جهل الحمار على جهل الإنسان الجاهل؛ لأنه لا يعلم [أهي^(٢)] أسفارًا أم لا، وهم لم يتحفظوا بكتاب كتبه الله لهم بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، ثم في نسختها [لم يقضوها^(٣)] ولا فهموا عنها؛ أعني: المذمومين منهم، فأزيلت أيضًا [من بينهم^(٤)]، والذي بقي منها عندهم قد بدلوا بعضه وحرّفوا بعضه، وكتّموا الحق وهم يعلمون، فبأوا بغضب لذلك على غضب.

قال الله جل قوله: ﴿وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] وكانت التوراة التي هي النسخة هدى لهم، ورحمة لمن رهب ربه وخاف مقامه، [كما قال^(٥)] في القرآن: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وكان قوله في ذلك بشارة لمن يأتي بعدهم، والله أعلم من أهل الرهبانية الذين ترهبوا لربهم على السبيل القويم، [وهم المعروف عليهم مع من قبلهم^(٦)] العمل بالتوراة والاهتداء بها مع ما أنزل [إليهم في الإنجيل^(٧)]، ثم بشارة لهذه الأمة الذين هم لربهم يرهّبون، فإن الكتب الثلاثة مع كل كتاب وصحيفة نزلت من عند الله واجب علينا اتباعه والاهتداء به [وابتغاء رحمة الله ﷻ إلا ما^(٨)] والتلف وقيل للصاعقة المرسلة على ما شاء الله: صاعقة؛ لشدة صوت يصحبها^(٩).

(١) في النسخة (ق): «مثال».

(٢) في النسخة (ق): «أنها».

(٣) في النسخة (ق): «وكانت من عند الله لا يفقهوها».

(٤) في النسخة (ق): «منهم».

(٥) في النسخة (ق): «كذلك».

(٦) في النسخة (ق): «وهم المفروض عليهم».

(٧) في النسخة (ق): «عليهم الإنجيل».

(٨) قطع في النسخة (غ) وليس في (ف).

(٩) في النسخة (ق): «إلا ما نسخ به».

فصل

قال الله ﷻ فيما تلاه علينا من قصصه عن موسى لما أخذت الصعقة أصحابه في جانب الطور الأيمن: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] يريد [وهو]^(١) أعلم: سؤال الرؤية، وإنهم لن يؤمنوا إلا بوجودها، وربما كان المعنى بقوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ اتخاذهم العجل إلها من دون الله.

يقول ﷻ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ رد الأمر إلى وليه ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

[معنى قوله عز من قائل: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ يقول صلوات الله وسلامه عليه: فكما قدرت علينا بهذا فاغفر لنا وارحمنا، ومعنى: خير الغافرين أنه]^(٢) يذنب العبد فيتوب إليه [من الذنب فيغفره، فيعاود الذنب]^(٣) ويتوب إليه فيتوب عليه، ويعود عليه بمغفرته، ويجعل له مكان كل سيئة حسنة ربما كثر اعتياد الذنب وكثرة عوده عليه بالتوبة والمغفرة، والجود عليه بالحسنات بدلاً من سيئاته زائداً من عنده، وحتى ربما قال له: «عبدى، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»^(٤).

فصل

ربما ظن ظان [لم يمعن النظر ولا يحقق المعنى المراد]^(٥) بالخطاب أن موسى ﷺ خاطب ربه ﷻ على غير وجه حقيقة التعبد، وطلب الازدياد من العلم في قوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ وَإِنِّي﴾ فإن [اللاتق]^(٦) برسول الله ونجيه أن هذا

(١) في النسخة (ق): «والله».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فيغفر له فيعاودة فيذنب ذنباً».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «لم يحقق النظر ولم يمعن في التحقيق بالمراد».

(٦) في النسخة (ق): «الذي يليق».

منه على وجه [الحمد]^(١)، وأن قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] على وجه التعلم والازدياد من العلم، كما قالت عائشة: «يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟» فكان ذلك منها [سؤالاً عن طلب]^(٢) العلم، فأجابها رسول الله ﷺ بقوله: «نعم إذا كثرت الخبث»^(٣) وكان مطلوب موسى في سؤاله معنى ما قاله [الله]^(٤) لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] [وتفهم]^(٥) معنى قوله [فيما أنزل عليه في التوراة]^(٦): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥] [فإن ذلك في التوراة فيما كتب له بيده ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه.

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: ٣٦-٣٨] إلى قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢]^(٧) فكان استفهام موسى ﷺ طلباً لفهم ما ها هنا، ففهموا كتاب ربكم [رحمكم الله]^(٨)، والتزموا توقيير أنبيائكم على جميعهم السلام، فما اجتلب ذلك ﷻ وهو يعيب ذلك عليه ولا يذم فعله ذلك منه، بل في معرض المدح له، وإنما كان الإعراض عن قومه لظلمهم.

قال الله ﷻ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣] وكذلك أيضاً [ما روي عن بعض ما تقدم عفا الله عنا وعنهم أن قول موسى - صلوات الله وسلامه عليه - عندما أخذت قومه الرجفة، فقال ﷻ: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾

(١) في النسخة (ق): «الحمد له».

(٢) في النسخة (ق): «بحثاً من».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٢٨٨٠)، وابن أبي شيبة (٣٧٢١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٣٣٣)، وابن ماجه (٣٩٥٣)، وابن حبان (٣٢٧).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وأحب أن يفهم».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) سقط من النسخة (ق).

[الأعراف: ١٥٥] وعددها عليه جفوة من جفوات ذكرها ثلاثاً، كيف يصح مثل هذا وهو الرسول الكريم الوجيه لديه، وقد تقدم إليه قبل يوم اتخذوا العجل إلهاً في قوله: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥] وإنما حكى ذلك عن ربه ﷻ ورد الأمر كله له، أليس الله بأعلم حيث يجعل رسالاته إنما أصاب بني إسرائيل ما أصابهم من قلة توقيرهم له ﷻ وضعف تعزيرهم لغيره من سائر الأنبياء وكذلك ما قد^(١) روي عن رسول الله ﷺ في حديث الإسراء حيث يقول في مسراه: «فلما جئنا السماء - [يقول]^(٢): السادسة - إذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير» [إلى قوله: «فلما تجاوزته»]^(٣) بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: يزعم بنو إسرائيل أنني أكرم الخلق على الله، فهذا غلام بعثه الله بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي^(٤) [هذا بحكم الله وليس على ما يسبق]^(٥) الشيطان - لعنه الله - إلى النفوس، بل هو على سبيل الإغباط لمحمد ﷺ والفرح به، وبصدق الله وعده رسله.

وقد كان يقدم إليه وإلى غيره من الرسل والأنبياء [في شأنه]^(٦) بما عبر عنه بقوله الحق: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١] فكان بكاؤه ذلك فرحاً به من نبي كريم وأخ صالح، ليس فيما هنالك حسد ولا ملق وفرحاً أيضاً أحسن خلافته الله على الأمم بعده، وحزنًا لقومه لأجل عتوهم عليه وعلى من بعدهم من الأنبياء - عليهم السلام - وأنهم صدقوا فريقاً منهم، وكذبوا فريقاً [منهم، وقتلوا فريقاً]^(٧)، فتأسف لذلك على بني إسرائيل، وبكى [خوفاً وجزعاً عليهم]^(٨)، فإن الأنبياء والرسل من شأنهم الحرص على هداية الناس

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «قال فلما تجاوزناه».

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٧٤)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي في الكبرى (٣١٣)، وأحمد (١٧٨٦٩).

(٥) في النسخة (ق): «وهذا رحمكم الله ليس على ظاهر ما يسبقه».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «فرحاً وخوفاً على بني إسرائيل».

واستنقاذهم من التشيع للملعون إبليس.

كذلك وصف الله ﷺ محمداً ﷺ بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [كما قال في قوله]^(١): ﴿خَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] كذلك موسى وغيره من الأنبياء [والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين]^(٢).

وفي الحديث ما يزيل الوسواس في هذا المعنى بقوله ﷺ: «ففرض علي ربي خمسين صلاة، فجئت حتى [مررت على موسى]^(٣)...»^(٤) فافهم فهمنا الله وإياك. قوله تعالى [فيما حكى من قوله ودعائه لأمته]^(٥): ﴿وَإِذْ تَبْتَئُنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] كلمة مأخوذة من معنى الهداية؛ أي: تبنا إليك واهتدينا إليك، [وفي ضمن]^(٦) هذا أنك قد هديتنا إليك وتبت علينا وفضلتنا على العالمين، فتمم علينا نعمتك التي بدأنا بها، هذا وما يكون في معناه. وقرأ أبو حيو: «إنا هُنا إليك» بكسر الهاء؛ أي: ملنا إليك؛ أي: أنبنا، ومعظم معناه الهداية والميل عن ضلالة الأمم من عالمي زمانهم، وهذا عبارة عن التحنيف الموصوف به [الإمام المكرم]^(٧) إبراهيم عليه السلام.

تحفظ - وقفنا الله وإياك - من هذه المزلات، وإياك أن تفارق التعزيز والتوقير لهم بذلك، فشأن الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - عند الله عظيم، وهذا وشبهه من [المتشابه المشتبه في الكتاب]^(٨) الذي أمهاته الآي التي جاءت بتعزيزهم وتوقيرهم.

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أمر بموسى».

(٤) أخرجه البخاري (٣١٦٤)، ومسلم (١٦٣)، وابن حبان (٧٤٠٦)، وأبو عوانة (٣٥٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣١٤)، وأبو يعلى (٣٦١٦)، وابن منده في «الإيمان» (٧١٤).

(٥) في النسخة (ق): «حكاية عن موسى عليه السلام».

(٦) في النسخة (ق): «مفهوم».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «المشتبه».

﴿وَاكْتُتِبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧].

قوله تعالى: ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله جل قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقرأها الحسن وعمر بن قائد: «أصيب به من [أشاء] بالشين غير معجمة مع فتح الهمزة من الإساءة»^(١)، فقوله: «من أشاء» توجه إلى معنى الإعراض عنهم لظلمهم؛ أي: إن هذا كان مني في الأزل سبق به علمي وقدري، ونزل به قضائي، وهو جواب لقول موسى عليه السلام معترفاً بمعنى الأولية: ﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وتوجيه الخطاب على قراءة من قرأ: «[أشاء] من الإساءة»^(٢) تكون إشارة إلى ظلمهم في طلبهم الرؤية، وجعلهم إياها شرطاً في وجود الإيمان منهم [هدايتنا وإنذاراً]^(٣) منه لهم بما يصيبهم به في المستقبل.

ثم أتبع ذلك قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] واستاق عليه السلام [صفة]^(٤) هذه الأمة، وقرأ ابن مسعود: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ مصدقاً لما بين يديه من كتاب ربه ورسله

(١) في النسخة (ق): «أساء بالشين من الإساءة».

(٢) في النسخة (ق): «أساء من الإساءة».

(٣) في النسخة (ق): «وهو أيضاً إنذار».

(٤) في النسخة (ق): «وصف».

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وقرأ طلحة: «ويذهب عنهم إصرهم»^(١).

[فإن رحمته وسعت من في السماوات ومن في الأرض وكل شيء [وعد به ما...]]^(٢) يصيب به من يشاء، وقد تقدم الكلام في كتاب «شرح الأسماء» على رحمته الموجودة في مخلوقاته عند اسمه الرحمن، ورحمته الموجودة، وأوليائه عند اسمه الرحيم^(٣).

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَخِي الَّذِي يُوْمِنُ بِاللَّهِ
وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ أَثْنَ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ
قَوْمُهُ أَنْ أَتِ بِعَصَاكَ الْخَجَرَ فَتَجَمَّعَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ
أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنِّ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ
طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

[الأعراف: ١٥٨ - ١٦٠].

قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾^(٤) [أي: يحكمون به

(١) انظر: البحر المحيط لأبي حيان (٤٦٨/٥).

(٢) بياض في النسخة (غ) وقطع في النسخة (ف).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) قال السائب: هم قوم من أهل الكتاب آمنوا بنبينا ﷺ كعبد الله بن سلام وأصحابه. وقال قوم: هم أمة من بني إسرائيل تمسكوا بشرع موسى قبل نسخه ولم يبدلوا ولم يقتلوا الأنبياء. وقال الزمخشري: هم المؤمنون التائبون من بني إسرائيل، لما ذكر الذين نزلوا منهم ذكر أمة مؤمنين تائبين يهدون الناس بكلمة الحق ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم ولا يجورون، أو أراد الذين وصفهم ممن أدرك النبي ﷺ وآمن به من أعقابهم. انتهى. وقال ابن عطية: يحتمل أن يريد به الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل أن يريد به وصف المؤمنين التائبين من بني إسرائيل، ومن اهتدى واتقى وعدل. انتهى. وما روي عن ابن عباس والسدي وابن جريج: إنهم قوم اغتربوا من بني إسرائيل ودخلوا سرباً مشوا فيه سنة ونصفاً تحت الأرض حتى

ويؤثرونه^(١) ﴿وَبِهِ يَغْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] [الحق هنا هو ما أنزله الله - جل ذكره - في الكتاب عن قوم موسى أنهم ليسوا المذمومين ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَغْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] أي: عن الحكم بالحق؛ لأن الخطاب على معنى الاشتمال على الذم والمدح، وهو الأوجه على أن يكون معنى قوله: ﴿يَغْدِلُونَ﴾^(٢) [يجورون] يقول: يعدلون به عن الحق فيضلون^(٣) كما قال جل قوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَغْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠] [وقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَغْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] أي: يجعلون عدلاً؛ أي: ندّاً ومثلاً، عدلت عن كذا إلى كذا؛ أي: ملت إليه، وعدلت به؛ أي: جعلت له عدلاً، فجعل هؤلاء عدل الحق الباطل، عدلوه به وهو عادل بالحق ومنعدل عنه أيضاً، يقول الله جل قوله ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يحكمون به ويهدون إليه ﴿وَبِهِ يَغْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]^(٤) كما قال: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦] أي: بالكتاب، يهدون به ويعدلون عن الحق، يجورون [عنه]^(٥) بالتأويل الباطل، [وهو الأظهر]^(٦).

فصل

ليس بمصيب من روى [أو اعتقد]^(٧) أن موسى عليه السلام قال عندما أخبره ربه ﷻ

خرجوا وراء الصين، فهم هناك يقيمون الشرع في حكايات طويلة ذكرها الزمخشري وصاحب «التحرير والتجوير» يوقف عليها هناك لعله لا يصح. وفي قوله: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ إشارة إلى التقليل، وأن معظمهم لا يهدي بالحق ولا يعدل به، وهم إلى الآن، كذلك دخل في الإسلام من النصارى عالم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، وأما اليهود فقليل من آمن منهم. تفسير البحر المحيط (٤٧٠/٥).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

بقوله: ﴿وَرَحِمْتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَاكُنْتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] إلى آخر الوصف الذي استأقاه في نعت هذه الأمة، فزعم هذا القائل أن موسى ﷺ قال عند ذلك: «يا رب، جعلت وفادتي إلى غيري» قال: فقال الله ﷻ: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْذِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] قال: فسكت موسى ورضي.

[أو كما قال^(١)] ومثل هذا لا يصح عن المصطفين الأخيار الذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار، [فلم يبقى في قلوبهم غلاً ولا حسداً ولا اختياراً لشيء سوى ما اختار لهم ربهم عز جلاله إنما أوقع هذا القائل فيما أوقعه من ذكر ما ذكره أن حمل قوله: ﴿وَبِهِ يَعْذِلُونَ﴾ على معنى المدح بل هو الذم الموصوف به بل هو ﷺ^(٢)] وأمثاله البراء من هذا وأشباهه، وإنما الأنبياء والرسل كرجل واحد لا تحاسد ولا [تباغض كما قال رسول الله ﷺ في المؤمنين، وهم أشد تحقفاً في الخير وأكرم هدياً، هم الأول الأولى، أولهم يبشر بآخريهم، وآخريهم يصدق أوله ويبشر بمن بعده]^(٣).

ألا تراهم - عليهم السلام - في عرصة القيامة [كيف]^(٤) يتدافعون الشفاعة [بعضهم إلى بعض]^(٥) أول إلى آخر، وإنما هو - جل ذكره - التزيه المواجهة،

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «ولا تفاخر وقلوبهم في ذات الله والحرص على الحق بالإيمان كقلب واحد كذلك وصف رسول الله ﷺ المؤمنين بعضهم لبعض كالبنان يشد بعضهم بعضاً وجميعهم في مقام الحرص على هداية الجميع كالجيش في قتال العدو ويسر الكل منهم من غلبة العدو ما أصاب أحدهم من ذلك كذلك المصلون جماعة يقومون بقيام إمامهم ويركعون ويسجدون وفعلهم تلو لفعله لا حسد ولا بني عندهم، وكذلك كان الصف في الصلاة عبارة عن تساوي القلوب بالتوجه لله ﷻ كذلك الأنبياء والرسل في ذات الله وحرصهم على توصيل ما بين العباد وبين ربهم عز جلاله وهم صلى الله على جميعهم أكرم هدى وأشد تحقفاً هم الأولى بشر أولهم بآخريهم وصدق آخرهم أولهم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

الكريم المخاطبة، الحكيم العليم، استاق [ذنوب]^(١) من مضى لا [لتغيير]^(٢) لهم؛ بل ليؤدبنا بهم ويحذرننا مما [أصابوه]^(٣) في نبوتهم، ولما كانت المواجهة لهذه الأمة بالخطاب عدل عنهم بذكر الأخذ وشدة البطش، وأخذ - جل ذكره - يقص الحق ويحكم بالفصل والتبليغ على ذلك قائم والفضل منه والإكرام لعبيده مواجهه، وهو العليم الكريم ذو الفضل العظيم^(٤).

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [الحديد: ٢٨] إلى آخر السورة.

فصل

فمن لزم الطريقة المثلى في هذا الشأن - إن شاء الله تعالى - أن يتلقى [قصصه]^(٥) بالتصديق المحض والإيمان، والمبالغة في الإيمان الحزم والهرب عن كل شيء ذمهم به أحد، والإمعان في البعاد من [مواطن هلكاتهم، والمنازعة إلى سلوك سبيل نجاته، وابتغاء مرضاته]^(٦) بغاية الطاقة ومنتهى الجهد، وأن نستشعر [في نفوسنا]^(٧) أن جميع مذامهم قد ارتكبتها إلا ما كان من قتل الأنبياء وتكذيبهم، على أنه من أمات سنة نبي فقد قتله، ومن عصى رسول الله [إليه]^(٨) من بعده عمادًا جهادًا فقد كذبه.

قال رسول الله ﷺ: «التركبن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع حتى أنه لو كان فيهم من أتى أمه [وأخته]^(٩) جهازًا لكان فيكم ذلك»^(١٠) ولقد تكامل [فيها

(١) في النسخة (ق): «ذكر ذنوب».

(٢) في النسخة (ق): «لتغيير».

(٣) في النسخة (ق): «أصاب أولئك».

(٤) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «قصص الله ﷻ».

(٦) في النسخة (ق): «عن قول أو عقد يخل بالتعزير والتوقيير لهم بل المسارعة إلى سلوك سبيل نجاتهم وابتغاء مرضاة الله».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) ذكره بنحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/٣٠٣).

أَيُّهَا^(١) الأُمَّةُ جَمِيعٌ مَا أَهْلَكَ مِنْ أَجَلِهِ مَنْ كَانَ قَبْلُنَا مِنَ الْأُمَمِ مِنَ الْغَفْلَةِ وَتَرَكَ التَّوْبَةَ وَالْإِعْرَاضَ عَنِ الذِّكْرِ وَالْجَبْرُوتِ وَغَلَطَ السُّطُورَةَ وَالْمُبَاهَاةَ بِذَلِكَ، أَهْلَكَ اللَّهُ عَادًا وَبِتَطْفِيفِ الْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، [وإِبْغَائِنَا الْعُوجَ بِقَعُودِنَا عَلَى كُلِّ صِرَاطٍ لِلْمُسْلِمِينَ بِالتَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ]^(٢) وَالْإِيْعَادَ عَلَى ذَلِكَ، وَالتَّهْدِيدَ وَالتَّشْدِيدَ حَتَّى لَقَدْ انْمَحَى رَسْمُ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا اسْمُهُ، وَطَفَّتْ أَنْوَارُ الْإِيمَانِ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا خَوَاطِرُ تَجِيءٍ ثُمَّ تَذَهَبٍ كَالْبَرْقِ، وَبِذَلِكَ أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثُمَّ الْعُلُوَّ فِي الْأَرْضِ، وَجَعَلَ النَّاسَ شَيْعًا تَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَعَلَ فِرْعَوْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، ثُمَّ رَكُوبُ الْفَوَاحِشِ عِلَانِيَةً وَسِرًّا كَالْجَهْرِ، وَبِذَلِكَ أَهْلَكَ قَوْمَ لُوطَ وَغَيْرَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ فَعَلَ ذَمِيمٌ إِلَّا وَفِينَا ظُهُورُهُ وَلَا سِيرَةَ عَوْجَاءَ إِلَّا [وَمِنَّا]^(٣) ابْتِدَاؤُهَا وَإِلَيْنَا انْتِهَاؤُهَا، فَالْنَظَرَ فِي عِيُوبٍ مِنْ مَضَى عَلَى مَا نَحْنُ عَلَيْهِ حَقَّقَ [مَنْ فَاعَلَهُ]^(٤) وَقَلَّةَ تَحْصِيلٍ، لَكِنْ اتَّعَازَ وَازْدَجَارَ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْنِكُمْ أَنْفُسُكُمْ...﴾ [المائدة: ١٠٥].

وَقَالَ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

[وَقَالَ: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].
كَمَا قَالَ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَنْ أَهْلَ الْكِتَابِ...﴾ [آل عمران: ١١٣] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ الْخُطَابَ مُوَاجَهَةً لَنَا بِقَوْلِهِ^(٥): ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٥].

(١) فِي النِّسْخَةِ (ق): «مَعِشْرَ هَذِهِ».

(٢) زِيَادَةٌ فِي النِّسْخَةِ (ق).

(٣) فِي النِّسْخَةِ (ق): «وَفِينَا».

(٤) زِيَادَةٌ فِي النِّسْخَةِ (ق).

(٥) سَقَطَ مِنَ النِّسْخَةِ (ق).

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْرًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف: ١٦١ - ١٦٣].

قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ...﴾ [الأعراف: ١٦١] القرية هي إيليا، [والباب الذي أمروا بالدخول منه هو باب السجدة، أمروا أن يدخلوه سُجَّدًا؛ أي: في حال من يسجد طهارة وتوبة ونية في الصلاة، فإذا فعلوا ذلك فليقولوا: «هذه حطة» أي: مغفرة من الله لذنوبنا.

ثم قال^(١): ﴿سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١] يعني [والله أعلم: محسني هذه الأمة، فإنه وعدها بأن «أحدهم إذا توضأ [فأحسن وضوئه]^(٢)، ثم قال: أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء»^(٣) وبأنه «إذا توضأ فغسل وجهه خرجت خطايا وجهه حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل ذراعيه خرجت كل خطيئة بطشتها يداه حتى تخرج من تحت أظفاره»^(٤)

(١) في النسخة (ق): «وأمرنا أن ندخلوا المسجد سجداً أي في حال طهارة وتوبة ونية السجود والصلاة».

(٢) في النسخة (غ): «أمره الله».

(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤)، وأبو داود (١٦٩) والنسائي (١٤٨) وابن ماجه (٤١٩)، وأحمد (١٧٣٥٢)، وابن خزيمة (٢٢٢) وابن حبان (١٠٥٠) والبيهقي (٣٣٣٤) وفي «شعب الإيمان» (٢٧٥٣).

(٤) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (١٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجه (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

ثم كذلك في الرأس والرجلين.

قال: ثم كان مشيته إلى المسجد وصلاته نافلة له، ومصدق هذا من الكتاب العزيز قوله^(١): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ﴾ [في الدين]^(٢) ﴿مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ ثم قال: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بعد الوضوء والطهر ﴿تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] [ونعفر]^(٣) لكم ذنوبكم بالطهر، وتكون الصلاة بعد ذلك في عمل الشاكرين، فقد تحصلت الحطة بحمد الله فيما تلاه علينا ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه، [وأمرنا به]^(٤) وزاد من فضله محسني هذه الأمة أن بلغهم درجة الشاكرين [جزاء]^(٥) كذلك أمروا هم بأن يقولوا: هذه حطة من الله لخطايانا إذا دخلوا المسجد الذي أمروا بدخله سجداً.

وجاء في بعض كتب النبوات: قال: «إن هؤلاء القوم تركوا ما أكرمت عليه آبائهم وابتغوا الكرامة من غير وجهها، أما أحبارهم ورهبانهم [فاتخذونها]^(٦) عبادي خولاً فيعبدونهم من دوني، ويحكمون فيهم بغير كتابي حتى أجهلهم أمري، وأنسوهم ذكري، وغروهم مني، فبطروا نعمتي، وأمنوا مكري، وبدلوا كتابي، ونسوا ذكري وضيعوا أمري».

وبعد كلام كثير قال: وعزتي وجلالي لأعطينها من كتبي وقدسني، ولأفنين مجالسها من [أنسها]^(٧)، ولأوحشن مسجدها من عمارة الدين كانوا يتزينون بعمارتها لغيري ويتعبدون فيه، ويتعبدون لكسب الدنيا بالدين، ويتفقهون فيها لغير العلم،

(١) في النسخة (ق): «قد تقدم هذا في سورة البقرة مصداق قوله ﷺ: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] في القرآن العزيز».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أي نعفر».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فاتخذوا».

(٧) في النسخة (ق): «أنسي».

ويتعلمون لغير العمل في كلام طويل فيه موعظة، وذكرى لمن يخشى.

فصل

أنبأ الله ﷺ بما تلاه علينا بقوله: ﴿تَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨] إن الخطايا [إنما كانت تغفر لهم ببعض] ^(١) أعمالهم.

وقال رسول الله ﷺ: «أنزلت علي [سورة] ^(٢) البقرة من كنز تحت العرش» ^(٣).
وقال له الملك: «لن تقرأ بحرف منها إلا أوتيته وأعطيته» ^(٤) وفيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فيقول الله ﷻ لقارئها: «قد فعلت» [وفي أخرى: «نعم»] ^(٥).

قال رسول الله ﷺ: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ^(٦).

وكما [من الواجب] ^(٧) علينا الإيمان والتصديق بما في الكتاب وحديث [الرسول ﷺ] فيما بشر به من غفران الذنوب ^(٨) عند الوضوء، وترك المؤاخظة بالخطايا مع الصدق، واستعمال الذكر [واجتناب] ^(٩) التغافل، فكذا كان يجب عليهم الإيمان بمثل ذلك في حط خطاياهم عنهم [بكونهم] ^(١٠) قاصدين إلى [بيت الله] ^(١١) للصلاة بإخلاص الوجهة، يعتقدون ذلك بقلوبهم، ويقولونه بألسنتهم.

(١) في النسخة (ق): «لم تكن تغفر لهم إلا ببعض».

(٢) في النسخة (ق): «خواتيم سورة».

(٣) أخرجه بنحوه أحمد (٢٣٢٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٢٥)، وفي «الأوسط» (١٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٣٩٩).

(٤) أخرجه بنحوه البيهقي في «الصغرى» (٧٦٤)، وفي «شعب الإيمان» (٢٣٦٠).
(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) في النسخة (ق): «يجب».

(٨) في النسخة (ق): «رسول الله ﷺ من غفران الذنوب فيما وعد به عن ربه ﷻ».

(٩) في النسخة (ق): «وترك».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

(١١) في النسخة (ق): «البيت».

فلما اتخذ منهم البعض دينهم لهواً ولعباً [وصلوا]^(١) لقضاء أوطارهم وتعبدوا لغير الله تعالى زالت بشاشة الإيمان بالبشارة من قلوبهم على أعمالهم؛ إذ لم يبلغ لرحلها [ومصاحبة الغفلة لها]^(٢) أن يبشر على تلك الحال، فكانوا يقرءون كتاب الله ولا يقفون عليه بالعلم، وربما علموه علماً ظهرياً، [ورؤية]^(٣) بصائرهم عن جنب دون تحقق [وتكون القلوب هكذا ونحو هذا خوفاً وحرمت نور البشارة فلم يبشر على أعمالها تلك فقالوا ما يعبر به عن خوف ما وإنهم ليسوا بمستحقين لأجل ظلمهم البشارة على ما هم عليه قلما يعبر به عن بأس ما يرون هذا كله بعيون بصائرهم عن جنب نسوا الأجل ظلمهم هذا وهذا خلفه الذهول]^(٤) فكانوا بذلك مبدلين لما فرض الله عليهم [وأمرؤا]^(٥) به من الإيمان قولاً غير الذي قيل [لهم]^(٦) إما لأنهم قصر بهم في تبدل أحوالهم تلك عن [تحقيق]^(٧) البشارة؛ لغلبة خوف [من أن تزيد عليهم أعمالهم، وإما لأنهم علوا في ذلك ووافقوا الإدلال]^(٨).

وكانوا يقولونها إن كانوا وقفوا عليها بالعلم، ويتلوننها في [الكتاب]^(٩) بقلوب غافلة ونيات غائبة، ووجوه غير متحققة [بالتوجه إلى الله]^(١٠)، وربما تمنوا على الله في حالتهم تلك كقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

[وقولهم: إن الجنة لنا ﴿خَالِصَةٌ مِّنْ ذَوْنِ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٩٤]]^(١١) و﴿لَن يَدْخُلَ

(١) في النسخة (ق): «وصلوا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «رأته».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وأمرهم».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «حقيقة».

(٨) في النسخة (ق): «أن ترد عليهم أعمالهم من أجل ظلمهم وإما لأنهم غلوا في ذلك وواقعوا الإدلال».

(٩) في النسخة (ق): «كتاب ربهم».

(١٠) في النسخة (ق): «بحق التوجه الذي أمرؤا به».

(١١) زيادة في النسخة (ق).

الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴿١١١﴾ [البقرة: ١١١] وأمثال هذا، وهذا هو التيه في الضلال.

وأما الأبرار فهم في معزل من هذا، [إن شاء الله^(١)] يؤمنون بما أنزل إليهم وما أنزل من قبلهم، ويستمعون القول فيتبعون أحسنه، ويستبشرون بفضل من الله ورحمة، وبأن الله لا يضيع أجر [المؤمنين ومنهم ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] للخوف المتمكن من قلوبهم لا يرون أحدًا أحق منهم بالعذاب إن لم يغفر الله لهم ويرحم، هذا منهم بعد تصديق الله - جل ذكره - في وعده ووعيده، والإيمان بما جاء من عنده، وجعلهم التهمة في جناباتهم، وتحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أنا له الموعود مع الزيادة بالفعل^(٢).

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهِ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَسْتَفْهِمُونَ ﴿١١٢﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَاسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٣﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١١٤﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبُّكَ لِلْعِثَّةِ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوهُمْ سَوَاءٌ الْعَذَابُ إِن رَّبُّكَ لَسَرِيعٌ الْعِقَابُ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١٦﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ

(١) في النسخة (ق): «والحمد لله رب العالمين».

(٢) في النسخة (ق): «المحسنين، وفصل القول في ذلك الإيمان بتحقيق البشارة في كل وعد جاء من عند الله على عمل أو بشرى بشر بها رسول الله ﷺ عن ربه، والإيمان أيضًا بتحقيق وقوع الوعيد كما جاء ليجمع الإيمان بهذا وهذا في قلب العبد فرحًا بهذا وحزنًا بهذا، وللرجاء بفضل الله ميزان يرجعه إلى العفو والمغفرة مع الإقامة على الصدق، وليجعل العبد التهمة في [...] نفسه مع تحصيل الأمن من خلف وعد أو هضم من حق، بل أناله الموعود من الزيادة بالفضل، فهذا في معنى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠]».

يَأْتِيهِمْ عَرْشٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ الَّذِينَ يُؤْخَذُ عَلَيْهِمْ مِثْقَلُ الذَّرَّةِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْأَوَّلُ آخِرُهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ [الأعراف: ١٦٤ - ١٦٩].

قوله ﴿١٦٩﴾: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] يريد: يذيقهم سوء العذاب على [العداوة]^(١) بالترداد، والمعاودة على ذلك بالمكرهه، شمت في السلعة؛ أي: كررت الكلام فيها وعادته، وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أوجب ذلك على نفسه وقضائه، واعلم به ذلك؛ لأنهم نسوا كثيرا مما ذكروا به وعصوا وخالفوا ما ذكروه، وأصل ذلك ما تقدم ذكره قبل هذا وهو الغفلة وزوال حلاوة بشاشة الإيمان بالوعد وخلو القلوب من لذع الخوف.

﴿وَالَّذِينَ يَمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَنْفَخْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ كَانَهُ ظُلُمَةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ قُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ [الأعراف: ١٧٠ - ١٧٤].

واعلم قوله ﴿١٧٠﴾: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] قد تقدم الكلام في [هذه الآية]^(٢) مع نظيرتها في سورة آل عمران، وأن هذه نص على عهد الربوبية، وتلك نص على عهد النبوة والرسالة والتبليغ والنصيحة والنصر لله [والإيمان بذلك]^(٣) أبطن في تلك ذكر [الربوبية]^(٤) كما أبطن في هذه [ذكر]^(٥) عهد النبوة، وإن

(١) في النسخة (ق): «المدامنة».

(٢) في النسخة (ق): «هذا المعنى».

(٣) في النسخة (ق): «ولرسله».

(٤) في النسخة (ق): «عهد الربوبية».

(٥) سقط من النسخة (ق).

كان قد أشار إلى ما بطن في هذه وهذه بقوله: ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ...﴾ [الأعراف: ١٧٢].

[كما أشار في تلك إلى عهد الربوبية في^(١)] قوله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ...﴾ [آل عمران: ٨٣].

﴿وَأَنْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ مَوْنٍ ﴿١٧٧﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٨].

قوله ﴿وَأَنْتَلَّ﴾: ﴿وَأَنْتَلَّ عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] إلى آخر المعنى، اختلف الناس فيمن [يُسمى بهذا]^(٢) فقال قوم: هو بلعام بن باعورا.

وقيل: باعير.

وقال آخرون: هو البسوس عابد من بني إسرائيل، قيل: كانت له ثلاث دعوات استنفذهن على ما ذكره في امرأته، فالله أعلم [أكان ذلك أم لا]^(٣).

وقال قوم: هو أمية بن أبي الصلت.

وقال قوم: نزلت في راهب بن صيفي.

وقال قوم: [إنها]^(٤) نزلت مثلاً في اليهود والنصارى، وكل من أتاه الله من آياته

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «هو المعنى بهذا المعنى».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

[وَعَلَّمَهُ وَكُتَابَهُ] ^(١) فانسَلخ من ذلك، فهو المعني [هنا] ^(٢) ثم اختلفوا في القصص عن هؤلاء المذكورين، وأنا ذاكر طرفاً من قصص أمية بن أبي الصلت؛ لقرب طريقه، وتارك [ذكر] ^(٣) قصص ما قصّ في شأن أولئك؛ لبعد الطريق [إلى] ^(٤) الوقوف على صحته أو سقمه كان ابتداء أمره أنه قرأ الكتب، وعلم أن الله تعالى يرسل رسولاً في ذلك الوقت، وظن أنه [هو] ^(٥) ذلك الرسول؛ لأنه كان فيما يذكر قد أوتي بينة من الأمر، [وأظهر له أشباهاً] ^(٦) تقارب.

فلما بعث الله رسوله محمداً ﷺ شرق للأمر حسداً وأنفة، ومر في بعض أسفاره على قتلى [بدر] ^(٧) فسأل عنهم ف قيل له: «قتلهم محمد» فقال: «لو كان نبياً ما قتل أقرباءه» فلما مات أتت أخته الفارعة إلى رسول الله ﷺ فسألها عن موت أخيها، فقالت: بينا هو راقد [إذ] ^(٨) أتاه آتيان، ففعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله، فقال الذي عند رجله للذي عند رأسه: «أوعى» قال الآخر: «وعى» قال: «وزكا» قال: «أبى» [فقال] ^(٩): «أريد بك خير، فصرف [عنك] ^(١٠)» فلما أفاق قال:

كُلُّ عَيْنٍ وَإِنْ تَطَاوَلَ يَوْمًا صَائِرٌ مَرَّةً إِلَى أَنْ يَزُولَا
لَيْتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي قَلَالِ الْجِبَالِ أَرْعَى الْوُغُولَا
إِنَّ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمٌ عَظِيمٌ شَابَ فِيهِ الصَّغِيرُ يَوْمًا ثَقِيلًا
ثم قال لها رسول الله ﷺ: «أنشدني شعر أخيك» ^(١١) فأنشدته قصيدته [التي

(١) في النسخة (ق): «وَعَلَّمَهُ كُتَابَهُ».

(٢) في النسخة (ق): «بهذا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وتعذر».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وأشبهاً».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «فقلت له».

(١٠) في النسخة (ق): «عنه».

(١١) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان (٣٠٦/٤).

يقول فيها^(١):

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا
ملك على عرش السماء مهيمن
عليه حجاب النور والنور حوله
فلا [بصير]^(٢) يسمو إليه بطرفه
ملائكة أقدامهم تحت أرضه
قيام وعلى الأقدام عانون تحته
وسبط صفوف ينظرون وراءه
أميناه روح القدس جبريل فيهم
وهي قصيدة طويلة حتى أتت على آخرها، وأنشدته قصيدته الأخرى [وهي
قوله]^(٣):

يوقف الناس للحساب جميعاً
ثم أنشدته قصيدته [الأخرى]^(٤) التي يقول فيها:
عند ذي العرش تعرضون عليه
يولم الجهر والسرار الخفيا
يوم يأتي الرحمن فهو رحيم
إنه كان وعده مأتيا
يوم تأتسه مثلما قال فرداً
ثم لا بد راشداً وغويا
أسعيد سعادة كنت أرجو
أو مهائلاً بما اكتسبت شقيا
أو أؤاخذ بما اجترمت فإني
سوف ألقى من العذاب فرياً

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «نور».

(٣) في النسخة (ق): «بصر».

(٤) في النسخة (ق): «صعد».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

رب إن تعفْ فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب برياً

فقال [لها] ^(١) رسول الله ﷺ: «آمن بلسانه وكفر بقلبه» ^(٢).

قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ يعني: بالآيات التي أعطاه ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أخلد بمعنى: ركِنَ ورضي، ولما لم يرفعه إلى محل الأبرار أسفل به إلى محل الفجار؛ ذلك لثلا يأمن مكره أحد، ولا ييأس من رحمته أحد، ثم مثله بالكلب ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦] [هذا] ^(٣) كقوله جلّ قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].
﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

كما أن الكلب لا يترك ما وجد له من نباح ولهث حمل عليه أو [لم يحمل] ^(٤) أترك كذلك من سبقت عليه الكلمة راجع إلى ضلالتة، مكذب بآيات ربه، ولو رفع إلى أعلى درجات العلا واليقين ليس للعلم واليقين، وظهور الآيات عمل، ولا حظ من النفع والدفع، بل لله وحده لا شريك له؛ لذلك أتبع هذا ما تقدم من خطاب قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

فصله

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَفْئَادٌ لَا يَشْعُرُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾
وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِعَايُنَا

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ذكره عبد القادر البغدادي في «خزانة الأدب» (٨٧/١)، والنويري في «نهاية الأرب» (٣٨٣/٣)، والمراد بها هو أمية بن أبي الصلت، من شعراء العصر الجاهلي.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩ - ١٨٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ...﴾^(١) [الأعراف: ١٧٩] الذرء: من البث، يقول: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أو يكون معناه: إنه ذرأهم في محالهم من جهنم كما ذرأهم في محالهم من الأرض، لكنه قال جل قوله: ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ فالوجه الأول أولى، وإلى الآخر مصيرهم، فأعلم جل ذكره أن سواء لا ينفع عنده، ولا دفع لضر، ولا يملك هداية ولا ضلالاً بعده أعين خلقت الأبصار، وأذان خلقت للسمع يسمع بها، وقلوب خلقت لله يفقه بها منعها ذلك منه حتى لقد أخبر بقوله الصدق: أنهم كالأنعام^(٢) بل أخبر أن الأنعام أهدى سبيلاً منهم [فلم يجدوا من دونه ولياً ولا نصيراً]^(٣) وكذلك الآيات والبيّنات والعلم واليقين إنما يبين بها [ويسمع بها]^(٤) ويعلم بالعلم الله خالق كل شيء، [أعلم أن العقل]^(٥) أصل ذلك وينبوعه، ولو أيقظهم كما أيقظ الذي ضرب به المثل لأغفلهم وأضلهم.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف: ١٨٠] أتت الحسنى؛ لأنها جماعة الأسماء الحسنى تأنيث الأحسن، كما الكبرى تأنيث الأكبر، والإلحاد في الأسماء هو الزيادة على ما أذن فيه، والنقصان عما أمر به مع ميل في

(١) ﴿ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ أي: خلقنا ممن يصير إلى جهنم بكفره ومعصيته و﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ فيه قولان: أحدهما: أراد أولاد الزنى؛ لأنهم من النطف الخبيثة مخلوقين، فهم أكثر الناس إسراعاً إلى الكفر والمعصية، فيصيرون جامعين بين سوء المعتقد وخبث المولد. والقول الثاني: أنه على العموم في أولاد الزنى والرشدة فيمن ولد من نكاح أو سفاح؛ لأنهم مؤاخذون على أفعالهم لا على مواليدهم التي خبثت بأفعال غيرهم. النكت والعيون (٣٣/٢).

(٢) ما بين [] به اختلاف في اللفظ بين النسخ.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «ثم أعلم عز جلاله أن الغفلة».

ذلك إلى غير المعنى، فالمشبهة وصفوه ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه بما لم يأذن [به]^(١) والمعطلة سلبوه - جل وتعالى - في حقهم ما اتصف به.

وسبيل الحق في ذلك واضحة [من]^(٢) أمر بين أمرين دين قيم لا تشبيه ولا تعطيل مع تقديم التنزيه والإيمان بأنه - جل وعز - له المثل الأعلى سبحانه وله الحمد، لقد أعظم النعمة على أهل التوحيد، وأجزل المنة على من منحه التحقيق حيث دلهم على نفسه فاصطفاهم لعبادته، ولم يجعلهم خاضعين لصنم، ولا عابدين لذي شكل ولا لوثن، سبحانه وله الحمد، من ذا الذي يشفع [لهم]^(٣) في القدم من اختار لهم هذا في الأزل لا إله إلا هو، الحمد لله رب العالمين، إن هذا لهو الفضل المبين.

فصل

الدعاء قد يكون بحرف النداء أو بغير حرف النداء، إنما [يجلب حرف النداء بعد]^(٤) الصوت من أجل تطويل النفس به، وذلك يكون لمعنيين: أحدهما: [إرادة]^(٥) الإسماع.

والثاني: التضرع [وإظهار خضوع]^(٦) النفس للمدعو المنادى.

وأكثر ما جاء دعاء المقتدى بهم - صلوات الله على جميعهم - بإسقاط حرف النداء؛ إذ المدعو المنادى حاضر شهيد، فاستوى في حقه جل وتعالى من أسر القول ومن جهر به، كذلك حكى عنهم عز جلاله بقوله حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٣ - ٤].

﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم: ٨].

وعن نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

(١) في النسخة (ق): «فيه».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «له عنده».

(٤) في النسخة (ق): «يجتلب حرف النداء لمد».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «لإظهار حضور».

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥].
وعن أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسْنِي الضُّرِّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].
[وعن أولي الألباب^(١): ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ [آل عمران: ١٩٣] وهو كثير.

[وقد أثنى الله على زكريا عليه السلام من أجل إخفاء دعائه في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]]^(٢) وأمر بذلك في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^(٣) [الأعراف: ٥٥].

وقال رسول الله ﷺ وقد سمع [جهر أصحابه بالدعاء]^(٤): «أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنه [سميع]^(٥) قريب»^(٦).

وفي أخرى: «[هو]^(٧) أقرب إلى أحدكم من رحله ومن عنق راحلته»^(٨).
ومن أدخل حرف النداء فلمعنى إظهار التضرع [أو إبداء]^(٩) النصيحة، كقوله جل وعز: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) لما أمرهم تعالى بالاستماع والإنصات إذا شرع في قراءة القرآن ارتقى من أمرهم إلى أمر الرسول ﷺ أن يذكر ربه في نفسه أي بحيث يراقبه ويذكره في الحالة التي لا يشعر بها أحد وهي الحالة الشريفة العليا، ثم أمره أن يذكره دون الجهر من القول أي يذكره بالقول الخفي الذي لا يشعر بالتذلل والخشوع من غير صياح ولا تصويت شديد كما تناجى الملوك وتستجلب منهم الرغائب، وكما قال للصحابه وقد جهروا بالدعاء.

(٤) في النسخة (ق): «أصحابه يجهرون بالتكبير والدعاء».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) أخرجه البخاري (٢٨٣٠)، ومسلم (٢٧٠٤)، وأبو داود (١٥٢٦)، وأحمد (١٩٥٣٨)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٧٩)، وأبو يعلى (٧٢٥٢)، وابن أبي عاصم (٦١٨).

(٧) في النسخة (ق): «إنه».

(٨) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٦١٤)، والطيالسي (٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٨٠)، والبخاري (٢٩٩٤).

(٩) في النسخة (ق): «وربما لإبداء».

[الفرقان: ٣٠].

وكقول إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ [مریم: ٤٣].

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ [مریم: ٤٤]^(١).

﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

فالأمر المعهود [في]^(٢) الدعاء إلى الله تعالى [وسؤاله الخفية]^(٣) وإسقاط حرف النداء إلا أن يدخل على الداعي عارض مزعج، ودعاء المخلوق أكثره بحرف النداء لا سيما إذا كان المدعو على بعد ليس كذلك دعاء من هو أقرب إليك من نفسك، وأقرب إلى نفسك من حياتها، وأقرب إلى كل موجود من ذاته، فأحسن [سبل]^(٤) الدعاء إليه أن يكون على سبيل المناجاة والافتقار والتضرع والرغبة والرهبة مع الإيمان [بقربه]^(٥) ومشاهدته، ولتيسير الإجابة من محيط به [قريب]^(٦) رقيب عليه رحيم به، مجيب [سميع]^(٧) كريم، لا يتعاضمه ذنب يغفره، ولا عطاء يمنحه استنجازاً لوعده الكريم ﴿أَذْغُونِي أُشَجِّبَ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]^(٨).

فصل

قد تقدم الكلام في شرح الأسماء على مبلغ الجهد وحسب الطاقة ﴿والله الأسماء الحُسنى فاذغوه بها﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قوله هذا - والله أعلم - خطاب منتظم المعنى بما بدأ به السورة من قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٢] إلى قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أن».

(٣) في النسخة (ق): «على الحقيقة والتضرع».

(٤) في النسخة (ق): «سبيل».

(٥) في النسخة (ق): «به».

(٦) في النسخة (ق): «قريب منه».

(٧) في النسخة (ق): «سميع له».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ [الأعراف: ٣] وهذه [ثلاث] ^(١) كلمات عليهن دارت [معاني] ^(٢) ما جاء من بعدهن، فلا يخلو الخطاب بعد هذا من أن يكون في معنى الأمر [بالاتباع] ^(٣) ووصف ما أنزله، والدلالة على الله جل ذكره، والدعاء إليه، والتحذير من اتخاذ أولياء من دونه، ووصف ذلك [ولما] ^(٤) يتبعه والتذكير والنصيحة، وما اتصل به وهو مفصل من محكم.

قوله جل قوله: ﴿الْمَص * كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ - ٢] حتى انتهى الخطاب إلى معظم الذكر والعلم من ذكر الأسماء الحسنى، وهي بما هي تشير، بل تُعرَف بالصفات العلا [والصفات] ^(٥) تُعرَف بالموصوف، وكما تدل أيضًا على الأسماء تدل على الأفعال.

واعلم - وفقك الله - أن لكل علم مبتدأ يبتدئ به طالبه، وأُسًا يبنى عليه يحتاج أن يتقنه حتى يعتدل [له أسه ويشتد] ^(٦) بنيانه، ثم حيثئذ يتصرف في المعاني فيتبوأ منها حيث [أحب] ^(٧) وأول هذا العلم: التفكير في مخلوقات الله جل ذكره، وطلب معرفته بذلك، والعلم الحاصل عن ذلك فهو علم أسمائه، وإنما ضل [الأكثر] عن المقصد لما ركنوا إلى طلب للعلم الهويناء، وركنوا ^(٨) إلى الراحة، وسلكوا في ذهابهم إلى ذلك بنيات الطريق، وقنعوا بالأدنى دون الأعلى، وتركوا المنهج جائبًا، ولما لم يطلبوا العلم، ولم يتعرفوا المعارف من أصولها، ولا أوتوها من أبوابها [ولا] ^(٩) شرعوا فيها من مبادئها تحيروا وضلوا ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والنهي».

(٤) في النسخة (ق): «وما».

(٥) في النسخة (ق): «كما الصفات».

(٦) في النسخة (ق): «أسه فيثبت له».

(٧) في النسخة (ق): «يشاء».

(٨) في النسخة (ق): «الأكثر عن القصد لما ركبوا إلى طلب العلم الهويناء وألفوا الركون».

(٩) زيادة في النسخة (ق).

فمن لم يكتسب اليوم علماً لنفسه بقي غير عالم حتى يموت، ثم إن هو أدخل الجنة بقي في أول درجة منها متخلفاً عن درجات العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، [يدخل الجنة إن شاء الله فلا يجاوز أول درجة منها]^(١).

أتبع ذلك قوله ﷺ: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] وقد قال مثل هذا في قوم موسى عليه السلام بعدما كان استاق ذكر هذه الأمة من لدن قوله جل قوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] إلى قوله جل قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [الأعراف: ١٥٨] فجاء من ظاهر هذا الخطاب الكريم أنه لا هداية لأحد من الناس كائناً من كان إلا باتباع رسول الله ﷺ.

وقد كان قبل هذا يرسل الله ﷻ النبي إلى قوم خاصة أو أمة معهودة عنده كما قال ﷺ: «كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»^(٢) وفي أخرى: «بعثت إلى الأحمر والأسود»^(٣) وجاء هذا الخطاب معرفاً في العموم.

قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾ [الأعراف: ١٨١] فيحتمل أن يكون المراد بهم الجن، وقد ذكرهم في القرآن في مواضع، وإيمانهم بالقرآن وبمن جاء به واهتداؤهم.

قيل: هذا الكتاب، وإن فيهم المهتدي ومنهم الضال، ويمكن أن يكون المعني به قوماً في أطراف الأرض حيث أظلم الكفر وعمّ الضلال إلا من هدينا، فإنه كما يوجد في أقطار النبوة ومواضع الهداة والهدى كفار ومنافقون كذلك لا يبعد أن يكون في مواضع الضلال والكفر هداة يهدون بالحق يعدلون به في حكمهم، وربما قضوا بالحق وحكموا به، ويعدلون به أيضاً عن الحق كما يهتدي بالكتاب والنبوة، ويعدل بهما الضلالة والكفر ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٨)، والنسائي (٤٣٠)، والدارمي (١٤٤٠).

(٣) أخرجه الطبراني (١١٠٤٧).

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]^(١).

فصل

[قد تقدم أن المعهود المقرر الهداية بالكتب والنبوة، وأن رسول الله ﷺ قال: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة، وإلى الأحمر والأسود»^(٢).

فمن المعلوم أنه ﷺ عم بالنبوة والأنبياء العالم كله إلا في القرط، كيأجوج ومأجوج وأمثالهم، وإنه قد جاء في كتاب «النبوات»: إن الأنبياء قد بلغتهم وأنبأتهم بما يكون منهم في خروجهم، ثم ما يكون من هلاكهم وخوطبوا بذلك.

وبالجملة: فإن الإنبياء والنبوة فيما هنالك وما قاربهم، وفي أكثر الأقطار المحيطة بالمعمور غريب قليل، وأما [سننه... وسيره فظاهره ذلك]^(٣) ولو كان ذلك كذلك لكان غريباً ذكراً وخبراً، وقد نرى مع لزومها فيما هنا وشياعها عموم النسيان، وحلول الغفلة، واستيلاء القسوة على القلوب، فكيف بأولئك؟^(٤).

وذكر الله جل ذكره قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْذِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١] منتظمة بالمجاورة بقوله جل قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] فالظاهر [أن الحق المعني في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً﴾ [الأعراف: ١٨١] هو الحق الماثبوث في العالم]^(٥) في السماوات والأرض الذي فطرهن الله عليه، وهو المتصل بإيمان الفطرة، وهو الإيمان الذي يتحصل بالنظر والفكر والتذكر، وما دلت عليه دلائل المصنوعات، [وسندت]^(٦) به ضروب الآيات،

(١) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٢)، وعبد بن حميد (٦٤٣)، والبيزار كما في «كشف الأستار» (٣٤٦٠)، والطبراني (١١٠٤٧).

(٣) ليس في (ف) ومبتور في (غ).

(٤) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٥) في النسخة (ق): «فالظاهر أن الحق المذكور هنا الحق الماثبوث».

(٦) في النسخة (ق): «وشهدت به».

وقامت عليه البينات المنفصلة من معاني الأسماء والصفات، وكان ذلك ظاهراً [من] ^(١) نبوة آدم ﷺ من علمه بالأسماء [التي علمه الله ﷻ إياها ثم اتصل ذلك أيضاً] ^(٢) بالأئمة الراشدين من ذريته من بعده إلى أن نجم قرن الضلال، وظهر الكفر [حتى طبق الأرض إلا ما شاء الله منها، فإن الله لا يخلي الأرض من قائمين بحجته، وعاملين له بما يرضيه من طاعته.

عبر عن هذه الحال المذكورة قوله ﷻ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على الإسلام والإيمان، وحذف ذكر الاختلاف، ثم قال: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ بقوله الحق، وهذا حق مؤكد للحق المحصل، والنظر والاختلاف الواقع فيه من أجل اختلاف الآراء بينه الكتاب والنبوة كما قال جل قوله: ﴿لِيُخْخِمْ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] ^(٣) وعلى ذلك فإن الله لا يخلي أرضه من القائمين بحججه وعاملين له بما يرضيه، وكما لم يخل موضع الرسالة والنبوة والهداية من منافقين وكافرين ومكذبين.

ولما [طبق الكفر الأرض] ^(٤) وعمها ظلامها إلا ما شاء الله بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب [والصحف والبينات] ^(٥) كنوح وهود وصالح وشعيب، ثم موسى - صلوات الله وسلامه على جميعهم - إلى أن بعث إبراهيم ﷺ حين ضل النُّظار [والمفكرون يعلمهم] ^(٦) كيف النظر، وأراهم ترتيب الاعتبار ومُنْبَغْثَهُ، وإلى من هو المنتهى، فقُرْبُ باليقين، وعلا بالعلم المكين، واطلع على ملكوت السماوات والأرض، وأتخذ الله خليلاً ثبت قوم [على] ^(٧) نبوته، واتصل لهم ذلك بنبوة آدم ﷺ، وهم قوم من البراهمة، [وأنكروا ما سواها من] ^(٨) النبوة

(١) في النسخة (ق): «أي في».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «أطبق الكفر على الأرض».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «فطفق ﷺ يعلمهم».

(٧) في النسخة (ق): «على رسوم من».

(٨) في النسخة (ق): «وأنكر بعضهم».

فضلوا لذلك.

وأمة أخرى أخذت [مأخذ]^(١) النظر والاعتبار، [وكررت]^(٢) الذكر على الفكر، والفكر على الذكر وإن كانت لم تأثم بالأسماء [ولا شعرت بها؛ لسعة]^(٣) رحمة الله ﷻ [بها]^(٤)، وعموم مسالكها في العالم لم تكد [تخرج من]^(٥) حكمة موجودة فيها وبها، ثم كذلك إلى أن تهودت منها المبالي، وتقطعوا [زمرًا]^(٦) فيما بينهم كالمعهود من الأمم [البادية]^(٧)، فكيف بأولئك من ضلال وحيرة؟.

وربما كان في أثناء هذه الطرقات، وفي أعطاف [مرور]^(٨) هذه الأمم أفراد سابقة، وآحاد [وأنواع]^(٩) من الحق متمسكة، وقليل ما [أعقد]^(١٠) لهم لواء مملكه، وللمعهود من سنة الله جل ذكره، والموجود من [خصوصية]^(١١) من شاء من عباده، وربما أرسل إليهم رسلاً وتبأ منهم أنبياء، وربما جنت الأشكال وتعارفت الأنفس الذكية، واتصل الحق بالحق، وربما ظهرت [لهم]^(١٢) دولة بقطر من أقطار الأرض وإن غلب عليهم في أخرى، وربما غطى عليهم أهل الضلال وظهر عليهم ظلام الكفر، فربما أيضاً أزيلوا منهم هكذا، وهم على ذلك مرة يتفيثوا أمر الله فيهم وبهم، ومرة يقيمهم حتى أظهر دينه بالإسلام [ونبيه]^(١٣) ومحمدًا ﷺ، ثم لا يبعد أن يكون مثل ذلك بحيث لا ينتهي علمنا من معمور الأرض، وقد يطلع الشوك الزهر، وربما

(١) في النسخة (ق): «ما أتخذ».

(٢) في النسخة (ق): «وكورة».

(٣) في النسخة (ق): «إلا عن جنب من النظ ولسعة».

(٤) في النسخة (ق): «بالأسماء».

(٥) في النسخة (ق): «تخلوا أعني هذه الأمة عن».

(٦) في النسخة (ق): «زبرًا».

(٧) في النسخة (ق): «المهدية».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «بنوع».

(١٠) في النسخة (ق): «انعقد».

(١١) في النسخة (ق): «خصوصيته».

(١٢) في النسخة (ق): «له».

(١٣) سقط من النسخة (ق).

اجتنى منه الثمر، والله غالب على أمره.

وقال رسول الله ﷺ في المجوس: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١).

ثم أجمع المسلمون على ذلك من أخذ الجزية منهم، وما ذاك إلا لنبا عندهم، وأصلهم في نكاح القربات المحرمات بالقرآن والحديث، وكذلك في التوراة والإنجيل [أزواج]^(٢) آدم عليه السلام ذكر بطن من أنثى بطن آخر، وأنثى بطن من ذكر بطن آخر؛ وذلك لضيق المتسع يومئذ، ثم نسخ الله ﷻ ذلك، وذكروا - أعني: المجوس - أن أنبياء لهم قد سموهم، فإن كان ذلك كما قالوا فإننا نؤمن بما أنزل الله من كتاب، وبمن أرسل من رسول.

فصل

من وصف بعض [ذكر]^(٣) أنبياء هؤلاء - عليهم السلام - [من يقدم ذكرهم النبي ﷺ]^(٤) وذلك أنهم دلوا بعض ملوك اليونانيين على التماس [نبي؛ ليعلمه بأمر نزل به من مملكة، ويدله على الشفاء من ذلك الأمر، فدلوه على التماس نبي عصره؛ ليجمع له إلى علمهم، وما ينبئ عنه أنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة، ويكون من فقراء عصره]^(٥).

قالوا: ولتكن رسلك إليه، ودليلك عليه من لانت سجيته وصدقته لهجته،

(١) أخرجه مالك (٦١٩)، والبيهقي (١٩١٢٥)، والبخاري (١٠٥٦).

(٢) في النسخة (ق): «أنكاح».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «نبي عصرهم ليجمع له إلى علمهم ما ينبئ به النبوة وذلك لأمر حزيه، وهذا من وصف بعضه على الاختصار منا له، قالوا: كان هذا الملك قد بسط العدل في رعيته وبذل الإحسان فبطروا وكثر لأجل ذلك الخلاف حتى تناقضت عليه بعض أطراف دولته، فخرجوا عن عدله بجورهم وعلى إحسانه بإسأتهم فجمع لذلك أهل الرأي من مملكته واستفتاهم في ذلك، وقال: أشيروا علي فدلوه على نبي ذلك الوقت ووصفوه له بما يأتي ذكره، وقالوا: إنه لا يسكن في البلدان العامرة، وإنما يكون في القواصي المقفرة ويكون من فقراء عصره».

وكان [تطوعه]^(١) إلى الحق أحب إليه من الظفر به، فإن من استولى عليه هذا الوصف بينه وبينهم وصلة فدله عليه، [وليتقدموا]^(٢) إلى أصحابه في المسألة عنه؛ ليعلموا مسقط رأسه ومنشأه وسيرته، فإنك تجده زاهدًا في التعلم، راغبًا في الصدق، مؤثرًا للخلو، بعيدًا [عن الخيلة]^(٣)، غير حظي من الملوك، ينسبونه إلى تجاوز حده، والخروج عما جرى عليه أهل طبقة يتأمل فيه الخوف وتخال فيه الغفلة، إذا تكلم في الأمر توهمت أنه عالم بأصوله، وليس [يعرف ما يلقي]^(٤) إليه به، وإذا سُئل عما يصدر عنه ذكر أنه يُلقى على لسانه وفي خاطره في اليقظة وبين النوم واليقظة ما لم [ترو فيه وإذا سأله]^(٥) عن شيء رأيته كأنه يقتضي الجواب من غيره، ولا يفكر فيه [تفكير]^(٦) القادر عليه والمستبطن له، فإذا وجدوه [فيستجمع لهم]^(٧) أعاجيب تظهر على لسانه ويده إلى ما تقرر من وصفه.

[قالوا]^(٨): فلما وجدوه وجدوا معه نفرًا يسيرًا من الزهاد قد قعدوا عن الاكتساب، ومشايخ زمني [أقعدهم]^(٩) الجهد وهو بينهم في منزل شعث، وحول المنزل جماعات من هؤلاء قد شغفهم جواره وأقعدهم عن الحظوظ التي وصل إليها غيرهم، وسألوه عن وقت خلوته فقالوا [لهم]^(١٠): «ما له شيء يشغله عنكم» فدخلوا عليه فوجدوه مختبئًا بين جماعة قد غضوا أبصارهم من هيئته، فلما رآه نفر المرسلون إليه سبقتهم العبرة وغمرتهم الهيبة، فسلموا عليه فرد عليهم السلام ردًا

(١) في النسخة (ق): «رجوعه».

(٢) في النسخة (ق): «وليتقدموا».

(٣) في النسخة (ق): «من الخيلة».

(٤) في النسخة (ق): «يعلم ما ترقى».

(٥) في النسخة (ق): «يرويه وإذا سُئل».

(٦) في النسخة (ق): «تفكر».

(٧) في النسخة (ق): «فستجمع لكم».

(٨) في النسخة (ق): «قال».

(٩) في النسخة (ق): «قد أخلقهم».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضعيفاً [وهو]^(١) كالناعس المتحير، ثم زاد نعاسه حتى كادت [عيونه تنجل]^(٢) فلما تبين لمن حوله ما تغشاه غضوا أبصارهم ووقفوا [فوق]^(٣) المصلى، فقال: «يا رسل الخاطي» ثم كلمهم بحاجتهم، وكان مما كلمهم به أن قال: قولوا إنك غرست جنة وظللت وأرسلت إليها من الماء أكثر ما ينبغي إلى تمام مقالته، إن من حكمة الله جل ذكره أن فرد على عباده أنواع وظائف العبادات بحكمته في ذلك نشغلهم بذلك، يجتمعون على ذلك ويتفرقون عليه وليرفع بذلك عنده درجاتهم في الآخرة.

وكان هذا الملك أحسن إليهم في متاع الدنيا، ولم يكن له علماً بما يجلبه إليهم من خير الآخرة فبطروا على ذلك، وقد كان سقى على السائلين له، وأن يسترشده فيعرفهم معنى المثل الذي ضربه لهم في ذلك، وكيف ينبغي إصلاح ذلك؟ فلعله أن تأمرهم بأن يضرب على العباد وظائف عبادة الله من صيام وصلاة وحج وذكاة وصدقات، وضروب أذكار ولزوم مخافة الله واستشعاره خشيته، ونصيحة للمؤمنين وللإمام ولعامتهم وخاصتهم ولجهاد في سبيل الله من لم يؤمن بالله وبرسوله، وترك هذا أوجب التقاتل من المسلمين بقدر ما انتقصوا من ذلك فالله المستعان، فهذه حكمة الله التي يسوس بها عباده ويقمعهم بالتزامها عن توثب بعضهم على بعض.

وذكروا أن امرأة حاكمت زوجها إلى بعضهم في تلك الأمة فأصابته مشغولاً بالتقديس - يعني: الصلاة - فانتظرت مع زوجها حتى فرغ، ثم قال [لها]^(٤): يا جاهلة، بمقدار ما جتته على نفسها اعترفي بذنبك واعلمي زوجك بجنايتك عليه، فإن السكران الذي واقعك في ليلة كذا وزوجك قائم في الهيكل يدعو لكي بدوام البقاء والسلامة قد أحبلك، [ظننت]^(٥) لما استترت عن أعين البشر لم تبق عين تراعيك، ولم تعلمي أن في ملكوت السماء منها ما لا يحصى عدده، وأنت فيهم

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «حبوته تنجل».

(٣) في النسخة (ق): «وقوف».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وأنت متهومة وإنك».

[كالمكفوفين]^(١) المبصرين، وستلدين بعد شهرين خلقًا مشوّهًا. ثم قال للزوج: «عقدت نكاح هذه المرأة على غير استقامة فحصلت منها أكثر [مما]^(٢) زرعته» فولدت شخص إنسان له رأسان ويدان في صدره صغيرتان.

وذكروا أن رجلاً وافاه فقال له: يا نور الألباب، إني دفنت مالا في موضع من منزلي [ونسيت]^(٣) مكانه، فقام معه وجاء إلى منزله فأثاره، [ثم]^(٤) قال: «أيها الممتحن إلي والشاك في، إنه لا بد أن يتلف منك ما أثرته لك من المال في هذا الأسبوع، ثم لا أستخرجه لك بعدها، فإن حقًا على من لعب بنعم الله أن يسلبه إياها» فذهب المال.

فصل

وذكروا أن شدة حلت في بعض هذه الأمم، وحرًا احتيج فيها إلى إخراج رجل من أفاضلهم.

قالوا: وكان طاهر السجاي، حسن التمكن من علوم النفس، فرجع وقد أنخن جراحًا، قال بعض أصحابه: «فدخلت عليه وأنا أتوهم أنه لا يميز، فألفيته في تميزه صحيحًا، وكان يغمى عليه ساعة فيكون بمنزلة المستقل في نومه، ثم يفتح عينيه فيتكلم ببعض أدعية الصحف ويشخص إلى جهة السماء، فقلت: ما الذي ترى؟ فقال: أرى خلاص النفس من الجسد، وأجد راحة [لم]^(٥) أجدها في المحيا. فقلت [له]^(٦): زدني في شرحك إن أطق ذلك. فقال: [أراني]^(٧) وكأني ولدت وعلى كتفي شيء ثقل، فكان يكبر بزيادة سني حتى إذا كان في هذا الوقت وجدت له

(١) في النسخة (ق): «كالمكفوفة من».

(٢) في النسخة (ق): «ما».

(٣) في النسخة (ق): «وأنسيت».

(٤) في النسخة (ق): «و».

(٥) في النسخة (ق): «لمن».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «أرى».

[جفاء]^(١) شديداً، وصرت أتأمل [الأشياء]^(٢) بما هو أفضل من عين الجسد، وأنا أرى عموداً متصلًا بالأثير من نوره، ونفوس أهل الزيغ لا تقطعه، وتتحامى نوره إلى ما حوله كما تفعل الخفافيش.

ثم قال: طوبى لذوي الأمانة والصدق؛ فإنهم في أمن. ثم زفر فقلت له: ما لك؟ فقال: «[إني]^(٣) قد أشرقت على الفرج من الجسد، إلا أن قوة في قلبي تحبسني عنه، تجذبني إلى الحياة وأنتم تعينونها بطيب الأرايح [الشائقة]^(٤) في هذا الموضع، وأنا بينكم كرجل مطلق بين مصفدين يريدون مقامه معهم في حبسهم، وقد تراءى له الخلاص منها. ثم عاد إلى دعاء الصحف، فما زال يتلوه حتى ثقل لسانه وخفي كلامه [بالضعف]^(٥) وقضى نحبه، فهؤلاء أنبياء وأفاضل ومن أتباعهم».

وقد فرقوا ما بين الشريعة والسياسة، وذكروا الصلاة وركوعها وسجودها وقيامها، والصيام ومنبعثه، والصدقة والمكرمة والذبائح، والحدود في الزنا [والسرقة]^(٦)، والزهد في الدنيا، والإخلاص، وحذروا من [الربا]^(٧) والخيانة وأكل الحرام، وذكروا القود والإيمان وحسن السيرة والمواريث والنكاح والغسل، وأنه واجب، وبر الوالدين، والفرق ما بين [ما]^(٨) للوالد على الولد وبين ما للولد على الوالد، والدين والأعياد، فما قصرُوا كثيراً، [ما]^(٩) وكان كلامهم على ذلك كله بما لا بأس به إلا قليلاً من كثير، وربما كان تصديقاً بقوله الحق في الغالطين منهم: ﴿وَبِهِ يَغْدُلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩] على وجهته.

(١) في النسخة (ق): «خَفَّ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الشائقة».

(٥) في النسخة (ق): «بالضعف».

(٦) في النسخة (ق): «والسرقة».

(٧) في النسخة (ق): «الزنا».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) سقط من النسخة (ق).

فصل

ومن نوادر حكمهم [قول أحدهم]^(١):

- من غلب عقله هواه افتضح.
- من غصَّ طرفه أراح قلبه.
- أيها الإنسان، إذا اتقيت ربك وحذرت الطريق المؤدية إلى الشر لم تقع في الشر.

- لا تلم القضاء فيما جنيت.
- شر يُدفع خير من خير لا ينفع.
- لا شيء أشد من ترك الشهوة.
- تحريك الساكن أيسر من تسكين المتحرك.
- من لزم الوقار لزمه الرضا.
- من قل وفاؤه كثر أعداؤه.
- أحسن إن أحببت [أن]^(٢) يحسن إليك.

- بالهمم العالية [والقرائح]^(٣) الزاكية تصل القلوب إلى نسيم العقل الروحاني، وترقى في ملكوت الضياء والقدرة الخفية عن الأبصار المحيطة بالأقطار، وترتقي في رياض الألباب المصفاة من الأدناس، وبالأفكار تصفو أكر الأخلاق المحيطة بأقطار الهياكل [الجسمانية]^(٤)، فعند الصفو ومفارقة الكدر تعيش الأرواح التي لا يصل إليها الانحلال والاضمحلال، فحينئذ يلحق العنصر بالعنصر، ويتحد الصفو بالصفو، ويرسب الكدر إلى الكدر، فتعاين القلوب حقائق الغيوب، وتطمئن النفوس إلى ما لحقت به من العالم المعلوم لحسن الأفكار، [وباعتناق]^(٥) الأشكال واتفاق

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والقريحة».

(٤) في النسخة (ق): «الجسمية».

(٥) في النسخة (ق): «وباتساق».

الأهواء كيف تركز القلوب إلى علم الغيوب وقد حجب عنها صواب المصيب؟ بل كيف يتخلص الصفو من الكدر بغير تهذيب [من الفكر؟ كيف] ^(١) تلحق الأفكار غوامض الأسرار وهي في حجب الاغترار؟ [تأهب] ^(٢) الأهواء إلى معادنها، وقويت الهمم [في] ^(٣) مواطنها، وعادت الأفكار إلى عناصرها، ورجعت مستكنات الفطن إلى مستكناتها، وعاليات الأذهان إلى مظانها وأماكنها، [فانحازت] ^(٤) الأشكال بلطيف تأثير الهواء فيها، واستكنت مشرفة على هياكلها من أوطان عناصرها [بلمحة] ^(٥) قبول بشواهد الأسرار تلج الضمائر في بحار الأفكار، فتصل إلى نسيم [الهوى الواصل إلى] ^(٦) عوارض العقول والأبصار، [وعرائض] ^(٧) الأبواب والأذهان، فتقبل [الهوى ويتواصل] ^(٨) اللحاق بمضمرة الغيوب، ويتصل بالمطلوب الأعلى الذي فيه [التقاء] ^(٩) النفوس في ظل السحاب المحسوس، كيف الاتحاد بخفيات الأضداد؟ والعلم بشواهد الآثار المحتجبة عن العقول والأبصار الشاهدة لخفيات الإضمار حتى تعلقت [الأزواج بالأزواج] ^(١٠) وامتزجت الأجناس بالأجناس، وخلصت في [سراج] ^(١١) الأوهام، وانحسرت في مفيض العقل، وبانت من كدر العذاب، وتميزت من مواطن الحجاب إلى بحبوحة الأبواب، فيا لها نعمة ما أتمها وأعمها وأهنأها وأسلمها.

(١) في النسخة (ق): «الفكر بل كيف».

(٢) في النسخة (ق): «تأهت».

(٣) في النسخة (ق): «من».

(٤) في النسخة (ق): «وانجازت».

(٥) في النسخة (ق): «بصحة».

(٦) في النسخة (ق): «الهواء الواصل».

(٧) في النسخة (ق): «وغوائض».

(٨) في النسخة (ق): «الهواء الواصل إلى القلوب وتتواصل».

(٩) في النسخة (ق): «بقاء».

(١٠) في النسخة (ق): «الأرواح بالأرواح».

(١١) في النسخة (ق): «سراج».

ومن [مقطعات]^(١) حكمهم:

- الحكمة حياة النفوس، وزراعة الخير في القلوب، ومثمرة الحظ، [وحاصدة الغبطة]^(٢) وجامعة السرور، ولا يخبو نورها، ولا [يكبو]^(٣) زنادها.
- الحكمة حلة العقل، وميزان العدل، ولسان الإيمان، وعين البيان، وروضة [الأدب]^(٤) ومنزاج الهموم على الأنفس، وأمن الخائفين، وأنس المستوحشين، ومتجر الراغبين، وحظ الدنيا والآخرة، وسلامة العاجل والآجل.
- كل شيء يتهياً فيه حيلة إلا القضاء.
- ليس شيء أقرب إلى تغير النعم من الإقامة على الظلم.

فصل

فِي نَفْيِ التَّنْثِيهِ وَالتَّمْثِيلِ

اللواحق الخفية هي ما لا يدرك بحاسة العيان والأسماع واللمس والفكر، فالنكول عنه بَيِّن، والعجز عن مداه واضح، كيف يدرك بالحس غير محسوس؟ أم كيف [تبلغ الفكر]^(٥) ما لا يعرف أمره ولا الطريق إليه؟ حسرت الأبصار عن إدراك الغيوب، ورجعت الأفكار عن الوصول، وانقطعت المعارف دون التناهي من عجز عن علم نفسه، فهو أعجز عن علم غيره، ومن ضاق عن سعة الفضاء قصر عن بلوغ المدى، وعن معرفة الانتهاء حقائق خفية توجب أحكام صنعة وتلزم القصور عن إدراك ذلك بالعقول والأبصار، وإنما يرتقي إليه وهماً لا تحقيقاً ويعلم به تفكراً لا نظراً.

وربما وقع [الفكر]^(٦) على معدوم والفكر على غير مفهوم حقائق الأشياء تظهر

(١) في النسخة (ق): «مقطعات».

(٢) في النسخة (ق): «وزراعة الغبط».

(٣) في النسخة (ق): «يكمن».

(٤) في النسخة (ق): «الأداب».

(٥) في النسخة (ق): «مبلغ».

(٦) في النسخة (ق): «الوهم».

عند الوصول إليها، وتتعلق الأرواح بها، فإذا تناهت إليها وقفت عندها فتألفت ودخلت معها في جملتها.

جوابه: إنما يكون [عند]^(١) مباينة اللطيف الكثيف، وتبيين الغائب بالشاهد، واتفاق المعدوم مع الموجود، [والاتحاد]^(٢) إنما هو للأرواح لا للأجساد، فإذا تباينا اتصالاً، وإذا تفرقا ائتلفاً، فلحق اللطيف باللطيف، ورجع الكثيف [إلى]^(٣) الكثيف، آمالنا متناهية إلى حد تقف عنده، وأفكارنا جائلة في سعة [تحسر]^(٤) عن إدراكها وتعجز عن الإحاطة بها، لطفت عن الحس، وكثفت عن الدخول في غلظها، فالعقول متناهية إليها، والأفكار واقفة دونها، والخواطر متعلقة معترفة بالتقصير عنها، [شاهدة لحقائقها]^(٥)، ممتنعة عن العلم بها من عرف الدنيا، لم يفرح لرخاء ولا يحزن على بلاء، أجهد بدنك اليوم لراحتك غداً، أفصّد السيرة طيب [الذكر]^(٦) المكسب، وتقدير الاتفاق.

وكتب بعضهم إلى ملك زمانه، وقد مات ابنه: إن الله تبارك وتعالى جعل الدنيا دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبي، فيأخذ ما يأخذ مما يعطي ليعطي [ويبلي]^(٧) إذا ابتلى ليجزي الذنوب الفاضحة تذهب الحُجج الواضحة، اعقلوا في ستر من أنتم، فإن كنتم لا تعقلون فاحذروا الدنيا، وإن كنتم لا تحسنون أن تحذروا الدنيا فاجعلوها شوكةً، وانظروا أين تضعون أقدامكم، واحذروا أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات محجوبة عن الله ﷻ، من أراد أن يقوى على طلب الحكمة [فيكيف]^(٨) عن تمليك النساء نفسه، لا ضرر أضر من الجهل، ولا شر أشر من النساء، من كانت الدنيا عنه سائرة فلا شك أن أعضائه فانية، ومهجته عن الدنيا

(١) في النسخة (ق): «بعد».

(٢) في النسخة (ق): «فالاتحاد».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «تنحصر».

(٥) في النسخة (ق): «شاهد بحقائقها».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «ويبتلى».

(٨) في النسخة (ق): «فليكيف».

راحلة، من حسن خلقه غفر ذنبه وأقيلت عشرته، ومن ساء خلقه عوقب في حياته، ولم يصفح عن زلته بعد مماته، [إنما]^(١) الدنيا وإن رمقت خطرة من لحظ ملتفت يحسن بالمرء التعلم مادامت [به]^(٢) الحياة.

وقال بعضهم: ما أحب أن النفس علمت كل ما [أوجدت]^(٣) به، فقيل له: لِمَ أيها الحكيم؟ فقال: لأنها لو علمت لطالت، فلم ينتفع بها ما عندي من فضيلة العلم إلا علمي بأنني لست بعالم الاتكال على القضاء أروح، وقلة الاسترسال إلى الناس [أحزم]^(٤)، إذا هرب الحكيم من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب منه، ليس ينبغي للرجل أن يشغل قلبه فيما ذهب منه، لكنه ينبغي أن يعنى بما يبقى عليه.

وإنما اجتلبنا بعض حكمهم وكلامهم، وأومأنا إلى بعض الإشارة [إلى سيرتهم]^(٥)، وإن كان الأكثر منهم لهم آراء في [طريق المعرفة غير ناهية]^(٦)، وعقود غير مبلغة إلى [المطلوب]^(٧)، وعلم بالدار الآخرة غير مصيب، فلم يكن الغرض في اختلاف [أقاولهم]^(٨) التصويب لأكثرها، ولا ترشيد جملتها، بل لم تكمل الهداية إلا لهداة المسلمين، ولا تصورت الحكمة صورة ماثلة، فلاحت كالسبيل السابلة إلا لأئمة المتقين في الأولين والآخرين، لكن الغرض توجيه قوله الحق: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ١٨١].

فأنت مع توفيق الله إذا تصفحت أمرهم واستعرضت أكثر قولهم علمت أن توجيه قوله ﷺ يمكن أن يكون المعني به هذه الأمة ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «أوعدت».

(٤) في النسخة (ق): «أجزم».

(٥) في النسخة (ق): «من سيرهم».

(٦) في النسخة (ق): «طرق المعرفة غير متناهية».

(٧) في النسخة (ق): «مطلوب».

(٨) في النسخة (ق): «أقولهم».

بِالْحَقِّ أَي: بالحق [المبثوث]^(١) في العالم المنفصل [من]^(٢) مقتضى أسماء الله ﷻ مع هداية من أنبأ مبلغ إليهم، وبالحق يعدلون؛ [أي]^(٣): عن الحق، والله أعلم [بمراده وحكمه]^(٤).

﴿وَأْمُرْ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَهُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٣ - ١٨٦].

قوله ﷻ: ﴿أَوْلَمْ يَنْفَكُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٥) [الأعراف: ١٨٤] خاطب جل ذكره الرسول ﷺ والمرسل إليهم، وأعلم بذلك أنهم كانوا [يدركون العلم بصحة نبوته إليهم وتصديق رسالته، وأنه نذير وبشير بالتفكير والنظر]^(٦).

(١) في النسخة (ق): «المبثوث».

(٢) في النسخة (ق): «عن».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) قال الحسن وقتادة: سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا بني فلان، يا بني يحذرهم ويدعوهم إلى الله تعالى، فقال بعض الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون بات يصوت حتى الصباح، وكانوا يقولون: شاعر مجنون، فنفى الله ﷻ عنه ما قالوه، ثم أخبر أنه محذر من عذاب الله، والآية باعثة لهم على التفكير في أمر الرسول ﷻ وانتفاء الجنة عنه، وهذا الاستفهام قيل: معناه: التوبيخ، وقيل: التحريض على التأمل والجنة كما قال تعالى: ﴿مَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] والمعنى: من مس جنة أو تخييط جنة. وقيل: هي هيئة كالجلسة والركبة أريد بها المصدر؛ أي: ما بصاحبهم من جنون، والظاهر أن «يتفكروا» معلق عن الجملة المنفية، وهي في موضع نصب بـ«يتفكروا» بعد إسقاط حرف الجر؛ لأن التفكير من أعمال القلوب فيجوز تعليقه، والمعنى: أو لم يتأملوا ويتدبروا في انتفاء هذا الوصف عن الرسول فإنه منتفٍ لا محالة، ولا يمكن لمن أنعم الفكر فيه نسبة ذلك إليه. تفسير البحر المحيط (١/٦).

(٦) في النسخة (ق): «يذكرون العلم بصحة نبوة نبيهم والتفكير والنظر فيعلمون بذلك تصديق رسالته وأنه نذير وبشير».

ثم قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [الأعراف: ١٨٥]
 أخبر الصادق [الحق]^(١) ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه، أن [الفكر]^(٢) في النبوة والنبى
 خاص لها، وأن التفكير في الملكوت وما خلق الله من شيء تحتاج إلى نظر آخر، وإن
 الفكر ليجري فيما دق أو جل فيرتفع؛ [أي]^(٣): يملأ الآفاق، ويبلغ العرش العظيم،
 وينزل [سفلًا]^(٤) إلى أسفل السافلين، دل على [هدايته من الآية]^(٥) بمجاورتها أيضًا
 بقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾
 [الأعراف: ١٨١ - ١٨٢] وبانتظامها بقوله جل قوله: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ
 بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ودل بذلك أن بعلم الأسماء يدرك علم [التوحيد وعلم]^(٦) براهين النبوات،
 وهو المنتظم لمعرفة الملكوت، وجمعت هذه الآية مطالب العلوم كلها على العموم
 الأقصى، وأعلمت بمناهج الفوز الأكبر والفلاح الأعلى، وذلك أن الوجود كله
 [في]^(٧) العالم والوحي إنما يدور على التعريف بالله ﷻ بأسمائه وصفاته، والإعلام
 بموجودات الآخرة، والاستشهاد على ذلك بالشواهد وإقامة البراهين، استشهاد
 البيئات والآيات على ذلك، وكذلك التعريف بعدله وأحكامه وكلماته وسنته المتممة
 لكلماته، ثم التعريف بمعالم الرسالة والنبوة، وتبيين ذلك وشواهد ودلائله، وتبيان
 ما أنبأت به الرسل، وما جاءوا به من [الكتب]^(٨) والآيات، ومناهج القصد والقرب
 إلى الله ﷻ، وما دار حول هذا وما آل إليه، ثم بما يجب على العبد من التهيؤ
 للقاء الله ﷻ، والتشوق إليه ورجائه وخوفه والحذر منه، إلى غير ذلك من دلالات

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الفكرة».

(٣) في النسخة (ق): «حتى».

(٤) في النسخة (ق): «سفله».

(٥) في النسخة (ق): «هذا نص الآية».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الكتاب».

[الوجود من] ^(١) العالم والوحي.

ومعرفة علم الأسماء، وهو مدار [قطب] ^(٢) ذلك، وفيه الشأن كله من تحقق علم التوحيد، ومعرفة أسماء [الواحد] ^(٣) وصفاته، ومعرفة مسالك أحكامه بالعدل في بريته، وقيامه بالقسط في خليقته، وكيف هو يحيي ويميت وهو في حال الإمامة يحيي وفي حال الإحياء يميت؟ وكيف يمسك السماوات والأرض أن تزولا وما [بين] ^(٤) ذلك وما علا وما سفلى؟ والجملة بأسرها جملة وتفصيلاً، وهو في حال الإمساك [يرسل] ^(٥) كما هو في حال الإزالة يمسك ملاً كل شيء وجوداً وذم كل وجود ملكوتاً.

فصل

اعلم أن للأسماء سلطاناً قاهراً على الجن ليس [ذلك] ^(٦) للإنس، فإنما معشر الإنس المؤمنين وإنّا كنا لا نستحل حلالاً إلا بها، ولا نشرع في عمل ولا نختمه إلا بالتبرك والتعوذ بها، ولا نستعيز من مكروه، ولا نتحذر من محذور، ولا نتوصل لمرغوب، ولا نرغب إلى الله ﷻ، ولا نعبده ولا نتحرك، ولا نسكن إلا بها، وكذلك لا ننام ولا نستيقظ، ولا نتقرب بقربان، ولا ننسك نسيكة، ولا نستحل ذبيحة، ولا نطعم ولا نشرب، ولا نموت ولا نحيا إلا بها استشعاراً؛ [لنتذكر] ^(٧) بها، وهذا كله أعني عمل الأسماء فيما تقدم ذكره في حقنا عيب؛ لأنه تعبد وجزاء، والجزاء في هذه العاجلة [عيب] ^(٨) ليس كذلك الجن.

(١) في النسخة (ق): «الوجودين».

(٢) في النسخة (ق): «طالب».

(٣) في النسخة (ق): «الموحد».

(٤) في النسخة (ق): «من».

(٥) في النسخة (ق): «يزيل».

(٦) في النسخة (ق): «كذلك».

(٧) في النسخة (ق): «للتذكر».

(٨) في النسخة (ق): «غيب».

قال رسول الله ﷺ وقد سأله الزاد [لكن] ^(١) «كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما كان لحمًا، وكل بعرة علف لدوابكم» ^(٢) [سؤالهم الزاد هو معرفة ما يحل لهم، وما يأخذون وما يذرون؛ أي: ما يحل لهم مما يحرم عليهم، وهو الزاد للآخرة] ^(٣).

وكما حرم الله جل وتعالى على كافرينهم استباحة كل عظم ذكر اسم الله عليه كذلك حرم على مؤمنهم استباحة كل ما لم يذكر اسم الله عليه، وكون كل بعرة علفًا لدوابهم باب فُتح إلى معالم غيوب لمقدورات غائبة، منبثت ذلك كله عن [أسماء] ^(٤) الله ﷻ، فأسماءه إذاً أجل شيء نفعًا وأعوده عائدة، وهي موجود الله جل ذكره الطاهر في هذه الدار، ويتحقق ذلك بموجود مقتضياتها، فلذلك وهو أعلم أعقب بهذه الآية التي ذكر فيها الأسماء.

ألا ترى كيف أتبعها قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

ثم أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] وذكر [الثلاثة الأصناف] ^(٥) من التذكر التي لا ينبغي لمؤمن عاقل أن يعمل فكره إلا فيها أو في أحدها.

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] فمن ضيع عمره جهلاً وغفلة، واستنفذ أيامه مرحاً وبطالة ولاه ما [تولاه] ^(٦) وتركه، وما رضي لنفسه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِذَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ

(١) في النسخة (ق): «لكم».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «اسم».

(٥) في النسخة (ق): «الأصناف الثلاثة».

(٦) في النسخة (ق): «تولى».

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ
الْغَيْبِ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٨﴾

[الأعراف: ١٨٧ - ١٨٨].

قوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا...﴾^(١) [الأعراف: ١٨٧] لم يكل
تجليتها إلى ملك ولا إلى غيره، ثقلت في السماوات والأرض يمكن أن يكون ثقلها
لأجل الجهل بها، وعدم العلم بمتى هي كائنة، ويمكن أن يكون [ثقلها زائدا]^(٢) إلى
ذلك من أجل شدة ما يجيء به، [فثقل]^(٣) من أجل ذلك ذكرها في السماوات
والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧] استأثر بإثارتها والعلم بمتى
تكون، وقد قيل: معنى الكلام: ثقلت في [أهل]^(٤) السماوات والأرض فيكون قوله:
﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] مجازاً لأجل نقصان العلم بشهادتها،
والجهل بها والكلام على حقيقة لا طريق [له]^(٥) للمجاز إليه، كما ثقلت على أهل
السماوات والأرض كذلك ثقلت فيهن، أليست [تبدل]^(٦) بغيرهن كما قال عز من
قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. [وذلك لهن
بمنزلة الموت لكل ذي نفس]^(٧).

وقال رسول الله ﷺ: «وما من دابة إلا وهي مُصِیْحَةٌ يوم الجمعة إلى أن تطلع

(١) أي: متى إرساؤها؛ أي: إقامتها، يريدون: متى يقيمها الله تعالى ويكونها ويشتها، فالمرسي
مصدر ميمي من «سار» بمعنى: ثبت، ومنه الجبال الرواسي، وحاصل الجملة الاستفهامية:
السؤال عن زمان ثبوتها ووجودها، وجوز أن يكون المرسي بمعنى المنتهى؛ أي: متى متنهاها
ومستقرها؟ كما أن مرسي السفينة حيث تنتهي إليها وتستقر فيه، كذا قيل، وتقدير الاستفهام
بهـ «متى» يقتضي أن المرسي اسم زمان. تفسير الألوسي (١٦١/٢٢).

(٢) في النسخة (ق): «زائدة».

(٣) في النسخة (ق): «فيثقل».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «تبدلن».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

الشمس فرقا من الساعة»^(١).

وجاء: «إن ما من حجر ولا مدر إلا وله بكاء ونياح حتى تقوم الساعة»^(٢) والكلام على ظاهره.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَلاَحًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلاَحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩ - ١٩٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] وصف - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - عظيم اقتداره على بداية الخلق، ثم على إثارة الساعة والإتيان بالانقراض الذين تكون الإعادة عند وجودهما، ثم أعلمنا ﷻ أن الواحد تكون عنه الكثرة بقوله جل قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ كما قال جل من قائل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [ثم قال]^(٣): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [الروم: ٢١].

فوجه وجه الخطاب إلى ذكر القدرة، ثم إلى ذكر الوجدانية، وأن الكثرة عن الوحدة موجودة، وأن الذوات إنما يكون سكنها إلى ما هو عنها أو هي عنه، ثم عدل بالخطاب إلى مثل فيه الإعلام كيف وجد عن الهداية الضلالة؟ وكيف خلف الذكر الفتنة.

(١) أخرجه مالك (٢٤١)، وأحمد (١٠٣٠٨)، وأبو داود (١٠٤٦)، والترمذي (٤٩١)، والنسائي (٦٣١)، وابن حبان (٢٧٧٢)، والحاكم (١٠٣٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقي (٥٧٩٨)، والضياء (٣٩٥)، والشافعي في «المسند» (٧٢/١)، والطيالسي (٢٣٦٢)، وأبو يعلى (٥٩٢٥).

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سقط من النسخة (ق).

وقال جل قوله: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلْتُ حِمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: على الهداية والذكر والإسلام والهداية لله ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ [الأعراف: ١٨٩] أي: كثرة النسل والنشر اشتركوا مجاز ذلك أن آدم ﷺ كان قد أوجده الله واحداً فرداً، ثم خلق له من نفسه زوجها وهي حواء، فلما تغشاهما حملت [في بطنها] حملاً خفيفاً، فلما قاربت أثقلت، وكان ذلك مثلاً لضربه [الله] ^(١) لبني آدم، قبل أن يكثرو. وكانت الهداية فيهم أكثر، ومع الكثرة وفشو الذرية كان الاختلاف والضلال.

وعبر بالخفة عن القلة [والخلاف عن الكثرة وما يكون عنها من تشتيت الآراء. وعن الهداية وبالثقل والخلاف] ^(٢) فكان النسل [أول] ^(٣) زمان آدم، والأئمة الراشدون بعده في تأويل حملها في أوله [في] ^(٤) حال خفته عليها، فلما أثقلت بكثرة النسل وانتشاره وقد كانا - أعني: آدم وحواء - دعوا الله ربهما في إصلاح ذريتهما، فكانت الإجابة موجودة من الهداية المعبر عنها بخفة الحمل فعند الكثرة والانتشار المعبر عنه بثقل الحمل، وكان الإشراك بالله ﷻ عما يشركون، فأتى بلفظ الجمع فليس بمصيب في قوله: من قال إن المراد بظاهر هذا الخطاب [هو] ^(٥) آدم وحواء - عليهما السلام - ولو كانا قد أشركا بالله كما قال: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠] وحاش لله لكان في ذلك الهلاك؛ [إذ كبر] ^(٦) ولم يكن الذنب الكائن في الجنة عند هذا المذكور إلا بحكم العموم، كما قال عز من قائل: ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] وإنما كان الإشراك في الذرية [بما] ^(٧) أكثرت الحمل وأثقلت ﴿أَثْقَلَتْ دَعْوَا اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٩] ^(٨).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «أولاً».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «الأكبر».

(٨) في النسخة (ق): «لما».

(٩) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠ - ١٩١] أدل دليل على إغفال هذا القائل؛ إذ لو كان على ظاهر ما قاله لقال: «فتعالى الله عما [يشركان]»^(١)، أي شركان ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون».

وقد ذكروا على ذلك حكاية منع التخرج من سياقها، وذلك مما اتبعته الشياطين شأن آدم عليه السلام وهذا من مشبه الكتاب الذي أمه ما جاء من التعزير لهم والتوقيف، على أنه من [حذق]^(٢) ببصيرته ونبذ ما يجب نبذه من أقوال ومذاهب لا دليل عليها أبصر الحق أبلغ منيراً فاهتدى ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾
 ﴿١٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ
 يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٣٥﴾
 [الأعراف: ١٩٣ - ١٩٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾^(٣) المعنى إلى آخره: معناه عباد مريبون مخلوقون ضعفاء، لا يملكون ضرراً ولا نفعاً، ثم قال جل قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: دعاية العبيد الأرباب ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ [بدأكم]^(٤) ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤] في وصفكم لهم إنهم أرباب شركاء.

(١) في النسخة (ق): «يشركون».

(٢) في النسخة (ق): «حذق».

(٣) أخبرهم سبحانه بأن هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم عباد الله كما أنتم عباد له مع أنكم أكمل منهم، لأنكم أحياء تنطقون وتمشون، وتسمعون وتبصرون، وهذه الأصنام ليست كذلك، ولكنها مثلكم في كونها مملوكة لله مسخرة لأمره، وفي هذا تقرع لهم بالغ، وتوبيخ لهم عظيم. فتح القدير (١٣٧/٣).

(٤) في النسخة (ق): «بذلكم».

[وقرأ^(١)] سعيد بن جبير: «إن الذين» بكسر النون وتخفيفها؛ لالتقاء الساكنين «تدعون من دون الله عباداً أمثالكم» بالنصب [هنا]^(٢) فيها، يقول: ما الذين تدعون من دون الله بعباداً أمثالكم يريد: أنتم أكمل منهم وأنتم وجوداً وخلقة إن هي إلا حجارة وأصنام وخشب؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿لَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَطِشُونَ بِهَا﴾ [وقراها]^(٣) أبو جعفر برفع الطاء ﴿أَمْ لَهُمْ أُغْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٥] هذا من معجزات الرسل صلوات الله على جميعهم، كذلك قال نوح وهود عليهما السلام: تتخذون الملوك المسلطين والعتاة الكفرة الجبارين ومع ذلك فلا يصلون إليهم [بمكروه]^(٤).

﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (٣) ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يُفْضَرُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَأَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (٣٩) ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَوِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٠) [الأعراف: ١٩٦ - ٢٠٠].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] هذا نص منه جل ذكره على تولية الصالحين من عباده فليشروا أنفسهم، وقرئت ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ...﴾ بياء [مسندة]^(٥)، وخفض الهاء من الاسم على الإضافة؛ يعني: جبريل عليه السلام، هذا الخطاب وجميع ما جاء في القرآن من معناه راجع إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] ولما لم يذكروا [ما أحدث لهم بالرسول والكتب ذكرى

(١) في النسخة (ق): «وقراها».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وقراها».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مشددة».

تنفع^(١) بالذكر من شاء ويتجنبها الأشقى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَلَا خَوَافُهُمْ بِمُذْنَبِهِمْ فِي الْغَى ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أَلْجَبَيْتَهُمْ قُلْ إِنَّمَا أُنْجِئُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١ - ٢٠٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾^(٢) [الأعراف: ٢٠١] [وقرأ]^(٣) ابن جبير: «طيف»، [وقرئت: «طائف»]^(٤)، وقرأها ابن الزبير: «تأملوا» مكان قوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ وفي قراءة أبي: «إن الذين اتقوا إذا طاف بهم من الشيطان طائف تأملوا» هذا تعليم من الله جل ذكره العبد كيف يكون عندما يلقي الشيطان إليه الفتنة، [يتذكر]^(٥) قوله جل قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ...﴾ [البقرة: ٢٦٨].

[وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

(١) في النسخة (ق): «أحدث لهم بالرسول والكتاب ذكراً فنفع به».

(٢) النزغ من الشيطان أخف من مس الطائف من الشيطان؛ لأن النزغ أدنى حركة، والمس: الإصابة والطائف: ما يطوف به ويدور عليه، فهو أبلغ لا محالة، فحال المتقين تزيد في ذلك على حال الرسول، وانظر لحسن هذا البيان حيث جاء الكلام للرسول كان الشرط بلفظ «إن» المحتملة للوقوع ولعدمه، وحيث كان الكلام للمتقين كان المحجى به «إذا» الموضوع للتحقيق أو للترجيح، وعلى هذا فالنزع يمكن أن يقع ويمكن ألا يقع، والمس واقع لا محالة أو يرجح وقوعه، وهو إلصاق البشرة، وهو هنا استعارة، وفي تلك الجملة أمر له ﷺ بالاستعاذة، وهنا جاءت الجملة خبرية في ضمنها الشرط، وجاء الخبر «تذكروا» فدل على تمكن مس الطائف حتى حصل نسيان فتذكروا ما نسوه، والمعنى تذكروا ما أمر به تعالى وما نهى عنه، وبفس التذكر حصل إبطارهم فاجأهم إبطار الحق والسداد فاتبعوه، ووطروا عنهم مس الشيطان الطائف، و«اتقوا» قيل: عامة في كل ما يتقى، وقيل: الشرك والمعاصي، وقيل: عقاب الله. تفسير البحر المحيط (٢/١٦).

(٣) في النسخة (ق): «وقرأها».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يتذكرون».

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨].

وقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ...﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ...﴾ [النحل: ٩٠].

وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُؤْتِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلى آخر الثلاث الآيات^(١).

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

[وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ...﴾ [النحل: ٩٠]]^(٢).

أي: عندما يطوف طائف العدو [فلا تذكر العبد أبصر ذلك الطائف تعلمه]^(٣) من أي الجنتين هو، فإن كان مما هو الله جل ذكره فهو من الملك، وإن كان [من أمر الفحشاء]^(٤) أو منكراً أو بغي أو ما يكون من المذموم فهو من الشيطان، فإذا ميز ما بين اللتين وتحقق حقيقة ما ألقى [إليه]^(٥) فقد أبصر، فعليه إن كان من الشيطان [أن]^(٦) يقصر ويرجع مستغفراً متعوذاً، وإن كان من الملك فليعزم على ما فيه حظه، [وما قد]^(٧) تبين له فيه رشده؛ لذلك قال: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢] أي: يزيدونهم من الإغراء والإغواء فيقتادونهم بمقاداتهم.

(١) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إذا تذكر العبد ذلك الطائف بعلمه».

(٤) في النسخة (ق): «أمراً بفحشاء».

(٥) في النسخة (ق): «عليه».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وقد».

وقرأ الجحدري: «يمادونهم» [تماديتهم بضم الهاء وبالألف^(١)، وهم على ضروب يجمعها ضربان عالم بما هو فيه لا يقصر، بل يمضي على إغماض منه على جهالته وإعراض عما ذكر به ومزين له، [فدخل]^(٢) في درك التزيين له سوء عمله، وذلك عقوبة له من أجل إعراضه عما ذكر به، فهذا مما قال جل قوله فيه: ﴿وَمَنْ يَغُشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيُضْدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٧].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ...﴾ [فصلت: ٢٥].

ذلك الذي قد فارقه [الملك بالتوفيق]^(٣) والتذكير، وصم قلبه عن عظة الله ﷻ فيه، وقارنه الشيطان ووليه الخذلان والتزيين، وهو لا يرى غير ما هو فيه، حجب عنه الرشد، وغلب عليه الغي، فهذا هو الميت، لا [يجيء]^(٤) إلا عند الموت، والنائم لا يوقظه إلا ملائكة المنون يقول إذ ذاك لقرينه: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] نعوذ بالله من الخذلان وسوء القرين.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤) وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ [الأعراف: ٢٠٤ - ٢٠٦].

أتبع ذلك [قوله تعالى]^(٥): ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ...﴾ [الأعراف: ٢٠٤] [هو مما انتظم بقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣] أرجع معنى الخطاب إلى قوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣] المعنى.

(١) في النسخة (ق): «يمادوهم بضم الياء والألف».

(٢) في النسخة (ق): «فتدخل».

(٣) في النسخة (ق): «التوفيق».

(٤) في النسخة (ق): «يحيا».

(٥) سقط من النسخة (ق).

قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ^(١) هو مما انتظم بقوله: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠] وفي قراءة أبي: «مسكوا بالكتاب» ^(٢) معنى هذه القراءة: [والله أعلم] ^(٣) والذين قاربوا بالكتاب وسددوا ينظر إلى قول رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة» ^(٤) وقوله: «قاربوا وسددوا، ويسروا ولا تعسروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا» ^(٥).

وفي قراءة عبد الله: «إن الذين استمسكوا بالكتاب وتذكروا ما فيه إنا لا نضيع أجر المصلحين» وهذا [المعنى] ^(٦) قراءة الجماعة في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] أعلم جل ذكره أن يحسن الاستماع بتحصيل العلم والتذكار [وبالإنصات يتفرغ] ^(٧) القلب لما توجه إليه، [ويتوصل] ^(٨) الكلام إلى السمع، ويلج المعنى إلى الباطن لعلكم ترحمون؛ [ليعلمكم وليذكركم ويستعملكم بأحسن ما تصنعون] ^(٩).

وكما كان الإعراض سبباً للطبع على القلب، وذريعة إلى فقد التوفيق كذلك يكون حسن الاستماع وصدق الإرادة ووجود الحرص سبباً للتفتح والتوفيق، وهذا

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «والذين مسكوا».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) أخرجه الطيالسي (٩٩٦)، وأحمد (٢٢٤٣٢)، وابن ماجه (٢٧٧)، والدارمي (٦٥٥)، وابن حبان (١٠٣٧)، والطبراني (١٤٤٤)، والحاكم (٤٤٧)، والبيهقي (٣٨٩)، والطبراني في «الشاميين» (١٣٣٥)، وفي «الصغير» (٨)، والرويانى (٦١٤).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

(٦) في النسخة (ق): «بمعنى».

(٧) في النسخة (ق): «وبالانتصاب يتفرغ».

(٨) في النسخة (ق): «ويتصل».

(٩) في النسخة (ق): «أي بعلمكم وذكركم فيستعملكم بأحسن ما تسمعون».

كله [من] ^(١) ابتغاء ما أنزل إلينا واتباعه.

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: رغبة ورهبة، فهذا ما يكون فيه الذكر، ثم قال جل قوله [وقوله الحق] ^(٢): ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [وهذا منه إعلام كيف يكون الذكر وهو ذكر السر والذكر في النفس والذكر الذي دون الجهر من القول] ^(٣) والقول هو: الذكر باللسان مع القلب رغبة ورهبة [على المواظبة] ^(٤) ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ثم قال جل قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فيما سوى ذلك من الأوقات، يريد: واصل الذكر، وقد قرأها أبو مجلز: «بالغدو والإيصال» ودل على ذلك [قوله] ^(٥): ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾.

وإنه أتبع ذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ ^(٦) [أي: بالليل والنهار] ^(٧) ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] كما قال

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) هم الملائكة - عليهم السلام - ومعنى العندية: الزلّفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان، وذلك لتوقّره على طاعته وابتغاء مرضاته، ولما أمر تعالى بالذكر ورغب في المواعظ عليه ذكر من شأنهم ذلك فأخبر عنهم بأخبار ثلاثة:
الأول: نفى الاستكبار عن عبادته، وذلك هو إظهار العبودية، ونفى الاستكبار هو الموجب للطاعات، كما أن الاستكبار هو الموجب للعصيان؛ لأنّ المستكبر يرى لنفسه شفوفاً ومزية فيمنعه ذلك من الطاعة.

الثاني: إثبات التسييح منهم له تعالى، وهو التنزيه والتطهير عن جميع ما لا يليق بذاته المقدسة.

والثالث: السجود له. قيل: وتقديم المجرور يؤذن بالاختصاص؛ أي: لا يسجدون إلا له، والذي يظهر أنه إنما قدم المجرور ليقع الفعل فاصله فأخره لذلك؛ ليناسب ما قبله من رؤوس الآي، ولما كانت العبادة ناشئة عن انتفاء الاستكبار، وكانت على قسمين: عبادة قلبية وعبادة جسمانية، ذكرهما، فالقلبية: تنزيه الله تعالى عن كل سوء، والجسمانية: السجود، وهو الحال التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى، وفي الحديث: «أطت السماء وحق لها أن تظن ما

جل قوله: ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ويسبحون له بالليل والنهار وهم لا [يسمون فرفع]^(١) هممهم صعدًا إلى ذكر الملائكة - صلوات الله وسلامه على جميعهم - طوبى لمن [يشغله ذكر مولاه]^(٢).

فيها موضع شبر إلا وفيه ملك قائم أو راکع أو ساجد». تفسير البحر المحيط (٢٧/٦).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يسأمون برفع».

(٣) في النسخة (ق): «شغله ذكر مولاه عن سواه».

تفسير سورة الأنفال^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مدنية، فيها من المنسوخ ست آيات]^(٢).

ابن عباس رضي الله عنه قال: قلت لعثمان رضي الله عنه: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال

(١) هذه السورة مدنية كلها، قال ابن عباس: إلا سبع آيات أولها ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآيات، وقال مقاتل غير آية واحدة وهي ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ نزلت في قصة وقعت بمكة ويمكن أن تنزل الآية بالمدينة في ذلك ولا خلاف أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه وقد طول المفسرون الزمخشري وابن عطية وغيرهما في تعيين ما كان سبب نزول هذه الآيات وملخصها: أن نفوس أهل بدر تنافرت ووقع فيها ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة والاختصاص، ونحن لا نسمي من أبلي ذلك اليوم فتزلت ورضي المسلمون وسلموا وأصلح الله ذات بينهم واختلف المفسرون في المراد بالأنفال، فقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وعطاء وابن زيد: يعني الغنائم مجملة قال عكرمة ومجاهد: كان هذا الحكم من الله لدفع الشغب ثم نسخ بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال أبو زيد لا نسخ إنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه وللرسول من حيث هو مبيت لحكم الله والمضارع فيها ليقع التسليم فيها من الناس وحكم القسمة قاتل خلال ذلك، وقال ابن عباس أيضًا: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ في الآية ما يعطيه الإمام لمن أراد من سيف أو فرس أو نحوه، وقال علي بن صالح وابن جني والحسن: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ في الآية الخمس، وقال ابن عباس وعطاء أيضًا: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ في الآية ما شذ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفرس الغائر والعبد الأبق وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء، وقال ابن عباس أيضًا: الأنفال في الآية ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة، وهذه الأقوال الأربعة مخالفة لما تظاهرت عليه أسباب النزول المروية والجيد هو القول الأول وهو الذي تظاهرت الروايات به، وقال الشعبي: ﴿الْأَنْفَالُ﴾ الأسرى وهذا إنما هو منه على جهة المثال وقد طول ابن عطية وغيره في أحكام ما ينقله الإمام وحكم السلب وموضوع ذلك كتب الفقه وضمير الفاعل في ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ليس عائداً على مذكور قبله إنما يفسره وقعة بدر، فهو عائد على من حضرها من الصحابة وكان السائل معلوم معين ذلك اليوم فعاد الضمير عليه والخطاب للرسول ﷺ والسؤال قد يكون لاقتضاء معنى في نفس المسؤول فيتعدى إذ ذاك بـ«عن».

(٢) سقط من النسخة (ق).

وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثني فقرنتم بينهما [ولم]^(١) تكتبو بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتوها في السبع [الطوال]^(٢)؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد. فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: ضعوا هذه [في]^(٣) السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه [الآية]^(٤) قال: ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، قال: فكانت الأنفال من [أول]^(٥) ما أنزل بالمدينة، وكانت براءة من [أواخر]^(٦) القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظنناها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما [بسطر]^(٧) «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبع [الطوال]^(٨).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾ [الأنفال: ١ - ٤].

قوله جل ذكره: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ...﴾ [الأنفال: ١] لفظ «الأنفال» مأخوذ من النافلة، ويجوز أن يكون مع هذا اسماً على المغانم وقع عليها اسم عرفياً؛ إذ كانت محرمة على من كان قبلنا فأحلها الله ﷻ لهذه الأمة خاصة، فسميت بذلك

(١) في النسخة (ق): «ولا».

(٢) في النسخة (ق): «الطول».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الآيات».

(٥) في النسخة (ق): «أوائل».

(٦) في النسخة (ق): «آخر».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «الطول».

أنفالاً؛ لأنهم نفلوها [إلى] ^(١) أجورهم.

ولما جمعت المغنم يوم بدر [أحضر] ^(٢) رجل من أصحاب رسول الله ﷺ منها سيفاً وقال: نَقْلِيهِ يا رسول الله، فقال له: «[رده] ^(٣) من حيث أخذته» ففعل، [فقام] ^(٤) مرة أخرى فسأله إياه، حتى قام في الثالثة فقال: نَقْلِيهِ يا رسول الله، أجعل كمن لا غنى له؟ فقال له: «[رده] ^(٥) من حيث أخذته» فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١] وفي بعض القراءات: «يسألونك الأنفال» بالنصب.

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله سلبه» ^(٦) فكان منهم من طلب الغنائم، ومنهم من حفر برسول الله ﷺ كي لا يظفر منه المشركون بغرة، وكان منهم من [لم] ^(٧) يشتغل إلا بالقتل والقتال، فتنازعوا في المغنم فقال قوم: «نحن غنمناها وقد نفلناها رسول الله ﷺ» وقال هؤلاء: «نحن أحق بها؛ لأننا نحن أقمنا معه وتحفظنا به وحرسناه من العدو» فتزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾.

وقد سمي الله ﷻ أصناف الأموال بأسمائها، فسمى ما أخذ من المشركين في حال الحرب: أنفالاً وغنائم، وسمى ما صار للمسلمين بما لم يؤخذ في حرب كالخراج والجزية: فيئاً، وسمى ما خرج من أموال المسلمين واجباً عليهم: زكاة، وما نذروه من نذر وتقربوا به إلى الله: صدقة، ثم قد سمي ما [قد لحق] ^(٨) به أهل الخراج: فيئاً ونفلأً، وقد ذكر العلماء في كتبهم قسمة الغنائم كيف هي،

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «أخذ».

(٣) في النسخة (ق): «ذره».

(٤) في النسخة (ق): «ثم قام».

(٥) في النسخة (ق): «ذره».

(٦) أخرجه بنحوه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (٤٦٦٧)، وأبو داود (٢٧١٩)، والترمذي (١٦٥٤)، ومالك (٩٧٩).

(٧) في النسخة (ق): «لا».

(٨) في النسخة (ق): «يجي».

[والخمس]^(١) وخمس الخمس، وحيث يجعل باختلاف بينهم في ذلك، وربما أتى بيانه في أولى المواضع به إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ...﴾^(٢) [الأنفال: ٢] لفظة «إنما» حاصرة، قالوا: هي لتحقيق المتصل ولتحقيق المنفصل، وهو الظاهر فيها، فلا يعدل عن ذلك إلا بدليل يخرجها عنه.

يقول الله جل قوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [طه: ٩٨].

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ^(٣).

وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٤).

«إنما الولاء لمن أعتق»^(٥).

هذا وشبهه ممن حصرها معنى ما اجتلبت من أجله، ثم قد تأتي على غير ذلك فلا تكون حاصرة، بل مخبرة عما اجتلبت من أجله ولا تحصره، كقولهم: «إنما الكريم يوسف، إنما الشجاع عنترة» هذا موجود في لسان العرب متعارف في كلامهم، [فقول]^(٦) الله جل ذكره في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] [هو]^(٧) من هذا النوع الآخر؛ بدلالة قول رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله...»^(٨) وقوله: «من شهد

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٢١)، ومسلم (١٥٠٤)، وأحمد (٢٤٠٩٩).

(٦) في النسخة (ق): «يقول».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) يجوز أن يكون هذا الموصول في موضع جر أو نصب أو رفع، فالجر من ثلاثة أوجه: التعت للمخبتين، أو البدل منهم، أو البيان لهم، والنصب على المدح، والرفع على إضمارهم، وهو مدح أيضاً، ويسميه النحويون: قطعاً. والمعنى: إذا ذكر الله ظهر عليهم الخوف من عقاب الله والخشوع والتواضع لله، والصابرين على ما أصابهم من البلياء والمصائب من قبل الله؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن، فأما ما يصيبهم من قبل الظلّمة فالصبر عليه غير واجب، بل لو أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة. تفسير اللباب لابن عادل (١١/٤١٩).

شهادتنا وذبح ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فله ما لنا وعليه ما علينا»^(١).

فصل

دخلت لفظة «إنما» [ها]^(٢) هنا لحصر [الفصيلة]^(٣)، وهؤلاء هم أفضل المؤمنين إيماناً وحالاً، واعلم أن وجوب الإيمان بوجودهم والاعتراف بفضلهم هي درجة بعد درجة وجوب الإيمان بالأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه على جميعهم.

قال الله ﷻ وذكر أهل الكتاب وما أحدثوه في نبواتهم، وما نقضوا من ميثاق ونكثوا من عهد، وما كذبوا من نبي وقتلوا منهم، ثم قال جل قوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [أي: من أمتك]^(٤) ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٦٢] أي: «وبالمقيمين الصلاة» فعطف الإيمان بالمقيمين للصلاة على الإيمان بالأنبياء والرسل، وجعل المؤمنين الراسخين في العلم هم المؤمنون بالأنبياء والرسل [إليهم]^(٥)، وهم المشار إليهم بالخطاب، والمواجهون بالبشارات، والمعنيون بالإكرام، وهم رؤساء المحشر المشاؤون في طلب الشفاعة إلى الله جل ثناؤه في العباد بوسائل الرسل رسولاً رسولاً في الإزاحة من الموقف من عظيم ما أصاب العباد يومئذ وفي استفتاح باب الجنة، وهم في الدنيا في إمساك غضب الله جل ذكره عن الأمم كالجبال الرواسي للأرض.

ومنهم الصديقون في الدنيا بما آمنت به الرسل والأنبياء - عليهم السلام - والشهداء لهم، وهم شهداء لله على عباده وخاصته من خليقته، وهم إخوان الرسل - صلوات الله وسلامه على جميعهم - وهم الذين اشتاق رسول الله ﷺ إلى رؤيتهم في هذه الأمة، منهم [تسعون]^(٦) ألفاً لا حساب عليهم مع كل ألف سبعون ألفاً أو

(١) أخرجه بنحوه الخطيب (١/١٣٢).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الفصيلة».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وبهم وبما أنزل إليهم».

(٦) في النسخة (ق): «سبعون».

سبعمئة ألف لا حساب عليهم مع كل ألف سبعمئة، جاء ذكرهم في صدر الخطاب مردداً من ذلك قوله ﷻ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧].

وقوله جل قوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٣].

وقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨] [فجعل ﷻ شهادتهم^(١) تلو الشهادة العلية.

وقوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] [ولقوم يذكرون، ولقوم يتقون]^(٢)، وهو كثير.

وقوله عز قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكِّرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤] الآيتين.

وكقوله جل قوله: ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠] وبالجملة وكل خطاب في القرآن العزيز أحرز المدح ووصف السبق، فهم المعنيون به، وكل صفة محمودة في الإيمان فهي منهم ولهم، والحمد لله، وسلام على عباده الذين اصطفى.

ألحقنا الله بأوليائه، وجعلنا في أعداد أصفياه، ولا جعل حظنا من صفاتهم وصفهم، ولا من اللحاق بهم ذكرهم [بمنه وفضله ورحمته]^(٣)، تطرقنا إلى ذكرهم واجتلبنا بعض وصفهم؛ لعلنا أن نتق أو يحدث لنا ذكراً، ودلنا ربنا جل ذكره بما تلاه علينا من وصفهم أن الإيمان لا غاية له تبلغ ولا نهاية تنتهي إليها؛ إذ صفة هؤلاء المنعم عليهم صفة تمام، [وحالهم حال كمال]^(٤) بالإضافة إلى من دونهم، وعلى ذلك فإنه وصفهم ﷻ ووصفه بأنهم إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً [وهم

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولقوم يتفكرون ولقوم يعلمون ويذكرون ويتقون».

(٣) في النسخة (ق): «بمنه ورحمته».

(٤) في النسخة (ق): «وحوال كمال».

السادة.

قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» ثم قال لهم: «أتدرون لِمَ ذاكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد بسمعهم الداعي وينفذهم البصر فيطول المقام بهم ويبلغهم من الكره والههم ما لا قبل لهم به فيلهمون - أو قال: «فيهتمون» - لذلك وتكونون ألا ترون ما بلغ الناس ألا ترون ما جل بهم ألا تطلبون إلى ما يشفع لهم عند ربهم»^(١) فذكر أنهم يأتون آدم - صلوات الله وسلامه عليه - ثم إلى آخر الأنبياء وخلفهم محمد ﷺ فيقوم فيشفع لهم في الإزاحة من الموقف، وذلك هو المقام المحمود الذي بعده.

والقائمون بذلك الساعون فيه هم الإخوان الذين كانوا يدعون لهم في الدنيا ويستغفرون لهم، وهم الذين تقدم ذكرهم السادة القادة - رضي الله عنا وعنهم - فوصف رسول الله ﷺ بأنه سيد ولد آدم لما أقامه الله في ذلك المقام المحمود، وبما هو سبب من أسباب ذلك سمو هؤلاء سادة وقادة.

وقد جاء في الأخبار: «من رغب أن يكون من الأبدال؛ فليستغفر إثر كل صلاة للمؤمنين والمؤمنات خمسين مرة»^(٢) والله سبحانه وله الحمد يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩] كأنه يقول وهو أعلم: «استغفر لنفسك ولهم يغفر لكم بأعمالكم» وما قد سبقه في تقديره الأول من أعمال تكون منهم، وقد كان أيضاً مما سبقه لك ولهم أن يستغفر ويستغفروا بعضهم لبعض فيغفر لكم^(٣).

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن

(١) تقدم تخريجه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) زيادة في النسخة (ق).

يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزَكَّرَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

قوله ﷻ: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] أي: بالقضاء والقدر، وأعلمنا الله جل ذكره بذكره الحق هنا أن كل حركة للعبد هي بنية وتوجه إلى أي [وجهة]^(١) كانت، وتعمل فإنها مضافة إلى فاعلها معرفة بمحلها، وكلما كان منه من علم ومعرفة أو عمل ضروري فهو بالحق؛ أي: بالقضاء السابق والقدر المقدر.

ولما كان خروج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى بدر [يلقى]^(٢) عير قريش دون معسكرهم حتى نادى رسول الله ﷺ [في المدينة]^(٣): «لا يخرجن معي إلا من كان ظهره حاضراً»^(٤) فخرجوا لذلك في أقل عددهم، فحسن على ذلك أن يقال: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما قدر الله تعالى أن يخرجك [به؛ ليستفرك]^(٥) وأصحابك، فوافقوا الحق المقدور من الله جل ذكره، وهو حضور الجيش وفوت العير، فوافاهم الله بالخير والفتح واليسر في الأمرين معاً في إخراجه إياهم - يريدون: العير - وفي لقائهم [ذات]^(٦) الشوكة والسلاح وهم كارهون لذلك.

اختلفوا في دخول «الكاف» هنا ما هو المشبه بها في قوله جل قوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ﴾ فذكر ابن عباس ؓ أنها بمعنى: «على» يقول: [على]^(٧) الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق.

وذكر عن الفراء أنه كان معناها: امض لأمر الله في الغنائم كما مضيت على مخرجك من بيتك بالحق.

(١) في النسخة (ق): «وجه».

(٢) في النسخة (ق): «لتلقى».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) ذكره ابن حزم في جوامع السيرة (١٠٧/١)، وابن كثير في السيرة (٤٢١/٢).

(٥) في النسخة (ق): «ليستفرك».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

وقال الكسائي: [معنى الكلام]^(١): يجادلونك في الحق كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وهم كارهون، ومعنى الحق هنا: هو لقاء الجيش دون لقاء العير؛ لأنه هو المقدور المقضي في الكتاب السابق [وهو الحق]^(٢) ويجدالهم له هو أنهم لما أيقنوا بلقاء الجيش كرهوا ذلك، وقالوا: أخرجتنا للغنيمة ولم تعرفنا بقتال فنستعد [له]^(٣).

وأرى - والله أعلم - أنه خطاب منتظم بما قبله من تعداد النعم، والمعطوف عليه المنتظم به مضمّر حاضر، وبحضوره لم يذكره، وهو سؤالهم إياه الأنفال، وجدال بعضهم مع بعض فيما كان تقدم، فأنزل الله ﷻ في الحين [عليه]^(٤): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٥) [الأنفال: ١].

فما كان الله جل ذكره فهو للمؤمنين، وما كان منها للرسول ﷺ كان له أن يخص فيه أو يعم، ويحبس منها لقوته وعياله وما ينوبه، وكان ذلك عوضاً من صدقات المسلمين وزكاتهم، ثم وصّاهم بالتقوى وبصرهم معالم الإيمان وأعلمهم بذروته، والمضمّر هنا هو ذكر الحال من النصر والنعمة به، ثم شبه به إخراجهم من بيته على غير إرادة القتال، بل لإرادة العير، فكان القتال والنصر على الأعداء والظفر بأعلى المطلوب الذي هو القتل والأسر، فكانوا [من ذلك في]^(٦) حالهم

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لَهُمْ إِنَّهَا لِلَّهِ مِلْكَأً، ولرسوله ﷺ لِحُكْمٍ فيها بما يقضى به أمراً وشرعاً. قوله جل ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيئوا لأمر الله، ولا تطيعوا ذواعي مناكم والحكم بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إثارة رضاء الحق على مراد النفس، وأصلحوا ذات بينكم، وذلك بالانسلاخ عن شح النفس، وإثارة حق الغير على مالكم من النصيب والحظ، وتنقية القلوب عن خفايا الحسد والحقد.

(٦) في النسخة (ق): «في ذلك من».

﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾^(١) [الأنفال: ٦] [وكان]^(٢) في علم الله ﷻ أنهم يساقون إلى النصر والفتح وهم لا يشعرون الموت عندهم كان اللقاء لقتلهم وذلتهم بإضافتهم يومئذ إلى عدوهم ونظرهم إلى الموت هو نظرهم إلى الجيش الذي كانوا يظنون أن الموت يأتيهم من قبله كما قال جل قوله: ﴿وَلَقَدْ كُتِبَ تَمَنُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣] يريد: القتل والقتال والسلاح، وهذه أسباب الموت القريبة، بل المشبه به [لطفه الخفي في حكمه الخفي لعباده المؤمنين، وأنهم عنده في اختيار الخير لهم والأفضل، كاختياره لرسوله ﷺ ولصحابته ﷺ وتبليغه إياهم أكثر مما يأملوه منه.

(١) الموت قبل الوصول إلى مكانه، «وذلك أن غير قريش فيها أربعون راكباً وفيهم أبو سفيان أقبلت من الشام وفيها تجارة عظيمة، فأخبر جبريل رسول الله - عليهما السلام - فأخبر المسلمين فأعجبهم تلقيها؛ لكثرة المال وقلة الرجال، فلما خرجوا بلغهم الخبر فبعثوا إلى مكة ضمضم بن عمرو فصرخ بطن الوادي يا معشر قريش، هذه أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه الغوث الغوث فمضوا إلى بدر، وكان ﷺ بوادي «دقران» فنزل عليه جبريل بعدة إحدى الطائفتين، فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه، فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له إنما خرجنا للغير، فقال: إن العير مضت على ساحل البحر وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا: يا رسول الله، عليك بالغير ودع العدو، فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله، امض لما أمرك الله فإننا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - مدينة بالحبشة - لجالدنا معك من دونه، فقال ﷺ له خيراً ودعا له. ثم قال ﷺ أشيروا علي أيها الناس - يريد الأنصار - القائلين له حين يابعوه على العقبة أنهم براء ممن كل ذمامه حتى يصل إلى ديارهم، فتخوف ألا يروا نصره الأعلى عدو دهمه بالمدينة، فقال سعد بن معاذ: فكأنك تريدنا يا رسول الله، قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أمرت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت هذا البحر فخضته لخضضنا معك ما تخلف عنك من رجل واحد، وما نكره أن تلقي بنا عدونا غداً إنا لصبر عند الحرب وصدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني الآن إحدى الطائفتين، فوالله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم، فهذه كراهمهم للقتال». [تبصير الرحمن ٥٨٢/١] بتحقيقنا.

ألا تسمع إلى قوله العلي لما وصف عباده المؤمنين من لدن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ثم وصف ما هو يبلغهم إليه بقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤] ثم حذف هنا ما معناه وصف للطف الذي به يبلغهم إليه من غيب تدبيره، ورفيع ما بهم ومستقرهم عنده.

ثم شبه ذلك منه بإخراجه رسوله وأصحابه إلى غزوة بدر حيث كانوا يخافون ذات الشوكة ويطمعون في العير، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته في شأن بدر على ما قد قدره في أزلّه ومشيتته حكمه في عباده وتوصيلهم إلى علي كرامته بذلك، واستظهر على تعرف ذلك بما في سورة يوسف عليه السلام من حسن تدبيره وإكرامه وما عبر عنه قوله الحق: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وهذا المعنى الذي نروم تبيانه من غريب معاني الكتاب المبين، وعلى إعلام القرآن الكريم؛ لأنه يلفظ لعبده المؤمن من حيث لا يعلم، ويدخل عليه الحسنات من حيث لا يحتسب يصيبه بما يكره ويستعمله بطاعته في المنشط منه والمكره، فعلق الكلام لرسوله عليه السلام ينعشه بما تقدم ذكره، وأدخل كاف التشبيه في قوله العلي: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال: ٥] أي: الذي هو حكمه لعباده ولطفه بهم يريدون عرض الدنيا، وأبى الله إلا الآخرة والغبنة وشفاء الصدور والانتقام من الاعداء وكسر شوكة الكفر، وفي ضمن هذا ما هو المعنى وهذا له ما بعده عبر عن هذا بقوله العلي: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]^(١).

ثم قال وقوله الحق: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنفال: ٧] الحق هنا: هو النصر وإعلاء الإسلام وإدحاض الشرك والباطل بكلماته، عبر عن توحده بالتدبير في إخراجهم على طمعهم في غير ذات الشوكة، فكانت الشوكة وكان الفتح المبين، وعن إمداده إياهم بالملائكة - عليهم السلام - وعن معنى قوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠] بقوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ

(١) زيادة في النسخة (ق).

الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ ﴿١﴾ [الأنفال: ٧].

وفي هذا إشارة لهم خاصة ولنا معشر هذه الأمة عامة أنه قد أراد ذلك وما أراداه فهو كائن لا محالة إن شاء الله تعالى، وقد كان من تحقيقه ذلك [كل] ^(٢) ما شاءه، ثم لا بد من فترة، وهي الآن، ثم لا بد من عودة، وهو المبدئ المعيد، وإن ذلك ليس بموكل إلى عمل عامل ولا تدبير مدبر سواه؛ [لاستباقه] ^(٣) الكلمات في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ليحق الله دين الإسلام ويبطل الباطل [الشرك] ^(٤).

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١١].

قوله ﴿١﴾: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] أعلم جل ذكره أن النصر على الأعداء والكفاية والدفاع يستفتح بالدعاء والتضرع إليه والاستغاثة، ألا تسمعه جل ذكره علق وجود نصره لهم [وتحقق] ^(٥) الحق بكلماته بقوله جل ذكره: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ وأعقب الاستغاثة بإجابته الكريمة، [فبالدعاء] ^(٦) والاستغاثة

(١) معطوف على «تودون» وهو من جملة ما أمروا بذكر وقته؛ أي: ويريد الله غير ما تريدون، وهو أن يحق الحق بظهاره، لما قضاه من ظفركم بذات الشوكة، وقتلكم لصناديدهم، وأسر كثير منهم، واغتنام ما غنمتم من أموالهم التي أجبوا بها عليكم، وراموا دفعكم بها. والمراد بالكلمات: الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدهم منه بالظفر بها. فتح القدير (١٥١/٣).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «لاستباقه ذكر».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وتحقق».

(٦) في النسخة (ق): «والدعاء».

إليه والتضرع [والتحقق]^(١) في ذلك وإلقاء المقاليد إليه والعمل الصالح وابتغاء مرضاته ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [في الكتاب]^(٢) ﴿وُثِّبَتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] الذي كتب فيه علمه بما يكون إلى يوم القيامة.

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال وقوله الحق: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: من نصري لكم وحكمي ﴿لِمَنْ خَافَ﴾ منكم ﴿مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: فإذا استفتحوا كان ذلك ﴿وَوَخَّابَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٣) [إبراهيم: ١٣-١٥] أي: كل من تجبر عن عبادتي وعند عن طاعتي.

وقرئ هذا الحرف: «واستفتحوا» [على الأمر من الاستفتاح الذي هو الدعاء]^(٤) دلهم جل وعلا على موضع دواء الداء، والحمد لله رب العالمين. وهذه وصيته إياهم كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال: ٤٥] الآيتين.

قوله جل من قاتل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] الفتح في الدال بمعنى: إنهم مردفون بغيرهم، والكسر بأنهم مردفون بغيرهم، وقد تقدم الكلام في سورة آل عمران في معنى هذه الآية، فأغنى عن الترداد، غير أن النصر مع التقوى والصبر وبقدر ما يستشعره العبد من الصبر ينزل عليه من العون، وبقدر ما ينزع إلى التوحيد والتبرؤ من الحول والقوة يكون [إقبال]^(٥) الله جل وتعالى عليه وولايته له.

قال الله ﷻ: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ قَوَرِهِمْ هَذَا﴾ [إن]^(٦) من

(١) في النسخة (ق): «والتحقق».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) الجبار: المتكبر الذي لا يرى لأحد عليه حقًا، هكذا حكاه النحاس عن أهل اللغة، والعنيد: المعاند للحق والمجانب له، وهو مأخوذ من العند، وهو الناحية؛ أي: أخذ في ناحية معرضًا. [فتح القدير (٤/١٣٥)] و(شرح الأسماء الحسنى للمصنف ١٩٠/٢).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «يد».

(٦) في النسخة (ق): «أي».

حالكم هذه ﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٥] بحضور^(١) الملائكة لنصرهم في ذلك بغير زمان.

قوله جل وتعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ﴾^(٢) [الأنفال: ١١] إلى قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ [الأنفال: ١٤].

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النَّعَاسُ﴾ مردود المعنى إلى معنى قوله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] وهذان مردودان إلى قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] يعدد [نعمته عليهم، وينبئهم]^(٣) على مواطن نظره لهم.

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ...﴾ [الأنفال: ١١] ألقى عليهم النعاس تلك الليلة؛ ليفرغ قلوبهم من هبتهم، ويحمها من الفكر في عددهم، وأنزل عليهم من السماء ماء [ليطهرهم به لصلاتهم ولينبذ]^(٤) تراب ذلك الوادي ويلين به [دهسه وبطهورهم ليشجع جبانهم]^(٥) ويثبت أقدامهم؛ إذ الجبن والفرار من العدو هو من الشيطان.

قال الله جل ذكره في المنهزمين يوم أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَغْضٍ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(١) في النسخة (ق): «فحضور».

(٢) ذلك بأن النبي ﷺ وكثيراً من أصحابه غشيهم النعاس يبدو. قال سهل بن عبد الله: النعاس يحل في الرأس مع حياة القلب، والنوم يحل في القلب بعد نزول من الرأس، فهو رسول الله ﷺ حتى ناموا، فبشر جبريل رسول الله ﷺ بالنصر، فأخبر به أبا بكر. وفي امتنان الله تعالى عليهم بالنوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: قواهم بالاستراحة على القتال من الغد. الثاني: أن أمتهم يزوال الرعب من قلوبهم، كما قال: الأمن منيم، والخوف مسهر. وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾ يعني به: الدعة وسكون النفس من الخوف، وفيه وجهان: أحدهما: أمنة من العدو. الثاني: أمنة من الله ﷻ. التكت والعيون (٥٢/٢).

(٣) في النسخة (ق): «نعمه عليهم وينبئهم».

(٤) في النسخة (ق): «ليطهرهم به بصلاتهم وليلبد به».

(٥) في النسخة (ق): «دهسه وبظهورهم يشجع جبنهم».

﴿وَلِيُزَيِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾^(١) أي: [بالنصر وإبعاد]^(٢) الهلع عنها ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال: ١١] هذه الخصال كلها من بركة الطهور والماء؛ إذ هو من فتح رحمته.

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ فَتَيَّبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾^(٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاكَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَمَا يَكُ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(٤) ذَلِكَكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾^(٥) [الأنفال: ١٢ - ١٤].

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْي مَعَكُمْ﴾ رجع معنى الخطاب بتعداد منته إلى أوله، وفي هذا أنه كان [إلجأوه]^(٦) إلى أولياء الملائكة حين استشعروا الصبر والعزيمة على تثبيت الأقدام والصدق ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] يريد جل وتعالى: الرؤوس والرقاب، كما قال جل قوله: ﴿فَضْرِبْ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].
﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢] يريد [وهو]^(٧) أعلم: الأعضاء، وفي لغة العرب: الأعضاء تسمى بالبنان، ومعنى ذلك: اضربوا منهم ما أمكنكم كما قال جل قوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] من مكان، أو حيث أمكنكم، وهذه بشارة منه جل ذكره لهم يومئذ؛ أي: [قد أمكنكم]^(٨) منهم فافعلوا بهم ذلك.

واحد البنان: بنانة، وهي الأصابع، ومعناها ها هنا: جميع الأعضاء، واشتقاق

(١) ﴿وَلِيُزَيِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يقويها بالثقة بلطف الله تعالى فيما بعد بمشاهدة طلائعه، وأصل الربط: الشد، ويقال لمن صبر على الشيء: ربط نفسه عليه. قال الواحدي: ويشبه أن تكون «على» صلة؛ أي: وليربط قلوبكم. وقيل: الأصل ذلك، إلا أنه أتى بـ«على» قصداً للاستعلاء. وفيه إيماء إلى أن قلوبهم قد امتلأت من ذلك حتى كأنه علا عليها، وفي ذلك إن إفادة التمكن ما لا يخفى. تفسير الألوسي (٣٠/٧).

(٢) في النسخة (ق): «بالصبر وإبعاد».

(٣) في النسخة (ق): «إلجأوه».

(٤) في النسخة (ق): «والله».

(٥) في النسخة (ق): «إني قد أمكنتكم».

البنان من قولهم: «[بانن]^(١) فلان بالمكان» إذا قام به، والبنان به [يعمل]^(٢) على كل ما يكون للإقامة والحياة، وعلى هذا من اشتقاق، ومعنى [في]^(٣) جميع الأعضاء.

فصل

ذكر الصادق الحق ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه أنه ممدهم بألف من الملائكة [مردفين]^(٤) [وقال جل قوله: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]]^(٥).

ثم قال جل قوله: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥] والملائكة المذكورون بالعدد تسعة آلاف مردفون ومنزلون ومسومون، وكانت أول مشاهد الإسلام، فالظاهر في الاعتبار أن [مشاهدة]^(٦) الإسلام على مثال ذلك، ولغزوة بدر فضل [السابق]^(٧).

وجاء أن جبريل قال لرسول الله ﷺ: كيف ترون من شهد منكم بدرًا من المسلمين؟ قال: «من أفضلنا»^(٨) قال: فإننا معشر الملائكة [كذلك]^(٩) نرى من شهدها من أهل السماء منا.

وكما المشاهد في الغزوات يكون من المسلمين بعدها فكذا لا تخلو من شهود الملائكة - عليهم السلام - وإن كنا نحن لا نراها وإنما كانت غزوة بدر كذلك عندنا بإخبار [الله جل ذكره وإخبار]^(١٠) رسول الله ﷺ، ومشاهد النصر للملائكة فيها

(١) في النسخة (ق): «أبن».

(٢) في النسخة (ق): «يُعمل».

(٣) في النسخة (ق): «هي».

(٤) في النسخة (ق): «منزّلين».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «مشاهد».

(٧) في النسخة (ق): «السبق».

(٨) لم أقف عليه هكذا.

(٩) زيادة في النسخة (ق).

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

ضرب وطعن كما قال جل قوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

ألا ترى أنه جعل علة [الضرب]^(١) الملائكة لأولئك شقاقهم لله ولرسوله، فقال جل قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣] فعلق شدة عقابه على المشاقة لله ورسوله بلفظ المستقبل، وعلل ذلك بالمشاقة، فوجب أن يحصل العلم باستصحاب صحيح اعتبار ما ذكرنا؛ [الوجود]^(٢) مشاققتهم لله ورسوله، وإنما [يرجو]^(٣) ذلك مع جيش يغلب عليه الصبر والتقوى.

فصل

ومن تميم الاعتبار: إن للشياطين أيضًا حضورًا لمشاهد أوليائهم بتزيين لهم

(١) في النسخة (ق): «ضرب».

(٢) قال أبو البقاء: إن ذلك خبر مبتدأ محذوف؛ أي: الأمر ذلك، وليس الأمر ذلك، والباء للسببية، والمشاقة: العداوة، سميت بذلك أخذًا من شق العصا، وهي: المخالفة، أو لأن كلاً من المتعادين يكون في شق غير شق الآخر، كما أن العداوة سميت عداوة؛ لأن كلاً منهما في عدوة؛ أي: جانب، وكما أن المخاصمة من الخصم بمعنى الجانب أيضًا، والمراد بها هنا: المخالفة؛ أي: ذلك ثابت لهم أو واقع عليهم بسبب مخالفتهم لمن لا ينبغي لهم مخالفته بوجه من الوجوه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، والإظهار في مقام الإضمار لتربية المهابة وإظهار كمال شناعة ما اجتروا عليه، والإشعار بعلية الحكم، و«بش خطيب القوم أنت» اقتضاه الجمع على وجه لا يبين منه الفرق ممن هو في رتبة التكليف؛ وأين هذا من ذاك لو وقع ممن لا حجر عليه، وإنما لم يدغم المثلان؛ لأن الثاني ساكن في الأصل، والحركة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إما نفس الجزاء قد حذف منه العائد عند من يلتزمه، ولا يكفي بالفاء في الربط؛ أي: شديد العقاب له، أو تعليل للجزاء المحذوف؛ أي: عاقبه الله تعالى، فإن الله شديد العقاب، وأيًا ما كان فالشرطية بيان للسببية السابقة بطريقة برهاني، كأنه قيل: ذلك العقاب الشديد بسبب المشاقة لله تعالى ورسوله ﷺ، وكل من يشاقق الله ورسوله كائنًا من كان فله بسبب ذلك عقاب شديد، فأذن لهم بسبب مشاقة الله ورسوله عقاب شديد. تفسير الألوسي (٣٤/٧).

(٣) في النسخة (ق): «وجود».

(٤) في النسخة (ق): «نرجوا».

وتحريض وعون دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨] ولا صبر [للشياطين]^(١) مع حضور الملائكة، كما ليس للظلام ثبوت مع [حضور]^(٢) النور.

فصل

وكما يمد الله جل وعز المؤمنين بأوليائهم من الملائكة يمد الشياطين أوليائهم المشاقيق لله ورسوله، وفي الجن من قد آمن بالله فكذلك مؤمنو الجن يمدون أوليائهم من المؤمنين من الإنس، ثم الإنس على هذا موضع [المنزلة]^(٣) والثبات للإمامة التي فيهم من هذه الجهة، وإنما [احتضروا]^(٤) من أجلهم، فمتى كانوا مؤمنين صابرين محتسبين يقاتلون الكفار، وتكون كلمة الله [هي]^(٥) العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، [ولم]^(٦) يحضرهم ضجر ولا اختلاف ولا مكروه، فالملائكة - عليهم السلام - ومؤمنو الجن لا بد [من حضورهم]^(٧) والله ناصرهم، وإذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين خاسئة.

فإن واقع المسلمون خلافاً [ما]^(٨) فنصرهم في مشيئة الله ﷻ، وإنه أيضاً قد يكون الإخفاق والهزيمة عليهم [خيرة]^(٩) لهم، والملائكة في هذا المشهد يقبضون أيديهم عن القتال والنصرة؛ لأنهم هم الذين لا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يفعلون إلا ما يؤمرون، وإن غلب المسلمون هل يغلب مؤمنو الجن لا بد أم لا؟

(١) في النسخة (ق): «للشيطان».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المنزلة».

(٤) في النسخة (ق): «احتضروا».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وإذا لم».

(٧) في النسخة (ق): «في حضرته».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «خيرًا».

والله أعلم، فالغلبة على هذا للمؤمنين إن شاء الله.

فصل

قال الله عز من قائل: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢] وقال جل قوله في قصة أحد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥] فأضاف لنفسه إلقاء الرعب في قلوب الكفار، وإلى الشيطان ما ألقى في قلوب المؤمنين، [ويكون] ^(١) الأدب في الإخبار عن الله جل ذكره له المثل الأعلى في السماوات والأرض.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ ^(١٥) وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ^(١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ^(١٧) ذَلِكَمُ وَأَنْتَ اللَّهُ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ ^(١٨) إِنْ تَسْتَفْهِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ^(١٩)﴾ [الأنفال: ١٥ - ١٩].

يقول عز من قائل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ﴾ ^(١) [الأنفال: ١٥] المعنى إلى آخره، الزحف: مضي الجملة إلى الجملة

(١) في النسخة (ق): «هكذا يكون».

(٢) مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرصهم على الصبر عند مكافحة العدو، ونهاهم عن الانهزام، وانتصب «زحفاً» على الحال، فقيل: من المفعول؛ أي: لقيتموهم وهم جمع كثير وأنتم قليل، فلا تفروا فضلاً عن أن تدانوهم في العدد أو تساووهم، وقيل: من الفاعل؛ أي: وأنتم زحف من الزحوف، وكان ذلك إشعاراً بما سيكون منهم يوم حنين حين انهزموا وهم اثنا عشر ألفاً بعد أن نهاهم عن الفرار يومئذٍ، وقيل: حال من الفاعل والمفعول؛ أي: متزاحفين، ولم يذكر ابن عطية إلا ما يدل على أنه حالٍ منهما، قال: «زحفاً» يراد به: متقابلين الصفوف والأشخاص؛ أي: يزحف بعضهم إلى بعض. تفسير البحر المحيط (٤٨/٦).

للقِتال دفعة واحدة.

﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ﴾ [الأنفال: ١٦].
 التحرف للقِتال: التقلب من قرن إلى قرن فربما أقبل على واحد وولى ظهره
 آخر، وقد قال قوم: إن هذا الوعيد متوجه إلى من فر يومئذٍ؛ يعني: يوم بدر.
 قال: لأن الملائكة يومئذٍ ممدة للمؤمنين، فالفرار [يوم بدر]^(١) كان من التكلف،
 والصواب أن قوله: ﴿يُؤْمِدْ﴾ المراد [به]^(٢): يوم الزحف إلى العدو وإن الحرج
 والوعيد باقٍ على من ولى العدو دبره إذا كان عددًا بعددين، فالفرار حرام على
 ذلك، والفرار أيضًا حرام على عدد أكثر من العدين، بل الصواب للمسلمين [لا
 تجاوز]^(٣) العدو ضعفي عدد المسلمين ألا يناجزوهم [لحرب]^(٤) إذا غلب الظن
 بضعفهم عن المقاومة، فالرأي على ذلك في المحاجزة لا في المناجزة، فإن غلب
 الظن في القيام لهم ورجاء الغلبة، وإلا فلا [يسروا]^(٥) العدو يظفر بالمؤمنين.
 وبالجملة: فالمناجزة على أكثر من العدين نافلة، وإن زحفوا إليهم فظهرت
 لهم كمائن ومكائد لم يشعروا بها، فالتحيز إلى فئة المسلمين مباح لهم، والبلد فئة
 المسلمين [والإمام فئة المسلمين]^(٦) والجيش الأعظم وجماعة المسلمين فتتهم.
 قال رسول الله ﷺ لأهل غزوة مؤتة، وقد انحاز خالد بن الوليد بالمسلمين
 ناحية بعد معاركة، وقتل وقتال [كائن]^(٧) بين القوم، فلما ورد المدينة خرج النساء
 والصبيان يقولون لهم: «هؤلاء الفرارون» قال رسول الله ﷺ: «بل هم الكرارون إن
 شاء الله، أنا فئة المسلمين»^(٨).

(١) في النسخة (ق): «يومئذ».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إذا جاوز».

(٤) في النسخة (ق): «الحرب».

(٥) في النسخة (ق): «يسروا».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «كان».

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٤٢).

ومعنى قوله ﷺ: ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشَسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦] هو والله أعلم لمن ولى العدو دبره، يريد بذلك ابتغاء الفتنة وجر الهزيمة على المسلمين كما قال فيهم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧] ولكل عمل نية، ولكن نية [حسنة]^(١)، والله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] عطف ﷻ بالفاء في قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ فتبين من ذلك أن انتظامه [وهو]^(٢) أعلم بقوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا...﴾ [الأنفال: ٤٥] يقول [وهو] أعلم: أعدوا لهم قوة من أنفسكم وشدة بأس، وأضربوا لربكم نية صادقة [وخشية]^(٣) وصبراً في سبيله غضباً له ونصيحة للإسلام، فعند ذلك تستحقون النصر من الله والفتح والإمداد بالجنود من لدنه.

ثم عطف على هذا المعنى المحذوف المقدر قوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] أقام [لهم]^(٤) ذلك كآلية، والدلالة على وجود الفتح عقب الصبر [والخشية]^(٥) وألحق حركاتهم وقتالهم الكافرين، ورمي رسوله ﷺ [الحصى]^(٦) من كفه في وجوه المشركين [كان رمية بالقبضة يوم حنين، وهذا الإخبار غريب، فربما أخبر عما سيكون قبل أن يكون ليثبت]^(٧) بأنه هو المتوحد

(١) أي: صار بالمكان الذي يحق عليه غضب الله، مأخوذ من المبوأ، وهو: المكان. ومذهب الشافعي وأصحابه وموافقيه أن هذا على العموم محكوم به في كل مسلم لاقى عدواً، وبه قال عبد الله بن عباس. وحكي عن الحسن وقتادة والضحاك: إن ذلك خاص في أهل بدر، وبه قال أبو حنيفة. النكت والعيون (٥٤/٢).

(٢) في النسخة (ق): «حسبة».

(٣) في النسخة (ق): «والله».

(٤) في النسخة (ق): «وحسبة».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «والحسبة».

(٧) في النسخة (ق): «الحصباء».

(٨) سقط من النسخة (ق).

[المتفرد]^(١) وحده؛ ذلك بأنه هو محرك المتحركين، وقاتل المقتولين، ومتمم فعل الفاعلين، ومجدد قوى القادرين، هو الأول في ذلك والآخر، والظاهر والباطن، إنما عليهم ما حملهم وعليه ما تضمن ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

إنما للعبد من فعله ما أوجد الله له من الحركة المضافة إليه بنسبة إليه، [وإنما]^(٢) صورة الفعل التي هي كماله وتمامه فهو له، ولما كان التمام والكمال والبداية والنهاية والظاهر والباطن هما صورة العمل [لأن مآله]^(٣) كلزوم الظل شخصه ألزم جل ذكره المكلف ثواب فعله وعقابه بما نوى وما اجترم، وهذا هو التوحيد الأعلى توحيد الصديقين، والذين هم شهداء الله ﷻ في عباده.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد: ١٩] وهو موجود عن اسمه الأول والآخر والظاهر والباطن، ولهذا التوحيد وعلمه شواهد كثيرة: أما من القرآن العزيز، فقوله جل قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ [الأنعام: ٦٢].

وقوله جل قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

ومن الأذكار قولك: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير».

والذكر كله مأخوذ من هذا الفن من علم هذا التوحيد، ولذلك - وهو أعلم - رفع ثواب الذكر إلى أعلى [نهايته]^(٤) حتى فات العقول دركه، وما نسب إليه من عمل واستخرج على مقتضاه إلى أرفع الثواب فهو من وراء الأسباب والأواسط. واعلم يقيناً أنه من نظر بنور هذا التوحيد [موجودات]^(٥) الدنيا والآخرة تطلعت

(١) في النسخة (ق): «بذلك المتفرد».

(٢) في النسخة (ق): «وأما».

(٣) في النسخة (ق): «لازمًا له».

(٤) في النسخة (ق): «نهاية».

(٥) في النسخة (ق): «موجد».

إليه، وقد رفعت سُجُف الأسباب، وأسباب الأسباب سافرة عن وجوها براقع الأواسط التي [تنقب] ^(١) بها لأجل البلوى والاختبار، وقد [نرى] ^(٢) عليها من نور التوحيد كضياء الشمس المنيرة، فاستفتح الأبواب، ثم ترقى في الأسباب وادعه فإنه كريم وهاب.

أتبع ذلك قوله: ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧] فعطف بالواو، والمحذوف مقدر معناه والله أعلم ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧] نصرًا لك وإظهارًا لدينه واستجابة لدعائك ﴿وَلِيْلِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ ثم صرف الخطاب مواجهة للمؤمنين بقوله ﷻ: ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: من نصرنا لكم وما يكون في معناه، ثم عطف على المحذوف بوعده فأنجزه، وهو متممه في المستقبل إن شاء الله ﷻ.

قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٣) [الأنفال: ١٨].

ثم قال جل قوله: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ يريد: المؤمنين، ثم خاطب الكافرين، ومن عمل بما ليس من شيم الإيمان وأعمال الإسلام بقوله جل قوله: ﴿وَأِنْ تَتَّبِعُوا فَمَنْ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعَذِّبُ﴾ يريد: [المؤمنين] ^(٤) المعاقبين من أجل ذنوبهم ﴿وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] أهل الإيمان الصريح والعمل الصحيح، الفتح على ألف أن منتظم المعنى بقوله جل قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] والكسر لها ابتداء وتحقيق لمعنى ما جاءت به، وهو منتظم بمعنى قوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا

(١) في النسخة (ق): «تنقبت».

(٢) في النسخة (ق): «بدا».

(٣) يعني: مضعف كيد الكافرين؛ يعني: صنع الكافرين بيد. قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو «مُوهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ» بنصب الواو والتشديد منونة «كَيْدٌ» بنصب الدال، وقرأ عاصم في رواية حفص «مُوهِنٌ كَيْدٌ» بضم النون بغير تنوين «كَيْدٌ» بكسر الدال على معنى الإضافة، وقرأ الباقون «مُوهِنٌ كَيْدٌ» بالتثنية والتخفيف «كَيْدٌ» بالنصب والمُوهِنُ والمُوهِنُ واحد؛ ويقال: وهنت الشيء وأوهنته: إذا جعلته واهنًا ضعيفًا. بحر العلوم للسمرقندي (١٨٧/٢).

(٤) في النسخة (ق): «المذنبين».

الَّذِينَ آمَنُوا ﴿[الأنفال: ١٢]﴾ هذا بالمعنى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْنِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وَاتَّقُوا يَوْمَ لَا تَصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةٌ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَتَاوَنَكُمْ وَاتَّيَدْتُمْ بِبَنِي إِسْرَءِيلَ وَرَدَّكُمْ مِنَ الطَّبِئَةِ لَمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٠ - ٢٦].

وأما بالمجاورة فعلى نسقها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠] المعنى إلى آخره، إلى قوله جل قوله: ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] فقوله جل قوله: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ تحذير من أحوال المنافقين وفعلهم، وملابسة الأعمال التي توجب النفاق، وهو منتظم المعنى بالمشار إليهم في قوله جل قوله: ﴿وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِي عَنْكُمْ فِتْنَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] فقوله فيهم: يقولون: ﴿سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١] [كقوله^(١): «آمنّا» وهم لا يؤمنون، وقد يقول الكفار: «سمعنا» ظناً منهم أنهم قد سمعوا وهم في دعواهم السماع كاذبون.

قال الله جل من قائل: ﴿وَإِذَا تَثَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢] وأخبر جل ذكره بأنهم صم وبكم، وإنما وقع الإخبار عن بواطنهم فهم

(١) في النسخة (ق): «كقولهم».

لا يسمعون الهدى ولا ينطقون به؛ لما أعرضوا عن الذكر بعدما جاءهم [فأعموا]^(١) عنه وصموا، وطبع [الله]^(٢) على قلوبهم فهم لا يفقهون.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ [أي]^(٣) كما أسمع المؤمنين وأما هؤلاء ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] وقد ضرب الله مثلاً لهذا الصنف بالكلب ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦] نعوذ بالله من عقوبة الإعراض بعد البيان.

قوله جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦] «إذا» وإن كانت ظرفاً للزمان المستقبل فإنها قد تكون بمعنى الحين واقتضاء الأمر بقوله جل قوله: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] [معنى]^(٤) الأمر بالإسراع والتحذير من التسويف [لذلك]^(٥) قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] إن أخرتم الاستجابة فعلى ذلك ترمونها، وقد حيل بين قلوبكم وبينها، والمرء هنا هو العبد الباطن والقلب صفة له، وقد يعبر عنه بأنه التقوى أو الهدى أو الإيمان أو العقل أو العلم والعمل به، وحقيقة الشيء المطلوب منه هو قلبه، ثم قال وقوله الحق: ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: على ما تكونون عليه من ذلك، فانظروا على ما تكون الحال وعيد منه وتهديد لمن أخر التوبة وسوّف بالأوبة.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٦) [الأنفال: ٢٦] يقول

(١) في النسخة (ق): «عموا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «معناه».

(٥) في النسخة (ق): «كذلك».

(٦) نزلت عقب بدر، فقيل: خطاب للمهاجرين خاصة كانوا بمكة قليلي العدد مقهورين فيها، يخافون أن يسلبهم المشركون، قال ابن عباس: فأتوهم بالمدينة وأيدهم بالنصر يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم وما فتح به عليهم.

جل قوله: كما اقتدر على أن يجعل في ضعفكم قوة، وفي قلتكم كثرة، وفي خوفكم أمناً، وآواكم ونصركم ورزقكم [من] الطيبات؛ هذا لأنكم أطمعتموه، وأسرعتم إلى الاستجابة له ولرسوله، فكذلك هو القادر على أن يجعل مكان كثرتكم قلة مع الخلاف، [وموضع] (٢٧) أمنكم خوفاً، وبغير ما بكم من نعمة، [لتغييركم] (٢٨) ما بأنفسكم حذر جل وعز مما قد علم أنه واقع، والله المستعان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا آمَاؤُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتُخَوُّوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (٣٠) وَإِذَا ثَلَاثَةٌ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِن هَٰذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَٰذِهِ حَقٌّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتُلْنَا بِعَذَابٍ إِلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يَعْبُدُوا اللَّهَ وَهُمْ يَصُودُونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائُهُ إِلَّا الْمُتَفَقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً

وقيل: الخطاب للرسول والصحابة، وهي حالهم يوم بدر، و«الطيبات» الغنائم، والناس عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، والتأييد: هو الإمداد بالملائكة والتغلب على العدد. وقال وهب وقتادة: الخطاب للعرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم حالاً حسنة، والناس فارس والروم، والمأوى النبوة والشرعة، والتأييد بالنصر فتح البلاد وغلبة الملوك، و«الطيبات» تعم المأكَل والمشارب والملابس. تفسير البحر المحيط (٦٢/٦).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ومكان».

(٣) في النسخة (ق): «ليغير».

وَقَصْدِيَّةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّهُُمُ لِلَّهِ قَابَ قَوْسًا يَدُورُ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَغْفِرُ الْمَوْلَىٰ وَيَعْلَمُ الْغَيْبُ

﴿٤٠﴾ [الأنفال: ٢٧ - ٤٠].

قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَقَالُوا هُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّهُُمُ لِلَّهِ قَابَ قَوْسًا يَدُورُ﴾ [الأنفال: ٣٩] المعنى إلى آخره، يقول جلَّ وعزَّ: وهو أعلم: قاتلوهم حتى تضع الحرب أوزارها كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَضْرِبَ الرِّقَابَ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتَّمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ...﴾ [محمد: ٤] وذلك لا يكون إلا مع [نزول] عيسى ابن مريم عليه السلام ويكون الدين كله لله يومئذٍ، ويكون المعنى: قاتلوا هؤلاء حتى يدخلوا في الإسلام فلا تكون منهم فتنه، وهي [في] ^(١) نظيرة هذا في سورة البقرة غير هذه عبارة عما يكون تمامه ومصادقه في آخر الزمان، والتي في سورة البقرة عما كان وتقضى وبقي منتظر هذه سلمة بن نفيل.

قال: بينما أنا جالس عند النبي ﷺ إذ جاء رجل فقال: يا رسول الله، إن [الخیل قد سببت] ^(٢) ووضع السلاح، وزعم قوم ألا قتال وإن قد وضعت الحرب أوزارها، فقال رسول الله ﷺ: «كذبوا، الآن جاء القتال، وإنه لا يزال من أمتي أمة تقاتل في سبيل الله لا يضرهم من خالفهم، يقاتلون على الحق، ويزيغ الله لهم قلوب أقوام ويروعهم منهم حتى تقوم الساعة، ولا تضع الحرب أوزارها حتى يخرج يأجوج

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إنجيل قد سببت».

وما جوج»^(١).

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنْتُمْ أَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) [الأنفال: ٤١ - ٤٢].

قوله عز قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ [الأنفال: ٤١] اختلف الناس في قسم الخمس وخمس الخمس لمن هو؟ وفيمن تقسم؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه وقد سأله نجدة الحروري عن سهم [ذي]^(٢) القربى: لمن تراه؟ فقال: هو لنا أهل البيت، قسمه رسول الله ﷺ لنا، وقد كان عمر عرض علينا رأياً رأيناه دون حقنا فأبيناه أن نقبله، وكان الذي عرض علينا أن نكح منه أئمتنا، ونخدم منه عائلتنا، ونقضي عن غارمنا، فأبيناه أن نقبله إلا أن يسلمه إلينا، وأبى [من]^(٣) ذلك فتركناه عليه.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد كتاباً فيه: «وقسم أبيك الخمس كله لك، وإنما سهم أبيك منه كسهم رجل من المسلمين، وفيه حق الله وحق الرسول وذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، فما أكثر خصماء أبيك يوم القيامة! وكيف ينجو من كثر خصماءه؟! وإظهارك المعازف والمزمار بدعة في الإسلام، ولقد هممت أن أبعث إليك من [يجز جمتك]^(٤) جمعة السوء».

وشئل الحسن بن محمد عن قول الله ﷻ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ

(١) أخرجه الطبراني (٦٣٦٠).

(٢) في النسخة (ق): «ذوي».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يجرك بجمتك».

لله خُمُسُهُ ﴿[الأنفال: ٤١] فقال: هذا مفتاح كلام الله الدنيا والآخرة.

ثم قال قائل: اجتمع رأي العلماء بعد اختلافهم أن هذين السهمين - يعني: الذين هما لله وللرسول - في الخيل والعدة والسلاح.

وقال آخرون: سهم [ذي]^(١) القربى لقربة الرسول ﷺ، والأولى - والله أعلم - [ما قاله]^(٢) رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»^(٣) يعني والله أعلم بما أراد رسوله: في الكراع والسلاح والعدة، ويعطى منه من فيه [عتاد منفعة]^(٤) لأهل الإسلام ومن أهل [الحرف]^(٥) والفقه والعلم والقرآن، ويعطى منه سهم ثانٍ لأهل البيت ولذي القربى الغني منهم والفقير والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء؛ لأن الله جل ثناؤه جعل لهم ذلك، وقسمه رسول الله ﷺ [بينهم]^(٦) وليس في الحديث أن فَضَّل بعضهم على بعض، ثم سهم ثالث لليتامى، ورابع للمساكين، وخامس لابن السبيل.

وذكر الله جل ثناؤه نفسه في أول الخطاب افتتاحاً للكلام وابتداء له به، هو زين الدنيا والآخرة ونور السماوات والأرض، وكما تقول العرب: «قد أعتقتك الله وأعتقتك».

وذكر أبو عبد الرحمن في هذا أنه ابتداء [الكلام]^(٧)؛ لأن الأشياء كلها لله ﷻ، قال: ولعله إنما استفتح الكلام بذكر نفسه في الفياء والخمس؛ لأنهما أشرف الكسب، ولم [يكتسب]^(٨) الصدقة إلى نفسه؛ لأنها أوساخ الناس، والله أعلم. وقد قيل: يؤخذ من الغنيمة شيء فيجعل للكعبة، وهو السهم الذي [هو]^(٩) الله

(١) في النسخة (ق): «ذوي».

(٢) في النسخة (ق): «الذي قال».

(٣) أخرجه الحاكم (٤٣٧٠)، والبيهقي (١٧٥٧٧)، والضياء من طريق الطبراني (٣٦١).

(٤) في النسخة (ق): «غناء ومنفعة».

(٥) في النسخة (ق): «الحرب».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «كلام».

(٨) في النسخة (ق): «ينسب».

(٩) سقط من النسخة (ق).

جل ذكره، وهو وجه حسن صواب والله أعلم، وعلى هذا فلتبين منه المساجد، وليصلح منه قناطر المسلمين وجسورهم ومواضع منافعهم، وأما أئمة المسلمين فداخلون فيما هو للرسول ﷺ وإن أفضل عليهم من سهم الله جل ثناؤه فهو أيضاً منه هذا في خمس الخمس، والأربعة الأخماس يقسمها الإمام فيمن حضر القتال من المسلمين البالغين [الأحرار]^(١).

قوله ﷻ: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوصِ﴾^(٢) إلى قوله جل قوله: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] [وصف العدو التي كان فيها المؤمنون أنها الأدنى من الدنو، ولكونه عز جلاله مع المؤمنين والملائكة كما وصف العدو التي كان فيها الكفار بأنها القصوى؛ إذ كانت هذه منه عز جلاله، فذكر الله جل ثناؤه]^(٣) موافاة الجيشين بدرًا بوفاق منه جل ثناؤه.

يقول جل قوله: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ إذ فعل المكتسب لا يخرج على الأغلب على وفق ما يريده، وفعل الله جل ثناؤه موجود على وفق ما شاء ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢] من نصرة رسوله والمؤمنين، وإظهار الإسلام يومئذ، وكبت [الكفار]^(٤) وقمع العدو؛ ليري على ذلك آياته في رؤية المؤمنين إياهم على أقل من عددهم، ويُري الكافرين المؤمنين على مثال ذلك قبل الزحف والمناسبة، فلما تناسبوا القتال بدت للكفار [في حوزة المؤمنين]^(٥) جموع أذعرتهم، وألقى الرعب في قلوبهم وثبت المؤمنين، وكانت الهزيمة والقتل، وهذا كان يومئذ الفرقان المعبر عنه بقوله جل قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١]

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا﴾ يعني: شفير الوادي بيدر، الأدنى إلى المدينة ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصُوصِ﴾ يعني: شفير الوادي الأقصى إلى مكة، وقال الأخفش: عدوة الوادي: هو ملطاط شفيره الذي هو أعلى من أسفله وأسفل من أعلاه. التكت والعيون (٧٠/٢).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «الكفر».

(٥) سقط من النسخة (ق).

يري القليل كثيرا والكثير قليلاً، وينصر الضعيف ويخذل القوي، يفعل ما يشاء.
ثم قال عز من قائل: ﴿وَيُخَيِّمُ مَنِ حَيٍّ عَنْ يَتَنَةٍ﴾ أي: بالإيمان والتصديق لله
والرسول، والهدى والعمل بالطاعة، ويهلك من هلك عن بينة بالكفر والتكذيب
والجحد للآيات، والبيئة قد تقدم ما هي ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لقول من قال ﴿عَلَيْكُمْ﴾
[الأنفال: ٤٢] بعمل العاملين أخالص هو أم غير ذلك؟ وهذه إشارة إلى نفاق
المنافقين وتكذيب يهود.

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْسَلْنَاهُمْ كَثِيرًا لَفُتِنْتُمْ وَلَنَنْزَعْنَهُمْ
فِي الْأَمْرِ وَلَئِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِمْ بَذَاتُ الصُّدُورِ﴾ (٤٣) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ
فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ
تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ
اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَةً الْأَنْبِيَاءِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (٤٧) ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ
وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْقَوْمَانِ تَكَصَّفَا
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ (٤٨) [الأنفال: ٤٣ - ٤٨].

أتبع ذلك قوله جل من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا
وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] الفلاح هنا بمعنى: الظفر بالعدو،
ثم الظفر بثواب الله ﷻ والبقاء الدائم في جواره في كل خطاب له جل ثناؤه في هذا
المعنى ضمان النصر مع الثبات [والظفر، وذكر الله جل ثناؤه والخشية] (١) لا بد ولا
محالة.

ثم قال جل قوله يحذر من فعل أولئك في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا

(١) في النسخة (ق): «والصبر والحسبة».

مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ ﴿٤٧﴾ [الأنفال: ٤٧].

ثم ذكر جل ذكره حضور الشيطان [معهم]^(١) وضمائه لهم الجوار والنصر، ثم [خفاه]^(٢) العهد، وخلفه الوعد كالمعهود منه.

﴿إِذْ يَكْفُلُ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ وَهُمْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَعْنَى اللَّهِ وَلَا رُوْحُهُمْ وَأُذُنُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٤٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لَّغَيِّدٍ ﴿٥٠﴾ كَذَابٍ أَلِيلٍ فَرَعُونَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرَ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٩ - ٥٣].

قوله جل وعز: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩] [أعلم جل ذكره هنا لمشاره في قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢] من ذكر المنافقين واليهود، ثم قال جل قوله]^(٣): ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: منيع مانع ﴿حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] في شأنه كله.

(١) نزلت في أبي جهل وأصحابه، خرجوا لنصرة العير بالقينات والمعازف ووردوا الجحفة، فبعث خفاف الكناني - وكان صديقاً له - بهدايا مع ابنه وقال: إن شئت أمددناك بالرجال وإن شئت بنفسي مع من خف من قومي، فقال أبو جهل: إن كنا نقاتل الله كما يزعم محمد فوالله ما لنا بالله طاقة، وإن كنا نقاتل الناس فوالله إن بنا على الناس لقوة، والله لا نرجع عن قتال محمد حتى نرد بدرًا فنشرب فيها الخمر وتعزف علينا القينات، فإن بدرًا مركز من مراكز العرب وسوق من أسواقهم حتى تسمع العرب مخرجنا فتهابنا آخر الأبد، فوردوا بدرًا فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القينات، فنهى الله المؤمنين أن يكون مثل هؤلاء بطرين طريين مرأين بأعمالهم، صادين عن سبيل الله، وقال رسول الله ﷺ: «اللهم إن قريشاً أقبلت بفخرها وخيلائها تجادل وتكذب رسولك، اللهم فاحشها الغداة». تفسير البحر المحيط (٨٥/٦).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «إخفاه».

(٤) سقط من النسخة (ق).

ثم ذكر جل ذكره كيف يتوفى الكفار الملائكة - عليهم السلام - حال الموت ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأُذُبَارُهُمْ﴾^(١) [الأنفال: ٥٠].

ثم عطف بالواو على هذه الحال حالاً هي بعد الموت، ثم بعد البعث [قوله: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]]^(٢).

﴿كَذَّابٍ مَّالٍ فَرَعُونَ^{٥٤} وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَعْرِفْنَا^{٥٥} مَالٍ فَرَعُونَ^{٥٦} وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ^{٥٧}﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ^{٥٨} الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْفَ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ^{٥٩} فَإِنَّمَا تَتَّقَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَن خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكَّرُونَ^{٦٠} وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَإِنِذْ إِلَهُهُمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَآئِينَ^{٦١} وَلَا يَحْصِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا^{٦٢} إِلَهُهُمْ لَا يُعْجِرُونَ^{٦٣} وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ^{٦٤} وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^{٦٥}﴾ [الأنفال: ٥٤ - ٦١].

قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١] لا يخلو أن يكون الأمر مقبلاً أو مدبراً، فإن كان مقبلاً كما كان الإسلام يومئذٍ، فالجنوح للسلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن؛

(١) فيه قولان: أحدهما: يتوفاهم ملك الموت عند قبض أرواحهم. قاله مقاتل.

والثاني: قتل الملائكة لهم حين قاتلوهم يوم بدر. ﴿يُضْرَبُونَ وَجُوهُهُمْ وَأُذُبَارُهُمْ﴾ تأويله على القول الأول: يضربون وجوههم يوم القيامة إذا واجهوهم، وأدبارهم إذا ساقوهم إلى النار.

وتأويله على القول الثاني يحتمل وجهين: أحدهما: يضربون وجوههم بيد لما قاتلوا، وأدبارهم لما انهزموا.

والثاني: أنهم جاءوهم من أمامهم وورائهم، فمن كان من أمامهم ضرب وجوههم، ومن كان من ورائهم ضرب أدبارهم. النكت والعيون (٧٤/٢).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

ليتفرع منهم إلى سواهم، ويتنقص على ذلك كثرة مطالبهم، ولا بد للأجل المضروب من حلول، فإذا جاء ذلك الأجل بلغ الله الأمل، وإن كان الأمر في نقصان فالجنوح [أيضاً]^(١) إلى السلم بعد أن تكون البداية منهم في ذلك أحسن انتظاراً [منا]^(٢) للفرج، وليتمكن في تلك المدة من أخذ العدة.

﴿وَأَن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصِرِّهِمْ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ٦٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٦٣﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ٦٥﴾ أَلَنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ٦٦﴾ [الأنفال: ٦٢ - ٦٦].

قوله عز من قائل: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ...﴾ [الأنفال: ٦٥] شرط جل ذكره الصبر والفقہ عن الله جل ذكره، وهو [في]^(٣) معنى قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] وقوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ [التوبة: ٥٢] وتمايم الفقہ عنه الثقة بوعده الصادق، وإن النصر مع الصبر والثبات مع الحسبة، والعمل بطاعة الله والإكثار من ذكره، وعزم الإيمان إن الله مع المؤمنين الذين وصفهم الله في كتابه العزيز بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] المعنى إلى آخره، وإنه من كان الله معه فلا يغلب ولا يهزم.

ثم أتبع ذلك بقوله عز قوله: ﴿الآن حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦] فأعلم أن

(١) في النسخة (ق): «إِذَا».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

هذا الحكم منسوخ؛ أعني: بإيجاب الثبوت على واحد إلى عشرة، وأبقى الوعد؛ إذ الوعد خبر والخبر لا [يتطرقه] ^(١) النسخ، وإبقاء القضية [الأولى] ^(٢) ثابتة بالخط، وحكم التخصيص في الزمان قوله جل قوله: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ فأعلمنا بذلك أن هذا الوعد والإيجاب لزمان يأتي بعد إن شاء الله وأبقى الآن حكم الثبوت من واحد إلى اثنين، والوعد حاضر معه إن أحضر العبد الصبر والتقوى، ختم ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ^(٣) ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٤) ﴿كُلُّوْا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٥) [الأنفال: ٦٧ - ٦٩].

قوله ﷺ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَنْخِرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا...﴾ ^(٦) [الأنفال: ٦٧] هذا كقوله جل قوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ...﴾ [محمد: ٤].
أتبع ذلك قوله: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ [أي بسعادتهم] ^(٧) ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ أي: [من فداء الأسارى] ^(٨) ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] [أي: لمفادتهم] ^(٩) كقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] إلى قوله: ﴿لِيَدْخُلَ

(١) في النسخة (ق): «يطرقه».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) وهذا نزل في أسرى بدر حين استقر رأي النبي ﷺ فيهم بعد مشاورة أصحابه على الفداء بالمال، كل أسير بأربعة آلاف درهم، فأنكر الله تعالى ذلك عليه، وأنه ما كان له أن يفادي الأسرى ﴿حَتَّى يَنْخِرَ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: هو الغلبة والاستيلاء. قاله السدي. والثاني: هو كثرة القتل؛ ليعز به المسلمون ويذل به المشركين. قاله مجاهد. النكت والعيون (٨١/٢).

(٤) زيادة النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «في فدية الأسرى».

(٦) سقط من النسخة (ق).

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ... ﴿٥﴾ [الفتح: ٥].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لِّمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرِ﴾ إِنَّ يَسْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنْكَرَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ [الأنفال: ٧٠ - ٧٢].

قوله جل وعز: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٢] إلى آخر السورة، هذا [حكم الله ﷻ] ^(١) بآلا تصح ولاية الدين إلا لمن آمن وهاجر لا لمن آمن ولم يهاجر، [بل إن استنصروا] ^(٢) في الدين الذي اجتمعوا معنا فيه وجبت علينا نصرتهم إلا أن يكون المستنصر عليهم [قوما] ^(٣) بيننا وبينهم ميثاق.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ [الأنفال: ٧٣ - ٧٥].

ثم قال جل قوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٣]

(١) في النسخة (ق): «هذا نص».

(٢) في النسخة (ق): «بلى إن استنصرونا».

(٣) سقط من النسخة (ق).

يريد وهو أعلم: إلا تفعلوا ما أمرتكم به وبخاصة [والله أعلم]^(١) وهو راجع على معنى القتال وتحريضه عليه وترك [الأسر]^(٢) وأن يعرض منه القتل والإغلال حتى يتحصل الإثخان، ثم ما أمر به من الموالاة في الدين والنصرة، والمناصحة وحفظ الميثاق.

قال رسول الله ﷺ: «ما ختر قوم بالعهد إلا سلط عليهم [العدو]^(٣)»^(٤).

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»^(٥).

وقال ﷺ: «من كانت له ولية - أو قال: ابنة - فخطبها إليه كفؤ فليزوجها، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض فساد كبير»^(٦).

يشير إلى ما تكون الحال معها مع العضل [لها]^(٧) على الأغلب، ولو فشا ذلك - أعني: العضل - لكانت الفتنة من هذه الجهة والفساد الكبير كذلك في ترك أوامره وارتكاب نواهيه، فالمراد بقوله ﷺ: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ...﴾ جميع ما أمرنا به وحضنا عليه، و«الدين النصيحة»^(٨).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «الأمر».

(٣) في النسخة (ق): «عدوهم».

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (١٦٣١) ونسبه إلى ابن عباس ؓ.

(٥) أخرجه مسلم (٤٩)، وأبو داود (١١٤٠) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٥٠٠٨) وابن ماجه (٤٠١٣) وابن حبان (٣٠٧) والطيالسي (٢١٩٦) وأحمد (١١٤٧٨) وعبد بن حميد (٩٠٦) وأبو يعلى (١٠٠٩) والبيهقي (١٩٩٦٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٨/١٠).

(٦) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) وقال: هذا الحديث قد خولف عبد الحميد بن سليمان في هذا الحديث، ورواه الليث بن سعد عن ابن عجلان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مرسلًا، قال الترمذي: قال محمد: وحديث الليث أشبه، ولم يعد حديث عبد الحميد محفوظًا. وابن ماجه (١٩٦٧)، والحاكم (٢٦٩٥) وقال: صحيح الإسناد. والطبراني في «الأوسط» (٤٤٦).

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، والنسائي (٤١٩٧)، وأحمد (١٦٩٨٢)، وأبو عوانة (١٠١)، وابن حبان (٤٥٧٤)، والبخاري في «الجمعي» (٢٦٨١)، وابن قانع (١٠٩/١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٦٥)، وأبو نعيم في «المعرفة» (١٢٩١)، والطبراني

ثم قال وقوله الحق بعد هذا: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] يحتمل أن يكون معنى قوله جل قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: إنه كذلك [في اللوح]^(١) المحفوظ، كذلك أنزلناه عليكم فامتثلوه، كذلك قال الله جل قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ من المؤمنين والمهاجرين.

ثم قال جل قوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].
كما قال جل قوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

والقرآن متصل بالكتب قبله، وكلها منفصلة من [الكتاب]^(٢) المبين كما قال جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] فأولوا الأرحام [بعضهم أولى ببعض لكل موفق]^(٣) ونصرة ونصيحة وهبة وإنكاح وصلة وغير ذلك.

(١٢٦٧)، وابن عساكر (١١/٥٤).

(١) في النسخة (ق): «الكتاب».

(٢) في النسخة (ق): «كتاب الله».

(٣) في النسخة (ق): «أولى ببعض لكل مرفق».

تفسير سورة براءة^(١)

التوبة

[مدنية، فيها من المنسوخ سبع آيات]^(٢).

﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝٢﴾ وَأَذِّنْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى

(١) هذه السورة مدنية كلها، وقيل: إلا آيتين من آخرها فإنهما نزلتا بمكة، وهذا قول الجمهور، وذكر المفسرون لها اسماً واختلافاً في سبب ابتدائها بغير بسملة، وخلافاً عن الصحابة: أهي والأنفال سورة واحدة، أو سورتان؟ ولا تعلق لمدلول اللفظ بذلك، فأحلينا كتابنا منه، ويطالع ذلك في كتب المفسرين. ويقال: برئت من فلان أبرأ براءة، أي: انقطعت بيننا العصمة، ومنه برئت من الدين، وارتفع براءة على الابتداء، والخبر إلى الذين عاهدتم، ومن الله صفة مسوغة لجواز الابتداء بالنكرة، أو على إضمار مبتدأ أي: هذه براءة، وقرأ عيسى بن عمر براءة بالنصب، قال ابن عطية: أي الزموا، وفيه معنى الاغراء، وقال الزمخشري: اسمعوا براءة، قال: فإن قلت: بم تعلقت البراءة، بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله تعالى في معاهدة المشركين أولاً، فاتفق المسلمون مع رسول الله ﷺ وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فخطوب المسلمون بما تجدد من ذلك فقليل لهم: اعلموا أن الله تعالى ورسوله قد برئا مما عاهدتم به المشركين، وقال ابن عطية: لما كان عهد الرسول ﷺ لازماً لجميع أمته حسن أن يقول: عاهدتم، وقال ابن إسحاق وغيره: كانت العرب قد أوثقها رسول الله ﷺ عهداً عاماً على أن لا يصد أحد عن البيت الحرام ونحو هذا من الموادعات، فنقض ذلك بهذه الآية، وأحل لجميعهم أربعة أشهر، فمن كان له مع الرسول عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة أبلغ به تمامها، ومن كان أمدّه أكثر أتم له عهده، وإذا كان ممن يحتسب منه نقض العهد قصر على أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة يسبح في الأرض أي: يذهب فيها مسرّحاً آمناً، وظاهر لفظة من المشركين العموم، فكل من عاهده المسلمون داخل فيه من مشركي مكة وغيرهم، وروي أنهم نكثوا إلا بني ضمرة وكنانة فنذ العهد إلى الناكثين.

(٢) سقط من النسخة (ق).

النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
وَلِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾
[التوبة: ١ - ٣].

قوله عز من قائل: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾
[التوبة: ١] هؤلاء هم طائفة من المشركين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد
فظاهروا عليه، فأمر رسوله أن يتبرأ إليهم من عهدهم، وأجل لهم أربعة أشهر
يسيحون [أي يسبغون] (١) في الأرض آمنين انتظاراً للتوبة منهم، وأعلمهم أن الله
تعالى [معزي] (٢) الكافرين، وأنهم ينقلبون في قبضته لا يعجزونه، ثم أذن منه في
إعلام إلى جميع المشركين عامة بالبراءة والتبرئ منهم [وأعلمهم أن الله مخزي
الكافرين] (٣).

يقول الله ﷻ: قل لهم يا محمد: ﴿إِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: يدخلكم في
[ولايته] (٤) ورحمته ﴿وَلِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٥) [التوبة: ٣] الأسر والقتل في الدنيا وفي الآخرة عذاب النار.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «معزي».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «جواره وولايته».

(٥) جعلت البراءة شأنًا من شؤون الله ورسوله، وأسند العهد إلى ضمير المسلمين؛ للإشارة إلى
أن العهود التي عقدها النبي ﷺ لازمة للمسلمين، وهي بمنزلة ما عقدوه بأنفسهم؛ لأن عهود
النبي ﷺ إنما كانت لمصلحة المسلمين في وقت عدم استجماع قوتهم، وأزمان كانت بقية
قوة للمشركين، وإلا فإن أهل الشرك ما كانوا يستحقون من الله ورسوله توسعة ولا عهدًا؛
لأن مصلحة الدين تكون أقوى إذا شدد المسلمون على أعدائه، فالآن لما كانت مصلحة
الدين متمخضة في نبذ العهد الذي عاهده المسلمون المشركين أذن الله رسوله ﷺ بالبراءة
من ذلك العهد، فلا تبعة على المسلمين في نبذه، وإن كان العهد قد عقده النبي ﷺ ليعلموا
أن ذلك توسعة على المسلمين على نحو ما جرى من المحاورة بين عمر بن الخطاب وبين
النبي ﷺ يوم صلح الحديبية، وعلى نحو ما قال الله تعالى في ثبات الواحد من المسلمين
لاثنين من المشركين، على أن في الكلام احتباكًا؛ لما هو معروف من أن المسلمين لا
يعملون عملاً إلا عن أمر من الله ورسوله، فصار الكلام في قوة براءة من الله ورسوله ومنكم

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِمَتِّهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: ٤ - ٥].

ثم قال عز من قائل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ [التوبة: ٤] فاستثنى هؤلاء من الناس.

ثم قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ...﴾ [التوبة: ٥] وكان نزول هذه السورة في ذي الحجة من عام تسع من الهجرة، وكان أمير الحاج يومئذ أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فأتبعه [رسول الله ﷺ] ^(١) علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقرؤها على الناس وينادي: ألا لا يحجن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، [وإتمام] ^(٢) هذا الأمر المجعول لهؤلاء في إكمال خمسين يومًا من يوم الحج الأكبر، وهو آخر شهر المحرم.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتْلُفْهُ مَائِمَةً ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ اسْتَرَوْا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا

إلى الذين عاهد الله ورسولُه وعاهدتم. التحرير والتنوير (٦/٢١٣).

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وتمام».

ذِمَّةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ [التوبة: ٦ - ١٠].

ثم قال جل من قائل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

ثم قال جل قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٧] يقول جل ذكره: لأي إيمان وإسلام؟ لأي قرب؟ لأي ولاية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله؟ ثم استثنى من جملة المشركين [عهد عند الله]^(١) وهي الجملة التي أذن بالتبرئ منهم [قيل]^(٢) قريشاً ومن كان في عهدهم، وهم الذين عاهدوا عند المسجد الحرام، وفي هذا إعلام بأن إسلام مسلمي الفتح كان [عنوة]^(٣) فأنزلها منزلة المعاهدة، وفي هذا الخطاب إشارة إلى يهود خيبر، فهم أيضاً عند المسجد الحرام مسجد رسول الله ﷺ وحرمه.

ثم قال جل قوله: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾^(٤) [التوبة: ٧].

ثم أعلم بما كانوا عليه بقوله جل قوله: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ٨].

يقول جل من قائل: ﴿كَيْفَ﴾ [تكون مواليتهم استبعاداً لذلك وهم]^(٥) ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ الإل: القرابة، وقيل: الإل: الله جل ذكره، فكان معنى الكلام لا يرقبون فيكم قرابتكم منهم ولا يرقبون من عاهدوا به، وتوالتوا بزمامه وحرمته، وهو الله تعالى، ثم أظهر هنا ما أبطنه من ذكر يهود بقوله جل قوله:

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «قبل».

(٣) في النسخة (ق): «عنده».

(٤) وليس ذلك إنكاراً على وقوع العهد، فإن العهد قد انعقد بإذن من الله، وسمّاه الله: «فتحاً» في قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] وسمّى رضا المؤمنين به يومئذ: «سكينة» في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] والمعنى: إن الشأن ألا يكون لكم عهد مع أهل الشرك؛ لليون العظيم بين دين التوحيد ودين الشرك، فكيف يمكن اتفاق أهليهما؛ أي: فما كان العهد المنعقد معهم إلا أمراً مؤقتاً بمصلحة. التحرير والتنوير (٢٢٧/٦).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

﴿يُزْضِئْكُمْ بِأَفْوَاجِهِمْ وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨] إلى قوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا﴾ [أي: الله] ^(١) ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠] عهدًا عاهدوه به.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ⑪ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ⑫ أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ⑬ فَتِلَاوَهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُّهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ⑭ وَيَذْهَبَ غِيظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⑮﴾ [التوبة: ١١ - ١٥].

ثم قال جل قوله: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ ثم قال: ﴿وَتُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: في كل طائفة من الكافرين وفي كل وجه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

ثم قال: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ من الإيمان ولا أيمان من اليمين ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢] تعريض بنكثهم العهد في مظاهرتهم قريشًا على غزوة الخندق وصفهم بأنهم أئمة الكفر؛ لأنهم كانوا أهل كتاب [فسلم] ^(٢) المشركون عن رسول الله ﷺ وعما جاء به، فيجيئونهم بما يصددهم عن سبيل الله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩] فهم لا أيمان لهم لأجل هذا، ولا أيمان لهم لما يعلم الله ﷻ منهم من نقضهم العهد متى أمكنهم، ومن إضرارهم بالمؤمنين متى ظهروا عليهم.

ثم أظهر وصف قريش وقد كان أبطنه بقوله عز قوله: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ﴾ [التوبة: ١٣] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٥].

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «فيسألهم».

فصل

صدر هذه السورة منتظم بآخر سورة الأنفال، [لما ختم سورة الأنفال]^(١) بذكر الولاية ومن يوالي ومن أحق بذلك، وفُضِّل ذلك ابتداء هنا بالبراءة ممن [يستحق]^(٢) التبرؤ منه، ولذلك أشكلت على الأئمة من الصحابة رضي الله عنهم فلم يفصلوا بينهما بسطر «بسم الله الرحمن الرحيم».

قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] الكلام يقال على وجهين:

أحدهما: معنى يعبر عنه، وهو في النفس كما قال القائل:

إن الكلام لفِي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

وقال بعضهم: في كلام له إنما المرء بأصغريه لسانه وجنانه، إن تكلم تكلم بلسان، وإن أقدم أقدم بجنان فاعتمد على أن الكلام هو ما خرج على اللسان، فحقيقة الكلام فينا [هو]^(٣) صوت مؤدٍ لمعان قائمة في النفس تصورها حروف مقطعة مركبة أشكالاً، فالمسموع هو ما في النفس بواسطة الصوت المؤدي به إلى السامع، والسامع هو المؤدى إليه، والسماع هو صدور المسموع بواسطة الصوت [المشيّع]^(٤) إلى سمع السامع، فالحروف وضعت [للمعنى]^(٥)، ولم توضع المعاني للحروف، [وموضع الحروف]^(٦) إنما هو في الفم واللهاة ومنفذ الخيشوم والأسنان والشفيتين، وهو القول المعبر عما في النفس من معنى هو الكلام، والله تبارك وتعالى متكلم وهو غني عن الآلات متعال عن الافتقار إلى الأدوات، فهو المتكلم بالحقيقة، ولا يجوز أن يشار بكلامه إلى آلة ولا يوصف بجارحة.

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «يجب».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «المسمع».

(٥) في النسخة (ق): «للمعاني».

(٦) سقط من النسخة (ق).

وكذلك لا يجوز أن يقال: «تكلم كله أو بعضه»، إذ القول بالكل والبعض، والشبه عنه منفي، والكلام صفة ليس هو الموصوف ولا هو غيره بوجه؛ إذ الغير لا يكون إلا لشيئين مختلفين أو مؤتلفين، [كما لا يجوز أن يقال كان الكلام بعد أن لم يكن لأن هذا صفة المخلوق]^(١) والمخلوقون لم يكونوا ثم كانوا، فلم يستبأن لأجل ذلك لهم صفة كلامه ولا علمه في القدم، فعجزوا عنه لعدمهم، والعجز والاستبانة تجري عليهم ولهم لا على علمه وكلامه، وكان الله جل ثناؤه ولم يزل أمراً، والأمر كلامه، ولا يكون الأمر أمراً من غير كلام، ولا يكون المتكلم متكلماً من غير كلام. ولا عالمًا من غير علم، ولا خالقًا من غير خلق.

[والخلق صفة ذات في الحقيقة، لكنه ترك أن يخلق ما شاء ثم خلق ما خلق إذ شاء وصفة فعل في اللغة]^(٢) وصفات الفعل ترجع إلى صفات الذات، فكلام الله جل وعز لا يدركه بالكيف البشر، وإنما يدرك أمره ونهيه بالأمثالات والأمثال. والأسماء [والحروف محدثة، وبذلك استبان لهم كلامه كما تقدم وصفه، والحروف المحدثة والأمثال والأسماء]^(٣) يكتبونه ليقرؤنه ويحفظونه ويتعلمونه، فيجري التغيرات على الحروف والأمثال والأسماء، وبها يستدل على كلامه تعالى وأمره ونهيه.

فقوله جل قوله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] تنزل منه جل ذكره عن حقيقة ما هو كلامه الذي هو صفة ذاته إلى ما هو مبلغ له ووصف وعبارة عنه، وقد مضى التعارف بتحقيق قولهم متى حكى أحدهم حديث زيد وقول عمر، وقالوا: هذا كلام زيد وقول عمر، وربما طلبوا التحقيق فيقولون: هذا نص كلام زيد، وهذا حكاية قول عمر، وإذا المعلوم أن صفة زيد لم ينتقل عنه إلى من حكى عنه قوله. وإذا كانت صفة زيد لا تنتقل عنه إلى سواه فصفة الله أعلى وأجل.

فعلى ما تقدم من البيان كلام الله هو الذي نتلوه بقراءتنا ونكتبه في [مضاجعنا]^(٤)، وهو المسموع منا في تلاوتنا بنص القرآن ودليل العقل، وهذا معترك

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف في النسخ.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «مضاحفنا».

اقتتال أهل السنة مع المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن، وفي فهم المعنى فصل الخطاب ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿أَمَرَ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٦) مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَاقِيَةٌ مُقِيمَةٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٦ - ٢٢].

قوله جل وعز: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا...﴾ [التوبة: ١٦] هذه خاصة من وصف المنافقين وإخوانهم من يهود.

ثم أتبع ذلك بخاصة من وصف أهل المسجد الحرام بقوله جل قوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ (١) [التوبة: ١٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠] إلى قوله:

(١) مناسبة هذه الآية لما قبلها: إنه تعالى لما ذكر البراءة من المشركين وأنواعاً من قبائحهم توجب البراءة منهم ذكروا أنهم موصوفون بصفات حميدة توجب انتفاء البراءة، منها: كونهم عامري المسجد الحرام. روي أنه أقبل المهاجرون والأنصار على أسارى بدر يعيرونهم بالشرك، وطفق علي يوبخ العباس، فقال الرسول: «واقطعية الرحم» وأغلظ له في القول، قال العباس: تظهرون مساوتنا وتكتمون محاسننا؟ فقال: أو لكم محاسن؟ قالوا: نعم، ونحن أفضل منكم أجراً، إنا لنعمر المسجد الحرام، ونحجج الكعبة، ونسقي الحجاج، ونفك المعاني، فأنزل الله هذه الآية ردّاً عليهم. تفسير البحر المحيط (١٢٩/٦).

﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قَدْ كَانَ
ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِجَارَةٍ تَخْشَوْنَ
كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ
فَفَرَبَصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَأَلَّاهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣ -
٢٤].

لما بلغ الأمر وحل الأجل المعلوم في علمه المقدر بحكمته المعبر عنه بقوله
الحق: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥] فحان بحلول نبوتهم أجلهم المسمى قال وقوله الحق: ﴿مَا
كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَغْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]
ومضمرة ومحدوفة مع وجود من رفعت لهم قواعده وطهر من أجله.

أتبع ذلك [قوله] ^(١) جل قوله: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾
[التوبة: ١٩] ثم أتبع ذلك بوصف متردد بين الفريقين [بين] ^(٢) أهل مكة ومنافقي أهل
المدينة وإخوانهم من يهود، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة: ٢٣] إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ
كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ
وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّا

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ [التوبة: ٢٥ - ٢٩].

ثم جعل يعدد نعمه عليهم [أعني المؤمنين]^(١) بقوله جل قوله: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥] إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

ثم [أرجع] الخطاب إلى المؤمنين بالله يأمرهم^(٢) بجهادهم عدوهم من هؤلاء وهؤلاء: يا أيها الذين آمنوا ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ هؤلاء المشركون وكفارهم ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [التوبة: ٢٩] إلى آخر القصة، هؤلاء أهل الكتاب مع [إسراء]^(٣) منهم في الوصف بأنهم لا يُحَرِّمُونَ ما حرم الله ورسوله.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يُوَفَّقُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «وصل الخطاب للمؤمنين فأمرهم».

(٣) في النسخة (ق): «اشترالك».

بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ أَلَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ
وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٤].

قوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٤] وَغَطَّ مِنْ اللَّهِ - جل ذكره -
وَعَظَّ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَلَبَّسُوا بِشَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ الْقَبِيحَةِ [التي] ^(١) وَصَفَ بِهَا
أَهْلَ الْكِتَابِ، وَالْمُرَادُ بِالْعِظَةِ هُؤُلَاءِ، لَكِنَّهُ [كَرَمَهُمْ] ^(٢) عَنْ الْمَوَاجَهَةِ بِهَذِهِ الرِّذِيلَةِ،
فَمَفْهُومُ هَذَا أَنَّ مَنْ قَرَأَ كِتَابَ اللَّهِ وَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ الْمَصْرُوفَ بِهِ وَجْهَ النَّاسِ إِلَيْهِ فَهُوَ
مَلْحَقٌ بِهِ هَذَا الْوَصْفُ.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَا يَجِدُ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنْ رِيحُهَا لَتَوْجِدَ مِنْ مَسِيرَةِ
خَمْسِمِائَةِ عَامٍ» ^(٣).

ثم قال جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾
[وحذف] ^(٤) ها هنا: «منكم» يَقُولُهُ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤]
يعني: الصنفين معًا قراء السوء والصنف الثاني، فكانت الأولى تعريضًا لهذه الأمة
بالنذارة والثانية كناية والمعنيون نحن معشر هذه الأمة. انتهى.

فصل

ذكر بعض الناس أن كل ما أدبت زكاته فليس [يكتز] ^(٥)، وذهب إلى ذلك

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «أكرمهم».

(٣) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (١٥٨٢).

(٤) في النسخة (ق): «وحلف».

(٥) في النسخة (ق): «بكتز».

جماعة، والذي تحقق من مجموع ما جاء به الأمر أن في المال حقوقاً لله - جل ذكره - زكاته بعضها، فمن حقوقه سوى الزكاة: إيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفكك الأسير، فالإنفاق في سبيل الله وعون المُفرج ديناً، وأما أداء الزكاة من المال فواجب على صاحبه يرحم ذا الحاجة، ويبدأ بها ثم ينفق ما فضل منه في منفعه، ثم إن فضل شيء فالعود بالفضل [في] ^(١) وجوه حق عليه، وأما كنزه [ودفعه] ^(٢) وقطع حقوق الأفضال منه على ذوي الحاجات العامة للمسلمين، وهو الإنفاق في سبيل الله، والخاصة منها هي [على] ^(٣) ما يخص به من أصناف ذوي الحاجات، فوعيد ذلك متوجه على فاعله.

وفي قوله جل قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتَنُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤] أدل دليل وأبين برهان على أن المتوعد عليه هنا ليست الزكاة، ولو كان ما قالوه كما زعموا لكان الكلام: «والذين يكتنون الذهب والفضة ولا يزكونها فبشرهم» المعنى.

﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَفَرْتُمْ أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ^(٣٥) إِنَّ عَذَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْفَسُوا فَلَا تَقْلُومُوا فِيهِمْ أَنْفُسَكُمْ وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ^(٣٦) إِنَّمَا السَّبِقُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّعُوا عَذَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ^(٣٧)﴾ [التوبة: ٣٥ - ٣٧].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا...﴾ المعنى

(١) في النسخة (ق): «على».

(٢) في النسخة (ق): «ودفعه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

[المضمر]^(١) الذي في قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] بالنسيء فهو زيادة في الكفر، كانوا ينسئون الأشهر الحرم عائداً على الاثنى عشر شهراً، وعلى الخصوص على الأربعة الأشهر الحرم؛ أي: يؤخرونها^(٢) لحاجاتهم في خروجهم وقضاء أوطارهم، وربما كان ذلك منهم ليوافقوا بالأشهر الحرم؛ لانتقالها في السنة أشهراً ما من الأشهر الشمسية لثبوتها، وكانوا [يحسبونها]^(٣) على زمن الشتاء للمعهود من عسر السفر، وتعذر [التقرب]^(٤) من كنان الأوطان [من]^(٥) البرد والشتاء، ويفرغون سائر السنة [لخروجهم]^(٦) والخروج في أسفارهم، فكانوا يضلون بذلك عن الأشهر الحرم، فيحلون بفعلهم ذلك أشهراً حرماً ويحرمون منها ما أحل الله.

﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [التوبة: ٣٦] دين الإسلام، أسلمت له السماوات السبع والأرض، [وعلى كل]^(٧) شيء أسلم له، وعلى ذلك فطر كل شيء، وخلق ﷻ يوم خلق السماوات والأرض دون السماء الدنيا اثنا عشر برجاً، لكل برج من السنة شهره يقطع القمر البروج كلها في الشهر إلا موضع التقليب، وهو موضع الزيادة [بالسنة]^(٨) الشمسية على السنة القمرية.

قال الله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ

(١) في النسخة (ق): «الضمير».

(٢) في النسخة (ق): «أي: يؤخرونها».

(٣) في النسخة (ق): «يحسبونها».

(٤) في النسخة (ق): «التغرب».

(٥) في النسخة (ق): «زمن».

(٦) في النسخة (ق): «لخروجهم».

(٧) في النسخة (ق): «وكل».

(٨) سقط من النسخة (ق).

تَفْصِيلاً ﴿[الإسراء: ١٢] [.....]﴾^(١) هناك؛ أي: في الدار الآخرة تفصيلاً^(٢) وقد تقدم الكلام في المنازل والدوائر من الأفلاك، فأغنى ذلك عن الترداد.

ثم قال جل قوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾^(٣) [التوبة: ٣٦] أي: في الأشهر الحرم وغيرها، [وإنما حرم عليهم القتال أولاً في الأشهر الحرم كما]^(٤) كتب عليهم في طول مدة ما بين إبراهيم وإسماعيل وبين نبوة محمد - عليهم السلام - من التخليط والردة التي ارتدوا فيها، ولما جاء الله ﷻ بالإسلام والخير صرفهم إلى [الأولى]^(٥) وهو حقيقة ملة إبراهيم، ومن أفضل أعمال [العباد]^(٦): الجهاد في سبيل الله، والأشهر الحرم أولى بذلك الفضل.

ومعنى قوله جل قوله: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦] يريد: كما [فعل]^(٧) أولئك من ظلمهم بالنسيء والردة إلى ما كانت عليه [من]^(٨) الجاهلية الأولى التي أرسل إليهم إبراهيم ﷺ، وعلى هذا فللأشهر الحرم فضل مراعاة كشهر رمضان، فإن المعاصي لا يرخص في شيء منها في

(١) ليس في (ف) وقطع في (غ).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) اختلفوا في تحريم القتال في الأشهر الحرم: هل نسخ أم لا؟ فقال الزهري: هو منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾. وقال عطاء: هو ثابت الحكم، وتحريم القتال فيه باقٍ غير منسوخ، والأول أصح؛ لما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه غزا هوازن بحنين، وثقيفاً بالطائف، وأرسل أبا العاص إلى أوطاس لحرب من بها من المشركين في بعض الأشهر الحرم، وكانت بيعة الرضوان على قتال قريش في ذي القعدة. النكت والعيون (١/١٥٤).

(٤) في النسخة (ق): «ولما».

(٥) في النسخة (ق): «الأول».

(٦) في النسخة (ق): «العبادة».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) سقط من النسخة (ق).

غيرها من الأشهر، وبخاصة في رمضان بزيادة حرمة كذلك الأشهر الحرم.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦] أي: ارتقبوا النصر على عدوكم، وانتظروا الفتح من الله مع التقوى، وفي الخطاب معنى التهديد؛ أي: إنكم إن لم تلتزموا التقوى أدبيل عليكم عدوكم، ثم جعل ﷺ يسرد صفات المنافقين ولو اذهم عن الطاعة لله جل ذكره والرسول وصفاً بعد وصف، ويحذر منهم، وينهى عن توليهم، ويخبر عن بواطنهم ويصف المؤمنين بصفاتهم، ويسمهم بسماتهم، وفي أثناء ذلك يأمر رسوله بأمره ويتوعد أهل النفاق، ويزجرهم ويعرض بهم إلى آخر السورة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) ﴿إِلَّا تَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُجْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزِلْ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٤٠) ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١) ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٤٢) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٣) ﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ (٤٤) ﴿إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَقَاتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي

رَبِّهِمْ يَرْدَّدُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لِلَّهِ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ
 انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٥٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا
 خَبَالًا وَلَا أَفْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهْمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ لَقَدْ اِسْتَفْعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ
 وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٥٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَشَذَّنَ لِي وَلَا تَقْتِغِيْ أَلَا فِي
 الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ إِنْ تُصِيبَكَ
 حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَسْتَوَلُوا
 وَهُمْ قَرِحُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
 فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦١﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ إِنَّا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ
 بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ
 مُتَرَبِّصُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ
 ﴿٦٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
 الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٦٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ
 ﴿٦٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَعِنَتُهُمْ لِمَنْ كُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٦٦﴾ لَوْ
 يَخْتَارُونَ مُلْجَأًا أَوْ مَفْزَعًا أَوْ مَدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٦٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي
 الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا
 إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٦٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ
 قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ
كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ يُحَادِدِ اللَّهِ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَحْذَرُ الْمُتَنَفِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ
تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا إِنِّي أَخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾
لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعُفْ عَن طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ
كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُتَفَقِّتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ سُوا اللَّهِ فَسَيْبُهُمْ إِنَّ
الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَنَفِقِينَ وَالْمُتَفَقِّتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَآكَثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَنْتَعَمَ
بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا
أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ
يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ
مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ
وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ جِهَدًا كُفَّارًا

وَالْمُتَّقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَنْتَهِبُوا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعَذُّوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تُخْرَجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِلِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَقْصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تَعْجَبْ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَ بِهِمُ الْبَاقِيَ فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَعِذْكَ أُولُوا الطَّلُوفِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَبَاءَ الْمَعْدُودُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحَدٌ مَّا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَحْدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَسْتَأْذِنُونَ إِيَّاكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُغَرِّبُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآزِنُهُمْ فِي هَٰؤُلَاءِ مَا كَانُوا بِكَيْسَبُوتٍ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِيَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَيْسَ اللَّهُ بِأَرْضَىٰ عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَبِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَدًّا وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَّا يُتَافَرَّتْ لَهُمْ سَيِّدُ خُلُوفِهِمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيِّفُوتُ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ الْإِنْفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ أَغْرَقُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ

﴿١١٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ
الْعُسْرِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ
رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
الْوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا
كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَخْلَفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ
نَفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَفِيضُ الْكَفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ
صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا
يَقْطَعُونَ أَوْدِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ
الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفْئَةٍ فَتَلَوَّلَا تَفَرُّوا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا
قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ
الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ
مَنْ يَقُولُ أَيْقُمُوا هَٰذِهِ ءَايَاتِنَا فَإِنَّا نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْئًا لَّئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِذْعَانِهِ سَمُمَتْ أَعْيُنُهُمْ فَوَالِقَدْ أَخْرَجْنَا أَسْفَلَ بَعْضِهِم
مِنَ الْغِيظِ وَلَٰكِن تَابَ إِلَيْهِمْ فَكَفَرُوا لَكَ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ آلِ زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَوِّئُ لَكُمُ الْيُسْرَىٰ
إِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ
يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْئًا لَّئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِذْعَانِهِ سَمُمَتْ أَعْيُنُهُمْ فَوَالِقَدْ أَخْرَجْنَا أَسْفَلَ بَعْضِهِم
مِنَ الْغِيظِ وَلَٰكِن تَابَ إِلَيْهِمْ فَكَفَرُوا لَكَ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ آلِ زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَوِّئُ لَكُمُ الْيُسْرَىٰ
إِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنَ الْأَمْرِ
شَيْئًا لَّئِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِذْعَانِهِ سَمُمَتْ أَعْيُنُهُمْ فَوَالِقَدْ أَخْرَجْنَا أَسْفَلَ بَعْضِهِم
مِنَ الْغِيظِ وَلَٰكِن تَابَ إِلَيْهِمْ فَكَفَرُوا لَكَ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ آلِ زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَوِّئُ لَكُمُ الْيُسْرَىٰ
إِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ
﴿١٢٩﴾ ﴿التوبة: ٣٨ - ١٢٩﴾.

قوله جلّ من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾^(١) [التوبة: ١١١] وقوله جلّ قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢] هذه بيعة الله جلّ ذكره لكل مؤمن ومؤمنة، والجهاد جهادان:

جهاداً أكبر: وهو جهاد النفوس دون شهواتها وقمعها في ذات الله جلّ وعزّ عن هواها.

وجهاد أصغر: وهو جهاد العدو الظاهر جمع الله الجهادين في قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] فمن باع من الله جلّ ثناؤه نفسه وماله فلا رجوع له عن إمضاء [بيعه]^(٢)، وإلا كانت ردة على قدرها، والفرار من العدو الباطن [الذي يجبر]^(٣) إلى هوى النفس أشد من الفرار يوم الزحف.

ولاشتراك البيعتين أتبع ذلك قوله الحق: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ﴾ وقيل: هم الصائمون ﴿الزَّائِكُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢].

ثم أتبع ذلك التحذير من الاستغفار للمشرّكين إكمالاً للبراءة منهم، [والتخير عنهم]^(٤) إلى حزب الله جلّ ذكره، فانتظم ذلك كله بما تقدم في سورة الأنفال من ولاية وبراءة، ومن تعريض بأوصاف المنافقين إلى غير ذلك من معاني ما تقدم، ثم ذكر الثلاثة المتخلفين في غزوة تبوك وتوبته عليهم، فمن رحمته وجميل توليه ﷺ أنه استفتح قصتهم بذكر توبتهم وأعرض عن ذكر الذي كان منهم من تردد وتلدن أنه

(١) نزلت في البيعة الثانية، وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة، فقالوا: اشترط لك ولربك. والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة، فاشترط ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربه التزام الشريعة وقاتل الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم ربح البيع، لا تقبل ولا نقابل. وفي بعض الروايات: ولا نستقبل، فنزلت. تفسير البحر المحيط (٢٣١/٦).

(٢) في النسخة (ق): «بيعته».

(٣) في النسخة (ق): «تحيزاً».

(٤) في النسخة (ق): «والتحيز».

بهم رءوف رحيم.

ثم أكثر التوصية للمؤمنين بلزوم الصدق فعلاً وقولاً وعقداً، ثم رغب في الجهاد أحسن ترغيب ووعظ فيه، ورفع ثواب العمل فيه إلى أرفع غاياته، ووصى جدّاً بالإغلاظ على الكافرين، وأخذ الأهبة لقتالهم وإعطاء الجهد في جهادهم، ثم أرجع الخطاب إلى ذم المتأففين بوصف إظلام قلوبهم وخرج صدورهم، فقال جل قوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَيْكُم زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] أي: بفضل الله ونعمته عليهم [مزيدة]^(١) إياهم من فضله، وما يجدونه من حلاوة الإيمان في قلوبهم.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٢) [التوبة: ١٢٥] ثم عدد على المؤمنين [نعمه]^(٣) برسوله وبأنه منهم رءوفاً بهم عطوفاً عليهم حريصاً على هدايتهم.

ثم واجه بخطابه رسوله ﷺ بقوله جل قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ [أي: عن الاستجابة لك]^(٤) ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩] ما دله عليها وجعلها له عودة إلا لأنها [آمنة]^(٥) من المحذور، وقد قيل: إنما آمنة من الغرق، وهي إن شاء الله عامة [البركة]^(٦) كما جاءت.

[جاء عن رسول الله ﷺ أنه حذر يوماً بعض أصحابه فتناً تكون في آخر الزمان، وبالغ في ذلك فقالوا: يا رسول الله، فماذا تأمرنا به إن أدركنا ذلك؟ فقال: «قولوا:

(١) في النسخة (ق): «بمزيده».

(٢) قالت المعتزلة: لا يجوز أن تكون زيادة المرض من جنس المزيدي عليه؛ إذ المزيدي عليه هو الكفر، فتأولوا ذلك على أن يحمل المرض على الغم؛ لأنهم كانوا يگتمون بعلو أمر رسول الله ﷺ، أو على منع زيادة الألفاف، أو على ألم القلب، أو على فتور النية في المحاربة؛ لأنهم كانت أولاً قلوبهم قوية على ذلك، أو على أن كفرهم كان يزداد بسبب ازدياد التكليف من الله تعالى. تفسير البحر المحيط (٦٠/١).

(٣) في النسخة (ق): «نعمته».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «مصاحفنا».

(٦) في النسخة (ق): «البركات».

حسبنا الله ونعم الوكيل عليه توكلنا»^(١) وكانت هذه الآية مصداقاً لما قاله ﷺ^(٢)
 ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١١٧١٤)، وعبد بن حميد (٨٨٦)، وأبو يعلى (١٠٨٤) والترمذي (٢٤٣١) وابن حبان (٨٢٣)، والحاكم (٨٦٧٨)، والحميدي (٧٥٤) وأبو نعيم (١٠٥/٥) وقال: غريب.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّءْيَا أَتَيْتُ الْكَتَبَ الْحَكِيمَ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْتَ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا السَّحَرُ ۚ مِيقًا ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكُوتَ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

(١) هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات، فإنها نزلت بالمدينة، وهي ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ إلى آخرهن، قاله ابن عباس، وقال الكلبي: إلا قوله ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به فإنها نزلت في اليهود بالمدينة، وقال قوم: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة، ونزل باقيها بالمدينة، وقال الحسن وعطاء وجابر: هي مكية وسبب نزولها: أن أهل مكة قالوا: لم يجد الله رسولا إلا يتيم أبي طالب فنزلت، وقال ابن جريج: عجبت قريش أن يبعث رجل منهم فنزلت، وقيل: لما حدثهم عن البعث والمعاد والنشور تعجبوا، ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما أنزل ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وهو محمد ﷺ أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل، والنبى الذي أرسل، وأن يدن الضالين وأحد متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولما كان ذكر القرآن مقدما على ذكر الرسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول، وتقدم ما قاله المفسرون في أوائل هذه السورة المفتحة بحروف المعجم، وذكروا هنا أقوالا عن المفسرين منها: أنا الله أرى، ومنها أنا الله الرحمن، ومنها أنه يتركب منها ومن حم ومن نون الرحمن، فالراء بعض حروف الرحمن مفرقة، ومنها أنا الرب وغير ذلك، والظاهر أن تلك باقية على موضوعها من استعمالها البعد المشار إليه، فقال مجاهد وقادة: أشار بتلك إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزيور، فيكون الآيات القصص التي وصفت في تلك الكتب، وقال الزجاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها، وقيل: إشارة إلى الكتاب المحكم الذي هو محزون مكتوب عند الله، ومنه نسخ كل كتاب، وقيل: إشارة إلى الرأ وأخواتها من حروف المعجم، أي: تلك الحروف المفتحة بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١﴾ [يونس: ١ - ٤].

قوله ﷻ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١] [أعلم الله جل ذكره أن ﴿الر﴾ من آيات الكتاب الحكيم]^(١) يريد وهو أعلم: اللوح المحفوظ كما قال جل قوله: ﴿حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الزخرف: ١ - ٢] إلى قوله جل قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقد تقدم من هذا في صدر الكتاب مردداً ما يغني عن إعادته إلى أن يفتح الله رحمته.

وروى معقل بن يسار المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ سُورَةُ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ الْأَوَّلِ، وَأُعْطِيَتْ طُهُ وَالطَّوَّاسِينِ مِنَ الْأَوَّاحِ مُوسَى، وَأُعْطِيَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، وَأُعْطِيَتْ الْمَفْصَلُ نَافِلَةً»^(٢) وهذا موافق لما قدمناه والحمد لله رب العالمين في قوله جل ذكره: ﴿الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ١ - ٢] إن ذلك إشارة إلى اللوح المحفوظ، وإن «الْم» واسطة بين حروفه وبين حروف هذا الكتاب.

وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ مَكَانَ التَّوْرَةِ السَّبْعُ الطُّوَلِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمِثْنِ، وَأُعْطِيَتْ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمِثْنَانِ»^(٣) وأُعْطِيَتْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ لَمْ يُعْطِهَا نَبِي قَبْلِي، وَأُعْطَانِي رَبِّي الْمَفْصَلُ نَافِلَةً»^(٤).

وفي أخرى: «وَفُضِّلَتْ بِالْمَفْصَلِ»^(٥).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه ابن السني مختصراً (٦٨٩)، والحاكم (٢٠٨٧) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٧٨)، والطبراني (٥٢٥).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه البغوي في تفسيره (٤١/١).

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (١٧٠٢٣) والطبراني (١٨٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤١٥) والطيايسي (١٠١٢) وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٦٤٨٥).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَلَا يَقْرَأَنَّ فِي دَارِ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبَهَا شَيْطَانٌ»^(١).

قوله ﷺ: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا...» [يونس: ٢] العجب يكون على أوجه: منها: [الإيعاد]^(٢) لوجود الشيء والإنكار لكونه، من ذلك قوله جل قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٢ - ٣].

وقوله جل قوله حكاية عن رسوله نوح عليه السلام: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].
وقد يأتي لإعظام كون الشيء كيف كان هذا مع وجود أضداده، كقول الكفار: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وذلك لجهلهم بالحقيقة.
وكقول الله جل ثناؤه: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢] أي: إنك لتعجب منهم كيف يبعدون ما جئتهم به مع وجوبه؟ كيف يكذبونه مع تحققه؟ وهم يسخرون بك أن جئتهم بما لا تبلغه عقولهم، فيتخرج ذلك عجب حق كيف أنكروا ما هو في [فطهرهم]^(٣)، كيف كذبوا بما هم يصدقونه بألسنتهم وأحوال اضطرارهم، وقد قرئ: «بل عجبت ويسخرون» وذلك يكون موجودًا - أعني: معنى التعجب - في قوله جل قوله: ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧].

فمعنى التعجب هو في قوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: من أين يصرفون؟ كيف

(١) أخرجه أحمد (١٨٤٣٨)، والدارمي (٣٣٨٧)، والترمذي (٢٨٨٢) وقال: حسن غريب.
والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٠٣) وابن حبان (٧٨٢) مختصرًا، والحاكم (٣٠٣١) وقال:
صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٤٠٠)، والطبراني في «الأوسط»
(١٩٨٨)، والبزار (٣٢٩٦).

(٢) في النسخة (ق): «الإيعاد».

(٣) في النسخة (ق): «نظرهم».

يغلبون عن حقائق الحق وهم يعلمون لكنهم لا يعقلون؟ [فيكون التعجب على هذا من قدرة الله كيف استاقهم إلى هلاكهم بإرادتهم، وكيف استعملهم بهم فيما يضرهم ويوبقهم]^(١) كما قال جل قوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقد يأتي التعجب بمعنى الحب للشيء، ولطف موقعه من نفس المعجب به؛ [أعجبني كلامك وأعجبني ما جئت به ومن هذا النوع من التعجب يكون معنى قول رسول الله ﷺ: «إن الله ليعجب للشاب الثائب ليست له صبوة»]^(٢) مع معنى ما تقدم في قوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢].

ثم قال ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] هذا خطاب معبر عن الرحب وحسن المآب، ومعنى «قدم صدق»: التقدم يقال: «لفلان قدم في الصالحات» فالقدم [مقول]^(٣) أبداً في التقدم في الأمور، [كاليد]^(٤) مقولة في النعمة، فمعنى سياق الكلام إن شاء الله وهو أعلم ﴿أَكَاَنَّ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [أي]^(٥): قد تقدم لهم بقوله: «هؤلاء [يعمل]^(٦) أهل الجنة يعملون»^(٧) وأنذر الكافرين بأنهم قد تقدم لهم بضد ذلك حتى بلغ من إنكارهم وإبعادهم هذا الأمر أن قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢] ويقرأ: «إن هذا لسحر مبين» هذا من فضل النبوة والرسالة.

ثم يسرد عليه من فضل الألوهية والربوبية بمعنى الوجدانية، والإعلام بالإعادة بعد البداية، والعمل في الحكم عاجلاً وآجلاً بين الفريقين في الدارين، والتنبيه على

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أخرجه أحمد (١٧٤٠٩) والطبراني (٨٥٣) وأبو يعلى (١٧٤٩) وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٧١).

(٣) في النسخة (ق): «مقول».

(٤) في النسخة (ق): «كما اليد».

(٥) في النسخة (ق): «أن».

(٦) في النسخة (ق): «للجنة ويعمل».

(٧) تقدم تخريجه.

العبرة من موجودات الدنيا إلى موجودات الآخرة، [وسبيل]^(١) حكمته في ذلك بقوله جل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [يونس: ٣] إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤] لما كان اسمه ﷻ هو المفطور على معرفته من كل شيء، [ولزوم الوله النفوس به]^(٢) والألسنة اللهج بذكره؛ ذلك لأنه الأول والآخِر والظاهر والباطن بحقيقة هذه الأركان، وهو الذي لا أحق منه حقيقة، ولا أكرم وجودًا حضورًا وشهادة وقرَّبًا.

وعلى مقدار وجود المعارف يكون وجود أضدادها، أوجد ﷻ لهذا التيقظ من المخلوق لكريم هذا الظهور نومة عنه، وغفلة عن تذكره، وغيبة عن مشاهدته، ثم أنشأ ذلك في حق البعض حتى غلظ الحجاب وأعضل الداء، ولأنهم جبلوا على الفقر وخلقوا [يفرق]^(٣) طلبوا منافعهم التي دفعتهم [لها]^(٤) ضرورة الفاقة، ولاختلافهم في أولية الاصطفاء ومقتضى المشيئة فيهم اختلفوا في تطالبهم ذلك، وعند من يطلبونها، وكيف [يمثلون ذلك، ويطلبهم]^(٥) إياها نسبوها إلى من ليس بولي لها، [وسألوها]^(٦) من لا يملكها، واستنصروا واستدفعوا مضارهم بمن ليس إليه دفعها [فتعبدوا]^(٧) للأسباب وأسباب الأسباب عندما رأوا أن الله جل ذكره قد جعلها [ظرفًا]^(٨) لمقاديره وخزائن لأنعمه، وطلبوا الشفاء لحوائجهم، وتوسلوا إلى موجدها جل وتعالى بمن لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا.

ثم قصرت عقولهم عليها فدانوا لها وأشركوا بها [لما]^(٩) لم يرتقوا في

(١) في النسخة (ق): «ومثل في».

(٢) في النسخة (ق): «ولزم النفوس الوله به».

(٣) في النسخة (ق): «للرق».

(٤) في النسخة (ق): «إليها».

(٥) في النسخة (ق): «يسلون ذلك ويطلبهم».

(٦) في النسخة (ق): «وسلوها».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «طرقًا».

(٩) سقط من النسخة (ق).

الأسباب إلى [منشئها]^(١) ولا عَبَرُوا من الموجودات إلى موجدتها، فأعلاهم عند أنفسهم مرتبة أضلهم [سيلاً]^(٢) عن هدايته، وأعدمهم فيما [جادلوا]^(٣) دليلاً على مطلوبه، فعبدوا الشمس والقمر والنجوم والنار والملائكة والجن والأكابر منهم، ومنهم من يشفع إلى بعض هؤلاء المذكورين بالشجر والحجارة والخشب المنحوتة إلى غير ذلك من ضلالهم، نعوذ بالله من الضلال عن الهدى.

ألا تسمع إلى قول قائد المعتبرين وإمام المتقين، خليل الرحمن - صلوات الله وسلامه عليه - كيف قررهم على ضلالهم فطفق [يتقيد]^(٤) على [وضعهم للأصغر ثم للأكبر منه، ثم للأكبر منهما]^(٥) في كل ذلك يريهم استحالة ما ظنوه عندها، ولما فرغ من ذلك قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وإنما جعل الله ﷻ هذه [الفرطة]^(٦) في النفوس لترجع إليها عند جورها عن [سواء]^(٧) قصدها وبثها في السماوات والأرض، وأوجدتها في جميع الموجودات؛ لتأتم العقول بها في مهامة التوهم، وتستنير بنورها في الظلمات، وتقنّدي بمعارفها في [مضائق]^(٨) المشكلات حال تطوافها في أسفار أفكارها، وترجع إلى حقيقتها [إلى]^(٩) مجاهل جهالاتها، والله عليم حكيم.

والرب جل ذكره هو المنعم، يرب نعمه على المنعم عليهم، وهو المالك بوجه أيضاً، فقال الله جل ذكره لهؤلاء ينبههم من نومتهم، ويرشدهم إلى الحق عن ضلالهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

(١) في النسخة (ق): «مسيبها».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «حاوله».

(٤) في النسخة (ق): «يتعبد».

(٥) في النسخة (ق): «وضعهم الأصغر ثم للأكبر منهما».

(٦) في النسخة (ق): «الفطرة».

(٧) في النسخة (ق): «سوء».

(٨) في النسخة (ق): «أضيق».

(٩) في النسخة (ق): «في».

الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴿يُونُس: ٣﴾ [وقوله^(١)]: ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو خالقهن وموجدهن وممسكهن، وبه قيامهن، وهو المدبر للأمر كله فيهن وفي سواهن ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

وهو رب كل شيء [وهو^(٢) المالك لكل موجود ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومن ذا الذي يملك دونه دفعا أو نفعا أو موتا أو حياة أو نشورا، يعلمهم جل وعز بما علمه في [فطرتهم]^(٣)؛ ليرجعوا عن ضلالتهم إلى هدايتهم الأولى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٥] فأمرهم جل وتعالى أن يتذكروا ما نسوه مما استقر علمه في جدر قلوبهم.

ثم قال جل قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّنْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦ - ٨٧].

ثم قال عز من قائل: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨ - ٨٩] [يقول^(٤)] كيف تذهلون عن هذه الحقائق وتؤفكون عن حاصل هذا العلم؟

ثم قال عز من قائل: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] أي: إلى ما هو مستقر علمه في بواطنكم مركب عنه ظواهركم.

ثم قال جل قوله متوعدا لمن كفر به، ومبشرا لمن أطاعه ومعلما لهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لفصل القضاء وعدل الحكم ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤].

لما آمن المؤمنون بالدار الآخرة، وعبروا من موجودات هذه الدار إلى موجودات تلك، فعبروا من كواكبها إلى مكوكبها، ومن نور هذه إلى منورها، ومن

(١) في النسخة (ق): «افمن له».

(٢) في النسخة (ق): «افي».

(٣) في النسخة (ق): «فطرتهم».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

حق ما [ها] ^(١) هنا إلى ما تحقق ذلك في موجودات ما هناك عن الحق المبين بخلع الأواسط وطرح الأسباب كان إدخاله إياهم الجنة وإعطاؤه إياهم جميع ما هنالك [على قسط] ^(٢) وجزاء وفاقاً ولما أن كان الكافرون به عندوا عن هذا الحق، ونكصوا عن الإقرار به أبعدهم عن جواره] ^(٣) [لقولهم: فأدخلهم] ^(٤) جهنم التي كانوا [يعدون في نفسيها ويرجون] ^(٥) وهم مع ذلك بوجودها لا يؤمنون، ويتقلبون في فيحها ويرددون، وهم بحقيقتها لا يشعرون، بل هم إذا أخبروا عنها هم بها [كافرون] ^(٦)؛ لذلك قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ^(٧) [يونس: ٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْتَفْقُونَ ^(٦) إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا بَيْنَنَا وَعَفِلُونَ ^(٧) أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ^(٨) [يونس: ٥ - ٨].

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «عطاءً قسطاً».

(٣) ما بين [] به تقديم وتأخير بين النسخ.

(٤) في النسخة (ق): «وأدخلهم».

(٥) في النسخة (ق): «يغدون في نفسيها ويرجون».

(٦) في النسخة (ق): «يكفرون».

(٧) معناه: ويجزي الذين كفروا بشراب من ماء جار وقد انتهى حره، وعذاب أليم بسبب كفرهم. فيظهر التقابل بين سببي جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين مع أنه لا وجه لتخصيص العدل بجزاء المؤمنين، بل جزاء الآخرين أولى به كما لا يخفى، وتكرير الإسناد بجعل الجملة الطرفية خبراً للموصول؛ لتقوية الحكم، والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع؛ للدلالة على مواظبتهم على الكفر، وتغيير النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقاب بجعله حقاً مقرراً لهم، والإيذان بأن التعذيب بمعزل عن الانتظام في سلك العلة الغائية لإعادة بناء على تعلق؛ ليجزي بها أولها وإنما المنتظم في ذلك السلك هو الإثابة فهي المقصود بالذات. والعقاب واقع بالعرض. [الألوسي (٣٠/٧)].

قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ إلى قوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥] أضاف جل وتعالى الضياء للشمس والنور للقمر، والضياء هنا هت نحر والييس كما النور للرطوبة والبرد، أقام الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بهذين النوعين من أمره [دار] ^(١) الدنيا، فالقمر يبرد ويرطب بإذن الله ما تيسره الشمس [ويحمي فحرها] ^(٢) وقد جعل الله ﷻ وله الحمد في فصل الشتاء للشمس دولاً يصلح الله ﷻ بها زيادة الماء والبرد، وقال جل قوله في القمر: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وقال جل قوله في هذه: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ ثم قال عز من قائل: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] يقول جل من قائل: دلالات وآيات على وجود ما هنالك، وليتم بذلك أمره لا ليعبد شيء من ذلك.

فصل

الحق اسم واقع على معارف كثيرة، فالحق هو الله جل ذكره، وهو الحق المبين؛ أي: المبين لهذا الحق [المبثوث] ^(٣) فيما خلقه، فالحق أسماؤه والحق صفاته، والحق أمره ونهيه، [ويعمل] ^(٤) بمقتضى ذلك، والحق حكمه وعدله [وفضله] ^(٥) والحق الموت وما بعده، والحق البعث بعد الموت، والحق الحشر [والنشر والحق بقاء] ^(٦) الله، والحق الحساب، والصراط والميزان والحوض والشفاعة.

وبالجملة: فالحق خلقه، والحق أمره وفعله وقدره إلى آخر الشهادات، وإحاطة هذه المذكورات من أوصاف الحق، [ولما] ^(٧) لم نذكره منها كالوجود كله علواً

(١) في النسخة (ق): «في».

(٢) في النسخة (ق): «ويحمي بحرهما».

(٣) في النسخة (ق): «المبثوث».

(٤) في النسخة (ق): «والعمل».

(٥) في النسخة (ق): «وفضله».

(٦) في النسخة (ق): «والنشر والحق لقاء».

(٧) في النسخة (ق): «وما».

وسفلاً كإحاطة الحياة بالحي وأسلكه بأنواعه ومختلف معانيه كلها في الموجودات كسلوك الأرواح في الأجسام، وقسمه في مسالك وجودها تقسيم الأغذية في [المتغذيات]^(١) بل هو أكرم مسلماً وأعم وجوداً، وتمثل في اعتبارك بذرة من البذور أي بذرة كانت، وخص منها بذرة الخردلة مثلاً أنبتها الله تعالى على صغرها ودقتها، وقد وقفت بمشاهده على حرارتها ولونها وشكلها وصورتها [وطعمها]^(٢) ورائحتها ومعانيها كلها [أو جلها]^(٣) وجميع أوصافها التي استوجبت لأجلها وقوع اسم الخردلة عليها، [فينسيها]^(٤) الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه حتى يبلغها [إلى]^(٥) أن تكون شجرة قائمة لها عروق، وللعروق عروق إلى أقصى ذلك، ولها أصل يجتمع إليها ما يصعد من أسفلها، وينقسم منها إلى أعلاها، ولذلك الأصل فروع، [وللفروع فروع]^(٦) وللفروع أفنان، وللأفنان أفنان وورق وزهر بما يتبع ذلك كله.

أليس من الحق المقطوع بوجوده أن الله جل ذكره قد أسلك في تلك الشجرة طعم تلك البذرة ويسها وحرارتها ونفعها وضرها وجميع معانيها التي أوجدها له ظاهراً، وقسمه باطناً أبطنه فيها ليظهره، فكذلك هذا الحق الذي نحن بسبيل تبيانه.

وكذلك [يحق]^(٧) على العقل أن يقطع، والإيمان أن يصدق بما [أراه]^(٨) الله جل ذكره حال نظره إلى البذرة يقضي أن تلك الشجرة بعروقها وعروق عروقها إلى أقصاها، وما أعلى منها بأفنانها وأفنان أفنانها إلى أعلاها، وزهرها [بانقسام ما حصل]^(٩) في البذرة من كل معنى [بقوله: أفيعلم]^(١٠) بذلك أن الشجرة متوهمة في

(١) في النسخة (ق): «المتغذيات».

(٢) في النسخة (ق): «وطعمها».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فينشئها».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «فحق».

(٨) في النسخة (ق): «أراد».

(٩) في النسخة (ق): «بأقسام ما انحصر».

(١٠) في النسخة (ق): «هو لها فيعلم».

تلك البذرة، وعلى هذا [تعلم أن]^(١) الآخرة من الدنيا، ثم يرجع بصره عودًا بعد بدء، فيعلم [ما في]^(٢) الدنيا من الآخرة، ثم يرجع البصر كرة ثانية [فيعرف]^(٣) بكل وجود هو في الدنيا موجودات الآخرة، فإن الدنيا هي [مفصلة]^(٤) من الآخرة، وهذه هي [المشاهدة لها]^(٥).

وعلى هذا فالشجرة بما حوته في هذا المثل هي الدار الوسطى، [وإن]^(٦) الدنيا هي البذرة بما [انحسر]^(٧) فيها وما انقسمت إليه، وأول ما خلق الله جل وعز الدنيا لم يسبق البذور، وإنما خلق الشجر والنبات، ثم عن ذلك أوجد البذر عن الشجر، كذلك الدنيا منتزعة عن الآخرة، [فالدنيا بما هي الشجرة وكل حي فيها بمنزلة البذور، فإذا ماتوا صاروا بمنزلة الشجر الذي يكون عنها البذر، ثم إذا بعثوا بمنزلة البذرة.

يقول الله جل من قائل: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦١] وليس القول بأن يكون الميت في الدار الوسطى شجرة، إنما هو مثل مضروب على منزلة الشجرة من الحبة، ومنزلة الحبة من الشجرة، فافهم]^(٨).

ثم تعلم بذلك أن معاني أسماء الموجد جل ذكره ونعوت صفاته العلا وموجودات الدنيا والآخرة [وآياتهما]^(٩) فيهما جارية في المخلوقات كجريان الماء بما احتمله من أوصاف تلك البذرة [باطنًا]^(١٠) في إنشاء تلك الشجرة؛ إذ بذلك الماء

(١) في النسخة (ق): «يُعلم».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «فيُعرف».

(٤) في النسخة (ق): «المفصلة».

(٥) في النسخة (ق): «المشاهد لنا».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «انحسر».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «وآياته».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

أنشأها منشئها جل وعز، وبه غذاها، وبه أكملها، وهو الأول فيها والآخر والظاهر والباطن.

ثم توهم كما أنت في حال اعتبارك هذا إن معاني الأسماء والصفات العلا من مقتضياتها [هي]^(١) التي قامت بجملة العالم علوه وسفله ظاهره وباطنه مقام البذرة، فإن الشجرة هي جملة العالم كله قد أجرى الله ﷻ فيها الحق جريان الماء في الشجر، ثم اعلم أنه قد بقي عليك أن تفصل بوهمك موجودات الآخرة وتمييزها من موجودات الدنيا، وتتعرف تلك [بما ها هنا]^(٢) معلوماً فيما هنالك بمعلوم [ما ها هنا]، فإن الله جل ثناؤه قبض هذه عن تلك، وبسط تلك عن أوصاف هذه، لكن بعد أن ميز خيرها من شرها، ولذيذها من [مكروهاها]^(٣) وطيبها من خبيثها، فجعل هذا في دار النعيم، [وجعل هذا]^(٤) في دار الجحيم، نسأل الله الرحيم رحمته، ونعوذ به من عذابه وغضبه. [وعلى معتقد المزيد فيما هنالك الذي عبر عنه قوله الحق ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]]^(٥).

يقول الله - عز من قائل - وقد وصف الماء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠] هذا في النبات وما تحته من عالم الجماد، [وفي]^(٦) الحيوان أظهر، ثم في الإنسان أوضح وأشرح، وفيه بدا ما هو [آية على]^(٧) المعنى بقوله الحق: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأُمُورَ﴾ [يونس: ٣] إلى قوله جل قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] المعنى [إلى آخره]^(٨) فافهم وتفطن فإنه الحق، فهما الله وإياك عنه.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مما هنا».

(٣) في النسخة (ق): «كريها».

(٤) في النسخة (ق): «وهذا».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وهو في».

(٧) سقط من النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «حيث وقع».

واسمه الله - ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه - بما هو الله حضر فشهد ما غاب، ولا يغيب عنه غائب حضر ما نأى وما دنا وقرب، فسمع السر وأخفى، فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أكبر من ذلك ولا أدنى، جميع الأسماء له شارحة، ولمعانيه مفسرة ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] هو أول ما أظهر من أسمائه، ففطر على معرفته جميع مخلوقاته، وأجرى مقتضياته في جميع ما فطر جريان الماء في العود الناضر، [وأحله]^(١) في جميع ما أوجده سلوك الأرواح في الأجسام، وأحله في كل ما أوجده حلول الحياة في الأحياء، فهو الذي لا [يمشي]^(٢) ولا يرى، وكل شيء منه ملأ [يتضمن]^(٣) جميع العالم، وانحصرت إليه جميع غرائبه؛ إذ جميع الأسماء يجمعها اسم الألوهية، وجميع الأسماء تجمعت في الصفات، والصفات يجمعها اسم الألوهية، وتضمن ذلك كله تعريفاً هذا الاسم العظيم الذي لم يسعه أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش، ووسعته بالمشيئة، ولزمت الأسماء مراتبها، وسلكت في جميع العالم مسالكها.

واعلم أن اسم الألوهية غير متكرر ولا منقسم، فهو الله، وهو الرحمن، وهو الرحيم، هكذا إلى جميع ما تسمى به هو هو هو، فكثرت الأسماء للإفهام والمسمى [بهذا]^(٤) واحد، والمطلوب معرفته بها وبسواها واحد أحد صمد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] هو حامل الكل تديراً وقياماً عليه، ومنه الكل خلقاً وأمرًا، وإليه يرجع الكل بكل وجه وبكل معنى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] شاهد ما ذكرناه في الآيات في آخر سورة الحشر، وتردد في القرآن العزيز فقرب على متأمليه، وتيسر وجوده على طالبيه.

يقول الله جل قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدْكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].
 ألا تسمعه يقول جل من قائل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ

(١) في النسخة (ق): «وأسلكه».

(٢) في النسخة (ق): «يُحس».

(٣) في النسخة (ق): «تضمن».

(٤) في النسخة (ق): «بها».

العرش ﴿[الحديد: ٣ - ٤] إلى آخر الآيات.

هذا [وإليك]^(١) النص المرفوع في البيان إلى [رفع]^(٢) غاياته، فتسمّع وتقرّب وتفرّغ كي تُنادى من [كل]^(٣) قريب.

ولما استوى على العرش المحيط حييت الجملة به؛ لأنه الحي القيوم، وأشاع في الجملة روح الأمر، وقد تقدم إلى هذا إلماع يشير بذوي الأبواب والنُهي إلى المطلوب [العلي]^(٤) الأعلى.

روى ابن عباس عن عثمان بن عفان - رضي الله عنهما - أنه سأل رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١] فقال: هو اسم من أسماء الله، وما بينه وبين اسم الله الأكبر - أو قال: الاسم الأكبر - إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب، وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] شفاء لمن استشفى؛ إذ قد حصر الحمد كله لله، وقد تقدم وصفه، والذي هو رب العالمين كأن قائلًا قال: من الله الذي له الحمد كله؟ قال: هو رب العالمين، ثم [إنه]^(٥) قال: ومن رب العالمين؟ قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] ثم كأن قائلًا قال: من الرحمن الرحيم؟ قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] له الجزاء في الدنيا والآخرة، وله تعبد الكل وقت كل شيء.

وفي شرح قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٣] علم عظيم لمن بحث ونظر وردد التذكار [والتفكير فسيفتح]^(٦) عليه في معرفة الجزئيات وانقسام الكليات، وقيام الحي القيوم بالمخلوقات، ولا يبلغ إلى ذلك إلا من نبذ الشواغل ورفض الشهوات وتفرغ وأطاع الله جل ذكره واتقاه.

(١) في النسخة (ق): «وإليك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «مكان».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «كأنه».

(٦) في النسخة (ق): «والتفكير فيستفتح».

فصل

قد تقدم ذكر جملة من رفيع العلم، وإشارة إلى استئنان [سبيل]^(١) الاعتبار وأن بالوقوف على معرفة الأسماء، والبحث عن سلوكها مسالكها من العالم يوقف على تفصيل [جملة]^(٢) ما أنبأنا به في كتابه العزيز، وإن ذلك لا يطمع فيه إلا بلزوم التقوى، وتقديم صحيح الإيمان، وإطراح الحول والقوة، ونبذ الحرص على حسن الثناء، بل ملازمة الخمول والتواضع والإزراء على النفس؛ [إذ هو]^(٣) نوع من العلم لا [تسومه]^(٤) النفوس من ذاتها، ولا تشعر به ولا تعرفه إلا بهداية وتوفيق وإشعار وإلهام إلى ما هو الصواب، فأنى للنفس مطمع في منال منزلة بذلك وحرص في مدح من أجله ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ [آل عمران: ١٨٨] ثم ما بعد هذا بالمجاورة.

فصل

ربما رُمنا شيئاً من تعرف التفصيل تدريباً للنفس واستصحاباً للتذكر واستدامة للتفكير، وإنما حملنا على إثباته في كتاب وزيمه [هي]^(٥) في زمام توقعاً لحال [الكرم]^(٦) فعلى قربها [منا]^(٧) التي هي أم النسيان، ومعالجة الإشغال الذي هو معدن تعطيل العقل وعذاب الروح، واغتناماً لصحة الجسم قبل سقمه؛ إذ بذلك يسقم الذهن وتضعف صفات الباطن.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ

(١) في النسخة (ق): «سبل».

(٢) في النسخة (ق): «جمل».

(٣) في النسخة (ق): «وهو».

(٤) في النسخة (ق): «تسامه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «الكبرة».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴿يُونِس: ٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] المعنى إلى آخره هنا وفي سائر القرآن كقوله جل قوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢] وقوله جل قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] ما حكاه عن خليله ﷺ قائد المعبرين وإمام المتقين، فإنه تبرأ من الكوكب والقمر والشمس لأجل الأفول، وإنه توجه بوجهه ظاهرًا وباطنًا لمن لا أفول له ولا فقد يعرفوه.

وقال الله ﷻ ووصف الجنة وأهلها: ﴿لَا يَزُولُ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣].

وقال جل قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ - ٢].
وقال جل قوله: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْزُ﴾ [القيامة: ٨-١٠].

[ويقول الله جل من قائل^(١): «لتتبع كل أمة ما كانت تعبد» قال: «فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر»^(٢).

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقال ﷻ: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار»^(٣) [وصلوات الله وسلامه عليه لما عندنا]^(٤) الليل والنهار آية عليه. انتهى.

وقال الله جل من قائل ووصف الجنة وأهلها: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ [مريم: ٦٢].

وذكر رسول الله ﷺ أن فيها أيامًا، وأن يوم الجمعة الزيارة.

قال جبريل ﷺ: «ونحن ندعوه يوم القيامة يوم المزيدي» وساق الحديث.

وقال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون» وفيه: «فهذا يومهم الذي

(١) في النسخة (ق): «وقال رسول الله ﷺ».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بنحوه البزار (٢٨٨١).

(٤) في النسخة (ق): «إنما عنده ما».

أضلوه هداانا الله إليه، فاليهود والنصارى لنا فيه تبع، اليهود غداً والنصارى بعد غد»^(١) فأخبر بصدق قوله أن للمهتدين من اليهود والنصارى يومين يختصون بهما. [قوله]^(٢): نختص نحن بيوم الجمعة، وإن ذينك اليومين السبت والأحد، ولا يبعد [أن تأتي]^(٣) أيام الجمعة لغير أهل الكتاب من مهتدي الأمم. قال الله عز من قائل: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ١٨١] وقد تقدم الكلام في ذلك.

قال الله عز من قائل: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فخلق الله هذه الدار [الدنيا سماواتها وأراضيها]^(٤) وما فيهن وما بينهن بالحق، وقد تقدم الكلام في [شرح قوله]^(٥) الحق المخلوق به السماوات والأرض [وأنه به كلم عقول عباده وبه ظهر للبصائر وبه استشهد وإلى تعرفه دعا عباده بالنظر في آيات السماوات والأرض]^(٦) من أجله خلق التذكر والتفكير والتدبر، وأوجب النظر والاعتبار، وهو باطن الحق المخلوق به موجودات الدار الآخرة، وظاهره هو الذي في الآخرة بالإضافة إلى أهل الآخرة، وهذا الحق قد حجبه بالوسائط والأسباب، وظواهر المخلوقات حجب الصنعة في المصنوع، وإخفاء القدرة في المقدور، وذلك لعله الابتلاء بالإيمان بالغيب، فأما في الجنة فهو الحق المبين لا أقول ولا فقد يروونه كما يرون الشمس صحواً لا سحاب دونها، وكما يرون القمر ليلة البدر.

وقد أظهر من هذا الحق المخلوق به العالم أمره في الشمس والقمر والنجوم كما أبطنه في تسبيح الخلائق إياه وتعبدها له وقنوتها وخشوعها وخشيته وبكائها،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) في النسخة (ق): «كما».

(٣) في النسخة (ق): «أيضاً أن في باقي».

(٤) في النسخة (ق): «سماواتها وأرضوها».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

ومعرفتها له بشهاداتها، وذكرها إلى غير ذلك مما [قد]^(١) تقدم صدر من ذكره في مواضع دفعت الحاجة إلى التعريف به، ثم ما أبطنه [من]^(٢) فيح جهنم - أعادنا الله الرحيم برحمته منها - وفتحه برحمته في الماء والرياح المبشرات الملقحات إلى غير ذلك، وإن كان قد ظهر فيما هذا سبيله للعيان.

وإنما [خذلت]^(٣) العقول من معرفة ما ها هنا [لفعله]^(٤) فاستولت من أجل ذلك عليها البلدة حتى أعمت الأبصار وأغشت البصائر وأصمّت الأسماع، وذهبت بالحياة وجلبت الموت بوصف الأكثرين من أجل ذلك [كما]^(٥) قال عز قوله: ﴿كُفَّ عَنْكُمْ غَمِّي فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١].

فصل

جعل الله جل ذكره ملكوت هذه الدار في تعاقب نفسي جهنم، وفتح رحمته بالماء إلى غير ذلك من رياح وسحاب وهواء وتراب [وثرأء]^(٦) وشمس وقمر ونجوم، فكل الملائكة - عليهم السلام - يعملون في ذلك بأمره وإذنه وعونه، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، فجميع ثمار الدنيا وزروعها ونباتها وحيوانها ومنافعها ومضارها [وسقائها وريها]^(٧) وسقمها وصحتها وجميع شؤونها من جهة الأمر فيما جعله في هذا الحق المبثوث مما أظهر منه كالشمس والقمر والنجوم وما تقدم ذكره وما أبطن منه، فإذا أذن بالحق بالانقراض لهذه والإزالة لتلك جلا الحق الظاهر فيما هنالك.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «في».

(٣) في النسخة (ق): «عدلت».

(٤) في النسخة (ق): «بالغفلة».

(٥) في النسخة (ق): «بما».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «وسقائها وبلاتها».

[وكذلك]^(١) هو الحق المبين؛ أي: المبين بهذا الحق الظاهر والباطن، وكان ملكوت ما هنالك عن [ذا]^(٢) الحق القريب المشهود المتجلي، وقد كان قبل هذه الدار محجوبًا بالوسائط والأسباب والغفلة والصرف عنه؛ [ليتم]^(٣) كلمته في قوله جل قوله: «وهؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»^(٤).
وقد كان أهل هذه الدار في غربة وغيبة وحجب، ومن هذه [المقال]^(٥) قال القائل:

أنا في الغربة أبكي ما بكت عين غريب
لم أكن يوم خروجي من بلادي بمصيب
عجبًا لسي ولتركي وطنًا فيه حيي

وهذه الدار مطبوعة مجبولة عن [عز رحمته]^(٦) ممتزج بجزء عذاب، غير أنه كان قد سبق رحمته في هذه، لكن مع ما تقدم ذكره من حال الغيبة والبعد والحجب قال رسول الله ﷺ وقد أنبأ عن مسراه: «لما هبطنا السماء الدنيا إذا برهيج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين تحرق على قلوب بني آدم - أو قال: «عقول بني آدم» - لثلا يتفكرون في ملكوت السماوات، ولولا ذلك لرأوا [العجائب]^(٧)»^(٨) وإن كان وله الحمد قد غلب رحمته على غضبه لولا ذلك لكان الأمر أشد وأفظع.

(١) في النسخة (ق): «وكان».

(٢) في النسخة (ق): «ذلك».

(٣) في النسخة (ق): «للتتميم».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «الحال».

(٦) في النسخة (ق): «جزء من رحمته».

(٧) في النسخة (ق): «الأعاجيب».

(٨) أخرجه أحمد (٨٨٧٢)، وابن أبي شيبة (٣٦٥٧٤).

فصل

يقول الله جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥] فلذلك الحق المتصل بالحق المبين ﷻ ضياءً ونورًا، الضياء هو في مدة [ما]^(١) النهار عليه هنا آية، والنور هو في مدة ما هو الليل فيما ها هنا عليه آية، فهو جل وعلا يولج الضياء في النور ويولج النور في الضياء، فيكون [عن]^(٢) ذلك ما هو زيادة النهار وقصر الليل، وزيادة الليل وقصر النهار عليه آية ويغشى النور الضياء ويسلخ الضياء عن النور فيكون عن ذلك فيما هنالك ما هو وجود النهار والليل والإصباح والإمساء والغشيان [آية]^(٣) فيما ها هنا.

أما النهار فقد كان [على ما]^(٤) ها هنا آية على الهدى وعلى الإله الحق - جل وتعالى - وعلى الحياة بعد الموت، وعلى وجود الجنة، وهذا كله قد تقضى وقد تجلت الجنة، وأما الليل فقد كان فيما ها هنا آية على آلهة باطلة، وعلى الكفر والجهل، وعلى الموت، وعلى وجود جهنم، وهذا كله موجود في النار، فليس فيما هنالك ليل ولا نهار، إنما هو الضياء والنور، يولج جل وتعالى هذا في هذا وهذا [في هذا]^(٥) دون فقد ولا أفول، ويكون عن ذلك فيما هنالك ما هي الأربعة الفصول: الصيف والخريف والشتاء والربيع عليه آية.

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تُكْفَرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لِيْنِ﴾ [فصلت: ٩ - ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «عند».

(٣) في النسخة (ق): «آيات».

(٤) في النسخة (ق): «فيما».

(٥) سقط من النسخة (ق).

آتيتهما وما فيهما» ثم قال ﷺ: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(١).

والكبير من أسمائه، [والكثير]^(٢) من صفاته سبحانه وله الحمد، وبمفهوم ما تقدم ذكره فيما ها هنا وفيما هنالك يعلمون في تلك الدار الآخرة الأيام والشهور والسنين والحساب، وانقضاء الآماد، وتعاقب الدهور التي فيما هنالك ينوب مناب الأزمنة ليس فيما هنالك زمان لعدم الشمس والقمر والنجوم [يعملون إنما هو الدهر، والزمان]^(٣) مدة دوران الكواكب، والدهر مدة فعل الله سبحانه وله الحمد.

وأما الرؤية العلية: فإنه تبارك وتعالى لا يبدو لعباده بمرأى واحد مرتين إن ذلك اختلاف الليل والنهار، وكون الشمس والقمر اليوم في مطلع ومغرب لا يكون فيه غداً، وما تكون فيه بالغد لا تكون فيه بعده، كذلك القمر والنجوم، وكذلك من آيات هذا تقليبه الليل والنهار.

يقول نوح عليه السلام [لقومه]^(٤): ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] أي: [لنا]^(٥) والوقار عبارة عن تقليبه الرؤية [وما يكون فيما هنالك من عظيم شأن وكريم لقاء وظهور ما لا تحسن العقول الآن وصفه ولا توهمه]^(٦).

ثم قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤].

جاء: «إن إبراهيم عليه السلام لما رأى الشيب قال: رب ما هذا؟ قال جل قوله: وقار يا إبراهيم. قال: رب زدني وقاراً»^(٧) لما قلبه من سواد الشعر إلى بياضه، ومن حد الضبا إلى ما يعبر عنه بالكبر عبر عن ذلك بالوقار.

ثم قال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

١ - تقدم تخريجه.

٢ - في النسخة (ق): «والكبرياء».

٣ - في النسخة (ق): «وإنما الدهر إذ الزمان».

٤ - سقط من النسخة (ق).

٥ - في النسخة (ق): «لقاء».

٦ - زيادة في النسخة (ق).

٧ - أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٥٠) ومالك (١٦٧٧) والبيهقي في «الشعب»

وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٥- ١٦﴾ أي: على نحو هذا [من التقلب والظهور. فافهم فهُمَّا الله وإياك عنه بِمَنِّهِ وَرَحْمَتِهِ مُصْدَقًا] ^(١) ما تقدم ذكره.

قوله جل قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ هنا على ما هي فيما هنالك آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥].

ثم سرد جل ذكره على ذلك [جل] ^(٢) قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦] أي: إنه لا يحضر ذلك، ولا يشهد تلك [المشاهد] ^(٣) إلا المتقون.

ثم سرد على ذلك قوله الحق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧] إلى قوله جل قوله: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٤) [يونس: ١٠].

فصل

قال الله جل من قائل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ فهذا هو الحق فيما تقدم، وظاهره فيما ها هنا الشمس والقمر والنيرات، وهو الممثل بالمشكاة فيها مصباح، والزجاج في هذا هو الهواء في [ساحة] ^(٥) الجو ﴿يُوقَدُ﴾ المصباح ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ هذا نص على الأقرب الحق المخلوق به السماوات والأرض، وهو على الحقيقة لا يطلع من مشرق [فينسب إليه، ولا يغرب من مغرب فينسب إليه] ^(٦)،

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المشاهدة معرفة وعلماً ثم عبره إلى ما هو عليه فيما هنالك آية».

(٤) وجه ذكر هذا في عدد أحوالهم أنها تدل على أن ما هم فيه من النعيم هو غايات الراغبين بحيث إن أرادوا أن ينعموا بمقام دعاء ربهم الذي هو مقام القرب لم يجدوا أنفسهم مشتاقين لشيء يسألونه، فاعتاضوا عن السؤال بالثناء على ربهم، فألهموا إلى التزام التسبيح؛ لأنه أدل لفظ على التمجيد والتزني، فهو جامع للعبارة عن الكمالات. التحرير والتنوير (٤٣٤/٦).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «ولا يغرب من مغرب فيتسب إلى ذلك».

وهذا الحق هو الذي ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ ونار هذا الزيت الفكر فبالترداد للفكر والتردد يضيء للمتذكر ف﴿يَهْدِي﴾ به ﴿الله﴾ [النور: ٣٥] كما يهدي جل وتعالى إلى مبصرات الموجودات بالمصباح ونيرات الكواكب والشمس والقمر.

وعلى التحقيق فإنه قال جل من قائل: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ ثم نزل جل وعز بالخطاب إلى الأضواء الظاهرة، ثم قال جل قوله: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ ولا توقد الأنوار الظاهرة والباطنة إلا من نوره العلي، وعلى التدرج ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] إلى أن ينتهي إليه جل ذكره، فهو الذي هو المسيح عن الأفول غرباً والطلوع شرقاً، [وإلى^(١)] هذا نزع إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦].

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

ثم جعل ﷻ يستاق ذكر [الحق والنور]^(٢) الباطن بقوله جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ إشارة منه عز جلاله إلى أن كلاً قد أوتي في علم فطرته [على]^(٣) ما هو عليه [وجوده الآن، ثم قال]^(٤): ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١] إشارة منه إلى [الحضور]^(٥) العلي.

ثم قال جل قوله: ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢] هذا من نوره الباطن إقرار من جميع الخليقة له بالملك، وتدينها له بالرق، وشهادتها على أنفسها بالفقر وله بالغنى، وبالعود بعد البدء^(٦).

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «في وجوده هذا وإن ذلك آيات على الفاطر بما هو عز جلاله والآيات عبارة عت الأنوار التي تبصرها البصائر ما غاب وبطن عن الأبصار الظاهرة».

(٥) في النسخة (ق): «حضوره».

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة بعلم الفطرة ثم شهادتها له بالغنى وعلى أنفسها بالفقر إليه ثم شهادتها أنه هو المبدئ المعيد».

ثم قال جل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ إلى قوله: ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣].

ثم قال جل قوله: ﴿يَقْلَبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [ثم^(١)] قال جل قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤] أي: يعتبر المعبرون من ظاهر هذا النور العلي ثم عاود الوصف لنوره الحق لقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥] فعدد ﷻ إن من نوره الذي يبصر به الاعتبار [به^(٢)] الغيب تسبيح الخلائق وصلاتهم، وإن له الملك والمرجع، وفعله في إرسال الرياح، وخلق السحاب وتسييرها، وإنزاله الماء [منها^(٣)] والبرد، [وإصابته بها^(٤)] من يشاء ويصرفه عمن يشاء، وتقليبه الليل والنهار، وخلق من الماء كل شيء حي، وكل ذلك آثار قدرته ومشئته [وحياته^(٥)] وعلمه في الموجودات من الحق الذي به خلق السماوات والأرض ومقتضى أسمائه.

وإن ذلك نوره وإن كان باطنًا كما أن نوره الذي هو نور الشمس والقمر والنيرات والنار، وإن هذا كله الظاهر منه والباطن يُوقد من الحق [المبين^(٦)] الذي كنى عنه بالشجرة المباركة، ليست تطلع من مشرق ولا تغرب في مغرب فتنسب [إليه^(٧)]، فإذا تمهد أن بهذا الحق المبتوث في العالم خلق [الخلق والأرض، وهو

(١) في النسخة (ق): «هذا كله وصف لنوره العلي لذلك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «يخوف به ويذكر بإصابته».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «المخلوق به السماوات والأرض».

(٧) في النسخة (ق): «إلى ذلك وفي الدار الآخرة يتجلى الحق المبين فبتبين هذا فيعلمون يومئذ أن الله هو الحق في هذه المبين له فافهم وتفطن والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

المتصل بالحق المبين، وإنه^(١) منه تُقتبس أنوار ما هنا ومن ضيائه توقد نيرانه، وذلك ظاهر [في]^(٢) الآخرة، وهذا [اليوم]^(٣) ظاهر الدنيا، فاطلب الوفاق والمباشرة فيهما هنالك، واستدل عليه بما [ها]^(٤) هنا، فإنما هذا على تلك ﴿آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧] أرجع جل وعلا الخطاب إلى معنى قوله جل قوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: ٦] إلى آخر الآية، وإلى معنى التعريف بنفسه لما في اختلاف الليل والنهار، والدلالات على لقاء الحق بانقضاء الآجال وطلوع النيرات، ولذلك ذكر جل ذكره اللقاء، وأوعد على التكذيب به، وعلى عدم الرجاء في لقائه.

[تنبیه]^(٥):

كيف يتصور التكذيب بلقاء الله ﷻ وتعالى علاؤه وشأنه وما زال المؤمنون في لقاء الحق المتصل به إيماناً به وتصديقاً [ومشاهدة]^(٦) ؟

بل كيف لا يُرجا لقاءؤه وما يعرف العباد لهم رزقاً [من السماوات والأرض]^(٧) ولا دفعاً ولا نفعاً إلا من [ذلك]^(٨) الحق المبيث في العالم المخلوق به كل شيء؟ وإلا فكيف كانت الحال تكون ولو لم تكن الشمس [ولا]^(٩) القمر ولا النجوم

(١) في النسخة (ق): «السماوات والأرض وهو الظاهر الموصل إلى معرفة الله الحق المبين وأن».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وشهادة».

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «اللدن».

(٩) في النسخة (ق): «ولم يكن».

ولا السماء ولا الأرض ولا الرياح ولا السحاب ولا الماء ولا الحر ولا البرد ولا نبي ولا رسول [إلا عمل بطاعته]^(١) ولا ملجأ يلجئون إليه ولا ملاذ يلوذون به؟ [وإنما متع المكذبين والكاذبين والمشركين بلا طائف من تسخير ما في السماوات وما في الأرض ليعجزوا كلاً بسعيه]^(٢).

وكيف لا يُرجا لقاءه والخير كله [بيديه]^(٣)، والشر ليس إليه، وبه يُستعاذ من كل مكروه، ومنه ينال كل محبوب؟

بل كيف يختار [العباد]^(٤) الحياة الدنيا على الآخرة وقد ظهر الفضل العظيم بين الدارين، [وتبين]^(٥) البون الكريم في [إحدى]^(٦) المنزلتين، والغبطة العليا في إحدى [المحلتين]^(٧) إن لم يعتذروا باستعداد للقاءه [والحرص]^(٨) على توفير الزاد لمنال كريم ثوابه؟.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ① دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَنَحْمُكَ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَ دَعَوْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ③ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ④﴾ [يونس: ٩ - ١٢].

(١) في النسخة (ق): «ولا كتاب ولا عمل بطاعة».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «منه وإليه».

(٤) في النسخة (ق): «المؤمنون».

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «كلاً».

(٧) في النسخة (ق): «المحلتين».

(٨) زيادة في النسخة (ق).

أتبع ذلك ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾^(١) [يونس: ٩] أي: [في]^(٢) النظر في آياته. والعبرة من الدنيا إلى الآخرة، ويهديهم [في الآخرة عند المحنة في المحشر]^(٣)، ويهديهم في [دن]^(٤) البرزخ بالثبات [وقول الحق والصدق بالإيمان]^(٥) والعمل الصالح، وكذلك يعبرون من المصنوع إلى الصانع، [ومن المفعول إلى الفاعل ومن المفطور إلى الفاضل ومن المدبّر إلى المدبر هكذا إلى آخر الأسماء]^(٦) ومن الدليل إلى المدلول عليه. ومن الآيات إلى ما هي آيات عليه، ومن الدنيا إلى الآخرة، ومن الكفر إلى الإيمان. ومن [المعاصي]^(٧) إلى التوبة النصوح.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [يونس: ٩] كناية عن الملك الكبير [الذي أعده]^(٨) لهم فيما هنالك.

﴿دَعَاؤُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾^(٩) [يونس: ١٠] أي: إن هذا جل كلامهم.

(١) أي: يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم، وهي الجنة، وإنما لم تذكر تعويلاً على ظهورها وانسياق النفس إليها، لا سيما مع ملاحظة ما سبق من بيان مأوى الكفرة وما أداها إليه من الأعمال السيئة، ومشاهدة ما لحق من التلويح والتصريح، والمراد بهذا الإيمان الذي جعل سبباً لما ذكر: الإيمان الخاص المشفوع بالأعمال الصالحة لا المجرّد عنها، ولا ما هو الأعم، ولا ينبغي أن يتطرح في ذلك كبشان، والآية عليه بمعزل عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعة من أن الإيمان الخالي عن العمل الصالح يفضي إلى الجنة في الجملة. ولا يخلد صاحبه في النار، فإن منطوقها أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنة، وأما إن كل ما هو سبب لها يجب أن يكون كذلك فلا دلالة لها ولا لغيرها عليه. كيف لا وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] منادٍ بخلافه بناءً على ما أطبقوا عليه من تفسير الظلم بالشرك. ولئن حمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء من آمن ولم يعمل صالحاً، ثم مات قبل أن يظنه بفعل حرام أو بترك واجب. تفسير الألوسي (٤٤٠/٧).

(٢) في النسخة (ق): «إلى»، (٣) في النسخة (ق): «في المحشر عند المحنة».

(٤) زادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «وقوله الحق والإدلاء بالحجة بواسطة الإيمان».

(٦) زيادة في النسخة (ق)، (٧) في النسخة (ق): «العصيان».

(٨) في النسخة (ق): «المُعَد».

(٩) هو ظاهر في أن الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي أيضاً، لكن يدل على أن الدعوى

قال رسول الله ﷺ: «يُلْهِمُونَ التَّسْبِيحَ كَمَا يُلْهِمُونَ النَّفْسَ»^(١).

ثم يكون [هَجِيرَ لَهُمْ]^(٢)، وهو تسبيح تعجب لغريب ما يروونه، وعظيم ما يرد عليهم من تلك الدار [الْآخِرَةَ]^(٣) من بُعد البون بين مسميات عَبَرُوهَا في دار الدنيا وبين ما أَلْفَوْهَا هنالك، ولما يَفْجُؤُهُمْ من عَجِيب موجودات لم ترها أَعْيُنُهُمْ، ولا خُطِرَتْ على بال أحدهم، ولا تَحْدُثُ بها نفوسهم، فَأَتَتْ أَمَانِيَهُمْ، وَأَرَبَتْ على علومهم، فليس لهم هَجِيرًا إِلَّا قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ الملائكة [فِيهَا سَلَامٌ] [يونس: ١٠] عليكم^(٤)، وَيُحْيِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرَهُ يُحْيِيهِمْ بِذَلِكَ^(٥).

قال الله سبحانه وله الحمد: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] وكان سلامهم في الدنيا: «السلام عليكم» تذكيرًا باسم الله جلَّ ذكره الذي هو السلام، وهو من الحق الماثوث في العالم وبخاصة بين المؤمنين.

قال رسول الله ﷺ: «السلام اسم من أسماء الله فافشوه بينكم»^(٦).

وقول الله جلَّ ذكره أبين بيانًا وأوضح برهانًا، قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [فأخبر أنها تحية من عند الله حيانا بها على ألسنتنا بعضنا على بعض]^(٧) ثم نَبَّهَ على أن [هذا]^(٨)

بمعنى الدعاء، ومعنى كون «سبحانك اللهم» دعاء وطلبًا لما يشتهون حينئذٍ أنه علامة للطلب، ونظير ذلك: تسبيح المصلي إذا نابَهَ شيء في صلاته، وفي بعض الآثار: إن هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون. تفسير الألوسي (٤٤٤/٧).

(١) تقدم تخريجه. (٢) في النسخة (ق): «هجيراهم».

(٣) زيادة في النسخة (ق). (٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «سلام عليكم سلام ويقول الله جل من قائل لهم سلام يسلم عليهم لذلك».

(٦) أخرجه الطبراني (١٠٣٩١) والبخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣٩) والبخاري «كشف» (١٩٩٩).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

(٨) في النسخة (ق): «معنى هذا من قوله الكريم هو».

من مكنون العلم ورفيعه بقوله جل قوله: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١] أي: تعقلون عنه ما أعد لهم فيما هنالك مما هذا آية عليه كما قال جل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ٢٧] أي: تذكرون ما هنالك بما هنا [وما في الجنة، فهي^(١) بشارة بالسلامة من العذاب والموت، والنجاة من غضب الله ومن جميع المكروهات كلها،] ولما كان ذلك دائماً مستمراً؛ أعني: السلامة كانت التحية على ذلك المعنى على الدوام^(٢) وهو أيضاً [تذكير]^(٣) وتجديد لذكر من هو القريب منهم الراضي عنهم الرحيم الرؤوف.

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ﴾ [ما هو معناه]^(٤) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠] وقد قال في غير هذا الموضع: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤] أكثر ورود الحمد منهم على لأجل حال فرحهم بربهم الصادق الوفي الذي لا يخلف وعده، ولا يعجزه ما يوجد له من إكرام وتنعيم [﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]]^(٥).
قال رسول الله ﷺ: «لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث النبيين [والمرسلين]^(٦) مبشرين، ولا أحد أحب إليه المدح من الله، من أجل ذلك خلق الجنة»^(٧) وإنما ذلك لأنهم يسبحونه مع الأنفاس، ويختمون تسييحهم له بالحمد لله رب العالمين.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا

(١) في النسخة (ق): «المتذكر بما هنالك بأمره ﷻ بالاستئذان وتستر الأهل في هذه؛ أي: أهل الجنة - عليهم السلام - لا يرى أحد منهم أهل أحد، بل هن المقصورات في الخيام، وربما لم ير بعض الأهل بعضاً إلا ما شاء الله من ذلك، وأما في الجنة فذلك».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «فيها أن».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وأرسل المرسلين».

(٧) أخرجه أحمد (١٨١٩٣)، والبخاري (٦٩٨٠)، ومسلم (١٤٩٩)، وابن أبي شيبة (٢٧٨٨٤).

لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِشُرٍّ أَنْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِثُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ [يونس: ١٣ - ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ أَنْتَبِثُوكَ اللَّهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ...﴾^(١) [يونس: ١٨] أرجع الخطاب إلى معنى قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤] وإلى ذم الذين لا يرجون لقاء الله، الذين قال فيهم جل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ [يونس: ٧] فانتظم المعنى، وما لا يعلمه الله فليس بموجود، وهو من المحال [المجحد]^(٢) المستحيل وجوده، أفيكون ما ليس بكائن أبد الأبد، ويستحيل [وجود شريك له في ملكه أو

(١) قرأ أبو السمال العدوي: «تنبثون» بالتخفيف من أنبأنا ينبي. وقرأ من عداه بالتشديد من نبأ ينبي. والمعنى: أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد، أو أتخبرونه أن لكم شفعا بغير إذنه، والله سبحانه لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته الذين هم في سماواته وفي أرضه؟ وهذا الكلام حاصله: عدم وجود من هو كذلك أصلاً. وفي هذا من التهكم بالكفار ما لا يخفى، ثم نزه الله سبحانه نفسه عن إشراكهم، وهو يحتمل أن يكون ابتداء كلام غير داخل في الكلام الذي أمر الله سبحانه رسوله ﷺ بأن يجب به عليهم، ويحتمل أن يكون من تمام ما أمر النبي ﷺ أن يقوله لهم جواباً عليهم. فتح القدير (٣/٣٥٧).

(٢) سقط من النسخة (ق).

ولد أو صاحبة أو ند أو كفؤ أو شبيه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(١).

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ۝ (٢٠) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَرَةٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرِعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝ (٢١)﴾ [يونس: ١٩ - ٢١].

أتبع ذلك قوله جل قوله: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: على التوحيد لله جل ذكره والديانة بدين الإسلام ﴿فاختلفوا﴾ [يونس: ١٩] هكذا كان آدم عليه السلام [ونبوة الأمة]^(٢) من بعده - عليهم السلام - على الصراط المستقيم والدين القيم حتى طال الأمد، وخلف الخلف منهم السلف [مُبيناً]^(٣) لمن بعدهم الآراء، فاختلَفوا بعد العلم بأن الله هو خالقهم ورازقهم [وَمالكهم]^(٤)، وإنه خالق السموات والأرض، ورب العرش العظيم، وإنه منزل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها لا يشركه في ذلك أحد [وإنه يحيي ويميت]^(٥).

ومع تقرر هذا العلم ونحوه عندهم تفرقوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين. وأنزل معهم الكتاب بالحق؛ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من الأمم الخالية والقرون السالفة ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ بإذنه، ثم لم يزل الاختلاف يعقب الائتلاف ويدال الحق من الباطل إلى أن جاءت نبوة محمد ﷺ ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [من أمته]^(٦) ﴿لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [أولئك]^(٧) ﴿مِنْ

(١) في النسخة (ق): «وجوده تعالى الله عن قبح افتراءه».

(٢) في النسخة (ق): «وبنوه الأمة».

(٣) في النسخة (ق): «تشتت».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) زيادة في النسخة (ق).

الْحَقِّ ﴿١﴾ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٢﴾ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣﴾ [البقرة: ٢١٣].

فهذا خطاب [مستقبل متوجه] ^(١) - والله أعلم - إلى إخوان الأنبياء في هذه الأمة الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «وددت أني قد رأيت [إخواننا] ^(٢)» قالوا له: ألسنا بإخوانك؟ قال: «أنتم أصحابي [وإخواننا] ^(٣) الذين لم يأتوا بعد» ^(٤) وهم سبعون ألفاً وسبعمائة ألف مع كل ألف سبعون ألفاً وسبعمائة ألف، ذلك قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] وهم ورثة الأنبياء عليهم السلام.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩] والكلمة السابقة من ربك ﷻ [وتعالى علاؤه وشأنه هي] ^(٥) توفية آجالهم، واستنفاد أرزاقهم وأيامهم وأعمالهم إلى قيام الساعة، وإنهم سيفترقون إلى فريق في الجنة وفريق في السعير، وتخرج أعمالهم على ذلك كما قال: ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [الأعراف: ٣٧].

﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكَ فِي الْبَرْقِ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بَيْنَ يَدَيْ طَيْبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لِيْنَ أُنْجَيْنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٢﴾﴾ فَلَمَّا أُنْجِسَتْ إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَتَأَيَّمُوا النَّاسَ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزَلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا وَعَلَيْهَا أَتَتْهَا أَمْْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

(١) في النسخة (ق): «متوجه إلى الاستقبال».

(٢) في النسخة (ق): «إخواني».

(٣) في النسخة (ق): «وإخواني».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) في النسخة (ق): «وهو أعلم».

حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٥].

قوله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] [ثم] ^(١) عرض بقوله الصدق: ﴿فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ إلى ما يكون من فتح وفتح وفيه مثل الله جل ذكره الدنيا كلها من أولها إلى آخرها بسنة واحدة منها، فيسر [الله] ^(٢) للمتفكرين النظر، وقرب للمعتبرين المعبر، أنزل من السماء ماءها، وأخرج به من الأرض نباتها كله.

وعرض بقوله جل قوله: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ إنه يخلقهم من نبات الأرض ومن الأنعام، وبعضهم من بعض على سبيل التناسل والاسترزاق كالرضاعة والكفالة [والعطيات] ^(٣) والهبات ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ ^(٤) أي: على أخذ فوائدها من زروعها [وثمارها] ^(٥) ﴿آتَاهَا﴾ [يونس: ٢٤] من أمر الله ﷻ ما غلبهم عليها وقطع بهم دونها، كذلك الدنيا يأخذها أحسن ما كانت، وأطيبه دار عيشهم، [ويجتمع أمرهم لا من حيث الدنيا من

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «والأعطيات».

(٤) ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض أخذة زخرفها متزينة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتمت وتزينت بأنواع الحلوى، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتغال نبات الأرض على بهجة ونضارة وأثواب مختلفة، واستعير لتلك البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظة «الزخرف» وهو الذهب؛ لما كان من الأشياء البهجة المنظر السارة للنفس، و«ازينت» أي: بنباتها وما أودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ واحتمل ألا يكون تأكيداً؛ إذ قد يكون أخذ الزخرف لا لقصد التزيين، فقليل: «وازينت» ليفيد أنها قصدت التزيين، ونسبة الأخذ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة. تفسير البحر المحيط (٢٨٧/٦).

(٥) في النسخة (ق): «وثمارها».

حيث الدين^(١).

وقد [قيل]^(٢): إن الساعة تقوم يوم الجمعة في أول ساعة منها، أو فيما يقارب ذلك، وفي آخر زمن الربيع عند استقبال [زمن]^(٣) المصيف، والأرض قد أخذت زيتها، والأشجار قد [أظلت]^(٤)، والزمان في [إقباله]^(٥) وفي مثل ذلك من الزمان خلقها، وبذلك ترجع الحكمة في حكمه، هذا آخرها على أولها.

[وقد جاء أن الله خلق الدنيا على أكمل هيئاتها كما تقدم، وقد أينعت ثمارها وأورقت أشجارها واستوى نباتها]^(٦)، وإنما فصلها يومئذ من الجنة، فحكمها أن تكون على [ما بها]^(٧) كما خلق آدم عليه السلام كهيئته يوم توفاه كذلك وافاه رسول الله ﷺ وهو في السماء الدنيا ليلة أسري به كاملاً [ستين]^(٨) ذراعاً في السماء كما يدخله الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الزمان قد استدار [كهيئة]^(٩) يوم خلق الله السماوات والأرض»^(١٠).

وكما خلق كل نفس منقوسة على الفطرة [وعلى]^(١١) الإسلام كذلك خلق الزمان مقبلاً، والشمس في برج الحمل أو ما يقارب ذلك، يدل على ما [ذكرناه]^(١٢) قول رسول الله ﷺ في خطبته المشهورة التي قام بها في الناس [الغد من يوم النحر

(١) في النسخة (ق): «جميع أمرهم دنيا لا ديناً».

(٢) في النسخة (ق): «جاء».

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أورقت وأظلت».

(٥) في النسخة (ق): «اقتباله».

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «تمامها».

(٨) في النسخة (ق): «سويًا ستون».

(٩) في النسخة (ق): «كهيئته».

(١٠) أخرجه البخاري (٥٢٣٠) ومسلم (١٦٧٩) وأحمد (٢٠٤٠٢) وأبو داود (١٩٤٧).

(١١) سقط من النسخة (ق).

(١٢) في النسخة (ق): «قلناه».

في حجة الوداع حجة الإسلام^(١) [فقال]^(٢) وهو راكب على ناقته استنصت الناس، فحمد الله وأثنى عليه، وخطبهم خطبة مُودَع قال فيها: «إن الله حرم أموالكم ودماءكم وأعراضكم [عليكم]^(٣) كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا فليبلغ الشاهد الغائب، [فإني]^(٤) لا ألقاكم بعد عامي هذا» ثم قال ﷺ: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق السماوات والأرض»^(٥).

فكانت حجته تلك زمن الربيع؛ دل على ذلك أنه رجع منها وبقي بالمدينة شهر المحرم كله وصدرًا من ربيع الأول، وأخذ ﷺ في التوجه إلى غزوة تبوك وقد دخل زمن الصيف، ولذلك قال كعب بن مالك في قصته المشهورة: وكان رسول الله ﷺ قد استقبل سفرًا بعيدًا وعدوا كثيرًا، وذلك حين طابت الظلال وبردت المياه.

وقال [الله]^(٦) جل ذكره يحكي قول المنافقين في هذه الغزوة: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] فوضح بهذا كله أن الحجة كانت زمن الربيع، وأن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السماوات والأرض، وأن إيجاد ذلك كان والأرض في زيتها والشمس في برج الحمل [وهو في شرقها]^(٧)، وإذا كان ذلك كذلك والقمر يومئذ كان في الميزان؛ [إذ هو وقت]^(٨) الحمل، وكانت الشمس في [شرقها]^(٩)، والقمر في كماله، والأرض قد أخذت زيتها، والليل والنهار في حال استوائهما عند استكمال الشمس [البروج]^(١٠) الجنوبية وصعودها في الشمالية.

(١) ما بين [] به تقديم وتأخير بين النسخ.

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «ولعلي».

(٥) انظر التخريج السابق.

(٦) سقط من النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «أو ما يقارب ذلك وذلك شرفها».

(٨) في النسخة (ق): «وما يقاربه إذ هو رقيب».

(٩) في النسخة (ق): «شرفها».

(١٠) سقط من النسخة (ق).

وفي قوله ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق [الله]^(١) السموات والأرض»^(٢) وجه آخر به يتم ما تقدم ذكره، [وهو]^(٣) من النبا العظيم، وذلك أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحق، وعلى الدين القيم، [واستدار به]^(٤) الدوائر [كذلك إلى أن خلق الله آدم ﷺ على الدين القيم، وخلق على ذلك الأئمة من بنيه على جميعهم السلام.

ثم اختلفوا كما قال الله جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩] فخلف في ذلك الاختلاف أنهم كفار ومشركون عبدوا الشمس والقمر والكواكب والأوثان والطواغيت وغير ذلك، ولما كان يومئذ أكمل الله الإسلام، وأظهر دينه الحق، والزمان استدار كهيئته الأولى خلقه وشرعة، واستدار على قوم ضالين إلى عباد مهتدين، أنزل الله ﷻ ذلك اليوم قوله الحق جل قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] والحمد لله رب العالمين، نسأل الله الرحيم إتمام نعمته وسبوغ منته إلى يوم الدين، إنه أرحم الراحمين وخير القادرين^(٥).

[عبرة]

قد تقدم قوله الحق: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ...﴾ [يونس: ٢٤] وهذه الحياة الدنيا لا يحين حين انقراضها إلا بقيام الساعة. قال الله ﷻ: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وينقسم هذا اليوم الذي هو الدنيا على دارين الحياة والموت: دار الدنيا ودار البرزخ، وهو مدة لبث الخلق في القبور حال البلى، فمثل مدة إحدى الدارين نصف العام. أعرب عن هذا قوله في كتابه العزيز: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «واستدارت».

(٥) ما بين [] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

[الكهف: ٤٥] وإنما يكون إنزاله الماء أول الخريف، فتأخذ الأرض زيتها في خامس الشهور ويكمل ذلك منها في آخر السادس، ثم يأتيها من أمر الله ما يحطم نباتها ويهشم زهرتها، ثم تصير في الثامن والتاسع كما قال الله ﷻ: ﴿هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ هذه حال نباتها الكائن عن الماء من آب وقضب وزرع ومرعى وأزهار وزينة المعبر عنها باسم الزخرف فذلك بالعبارة كمدة المؤمن في هذه الحياة؛ أعني: من إنبات الله النبات إلى استوائه إلى تحطمه فيكون وقت وفاته حين ضحك الأرض وأخذها زيتها واستبشارها بما هي فيه فرحاً وشبغاً وكسوة وسروراً.

ثم هو يستقبل إن كان مؤمناً صالحاً موجودات الجنة من فاكهة على أنواعها إلى آخر زمن الخريف، وذلك تمام يوم الدنيا كما يستقبل الكافر من فيح السعير وورود النار وعذابها من غير كفاية ولا وقاية ما هو إليه صائر، هذا وهذا ما هو موجود بعدما أحد الله ﷻ زينة الأرض، وقبضه وروح حياتها من هذه الجهة ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٨٩] إلى قوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ...﴾ [الواقعة: ٩٢] إلى آخر السورة^(١).

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قُتْرٌ وَلَا ذُلٌّ أَؤْتِيكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذُلٌّ مَّا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَّا أَغْشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قُطْعًا مِنْ أَلِيلٍ مُّظْلِمًا أَؤْتِيكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَرِيقَانِ يَتَنَبَّهَانِ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِبَانًا تَعْبُدُونَ﴾ (٢٨) ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبْنِئْنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلٌ﴾ (٢٩) ﴿هَٰنَالِكَ تَبْلَوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٣٠) [يونس: ٢٦ - ٣٠].

[قوله جل ذكره: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾] (يونس: ٢٦) [الحسنى:

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) أي: الذين أحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عليهم من الأعمال، والكف عما نهاهم عنه من المعاصي، والمراد بالحسنى: المثوبة الحسنى. قال ابن الأنباري: العرب توقع هذه اللفظة

حسن المآب، وهو الجنة، والزيادة فيها النظر إلى وجه الله الكريم، ويوم المزيد في الدار الآخرة يوم الجمعة، وهو يوم الزيادة العليا والحسنى^(١).

قال الله جل قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الكهف: ٨٨] أي: جزاء العمل الصالح، والزيادة أيضًا تكون ما [يكسبه]^(٢) الله جل ذكره الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك، إلى قوله جل قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] [والزيادة من الله جل ذكره غير محصورة العلم]^(٣)؛ لأنها من فضله العظيم، وهو يعطي [ويزيد ويهب]^(٤) ويزيد أبدًا.

قال الله جل وعز: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣] والسيئات [مثلاً بمثل]^(٥) جزاء سيئة بمثلها، والحسنات والسيئات لها وزنها، [وأما ما يقابلها]^(٦) من نعيم الجنة وعذاب [النار]^(٧) ففسير الوقوف عليه، إنما علمه إلى الله ﷻ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنِّي تُصْرِفُونَ﴾ (٣٢) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ لِمَنِ رَزَقْنَاهُ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْبَدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَإِنِّي تَوَفَّاكَ﴾ (٣٤) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ﴾

على الخصلة المحبوبة المرغوب فيها، ولذلك ترك موصوفها؛ وقيل: المراد بالحسنى: الجنة، وأما الزيادة فقيل: المراد بها: ما يزيد على المثوبة من التفضل. فتح القدير (٣/٣٦٥).

(١) ما بين [] فيه تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٢) في النسخة (ق): «يكسبه».

(٣) في النسخة (ق): «والعلم بزيادة الله عباده غير محصور ولا محاط بعلمها».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وما هو جزاؤها».

(٧) في النسخة (ق): «جهنم أعادنا الله الكريم منها».

يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنَبِّئَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ [يونس: ٣١ - ٣٧].

قوله جل وعز: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد جل وعز: التوراة والإنجيل والزبور والصحف كلها ﴿وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ﴾ [يونس: ٣٧] أي: الكتاب المبين؛ أي: اللوح المحفوظ، وتصور بعض التفصيل في ذلك إن شاء الله تعالى هو أن علمك بأن القرون الخالية والأمم الماضية قد تقدم في الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ [أنه سيكون]^(١) على صورهم وهيئاتهم وأعمالهم، وسيكون منهم كذا فيرسل إليهم رسول كذا، فيكون منهم [كذا]^(٢) إما هداية وإما ضلالة، فيكون من عقابهم وثوابهم كذا، [وكذلك]^(٣) كل شجرة وماء، وأرض [وهواء وسماء]^(٤) وكوكب، وعمل ورزق، وحركة وسكون، وخلق وأمر مزوم كله في أم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ مثبت في زمان، وقد ذكر القرآن ذلك بذكر خصوص وعموم وعلى الاستقراء يأتي الذكر على [كثير من ذلك]^(٥).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتَّبِعُوا سُورَةَ تِلْكَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَفْتَعُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابٌ أَذِينَ مِّنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

(١) في النسخة (ق): «أنهم سيكونون».

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «وكذا».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «أكثر ذلك ثم يتيسر الإجمال بعد».

وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّهُمْ يَلْسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَادَاهُمْ أَنْ تَتُوبَ إِلَيْنَا مَرَّجَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ [يونس: ٤٦ - ٤٨].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾^(١) [يونس: ٣٩] أما القرآن العزيز فعلى قلوب المكذبين أكنة أن يفقهوه، وفي آذانهم الوقر، وعلى أبصارهم غشاوة، [فلا يرون آيات الله في السماوات والأرض]^(٢) وأما تأويله - يعني: الجزاء العاجل والآجل - فلم يكن [يأتيهم]^(٣)؛ إذ إنزال هذه السورة مكية، وهو حقيقة ما ذم في أم الكتاب من عقاب أو ثواب على كل عمل، ومتى يكون وكيف وأين وما مقداره ولمن يحل؟.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن آتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ وَأَلَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ

(١) ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ عطف على الصلة أو حال من الموصول؛ أي: ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوح برهانه، فالتأويل نوع من التفسير، والإتيان مجاز عن المعرفة والوقوف، ولعل اختياره للإشعار بأن تلك المعاني متوجهة إلى الأذهان منساقة إليها بنفسها، وجوز أن يراد بالتأويل وقوع مدلوله، وهو عاقبته وما يؤول إليه، وهو المعنى الحقيقي عند بعض، فإتيانه حيثئذ مجاز عن تبينه وانكشافه؛ أي: ولم يتبين لهم إلى الآن تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب، والمعنى: إن القرآن معجز من جهة النظم. تفسير الألوسي (٦/٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «آتاهم بعد».

تَسْتَعِجُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُمْ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُمِيتُ وَيُحْيِي وَيُخَوِّتُ وَيُنَبِّئُ وَيُخَوِّتُ وَيُنَبِّئُ وَيُخَوِّتُ ﴿٥٦﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَنْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ [يونس: ٤٧ - ٦١].

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ﴾ [يونس: ٦١] فيه المعنى إلى آخره، أرجع معنى الخطاب إلى معنى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجُ فِيهَا...﴾ [الحديد: ٤] إذ هو الله ﷻ [مستوى^(١) على العرش، وهو في كل مكان ومع كل شيء من حيث هو جل ذكره، هذا من حيث الخلقة والعلم والتدبير. ثم ينشأ ذلك في المؤمن، ثم في الولي، ثم في النبي والرسول، [ويلازمه]^(٢) ذكره والعمل بطاعته حتى يكون سمعاً وبصراً [ولتحقيق ذلك وشياعه في الوجود

(١) في النسخة (ق): «المستوي».

(٢) في النسخة (ق): «وملازمة».

ولزومه اللزوم كله خلق لغة العرب محققة لذلك، فقال: «زيد ثاني اثنين وعمره ثالث ثلاثة ورابع أربعة» إلى نهاية ذلك هذا في «لسان العرب» كذلك في سائر اللغات^(١) والله أعلم.

(١) فيه مسألة: هل اللغات توقيفية أو اصطلاحية؟ اختلف العلماء في اللغة كيف ثبتت؟ إلى أربعة مذاهب: الأول: تثبت بدلالة الألفاظ على المعاني بذواتها، وهو مذهب عباد بن سليمان. الثاني: تثبت بوضع الله إياها، وهو مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وابن فورك والجبائي والكعبي. الثالث: تثبت بوضع الناس إياها، وهو مذهب أبي هاشم والمعتزلة. الرابع: تثبت بعضها بوضع الله والباقي بوضع الناس؛ وهو إما أن يكون الابتداء من الناس والثبوت من الله - وهو مذهب قوم - وإما أن يكون الابتداء من الله والثبوت من الناس - وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني.

احتج عباد بن سليمان بأنه لولا الدلالة الذاتية لكان وضع لفظ من بين الألفاظ بإزاء معنى من بين المعاني ترجيحاً بلا مرجح وهو محال. وجوابه أن الواضع إن كان هو الله فتخصيصه الألفاظ بالمعاني كتخصيص العالم بالإيجاد في وقت من بين سائر الأوقات وإن كان هو الناس فلعله لتعين الخطران بالبال ودليل إمكان التوقيف احتمال خلق الله تعالى الألفاظ ووضعها بإزاء المعاني وخلق علوم ضرورية في ناس بأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني ودليل إمكان الاصطلاح إمكان أن يتولى واحد أو جمع وضع الألفاظ لمعاني ثم يفهموها لغيرهم بالإشارة كحال الوالدات مع أطفالهن وهذان الدليلان هما دليل إمكان التوزيع. واحتج القائلون بالتوقيف بوجوه: أولها قوله تعالى ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فالأسماء كلها معلمة من عند الله بالنص وكذا الأفعال والحروف لعدم القائل بالفضل ولأن الأفعال والحروف أيضاً أسماء لأن الاسم ما كان علامة والتمييز من تصرف النحاة لا من اللغة ولأن التكلم بالأسماء وخدّها متعذر. وثانيها أنه سبحانه وتعالى ذمّ قوماً في إطلاقهم أسماء غير توقيفية في قوله تعالى ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا﴾ [النجم: ٢٣] وذلك يقتضي كون البواقي توقيفية. وثالثها قوله تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢] والألسنة اللسانية غير مرادة لعدم اختلافها ولأن بدائع الضع في غيرها أكثر، فالمراد هي اللغات. ورابعها - وهو عقلي - لو كانت اللغات اصطلاحية لأختيج في التخاطب بوضعها إلى اصطلاح آخر من لغة أو كتابية ويعود إليه الكلام ويلزم إما الدور أو التسلسل في الأوضاع وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى التوقيف. والجواب عن الأولى لم لا يجوز أن يكون المراد من تعليم الأسماء الإلهام إلى وضعها ولا يقال: التعليم إيجاد العلم؛ فإننا لا نسلم ذلك، بل التعليم فعل يترتب عليه العلم ولأجله يقال علمته فلم يتعلم؛ سلمنا أن التعليم إيجاد العلم لكن قد تقرر في الكلام أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى فعلى هذا العلم الحاصل بها موجد لله سلمناه لكن الأسماء هي سمات

الأشياء وعلاماتها مثل أن يعلم آدم صلاح الخيل للعدو، والجمال للحمل، والثيران للحز، فلم قلتم: إن المراد ليس ذلك؟ وتخصيص الأسماء بالألفاظ عرف جديد؛ سلمنا أن المراد هو الألفاظ ولكن لم لا يجوز أن تكون هذه الألفاظ وضعت قوم آخرون قبل آدم وعلمها الله آدم؟ وعن الثانية أنه تعالى ذمهم لأنهم سموا الأصنام آلهة واعتقدوها كذلك. وعن الثالثة أن اللسان هو الجارحة المخصوصة، وهي غير مرادة بالاتفاق، والمجاز الذي ذكرتموه يعارضه مجازات آخر نحو مخارج الحروف أو القدرة عليها، فلم يثبت الترجيح. وعن الرابعة أن الاصطلاح لا يستدعي تقدّم اصطلاح آخر بدليل تعليم الوالدين الطفل دون سابقة اصطلاح ثمة.

واحتج القائلون بالاصطلاح بوجهين: أحدهما لو كانت اللغات توقيفية لتقدّمت واسطة البعثة على التوقيف، والتقدّم باطل، وبيان الملازمة أنها إذا كانت توقيفية فلا بد من واسطة بين الله والبشر - وهو النبي - لاستحالة خطاب الله تعالى مع كل أحد، وبيان بطلان التقدّم قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] وهذا يقتضي تقدّم اللغة على البعثة. والثاني لو كانت اللغات توقيفية فذلك إما بأن يخلق الله تعالى علماً ضرورياً في العاقل أنه وضع الألفاظ لكذا أو في غير العاقل أو بالأبداً يخلق علماً ضرورياً أصلاً؛ والأول باطل وإلا لكان العاقل عالماً بالله بالضرورة لأنه إذا كان عالماً بالضرورة بكون الله وضع كذا لكذا كان علمه بالله ضرورياً ولو كان كذلك لبطل التكليف والثاني باطل لأن غير العاقل لا يمكنه إنهاء تمام هذه الألفاظ والثالث باطل لأن العلم بها إذا لم يكن ضرورياً احتيج إلى توقيف آخر ولزم التسلسل. والجواب عن الأولى لا نسلم توقف التوقيف على البعثة؛ لجواز أن يخلق الله فيهم العلم الضروري بأن الألفاظ وضعت لكذا وكذا. وعن الثانية لم لا يجوز أن يخلق الله العلم الضروري في العقلاء أن واضعاً وضع تلك الألفاظ لتلك المعاني، وعلى هذا لا يكون العلم بالله ضرورياً؛ سلمناه لكن لم لا يجوز أن يكون الإله معلوم الوجود بالضرورة لبعض العقلاء؟ قوله "لبطل التكليف" قلنا: بالمعرفة أمّا بسائر التكليف فلا. وزعم الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني أن القدر الذي يدعوه به الإنسان غيره إلى التواضع يثبت توقيفاً، وما عدا ذلك يجوز أن يثبت بكل واحد من الطريقتين. أما المحققون فإنهم متفقون في الكل إلا في مذهب عباد، ودليل فسادِه أن اللفظ لو دل بالذات لفهم كل واحد منهم كل اللغات لعدم اختلاف الدلالات الذاتية واللازم باطل فالملزوم كذلك. قال القاضي أبو بكر: يجوز أن يثبت توقيفاً، ويجوز أن يثبت اصطلاحاً، ويجوز أن يثبت بعضه توقيفاً وبعضه اصطلاحاً، والكل ممكن. وعمدة القاضي أن الممكن هو الذي لو قدر موجوداً لم يعرض لوجوده محال؛ ويعلم أن هذه الوجوه لو قدرت لم يعرض من وجودها محال فوجب قطع القول بإمكانها. انظر: (المحصول ٢٤٧/١ - ٢٥٩) (المستصفى ١٨١) (إرشاد الفحول ٣٥ - ٣٧) (روضة الناظر ١٧١ - ١٧٢) (الإيهاج ١٩٨/١ - ٢٠٢) (التمهيد ١٣٧ - ١٣٨) (المزهر ١٦/١ - ٢٠).

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ اللَّسَانِ وَالْوَاوِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

قال الله سبحانه وله الحمد في حديثه الصدق عن رسوله ﷺ يوم آوى إلى الغار مع أبي بكر الصديق ﷺ: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فقال له: ﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ والمشار إليه بهذه العبارة أبو بكر ورسول الله ثانيهما، ولذلك قال ﷺ لأبي بكر لما قال له: «يا رسول الله - وأرجل القوم تبدو لهما في حال الطلب لهما - لو خفض أحدهم بصره لأبصرنا» قال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما»^(١) فهذا عبارة عن لزوم الولاية، وما شاع في عبارة اللغة فعن لزوم ولاية الخلقة، فكان ﷺ وتعالى علاؤه وشأنه مع رسول الله ﷺ وأبي بكر بولاية الخلقة والولاية العليا.

ألا تسمع إلى قوله العلي: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] فذكر اللات مقدمة وثنى بذكر العزى، ثم قال: ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ فجعلها ثالثة للثنتين المذكورتين قبل، ثم قال في مناة: إنها ثالثة أخرى؛ لبراءته، سبحانه وله الحمد منها ومن صاحبتها المذكورتين].

وهذه أوصاف الحق المخلوق به السماوات والأرض المتصل بالحق المبين، وهو المواجه العبد إذا صلى، وهو الذي تقع الصدقة في كفه قبل أن تقع في كف السائل، وهو الذي مع عبده إذا ذكره وما تحركت به شفتاه، ذلك بما هو الله جل ذكره لا إله إلا هو الرحمن الرحيم غرب فلا يُحس ولا يرى وقرب القرب كله، فكل شيء منه ملاً هو العلي الأعلى وعلى العرش استوى [هو الأحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن]^(٢).

﴿آلَآءُ أَوْلِيَآءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَتِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٣) ومسلم (٢٣٨١) والترمذي (٣٠٩٦) وابن سعد (١٧٣/٣) وابن أبي شيبة (٣١٩٢٩) وأحمد (١١) وابن حبان (٦٢٧٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٦﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٧﴾ أَلَا إِنَّكَ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٨﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٦].

أتبع هذا ما هو في معناه قوله جل قوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١) [يونس: ٦٢ - ٦٣] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٤] [المشار إليه بهذا المعنى المضمن في هذا الخطاب]^(٢) من وقع له طائره في قبضة اليمين [فقال فيه: «هذا للجنة وبعمل أهل الجنة يعمل»]^(٣) لقد عظم حظه وفاز [يومئذ]^(٤) فوزاً عظيماً.

قال رسول الله ﷺ: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه»^(٥) [وكان]^(٦) ما يأتي بعد من علم وإيمان وعمل فهو تبع لعلم الله جل وعز ومشيتته السابقة، يومئذ [فاز الفائزون وخسر الخاسرون]^(٧). ثم قال - جل قوله - [يعزيه]^(٨) في ضلالهم وتكذيبهم وعظيم افترائهم [وقبيح

(١) ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وفي إرشاد العقل السليم أنه بيان على وجه التبشير والوعد لما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغاية لما ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمناً على نبيه ﷺ وأمه في كل ما يأتون ويذرون، وإحاطة علمه جل وعلا بعد ما أشير إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة، وما سيعتريهم من الهول إشارة إجمالية على طريق التهديد والوعيد، وصدرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق؛ لزيادة تقرير مضمونها، والأولياء: جمع ولي، من الولي بمعنى القرب والدنو، يقال: تباعد بعد ولي؛ أي: قرب، والمراد بهم: خلص المؤمنين؛ لقربهم الروحاني منه سبحانه. تفسير الألوسي (٥٠/٨).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «المقول فيهم بقوله الصدق: هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون».

(٤) سقط من النسخة (ق).

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٣٠)، والديلمي (٢٥٩٤).

(٦) في النسخة (ق): «وكل».

(٧) في النسخة (ق): «ضحك أهل الضحك لأجل فوزهم وبكى أهل البكاء لأجل خسرهم».

(٨) في النسخة (ق): «تعزيه».

فعالهم وتهديدهم إياهم^(١): ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥] هو الذي لا يدركه أذى المفترين، ولا يضره ضلال الضالين، كما لا ينفعه طاعة المطيعين، هو السميع لمقاتلهم [العليم]^(٢) بجميع أعمالهم [يقول عز من قائل هذا سبق لهم في تقديرنا وعلمنا فيما لم يزل]^(٣).

ثم قال ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٦] وقد تقدم قوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥] ثم [أتبع ذلك]^(٤): ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩].

وقال جل قوله [هنا]^(٥): ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ والمراد منها: نفى الشفعاء والشركاء والأنداد المتخذة من دونه من يوصف بالعقل، كالملائكة وعيسى ابن مريم - عليه السلام - [والأول نفى]^(٦) الأصنام والأوثان والمعبودات من النيران والنيرات.

ثم قال جل قوله وقوله الحق: ﴿وَمَا يَتَّبِعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَبْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾^(٧) [يونس: ٦٦] إنما كانوا يقولون: ﴿هُؤُلَاءِ

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «العالم».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أتبعه بقوله».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «وفي الأولى هي».

(٧) المناسبة ظاهرة في هذه الآية لما ذكر أن العزة له تعالى وهي القهر والغلبة ذكر ما يناسب القهر؛ وهو كون المخلوقات ملكاً له تعالى، ومن الأصل فيها أن تكون للعلاء، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء بما كان تغليبا للكثرة؛ إذ أكثر المخلوقات لا تعقل. وقال الزمخشري: يعني: العقلاء المميزين، وهم الملائكة والثقلان، وإنما خصهم؛ ليوذن أن هؤلاء إذا كانوا له في ملكه فهم عبيد كلهم، لا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكاً فيها، فما دونهم مما لا يعقل أحق ألا يكون ندأ وشريكاً. تفسير البحر المحيط (٦/٣٣٥).

شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ ﴿يونس: ١٨﴾ وهو [تخرص]^(١) منهم وظن كاذب؛ إذ المشفوع عنده لم يأذن في ذلك ولا [وعدهم]^(٢) به.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنِّ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَرَ الْإِنْسَانِ مَرَجَّحُهُمْ ثُمَّ يُدْفِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿يونس: ٦٧ - ٧٠﴾.

ثم قال جل من قائل: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] الليل بضيقه وظلامه ووحشته والسكون فيه، والنوم آية على الموت بعد الحياة، [وهو أيضًا يعني الليل آية على جهنم]^(٣) والنهار بضيائه [وإشراقه]^(٤) والانتشار فيه واليقظة [والانبساط واتساع البصر وانكشاف المبصرات آية على الحياة، وجواز الإحياء بعد الموت، والليل أيضًا بما هو آية على إله باطل، والنهار بما هو آية على إله حق، والليل آية على الضلال والكفر والجهل]^(٥) والنهار بما هو آية على الهدى والإيمان والعلم، وقد مضى في تفسير آية البقرة مستقصى حسب الاستطاعة لذلك.

قال عز من قائل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧] وكان [سياق صفة]^(٦) السمع أولى من حيث إنه استجلب الشاهد على إبطال إله باطل

(١) في النسخة (ق): «تخرص».

(٢) في النسخة (ق): «وعد».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) ما بين [] به تقديم وتأخير واختلاف بين النسخ.

(٦) في النسخة (ق): «وصف سياقه».

[تقدم] ^(١) ذكر الليل الذي هو عليه آية في قوله جل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧] والسمع هو المتصرف في الظلام دون البصر؛ لهذه العلة كانت صلاة الليل جهرا.

﴿وَأَنذَرْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا تُوقَى إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِمَا يَأْتِي
 اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا
 إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ
 أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَفًا
 وَآخَرْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكِبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى
 قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ
 الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا
 وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى
 أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا
 عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْعُرُونَ
 بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا
 قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

[يونس: ٧١ - ٨١].

قوله ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَشْعُرُونَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩] إلى قوله جل قوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ...﴾ [يونس: ٨١] وفي حرف أبي عمرو: «السحر» على الاستفهام على سبيل التقرير، وقراءة الجماعة هي موافقة لما في سورة طه.

قوله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَالْقِيَامَةِ﴾

(١) في النسخة (ق): «افتقدم».

مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿طه: ٦٧-٦٩﴾ ومعنى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ أن عمله لا حقيقة له [فلا] ^(١) يفلح به خصماً [دنيا، ولا] ^(٢) في الآخرة حظ لذلك.

قال موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ^(٣) [يونس: ٨١] ولا يفلح الساحرون، ومحذوف هذا وأنا قد أفلحت بما جئت به، وهذا من التحدي بالآيات [ويخرج أيضاً قوله ﷻ: «ما جئتم به آسحر» على الاستفهام الذي بمعنى التقرير أنه قال ذلك لهم وقد أعلمه الله بما أعلمه قوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى * وَالَّتِي مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٨ - ٦٩] المعنى إلى آخره، فقال لهم ذلك على معنى التبليغ منذراً لهم محذراً ولعل ذلك مما نفعهم وأحسن عونهم على الإيمان والتبر؛ لأنه من التحدي] والإخبار عن المقدور الغائب قبل وقوعه [هذا إلى ما رأوه من التحقيق مجاز القول ما جئتم به هو السحر السحر هو ما جئتم به ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧] وقد أفلحت أنا بما جئت به وعليت أفلا تعقلون أتبع ذلك] ^(٤).

﴿وَيُحْيِ اللَّهُ الْحَيَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٨٢) ﴿فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِذْ ذَرَاهُ مِنَ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنْ فِرْعَوْنُ لَمَكَّ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ^(٨٣) ﴿وَقَالَ مُوسَى يُقَوْمُ إِنْ كُنْتُمْ آمِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ^(٨٤) ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٨٥) ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ^(٨٦) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُوْنَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا

(١) في النسخة (ق): «فهو لا».

(٢) في النسخة (ق): «خفياً ولا لهم».

(٣) أي: جنسهم على الإطلاق، فيدخل فيه السحرة دخولاً أولياً، ويجوز أن يراد بالمفسدين: المخاطبون، فيكون من وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعار بعله الحكم، والجملة تدبيل لتعليل ما قبلها وتأكيده، والمراد بعدم إصلاح ذلك: عدم إثباته، أو عدم تقويته بالتأييد الإلهي لا عدم جعل الفاسد صالحاً؛ لظهور أن ذلك مما لا يكون؛ أي: إنه سبحانه لا يثبت عمل المفسدين ولا يديمه، بل يزيله ويمحقه، أو لا يقويه ولا يؤيده، بل يظهر بطلانه ويجعله معلوماً. تفسير الألوسي (٨٤/٨).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ مَسِيلَ الَّذِينَ لَا يَمْلِكُونَ ﴿٨٩﴾ [يونس: ٨٢ - ٨٩].

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢] [إن المعهود جري العوائد وقضاء القضايا على أسباب لها معهوده فإذا قضى أمرًا على أسباب غير معهوده في تيسير أو قضاء بغير سبب معلوم فهو من المقدور وهذا مما تقدم ذكره من الإخبار عن الغائب الذي لم يقع^(١) إذا أحق الله الحق بكلماته لم يجر ذلك القضاء على سنة معهوده، بل هو أن يقول له: «كن كذلك».

قال جل ذكره: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤] [أي: من المعهود جري الأمور وقضاؤها]^(٢) على أسباب لها معهوده، فإذا قضى أمرًا على [سبب غير معهود]^(٣) في تيسير أو قضاء بغير سبب معلوم، فهو من المقدور الغائب، وذلك هو المقضي بكلمة الله فافهم.

قوله جل ذكره: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] الإيمان أولاً ثم العمل بالمفروض فذلك الإسلام ثم التوكل، وهو من عمل الإسلام بمشاركة الإيمان فيه أما حظ الإيمان فيه فالعلم بأن فعل الله لا يفعله سوى الله، وأن [ما]^(٤) سوى الله عباد مملوكون لا يملكون [ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا ولما حظ]^(٥) الإسلام فيه فترك التصرف في أكثر الأسباب لأجل العلم الذي وقر في القلب.

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «إن من المعهود جري العوائد وقضاء القضايا».

(٣) في النسخة (ق): «أسباب غير معهودة».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «دفعًا ولا نفعًا وأما حظ».

فصل

من التوكل ما هو فرض، ومنه ما هو فضيلة، ومنه ما هو مباح، ومنه ما هو مكروه، ومنه [أيضاً]^(١) ما هو حرام.

أما ما هو منه فريضة: فهو إذا تقدم الإيمان والعمل فالتوكل على الله ﷻ في الوفاء بوعدته [بمثال]^(٢) الثواب فريضة.

قال الله ﷻ: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفًا وَعْدِهِ رُسُلُهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧] [وهو كثير]^(٣).

وأما ما هو منه فضيلة: فالتوكل على الله جل ذكره في ترك بعض الأسباب، [لا سيما]^(٤) الأسباب التي توصف ببعض البعد عن [مثال]^(٥) المطلوب، وكلما بعد السبب عن [مثال] المطلوب في الأغلب فالسعي في ذلك داخل في خبر المكروه [واتباع ذلك إشغال للقلوب عن العمل للأخرة وترك ما هو الأولى]^(٦).

وأما هو منه حرام: فهو أن يترك العمل الذي أمره الله به اتكالاً على ما سبق له في الأزل، فإن تركه للعمل [بما أمره الله به من طاعته هو من علامات شقائه السابق له في الأزل؛ إذ كل يسعى فيما سبق له]^(٧).

[قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعني: بيوتهم التي كتب الله لهم في الأرض المقدسة، وهو بيت المقدس وغيره بيوت الله فيها، ثم قال عز من قائل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧] هذا مصداق لقول رسول الله ﷺ: «الصلاة إلى الصلاة

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «بمثال».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «وهي».

(٥) في النسخة (ق): «مثال».

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «بطاعة الله أمانة على شقائه السابق في الأزل إذ كل يسعى فيما سبق له».

كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما»^(١) وقوله: «من صلى ركعتين مقبلاً عليهما بوجهه وقلبه غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

والأظهر في معنى هذه الآية أن قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ خطاب مستأنف المخاطب به ﷺ ليسر المؤمنين من أمته بما بلغه إليها عن ربه عز جلاله في قوله: «إذا توضأ العبد المؤمن فتمضمض خرجت الخطايا من فيه، ثم إذا استنشر خرجت الخطايا من أنفه، ثم إذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من أسفار عينيه»^(٣).

وذكر مثل ذلك في الذراعين والرأس والقدمين، ثم يخرج نقياً من الذنوب، وكان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له، وفي أخرى قال عند تمام الوضوء: «ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء»^(٤) فهذا من معنى ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كما قال ﷺ في آخر الآية من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إلى قوله جل قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨] فهذه زيادته، إن ربنا لغفور شكور، والحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾^(٥) [يونس: ٨٨] هذا دعاء على فرعون وقومه بألا يؤمنوا بالله ويموتوا

(١) أخرجه أحمد (٧١٢٩) والحاكم (٤١٢) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٦٢٠) وإسحاق بن راهويه (٤٣٥).

(٢) أخرجه بنحوه أبو داود (١٢٧٧)، والحاكم (٥٨٤)، والبيهقي (٤١٧٩).

(٣) أخرجه مالك (٦٠)، وأحمد (٩٠٩١)، والنسائي (١٠٣)، وابن ماجه (٢٨٢)، والحاكم (٤٤٦) وقال: صحيح. والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٣٤)، والنسائي في «الكبرى» (٣٨٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) لَمَّا بَالِغُ مُوسَى فِي إِظْهَارِ الْمَعْجَزَاتِ، وَرَأَى الْقَوْمَ مُصْرِينَ عَلَى الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ دَعَا عَلَيْهِمْ، وَمِنْ حَقِّ مَنْ يَدْعُو عَلَى الْغَيْرِ أَنْ يَذْكَرَ سَبَبَ جَرَمِهِ، وَجَرَمُهُمْ كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا، فَلَأْجَلُهُ تَرَكُوا الدِّينَ؛ فَلِهَذَا قَالَ ﷺ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والزينة عبارة عن: الصحة، والجمال، واللباس، والدواب، وأثاث البيت، والمال ما يزيد على هذه الأشياء من الضامات والناتقات. تفسير الباب لابن عادل (٣٢/٩).

كفارًا، وهذا خلاف المعهود من رافة الرسل والأئمة، فمن احتج بدعوة نوح عليه السلام على قومه؛ إذ قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦] فقد كان أعلمه عز جلاله بأنهم لا يؤمنون بقوله: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فدعا عليهم؛ إذ قد يأس من إيمانهم [بالكلية] ويقول تعالى: ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧].

وقال نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيَارًا﴾ [نوح: ٢٦].

وقد جاء عن نوح عليه السلام: إنه يعتذر يوم القيامة لأهل المحشر في ترك الإقدام على الشفاعة لأهل الجمع بدعوته على قومه، وبذبه لهم وتبرئتهم من ذلك! وكيف هذا وقد جاء المدح من الله تعالى لنوح وموسى وهارون في دعائهم ذلك، وهم لا ينطقون عن الهوى، كيف لا وإنما استاق عليه السلام ذلك عن نوح وموسى وهارون - صلوات الله وسلامه عليهم - في معرض المدح لهم والرضا بما فعلوه من ذلك، وقال موسى لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] ففي هذا رجاء منه أن يهلك الله عدوهم فرعون وأتباعه، فيهلكهم الله، وهم عدو له وللمؤمنين، ومنه يتخرج - أعني: دعاء الرسل على قومهم الذين يئسوا من إيمانهم [.... الملائكة] ^(١) فالشفاعة فيما أذن لهم فيه بأن يتمه.

وقال جل قوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] إلى قوله جل قوله: ﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦] وقال لهما: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] ثم أذن لهما في الدعاء عليه، كالشفاعة فيما أذن الله جل ذكره في فعله.

وقال عز من قائل: ﴿وَأَوْحِي إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٦ - ٣٧] المعنى: فقيض عبده ورسوله فيما قدره أن يتمه ^(٢).

(١) ليس في (ف) وبياض في (غ).

(٢) ما بين [] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

فصل

إنه لا يؤهل للشفاعه في عباد الله في الآخرة إلا من دعا لهم ونصحهم في الدنيا، ومن دعا عليهم مُنِع ذلك، لا سيما الشفاعه العليا، [ولا^(١)] يستحق درجة الوسيلة [العظمى]^(٢) فيما هنالك إلا من وسل بين الله وبين عباده [في الدنيا]^(٣) وأصلح بينهم، وعدل فيهم ونصح ودعا لهم، دل على ذلك قول رسول الله ﷺ: «اللَّعَانُونَ لَا يَكُونُونَ شَفْعَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤).

ورجم رسول الله ﷺ ماعزًا، ثم لم يُصَلَّ عليه، وأبقى ذلك في أمته سنة، ولا يصلي الإمام على من قتله في حد من حدود الله آية على هذا المعنى، وتنبئها على [حكمه، ألا ترى أن]^(٥) رسول الله ﷺ في ماعز «لقد تاب توبة لو قسمت [بين]^(٦) أهل المدينة لكفتهم»^(٧) [وفي أخرى: «إنه لينغمس في أنهار الجنة»]^(٨) ومع هذا من علمه [به]^(٩) فقد ترك الشفاعه له في الدنيا والصلاة عليه من أجل أنه قتله في حد من حدود الله.

وإلى هذا ففي قول الله - جل ثناؤه - لموسى وهارون: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: على سبيل أولي العزم من الرسل، ولا [تستعجلوا]^(١٠) بالعذاب على أحد ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] يعني والله أعلم بما ينزل: الذين لا يعلمون صدق أسماء الله ومضاء صفاته من عفوه ومغفرته وحلمه وأناته

(١) في النسخة (ق): «بل لا».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) سقط من النسخة (ق).

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٩٨)، وإسحاق بن راهويه (٣).

(٥) في النسخة (ق): «حكمة الله في ذلك وقد قال».

(٦) في النسخة (ق): «على».

(٧) أخرجه بنحوه أبو داود (٤٣٧٩)، والترمذي (١٤٥٤) وقال: حسن غريب صحيح.

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٣٢٨).

(٩) في النسخة (ق): «بهما».

(١٠) في النسخة (ق): «تستعجلوا».

وإمهاله لعباده، وقرأها الضحاك: «[قد أجيت]»^(١) دعواتكما»^(٢) بالجمع، وأبو عبد الرحمن قرأ بذلك، وفيه تعريض بالتوصية لهما بما تقدم.

[وكون هذا المعنى منزلاً من عند الله في معرض الرضا بذلك عن موسى عليه السلام يعلم بأن الله قد كان أعلمه وأخاه هارون عليه السلام بإهلاكه فرعون وقومه، كقوله جل من قائل: ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] وقوله هو عليه السلام له: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] أي: مهلكاً، ونحو هذا من إعلام الله رسله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]]^(٣).

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٠) أَلَكِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ قَالِ يَوْمَ تَنْجِيكَ يَدُوكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صَدَقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿١٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا اللَّهُ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ [يونس: ٩٠ - ٩٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ [وقالها]^(٤) الحسن: «فأتبعهم» بوصل الألف وتشديد التاء، ورويت عنه بقطع الألف، وقرأها الحسن وأبو رجاء: «بغياً وعدوا» بضم العين والواو مثقلة ﴿حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْعَوْنُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

(١) زيادة في النسخة (ق).

(٢) انظر: زاد المسير لابن الجوزي (٣/٣٠٦).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أي: أتبعهم جنوده وأنصاره وآله، وقرأها».

يقول الله جل من قائل: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١) [يونس: ٩١] ظاهر قوله: ﴿الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ كقوله: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ أَمَنْتُمْ بِهِ الْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١] أي: الآن أمتتم حين لا ينفعكم الإيمان [عند وقوع العذاب]^(٢) وقد كنتم حال المهل والعافية بالعذاب تستعجلون، أو يكون قوله لما لم يستطع إظهار الاسم [فيقول: «أمنت»]^(٣) أنه لا إله إلا الله [وأن موسى رسول الله]^(٤) بل قال: ﴿أَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وذلك يدل [منه]^(٥) على ضغن وعداوة [عتيدة]^(٦) مستصعبة لفؤاده، فكان لعدم [المنة]^(٧) ووجدان الضغن لا يحتمل [ذكره وحال]^(٨) الضرورة لم يتركه والكبر فذلك الذي منع لسانه من [البوح]^(٩) بذكره جل ذكره فاستمر على العادة من مقتضى حالته المعهودة.

[في هذا من الفقه أن قول الله جل ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] وأمره بالذكر الكثير إنه التكرار مع حضور القلب حال الذكر ومشاهدة ذلك، هذا ما لا خفاء به إن شاء الله تعالى.

ثم إن كثرة الذكر أيضاً قد تكون ملازمة الذكر بالتكرار بعد التكرار، فذلك يورث اللهج بذكر المذكور، منه قول الرسول ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد مائة مرة فله كذا، ومن قال: سبحان الله كذا فله كذا،

(١) هو مقول قول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ آمَنْتُ﴾ أي: فقليل له: أتؤمن الآن؟ وقد اختلف من القائل لفرعون بهذه المقالة؟ فقليل: هي من قول الله سبحانه. وقيل: من قول جبريل. وقيل: من قول ميكائيل. وقيل: من قول فرعون، قال ذلك في نفسه لنفسه. فتح القدير (٤١٠/٣).

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الكريم فقال مكان قوله».

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

(٦) في النسخة (ق): «عنيدة».

(٧) في النسخة (ق): «المقة».

(٨) في النسخة (ق): «الذكر حال».

(٩) في النسخة (ق): «اللهج».

ومن قرأ مائة آية من كتاب الله إلى ألف آية أصبح وله قنطار من الأجر، القيروط من مثل جبل أحد»^(١) ونحو هذا من الترغيب في الذكر وتكثير العمل لما في ذلك من الدلالة على ابتهاج القلب ولهج اللسان بحب المذكور وذكره، فمتى اتصل لهج اللسان وفرح القلب وابتهاجه بالحب فذلك الإتمام إن شاء الله ﷻ، وإلا فلهج اللسان أيضًا أمر مبلغ والحمد لله، وذلك إذا كان ابتداء الذكر بتجديد نية وعزم على تحقيق في ذلك، فإن للنية في أول العمل روح تصحب العمل بركته، فكيف إن كانت النية مع الذكر مقرنين معًا؟^(٢).

[فمعنى قول الله جل ثناؤه: ﴿الآن﴾ أي: في حالك هذا لا تحتمل ذكرى، ولا تفوه باسمي وقد عصيت قبل؛ أي: إنك أضفت إلى حالتك تلك هذه كما يقول القائل: «كيدًا وأنت في الحديد» وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين، فلو كنت قبل على غير ذلك لاحتمل ذلك منك، وخرجت كلمتك هذه عن معهود إيمانك وصحيح ودك، لكنه قالها على حالها، وعلى ما كان عليه من رؤية العذاب.

ومن سنة الله جل ذكره في عباده: إنهم متى رأوا العذاب لا يقبل توبتهم إذ قد ردوا عليه أمره وأعرضوا عن تذكيره إياهم، وكذبوا رسله إليهم، فحكمة أن يطع على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فيؤمنوا، فلا ينفعهم إذ ذاك إيمانهم، وأكثر الأمم سوى فرعون إنما دعواهم التلاؤم والقول: ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤] ونحو هذا من القول]^(٣).

ولما قصد فرعون إلى الكلمة وتكلم بها على علاتها منه لم يضيعها له، ولقد كادت أن تنفعه لولا ما سبق له [الذي ظهر من كفره وفساده وإخراج الشهادات على ما هي عليه]^(٤) ظهر ذلك بقول جبريل عليه السلام جاء عنه - والله أعلم - أنه قال: «لو رأيته وأنا آخذ [من]^(٥) حال البحر فأملأ به فاه خشية أن تدركه رحمة الله».

(١) لم أقف عليه هكذا.

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) ما بين [] يوجد به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) زيادة في النسخة (ق).

فسبحان الله [وله الحمد]^(١) ما أوفاه بعهدده، ما فعل ذلك جبريل عليه السلام إلا بأمر ربه ﷻ، [ولا حرمه رحمته إلا بعدله، وبما]^(٢) سبق له في علي علم الله أنه عامله. يقول الله جل ثناؤه: ﴿قَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِدَنِكَ﴾^(٣) [يونس: ٩٢] لو كانت شهادته تلك في وقتها وعلى حقيقتها المقة وحسن النية وصحيح التوبة من قرار نفسه لإنجاءه وأتباعه من عذابه، ولما كانت في غير وقتها وعلى علاتها نجاه ببدنه فقط؛ ليجعله [لنا]^(٤) آية على أن الشهادة بهذه الكلمة المباركة عنده في غاية القبول [عنده]^(٥)، فانظر إليها لما كانت شهادته ميتة نجاه الله بها ميتاً، ولو كانت حية لنجاه [بها]^(٦) حياً، لا جعلنا الله عن آياته من الغافلين ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٧) [الأعراف: ٦٩].

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «ولا حرص على منعه ورحمة ربه إلا بعدل الله وربما».

(٣) وهي عبارة لم يأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن؛ إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي، والظاهر أن الأمواج أَلْقَتْ جِثَّةً على الساحل الغربي من البحر الأحمر فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقوا بعده بمدينة مصر لما استبطأوا رجوعه ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة، وكان عبرة لهم. التحرير والتنوير (٦٤/٧).

(٤) في النسخة (ق): «لمن خلفه».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) قال القرطبي في «تفسيره»: فيه ثلاث مسائل: الأولى: قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فيه محذوف، أي: بوأكم في الأرض منازل ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور بكل موضع، ﴿وَتُنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ اتخذوا البيوت في الجبال لطول أعمارهم، فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم، وقرأ الحسن بفتح الحاء، وهي لغة، وفيه حرف من حروف الحلق فلذلك جاء على فعل يفعل. الثانية: استدل بهذه الآية من أجاز البناء الرفيع كالقصور ونحوها، وبقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ذكر أن ابنا لمحمد بن سيرين بنى داراً وأنفق فيها مالاً كثيراً فذكر ذلك لمحمد بن سيرين فقال: ما أرى بأساً أن يبني الرجل بناء ينفعه، وروي أنه ﷺ قال: «إذا أنعم الله على عبد أحب أن يرى أثر النعمة عليه»، ومن آثار النعمة البناء الحسن، والثياب الحسنة، ألا ترى أنه إذا اشترى جارية جميلة بمال عظيم فإنه يجوز وقد يكفيه دون ذلك، فكذلك البناء، وكره ذلك آخرون، منهم الحسن البصري وغيره، واحتجوا بقوله ﷺ: «إذا

كذلك وهو أعلم قال: ﴿وَلَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢] أي: عن آياتنا [في] ^(١) فضيلة شهادة أن لا إله إلا الله على الخصوص والعموم وعن كل آياته.

[قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر قوله: لا إله إلا الله، دخل الجنة»] ^(٢).
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صَدِيقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣] [بغياً] ^(٣) ينبغي أن يستشعر العبد خشية الله جل ذكره مع العلم أكثر من المحافظة على ذلك مع الخلو من بعض العلم، [فإنه ما] ^(٤) هلك من هلك [من كان قبل] ^(٥) إلا من بعد العلم، وعند تناهي الأمور يبدأوا نقصانها رجوعاً إلى أوائلها [والله يحكم لا معقب لحكمه وتلك من آياته إنه يهدي بما به يضل ويضل بما به يهدي ويميت بما به يحيي ويحيي بما به يميت وهو على كل شيء قدير] ^(٦).

قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] لم يؤهل ﷻ لشك يقدر في قلبه كيف وقد أزاح عنه حظ

أراد الله بعبد شراً أهلك ماله في الطين واللين»، وفي خبر آخر عنه أنه ﷺ قال: «من بنى فوق ما يكفيه جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه»، قلت: بهذا أقول، لقول ﷻ: «وما أنفق المؤمن من نفقة فإن خلفها على الله عز وجل إلا ما كان في بنيان أو معصية» رواه جابر بن عبد الله وخرجه الدارقطني، وقوله ﷻ: «ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء» أخرجه الترمذي.
الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه، وهذا يدل على أن الكفار منعم عليهم.

- (١) في النسخة (ق): «على».
- (٢) في النسخة (ق): «للمن خلفه».
- (٣) سقط من النسخة (ق).
- (٤) في النسخة (ق): «فإن الله يأخذ بالعلم والجهل، وليس إلى العلم شيء، والهداية فعل الله لا يفعل فعل الله إلا الله ﷻ، وما».
- (٥) في النسخة (ق): «ممن كان قبلنا».
- (٦) زيادة في النسخة (ق).

الشيطان وأخرجه من قلبه [في أصل الإيمان بما أنزل إليه]^(١) وإنما يأتي الوحي إلى النبي والرسول [مفروغاً منه تاماً بيقينه معه]^(٢) ويقين كل امرئ على قدر منزلته. وشكه هو الظن على ذلك دقيق، هو أرفع قدرًا في تثبيت العلم من يقين أرفعنا درجة.

وإنما يسمى شكًا لنزوله عن درجة يقينه هو، وإلا فهو العلم، وإنما يخاطب كل امرئ على درجته، وقوله جل قوله: ﴿فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَظُنُّونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] لم يرد اليهود [والنصارى]^(٣)، وإنما أراد الأنبياء والرسل والكتب [ومن]^(٤) قبله، وكيف يأمره بأن يسألهم ويستفتيهم فيما [جال]^(٥) في نفسه وهو ينهائهم ويأمره [بالبدأة]^(٦) منهم، ويخبره بأنهم قد بدلوا ما [جاءهم]^(٧) وحرفوه، وبأنهم ﴿يَكْتُوبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] وبأنهم ﴿يَلُزُّونَ الْأَسْتِثْمَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

[ويقول رسول الله ﷺ]^(٨): «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم» ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦]^(٩) وإنما أمره ﷺ أن يسأل الرسل والأنبياء قبله بأن ينظر فيما بلغوه قومهم، وما أمروهم به عن ربهم عز جلاله، ولذلك قال جل قوله: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) في النسخة (ق): «مقروناً بيقينه مفروغاً منه».

(٣) في النسخة (ق): «ولا النصارى».

(٤) في النسخة (ق): «المنزلة».

(٥) في النسخة (ق): «حاك».

(٦) في النسخة (ق): «بالبرأة».

(٧) في النسخة (ق): «أنزل إليهم».

(٨) في النسخة (ق): «ورسول الله يقول لأصحابه».

(٩) أخرجه البخاري (٤٢١٥) والسنائي في «الكبرى» (١١٣٨٧) والبيهقي (٢٠٤٠٢).

وقال له جل قوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤] إلى قوله جل قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] هذا معنى الآية، ومعنى [أَنْ] ^(١) جاءوا به لذلك ختم الآية بقوله الحق: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۗ﴾ ﴿٧٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَفَعَّعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۚ﴾ ﴿٧٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۚ﴾ ﴿٧٩﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَجَعَلَ الْخَيْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۚ﴾ ﴿٨٠﴾ [يونس: ٩٦ - ١٠٠].

قوله ﴿﴾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧] [سبقت لهم من الله جل ذكره أن يكونوا ممن قال الله فيهم: «هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»] ^(٢) ^(٣) نعوذ بالله من شر ما سبق لا يكون منه إيمان أبداً حتى يعاين العذاب، فحينئذ يؤمن، ثم لا ينفعه إيمانه ولو [أنه] ^(٤) آمن فيما قبل ذلك لارتد بعد إيمانه، فإن ذلك من مقتضى قوله: «وبعمل أهل النار يعملون» ^(٥) كما قال عز من قائل: ﴿وَلَوْ أَسْمَعُهمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَفَعَّعَهَا إِيْمَانُهَا﴾ [يونس: ٩٨] قالوا:

(١) في النسخة (ق): «ما».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) ما بين [] به اختلاف ألفاظ بين النسخ.

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) تقدم تخريجه.

«لولا» بمعنى: «هلا» وقيل [أيضاً: إنها]^(١) بمعنى «لم» وقرأها أبي: «فهلا كانت» يقول - وهو أعلم - على تأويل «هلا»: فهلا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها؛ أي: حين ينفعها إيمانها، وإنما هي ثلاثة أحيان: وقت مجيء الرسول، والمصارعة إليه هي السبق وهم السابقون.

والحين الثاني: هو حين يؤخذون بالبأساء والضراء كما قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾ [كما قال عز من قائل]^(٢): ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ * ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] ففي هذا [يحين الأجل]^(٣) الثاني إن آمنوا نفعهم إيمانهم، وقلما يؤمن أحد على ذلك؛ لأن عقوبة الإعراض قد حاقت بهم، [وهو الطبع]^(٤).

يقول جل من قائل: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ [وهنا محذوف يعقد عليه الاستثناء في قوله جل قوله]^(٥): ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُونُسُ﴾ [أي]^(٦): فلم يكن ذلك لقرية إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا بعد الإعراض والتكذيب حين [داولتهم]^(٧) البأساء والضراء فنفعهم [في]^(٨) ذلك الإيمان وكثير ما يمنعون التوبة بعد الإعراض والتكذيب.

[يقول]^(٩): فلم يك من وفق للتوبة [بعد الإعراض]^(١٠) إلا قوم يونس ﴿لَمَّا

(١) في النسخة (ق): «هي».

(٢) سقط من النسخة (ق).

(٣) في النسخة (ق): «الحين».

(٤) في النسخة (ق): «والطبع قد قرب حكمه منهم إلا ما شاء الله».

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) زيادة في النسخة (ق).

(٧) في النسخة (ق): «تداولتهم».

(٨) سقط من النسخة (ق).

(٩) في النسخة (ق): «فمعنى قوله هذا».

(١٠) زيادة في النسخة (ق).

آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ ﴿١﴾ [الهلاك] ^(٢) ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] وإنما الإيمان حين نزول العذاب، ومعاينة أعلام الآخرة كالحجر المحجور دون القبول، والسد المسدود دون الغتبي ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

وقد ذكر أهل التفسير إيمان هؤلاء [حين رأوا العذاب] ^(٣) وتضرعهم وكيف تداركهم الله، ويمكن أن يكون الحق فيما قالوه ما خلا ما ذكره [من أن ذلك عند] ^(٤) المعاينة للعذاب المهلك، وهذا فليس يعطيه حقيقة الخطاب ولا الوجود الذي هو سنن الله في عباده.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾
 ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنْ
 الْمُنْتَظَرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ
 يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي
 يَتَوَفَّنَكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ

(١) اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هنا في بيان شبهات الكفار في إنكار النبوة والجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب على الكفار وبعد اتباعه أن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم، ثم إن الكفار ما رأوا ذلك؛ فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته وكانوا يبالغون في استعجال العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله تعالى بين أن تأخير الموعد به لا يقدح في صحة الوعد، ومن ثم ضرب لهذا أمثلة، وهي قصة نوح ﷺ وموسى ﷺ إلى ها هنا، ثم في هذه الآية بين أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل في الجواب عن شبهات لا يفيد؛ لأن الإيمان لا يحصل إلا بخلق الله ومشيتته وإرشاده وهدايته إذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان. تفسير اللباب لابن عادل (٤٧/٩).

(٢) في النسخة (ق): «أي: الهلاك والهون».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) في النسخة (ق): «أن ذلك كان عند».

﴿١٠٩﴾ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَلَئِنْ يُرِيدَ بِدُخَانٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ [يونس: ١٠١ - ١٠٩].

قوله ﷻ: ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [أي: من آية] ^(١) ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ [أي: الرسل] ^(٢) ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] كل ما في الأرض والسماء من جماد ونبات وحيوان، وإنس وجان، ورياح وسحاب وماء، وأفلاك ونجوم، وليل ونهار، وخلق وأمر يشهد بفطرته، وتعرب عما جعل عليه آية، لكنها أمرت ألا تؤدي شهادتها إلا عند من آمن بها وعند من استشهدها، ولا تكلم إلا من جاورها وقدم الإيمان قبل نظره فيها، وتصديقها [في تبليغها] ^(٣) عن ربها قبل تكليمه إياها لذلك وهو أعلم.

قال جلّ قوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وكذلك فلو [أنهم] ^(٤) ساروا في الأرض، وتسمعوا للسائرين فيها، فيرون الديار العافية والمساكن البالية [آثارًا للقرون الخالية] ^(٥) والأمم الماضية كيف أهلكوا دونها، وأخرجوا عنها ولم يهلكوا وأخرجوا عنها وإلى ما آله إليه أمرهم الآن حيث هم لبغت إليهم أنفسهم، وأعلم بما آله إليه أمرهم، ولو وقفوا بالفهم السليم على المعنى بقول الله جلّ ثناؤه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا...﴾ [الأعراف: ١٠٠] لذلك - وهو أعلم - أعقب [ما تقدم قوله] ^(٦) جلّ قوله: ﴿فَهَلْ

(١) سقط من النسخة (ق).

(٢) زيادة في النسخة (ق).

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) زيادة في النسخة (ق).

(٥) في النسخة (ق): «الخالية الخاوية آثارًا للقرون السالفة».

(٦) في النسخة (ق): بقوله.

يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ مِثْلَمَا نَزَلَ بِهِمْ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢] كل مثلين، [فإن هذا واحد منهما يحل به ما حل بصاحبه، ويجوز عليه ما جاز عليه]^(١) من حيث تماثلا أو تقاربا أو تباعدا.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] أي: [إذا حل بهم ما ينتظرونه]^(٢) ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا هو وعد الله الحق للذين آمنوا مع رسلهم، إنما يستحق الصالح [بعد ذهاب الرسول]^(٣) أن يناله في بعض المواطن ما نال الطالح من أجل كونه مع أهل الفسق ومقامه في محلهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»^(٤).

وقال: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»^(٥).

وقال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

[كما قال في الذين هم مع رسوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٦) [الأنفال: ٣٣]^(٧).

(١) في النسخة (ق): «فإنه يجوز على أحدهما ما جاز على مماثله من حيث».

(٢) في النسخة (ق): «في الدار الآخرة نعذب الكافرين وننجي المؤمنين يقول عز من قائل: فإذا أحل بكم ما تنتظرونه».

(٣) زيادة في النسخة (ق).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

(٦) لم يجيء التركيب وما كان الله ليمطر أوليائي بعذاب وتقييد نفي العذاب بكيونة الرسول فيهم إعلام بأنه إذا لم يكن فيهم وفارقهم عذبهم ولكنه لم يعذبهم إكراماً له مع كونهم بصد من يعذب لتكذيبهم، قال ابن عطية: عن أبي زيد: سمعت من العرب من يقول: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بفتح اللام وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن وبفتح اللام في «ليعذبهم» قرأ أبو السماك وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالفتح في لام الأمر في قوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ وروى ابن مجاهد عن أبي زيد أن من العرب من يفتح كل لام إلا في نحو: الحمد لله يعني لام الجز إذا دخلت على الظاهر أو على ياء المتكلم والظرفية في فيهم مجاز والمعنى: وأنت مقيم بينهم غير راجل عنهم.

(٧) زيادة في النسخة (ق).

[قال ﷺ^(١): «يردون موردًا واحدًا ويصدرون مصادر شتى»^(٢) وفي [أقوال]^(٣):
«يحشرون على نياتهم»^(٤).

وتمام هذه الكلمة قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ في الآخرة ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] [أي: أحكام القيامة]^(٥)؛ لذلك - وهو أعلم - أدخل كاف التشبيه، المشبه به [هو حكم الآخرة، ولما بيّنه قال: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾]^(٦) وموجودات الدنيا آيات على موجودات الآخرة.

(١) في النسخة (ق): «وقال في المهلكين من أهل الفسق».

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) في النسخة (ق): «أخرى».

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) سقط من النسخة (ق).

(٦) سقط من النسخة (ق).

فهرس المحتويات

تفسير سورة النساء	٣
تفسير سورة المائدة	١٤٥
تفسير سورة الأنعام	١٩٤
فصل هذا هو المأ الأعلى	٢٤٧
تفسير سورة الأعراف	٢٩٦
فصل في نفي التشبيه والتمثيل	٤١١
تفسير سورة الأنفال	٤٢٩
تفسير سورة براءة التوبة	٤٦٧
تفسير سورة يونس عليه السلام	٤٩١
فهرس المحتويات	٥٥٧